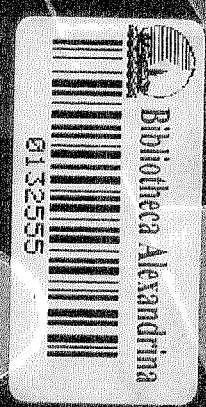


مقدمة
في
الخطب النبوية
الشرابية

تأليف
الدكتور
محمد الشرباصي

الجزء الأول

دار الحديث - بيروت



Bibliotheca Alexandrina
0132555

الموسوعة الشراعية
في
الخطب المنبرية

الموسوعة الشريافية
في
الخطب المنبرية

الدكتور أحمد الشريافي

المجلد الأول

دار الحديث

ص. ب. ٨٧٣٧ - ت. ٢٦٦١٥٨
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم
سيدنا محمد وعلى آله وصحابه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .
واستفتح بالذي هو خير « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك
المصير » . « ربنا هيء لنا من أمرنا رشداً » .

قبس من كتاب الله

﴿ وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا

وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

« سورة فصلت »

تقديم

كان الدكتور أحمد الشرباصي رحمه الله حركة لا تهدأ ، فهو إما أن يكون خطيباً في محفل ، أو محاضراً في جامعة ، أو راحلاً للدعوة في قطر ناء ، أو مؤلفاً يكتب للناس خلاصة أفكاره . وأحد هذه الميادين كفيلة بتشريف صاحبها وإحلاله المحل اللائق بين القادة المجاهدين والدعاة المخلصين . فكيف بها إذا اجتمعت في شخص واحد ، لتصور حركة قوية ذات اتجاهات مختلفة لرجل المنبر والعلم والرحلة واللسان المبين ، ومؤلفاته خير شاهد على ذلك ، إذ ظهرت للرجل الداعية مؤلفات كثيرة يستمد معظمها مدده من القرآن الكريم ، وبهذه المؤلفات التي زادت على مائة مؤلف قدم أستاذنا الدكتور الشرباصي رحمه الله خدمات للإسلام والمسلمين في شتى المجالات فما ألفه في مجال الدعوة الإسلامية كتابه « التربية الدينية » و كتابه « عودة الإسلام » و كتابه « الدين والمجتمع » و كتابه « توجيه الرسول للحياة والأحياء » و كتابه « يسألونك في الدين والحياة » في سبع مجلدات أجاب فيها عن كل ما يهم المسلم معرفته في القضايا المختلفة ، و كتابه « أسماء الله الحسنى » .

ومما أخرجه في مجال الدراسات الأدبية كتابه « ملامح أدبية » و كتابه « المقصورة في الأدب العربي » و كتابه « الشاعر سليل المحمدين » و كتابه « أمير البيان شكيب أرسلان » .

ومن منطلق أن الدين جاء ليسعد الناس في دنياهم وفي آخرهم وضع كتابه « الدين والحياة » و كتابه « بين الدين والدنيا » داعياً فيه إلى حسن الجمع بين الدين والدنيا حيث يقول : « الدين شريعة مجيدة تنظم خطوات الإنسان في

هذا الكون وتهديه إلى سواء السبيل ، ليقوى ويهنا ويسعد ، ويكون في نفسه صالحاً ولغيره مصلحاً ، وبالقيم الفاضلة والمثل العليا متمسكاً ومهتدياً ، وترسم له الطريق السوي إلى نعيم الدار الآخرة باستقامة العقيدة ، وصدق العبادة وإخلاص الدين لله عز وجل ، وبهذا الجمع الحكيم بين العمل للدنيا الفاضلة المؤمنة القوية العادلة ، والعمل المخلص للآخرة التي هي دار البقاء وعالم الخلود يكون المؤمن قد حقق العبادة لله كاملة . ومن هذا المنطلق نفسه دعا رحمة الله إلى ربط الفن بالدين ووضع في هذا المجال عدة مسرحيات إسلامية وكان يردد دائماً كلمته « إذا تفنن رجل الدين وتدين رجل الفن التقيا في منتصف الطريق لخدمة العقيدة الصحيحة والفن السليم » كما دعا إلى رفع مستوى المعيشة وزيادة الإنتاج وفي هذا المجال وضع كتابه « الإسلام والتنمية » وكتاب « الإسلام والاقتصاد » . وفي المجال القومي وضع كتابه « حب الوطن في نظر الدين » وكتاب « واجب الشاب العربي » وكتاب « من أجل فلسطين » وكتاب « وسائل تقدم المسلمين » داعياً إلى الوحدة العربية كوسيلة للوحدة الإسلامية الكبرى ومنبهاً على أن عزة العرب في وحدتهم وقوة الإسلام في تقدمهم ولذلك كان يردد دائماً كلمته « العروبة وعاء الإسلام والإسلام روح العروبة » .

وهكذا نرى شيخنا الجليل لم يقف عند مجال بعينه بل طوف بشتى المجالات موجهاً و عياً إلى الخير والصلاح . وبهذا نستطيع القول بأنه كان يتميز بالموسوعية الشاملة التي تصورها أصدق تصوير خطبه المنبرية فقد عشق المنبر منذ صباه وظل يدعو إلى الله على بصيرة من فوق منبر الجمعة أكثر من أربعين عاماً إلى أن لقي ربه في الرابع من شهر شوال سنة ١٤٠٠ هـ وفي الرابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٨٠ م وكانت خطبه مرآة صادقة لما حوى الإسلام من معرفة سالحة وتربية واعية .

ومن كياسة شيخنا الدكتور الشرباصي وفطنته أنه كان يكتب كل خطبة يلقيها من فوق المنبر مسجلاً عليها تاريخ الإلقاء ، فتكونت لديه ثروة هائلة من الخطب المنبرية التي تعالج كثيراً من أمور الدين وشئون الحياة فنها ما يتصل بالعقائد والعبادات والمعاملات والسلوك ومنها ما يتصل بشئون الأسرة والمجتمع ومنها ما يتصل بأمور كثيرة متفرقة لها صلتها بالدين والحياة . بل كان رحمه الله يتخذ من أى حادثة يراها أو يسمع بها موضوعاً لخطبة الجمعة لأنه يرى في ذلك محلاً لالتقاط موعظة أو استنباط عبرة تنفع المسلمين ولذا نرى لبعض الخطب عناوين تبدو غريبة ولكن بقراءتها يتبين أن الداعية النابه والخطيب البارح رحمه الله يهدف من ورأها إلى استخلاص موعظة أو استلهام عبرة أو استنباط درس .

وكم كنت ألع عليه في جلساتي معه في السنوات الأخيرة من حياته التي لازمته فيها أن يجمع هذه الخطب وينشرها حتى تكون زاداً نافعاً للأئمة والدعاة الناشئين مثلى وتحقق النهوض بمستوى الخطابة في المساجد . فكان يردد على مسامعي : نعم أريد أن ننشر موسوعة الخطب ، ولكن القدر لم يمهلني فلحق بربه عز وجل قبل تحقيق هذه الرغبة ومن ثم نشطت عقب وفاته باحثاً في مكتبته عن هذه الخطب لأحقق رغبته في إخراجها وفاء له وخدمة للدعوة الإسلامية ، وقد استطعت بتوفيق الله ثم بمساعدة زوجته الوفية وابنيه الكريمين المهندس حازم والدكتور الطيب عاطف ، أن يجمع معظم هذه الخطب التي تعد حصيلة أكثر من أربعين عاماً قضاها شيخنا رحمه الله في الخطابة المنبرية . وهنا وجدت نفسي أمام حشد هائل من الخطب المنبرية في موضوعات متعددة ، كل خطبة منها تستقل بموضوع واحد واضح غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا ، كل عنصر فيها يسلم إلى الذي يليه في تسلسل منطقي مقبول وأسلوب رائع مؤثر . ولذا عزمتم بمشيئة الله

تعالى أن أخرج هذه الخطب على أجزاء متتالية تنضوى كلها تحت عنوان واحد هو « الموسوعة الشرباصية في الخطب المنبرية » وهو عنوان أوحى به إلى عبارة المؤلف السابقة التي كان يرددها في بعض جلساتي معه .

وهأنذا أقدم اليوم للقارئ الكريم الجزء الأول من هذه الموسوعة مشتملا على مائة وعشرين خطبة لم ألتزم فيها بالترتيب من حيث تاريخ الإلقاء كما لم ألتزم فيها بالترتيب من حيث المجالات التي تعالجها بل اكتفيت بالعنوان لكل خطبة ومنه يسهل على القارئ نسبة كل خطبة إلى ميدانها من عبادات أو عقائد أو معاملات أو غير ذلك .

والله تعالى نسأل أن ينفع بها وأن يتغمد أستاذنا وشيخنا المؤلف برحمته وأن يسكنه فسيح جنته إنه سميع الدعاء . وهو حسبي ونعم الوكيل .
وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور / عبد الستار حسين زموط
المدرس بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بالقاهرة

خطبة الجمعة (١)

الحمد لله عز وجل « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ». أشهد أن لا إله إلا الله ، صاحب الفضل وأهل المجد ، خلق ورزق ، فوجب أن يحمد ويعبد .. « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حذر وأنذر ، ووعده وأوعده : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الثقات من آله ، والهداة من صحابته ورجاله ، والدعاة إلى هديه وأعماله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كتب بعض الناس ينتقد ويشكو من أن خطبة الجمعة في كثير من المساجد تطول وتمتد ، حتى تبلغ نصف ساعة أو أكثر من ذلك ، واقترح بعضهم ألا تزيد خطبة الجمعة عن عشر دقائق أو اثني عشرة دقيقة على الأكثر ، وقد حاول البعض أن يجعل من هذه المسألة مشكلة عويصة كأنها تشغل بال العالم الإسلامي ، أو يتعلق على علاجها صلاح المسلمين جميعاً ، ومن العجيب أن أكثر الذين يتحدثون في هذا الموضوع ناقدين أو ضائقين ليسوا ممن يحرصون على الجمع أو سماع خطبتها ، وليسوا ممن يعينهم أمر الدين أو يشغل بالهم صلاح المسلمين ، وهذا مما يفتح الباب لسوء الظن بهذه الحملة ، ويسوغ

(١) القيت يوم الجمعة ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٧٧ والموافق ٤ يولييه

إدخالها في سلسلة المحاولات الموصولة المرادة لتوهين سلطان الدين في النفوس والتخلص من ألوان التعبد والتفقه لونا بعد لون .

ولسنا علم الله من دعاة التطويل الممل في الخطب . ولا من أنصار الإثقال بها على الناس ، أو استغلالها لغير ما أراد منها الحق جل جلاله ولكننا نحب أن نقول :

إن خطبة الجمعة هي العظة الأسبوعية العامة التي يتلاقى على سماعها أبنا الإسلام ، وإن شئت تعبير العصر فقل إنها الصحيفة الأسبوعية الإسلامية الناطقة التي يستمع فيها المسلمون إلى كلمة الله فيما يهمهم من شئون الدين وشئون الدنيا ، وهذه الخطبة تأتي في يوم الجمعة العظيم الجليل الذي ورد في شأنه وفضله من الأحاديث والآثار ما ورد ، وحسبنا قول رسولنا صلوات الله عليه : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة » . وقد سمي هذا اليوم بالجمعة لأنه يجمع الناس ، إذ يجتمعون للخطبة والصلاة . وتأكيذاً لتعارف ، وتوطيد المحبة ، وإحياء القلوب وقد جعلت الخطبة كركعتين تضافان إلى ركعتي الجمعة ليكون المجموع كصلاة الظهر التي تنوب الجمعة عنها ، ولعل الخطبة تأتي قبل الصلاة لتكون إيقاظاً لمشاعر التدين في النفوس فتقبل على الصلاة بخشوع واعتبار ، وليسمعها الناس في هدوء واصطبار لأن بعدها واجب الصلاة ، وقد ورد في شأن الاستماع إلى الخطبة والإندماج فيها والتأثر بها والتأدب معها ما لا نزيد عليه ، حتى عدّها فريق من الفقهاء كجزء من الصلاة ، والرسول هو الذي يقول : « إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة : أنصت ، فقد لغوت » .

ولا عجب فخطبة الجمعة يراد منها التفقيه في الإسلام ، والحديث يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، وهي تذكير بالله ، وتحبيب في

ثوابه . وتخويف من عقابه ، والله يقول : « فذكرُ بالقرآن من يخافُ وعيدٍ » ،
ويقول : « وذكرُ فإن الذكرى تنفعُ المؤمنين » : فذكر إن نفعت الذكرى .
وهي محاولة لإيقاظ القلوب التي تظل طيلة الأسبوع راتعة جامحة ، فهي
بحاجة إلى إحياء وتقوية وجلاء وتصفية ، وما أنفع الكلم الطيب في تحريك
الأفئدة السليمة : « يثبتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي
الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

ولمكانة الاجتماع يوم الجمعة للخطبة والصلاة حرص الإسلام المسلم على
أن يذهب إلى هذا الاجتماع الجليل نظيفاً مغتسلاً متطهراً متطيباً لباساً أحسن
ثيابه ، مستعداً لكي يجلس مع إخوته في الله هذه الجلسة المسبوة المنفوحة
بالبركة ، يتذاكرون ويتبادلون مشاعر الخير وعواطف البر ، وأمر الإسلام
بأن يترك المسلم من أجل الخطبة والصلاة ما يشغله أو يستحوذ على اهتمامه
وعنايته ، وما هو ذا القرآن يأمر الناس بأن يدعوا أهم ما يشغلهم ويجذبهم
وهو البيع والشراء ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم
الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ،
أى أقبلوا على الجمعة بنياتكم وقلوبكم وهمتكم ، واتركوا من أجل ذلك
ما يحلو لكم أو يعجبكم . فلو كان الإسلام يريد منا أن نؤدى الخطبة والصلاة
أداءً آلياً سريعاً ، لا تأثر به ولا استغراق فيه ولا انسجام معه ، فلماذا يحرضنا
على العناية بالسعى كل هذا التحريض ؟ ولماذا يؤكد علينا أن نقبل على الجمعة
بعزم واجتهاد ؟ ! . . .

وما يتعلل به الدعاة إلى أن تكون خطبة الجمعة خطبة عاجلة مبتورة آلية
شكلية أن بعض من يسمعها يكون على سفر أو في مرض أو نحو ذلك ؛ وقد
جهل هؤلاء أن الإسلام لم يوجب الجمعة على أصحاب الأعدار والضعفاء ،
فلم يوجبها على المرضى أو الزمنى أو المسافرين أو النساء أو المكفوفين

أو الخائفين من الجور حتى قال الفقهاء إن المشغول بجزارة صديق حميم لا يجد من ينوب عنه فيها تسقط عنه الجمعة ، ومن يؤذيه المطر والوحل تسقط عنه وهكذا ومما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة ، إلا مريض أو مسافر أو امرأة أو صبي أو مملوك ، فمن استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غنى حميد » .

نكن هؤلاء في الواقع لا يقصدون الرفق بأصحاب المعاذير ، وإنما يريدون أن تكون الخطبة عشر دقائق ، حتى يوهنوا عوامل التدين في النفوس ويجعلوا الدين رسوماً حائلة وأركاناً مائلة ، وإذا كان الفقهاء قد ذكروا الحد الأدنى الذى يصح أن نطلق عليه اسم خطبة وهو الكلام الذى فيه حمد لله وذكر له وأمر بالتقوى أو تبصير بالدين ، فإنهم أرادوا بذلك تحديد الأحكام لا بتر الخطب ، وهل تتحقق الثمرة المرجوة من الخطبة إذا اتسمت بهذه العجلة وهذا الاقتضاب ونحن في زمن تعطلت فيه ينابيع الثقافة الدينية ، وزحمت الناس فيه ألوان من الثقافات الدخيلة والمعارف العليقة ؟ . وإذا كان السلف في صدر هذه الأمة المسلمة قد أوجزوا في خطبهم واختصروا أحياناً فلائح الفقه بالدين كان شائعاً ، ولأن الحرص على أوامر الله كان ذاتياً ، ولأن صوت الإسلام كان مرتفعاً ، لا يزاحمه فسوق أو إلحاد أو انحلال ، وأما اليوم فما أجدر الخطبة بأن تنبسط وتمتد قليلاً أو طويلاً : «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرةً وأصيلاً» .

وما رأيكم أيها الناس في أن أهل الأديان الأخرى لم يشكوا ولم يبكوا من طول الأوضاع التعبدية عندهم . فهم يقضون أوقاتاً طويلة في القيام بطقوسهم ورسومهم وترتيلاتهم وترنيماتهم وغير ذلك من تقاليدهم الدينية الواضحة أو المبهمة ، المفهومة أو الغامضة ، دون شكوى أو صراخ فاسر هذا ؟ . ألأنهم يعترفون بدينهم أكثر مما نعترف بديننا ، ويغارون على عبادتهم أكثر مما نغار على عبادتنا ، أم ماذا يكون الجواب يا أولى الألباب ؟ .

لقد كان أجدادنا يقبلون على مواطن العظة والعبرة والأدكار بأفئدة واعية وجلود مقشعرة ، وكانوا يجدون لذتهم الروحية والنفسية في إطالة اللحظات التي يركنون فيها إلى تلاوة أو مناجاة أو حديث عن الله والإسلام ، وهذا هو الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز يروى عنه أنه كان كثير الاستماع إلى العظات ، فكلمنا لتي رجلا أهلا لقول كلمة طيبة يقول له : « عظني » ، وكان كثير التلاوة والاعتبار بما يسمع أو يقرأ ، ويروى أنه صلى العشاء وجلس يتلو سورة الأنفال ، فما زال يردددها ، وكلمها مر بآية عذاب تضرع ، أو بآية رحمة دعا ، حتى أذنوا للفجر ، وكان يجمع الفقهاء عنده كل ليلة يتناكرون الموت والآخرة ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة ؟

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . نقرر مرة أخرى أننا لسنا من الدعاة إلى الإثقال على الناس في الحديث ، ولسنا نرتضى من صاحب الخطبة أن يسىء عرضها أو استغلالها ، أو يخضعها للأهواء والأغراض ، ولكننا نريد يقظة الوعي الديني في صدور الذين ينتسبون إلى الإسلام ثم يجهلون الكثير من تعاليم هذا الإسلام ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

حكمة الصلاة (١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، جعل ذكره مفتاح الخيرات ومنبع البركات :
« قد أفلح من تزكى وذكر اسمَ ربه فصلياً » . أحمده سبحانه وأشهد أن
لا إله إلا الله ، جعل الخير الكثير جزاء للطاعة والخشوع في الصلاة :
« إنا أعطيناك الكوثرَ ، فصل لربك وأنحر » . وأشهد أن سيدنا محمداً
رسول الله الذي قال له ربه : « وامرُ أهلك بالصلاة واصطبر عليها ،
لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » فصلوات الله وسلامه عليه ،
وعلى نجوم ذريته ، وأقطاب صحبته ، والأوفياء المخلصين لدعوته : « قد أفلح
المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

ما زلنا بحاجة - أيها الأحبة - إلى أن نزداد مع شبابنا بصراً بالدين
ومعرفة بالإسلام . وهذا شاب حائر يسألني قائلاً : إنني أصلي منذ حين ،
ولى أصدقاء صلّتهم بالدين ضعيفة ، وهم يحاورونني كثيراً : ويقولون لي
فما يقولون : إنك تصلي منذ سنوات ، فما حكمة هذه الصلاة ؟ وأى شيء
أفادتك ؟ أليست نوعاً من التكرار المسمّم الممل ؟ . ومع إيماني بالصلاة لم
أجد رداً أقوله لهؤلاء . قلت له : هون عليك يا بني ، فن نعمت الله عليك
أن يشغلك بالدين ، ويجعلك تفكر في حكمه وتعاليمه ، والصلاة التي تسأل
عنها هي عماد الدين وأساس العبادة ، وقديماً دعا أبو الأنبياء إبراهيم ربه
فقال : « رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا تقبل دعاء » . وحكمة
الصلاة أولاً أن فيها معنى الطاعة المطلقة لله تبارك وتعالى ، وفيها معنى تحقق

(١) القيت يوم الجمعة ٦ رجب سنة ١٣٩٤ الموافق ٢٦ يولييه
سنة ١٩٧٤ م .

العبودية من الإنسان وإظهاره معنى الربوبية للمخالق الديان ، وفيها مناجاة لله من حين إلى حين ، فإذا هم الشيطان اللعين بأن ينسى الإنسان ذكر ربه فرغ إلى الصلاة ، فناجى بها خالقه ومولاه ، فتظل صلة الإنسان ببدء السموات والأرض قائمة وثيقة ، والارتباط بالله بلسم يعرف مذاقه الذين ينعمون به ، ولذلك قال سيد الخلق عليه الصلاة والسلام : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » وكان إذا اشتد به الكرب ، أو استفحل الخطب قال لمؤذنه بلال في شأن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » .

والصلاة أيضاً فيها معنى « الاستجمام الروحي » و « الشحن المعنوي » ، فإذا تكاثرت شواغل الحياة من حول الإنسان وغلبت عليه الناحية المادية بغلظها وكثافتها هرع إلى الصلاة ، فإذا هو يخلع نفسه من دنياه ، ويدخل عالم المناجاة ، فيستمد من هذا الرحاب زاداً وقوة وعتاداً ، فيستطيع بهذا التفتح والنشاط والتزود أن يتابع مراحل الحياة بعزيمة وإشراق ، ولهذا يمكن أن نصف الصلاة بأنها معراج يومية يتكرر في حياة المؤمن فيحس بروح التسامى والعلو ، ولعل من سر ذلك أن الصلاة هي الفريضة الوحيدة التي فرضت ليلة الإسراء والمعراج .

والصلوات الخمس تتكرر لتكون معواناً على يقظة الروح وطهارة القلب وتزكية النفس ، ولذلك أخبر سيدنا رسول الله أن هذه الفرائض الخمس يمحو الله بهن الخطايا ، ما دامت تستوفى شروطها وأركانها وخشوعها ، ولذلك يقول الحق جل جلاله « وأقم الصلاةَ طرفي النهارِ وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » ويقول : « أتلُّ ، ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكرُ الله أكبرُ واللهُ يعلمُ ما تصنعون » .

وفي الصلاة تحقيق للوحدة بين الأمة المؤمنة كلها ، فالجميع يعبدون
إلهاً واحداً ، ويصلون له صلاة واحدة ويتجهون جميعاً إلى قبلة واحدة :
« فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره »
وهذا التوحيد بين الجميع في العبادة والوجهة يولد تأكيد روح الأنوثة
والديمقراطية والمساواة ، وخصوصاً إذا جمع بيت الله : المسجد بين هؤلاء ،
فيكون هناك تطبيق عملي لهذه المساواة ، إذ ليس في الصلاة تفرقة بين كبير
وصغير ، أو غني وفقير ، وليست في المسجد مقاعد محجوزة ولا أماكن
مميزة ولا صفوف خاصة : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » .
والمسجد - كما يذكر المرحوم الرافعي - يجمع الناس بقلوبهم . ليخرج كل
إنسان من دنيا ذاته إلى دنيا ربه ، فلا يفكر واحد منهم أنه أسمي من الآخر ،
ولقد يكون إلى جانبك الفقير أو الأجير ، وأنت الغني أو الخطير ، فلا تحس
في الصلاة بفارق بينكم ، وكأن خواطرك حينئذ متطهرة متوضئة ، تذكر أن
الله فوق الجميع ، وأنكما شريكان في الإنسانية ، وميزانها بيد الله وحده :
« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وإذا أنت تردد في دعاء الاستفتاح ما كان
يردده الرسول في أول صلاته : « اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت
بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من ذنوبي كما ينقى الثوب الأبيض من
الدينس ، اللهم أغسلني بالثلج والماء والبرد » .

وليست الصلاة تطهيراً لذنوب النفس والروح وحدها ، بل هي للجسم
والبدن ، فهي تدفعنا دائماً إلى الطهارة والنظافة سر القوة والسعادة ، والنظافة
من الإيمان ، ولا صلاة في الإسلام بغير وضوء ، ولا صلاة بغير طهارة
الجسم والثوب والمكان ، والرسول يقول « مفتاح الصلاة الطهور » ، والإنسان
في الحياة يتكرر تعرضه للتراب والغبار والأوساخ والجراثيم ، فيتكرر الوضوء
للصلاة ، فكأنه مطهرة مستمرة تقاوم ذلك التلوث المستمر الدائم في هذه

الحياة ، والإسلام هو الدين الفرد الذي يجعل النظافة والطهارة فرضاً دينياً يربطه بالصلاة التي تتكرر كل يوم خمس مرات على الأقل : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وفي الصلاة رياضة جسمية ملائمة ، تتحرك فيها جميع أجزاء الجسم تقريباً من الرأس حتى أصابع القدمين ، أثناء التكبير والقيام والركوع والسجود والتشهد والتسليم ، وفي هذا تليين للأطراف والأعضاء ، وتنشيط للدورة الدموية في الجسم ، فكأن الصلاة تمرين صحي مستمر ، يستعيد به الإنسان نشاطه ، فوق فوزه برضا ربه : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » .

ومن حكمة الصلاة أنها تعلمنا روح النظام وتوزيع الأعمال على الأوقات فالله تبارك وتعالى لم يجعل الصلاة كلها في وقت واحد ، بل جعلها خمس صلوات موزعة على اليوم والليلة . ولكل فريضة منها ميقات له بداية لا تسبقها وله نهاية لا تتأخر عنها : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ومن هنا يعرف الإنسان كيف يوزع أعمال اليوم على ساعاته ، وأعمال الأسبوع على أيامه ، وأعمال الشهر على أسابيعه ، وأعمال السنة على شهورها وهكذا : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن حكم الصلاة تتكاثر أمام الإنسان كلما تدبر فيها ، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن الصلاة بتكرارها هي التي تديم رابطتنا بالقرآن الكريم . واستبقاؤنا له في الصدور حفظاً وعلى الشفاه تلاوة لأن كل ركعة من الركعتين الأوليين نقرأ فيها جانباً من القرآن غير الفاتحة ، وكثير من حافظي القرآن يتخذون الصلوات فرصة لتلاوته فيها وتثبيت آياته والقرآن هو العماد وهو السناد . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

الوضوء سلاح المؤمن^(١)

الحمد لله عز وجل ، دعا إلى طهارة الحس وصفاء النفس : « إن الله يحبُّ التوابينَ ويحبُّ المتطهرينَ » . أشهد أن لا إله إلا الله ، مهد لعباده طريق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، والله رءوف بالعباد ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل النظافة من الإيمان ، فكان نبي الطاهرين الطيبين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وجماعته : « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم إليه راجعون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

سخر أحد الأشخاص من الأثر الإسلامي الذي يقول : « الوضوء سلاح المؤمن » وتندر عليه قائلاً : ياله من سلاح مضحك ، لم يبق في أيدي المسلمين إلا سلاح الوضوء ، فما أهونه من سلاح ! . . وهذا التندر الأحمق علامة من علامات الغفلة عن الدراسة الإسلامية ، والجهل بحكمة التعاليم الدينية ، والإسلام دين يظلمه أعداؤه ، ويتناول عليه الضائعون به والكائدون له ليقلبوا حسناته إلى سيئات ، « يريدون ليطفئوا نورَ اللهِ بأفواههم والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون » .

وما هذا الوضوء الذي يسخر منه ذلك العايب ؟ إنه غسل الكفين ، وتطهير الفم والأسنان بالمضمضة ، وتنظيف داخل الأنف بالإستنشاق ، وغسل الوجه بما فيه من جبهة وحاجبين وعينين وخدين ، ثم غسل الذراعين إلى المرفقين ، ثم مسح شعر الرأس ، ولك أن تمسح على أذنيك ورقبتك ،

(١) ألقيت يوم الجمعة ١٦ من ذي الحجة سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ١٠ يونيه سنة ١٩٦٠ م

ثم غسل القدمين إلى الكعبين ؛ وبعبارة أخرى هو تطهير جميع الأعضاء والأطراف التي تستخدم في العمل اليومي وتعرض للأتربة والجراثيم . . .

وهذا الوضوء المتكرر كل يوم عدة مرات هو السلاح الذي يحفظ اليدين من القدر ، والذراعين من الوسخ ، والقدم من النتن ، والأنف من الغبار ، والعينين من العمص ، والرجلين من رائحتهما الكريهة ، وهو فوق هذا يلطف حرارة الجسم ، ويزيل عنه الركودة ويبعث فيه النشاط ، ويجدد الهمة ، فيقبل المرء على العمل في عزمه واجتهاده ، فليس عجيباً ولا غريباً بعد هذا أن يعتبر الإسلام الوضوء سلاحاً من أسلحة المؤمن التي تصونه وتحصنه ، فهو سلاح حسي طبي ، يصون الأطراف مما تتعرض له من الأقدار والجراثيم التي تأتي من الجو ومن التراب ومن مزاولة الأعمال ومن مصافحة المرضى أو غير المتطهرين وما من طبيب إلا ونجدد تشديداً واضحاً ملحوظاً في المطالبة بتنظيف الأطراف وتطهير الأعضاء . . .

والوضوء أيضاً سلاح روحي أخلاق لأنه يذكر الإنسان بأنه في حصانة شرعها الله جل جلاله ، فهو يذكر دائماً هذا الإله العظيم في مراقبته ، فلاتهم بأثم أو عيب إلا ويتذكر أنه على وضوء يهيب صاحبه للصلاة وللمناجاة الله وتلاوة القرآن ولغيرهما من القربات والعبادات ، وكأن المرء بدون الوضوء معرض لمهاجمة الباطل والشر من هنا وهناك ، ولكنه مع الوضوء يحيط نفسه بستر قوى رباني يحفظه ويقيه ، والوضوء أيضاً سلاح عقلي ، لأن العلاقة بين الجسم والعقل وثيقة متينة ، وهم يقولون : إن العقل السليم في الجسم السليم : وتطهير الأطراف نوع من التجديد للنشاط ، وهذا يجعل العقل متفتحاً مقبلاً على التفكير وبذل الجهود بنشاط وعزيمة .

ولم يكن غريباً بعد هذا أن نجد الكثير من الأحاديث في فضل الوضوء ، كقول الرسول : « لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » وقوله : « من توضأ

فأحسن الوضوء نخرجت خطاياها من جسده ، حتى تخرج من بين أظفاره « وقوله : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » وقوله : « لا صلاة لمن لا وضوء له » . وعمر رضي الله عنه يقول : « إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان » ومن هنا شرع الإسلام الوضوء للصلاة ومس المصحف والقراءة بالقرآن وغيرها من العبادات والشعائر ، وجعل الوضوء على الوضوء كالنور على النور ، وهذا ترغيب في زيادة التطهير أى ترغيب .

ولا شك أن من مفاخر الإسلام أنه يحض على الوضوء والمحافظة عليه كل هذا الحض ، لأن الشخص الحريص على وضوئه لا يقبل أن يكون جسمه من الداخل وسخاً أو قذراً ، وإلا كان ذلك سفهاً وتناقضاً ، ولذلك يحرص المسلم المتطهر بالوضوء على الاغتسال والاستحمام ، وما أكثر مناسبات الاستحمام في الإسلام ، ومن حرص على نظافة جسمه لا يقبل أن تكون ثيابه قذرة أو وسخة ، وإلا لم تكن هناك فائدة لطهارة الجسم مع قذارة الثياب ، لأن الثياب القذرة لا تترك الجسم نظيفاً أو سليماً ، ومن حرص على طهارة أطرافه وجسمه وثيابه حرص على طهارة مكانه وبيئته ، وحرص على طهارة من معه ومن حوله ؛ وهكذا يتبين لنا أن الوضوء نقطة ارتكاز وبداية انبثاق للطهارة والنظافة ، فكأنه سلاح أى سلاح .

والوضوء المتجدد يذكرنا بنعمة عظمى من نعم الله العلى الأكبر ، وهى نعمة الماء الذى جعل الله منه كل شىء حى ، والله تعالى يقول عنه : « وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً » . ومما يلفت النظر أنه وصف الماء هنا بوصف «طهور» وطهور هذه صيغة مبالغة فى الطهارة ، فكأنه يريد أن يقول إننا أنزلنا السماء ليكون بليغاً فى تطهير ما يحتاج إلى التطهير ، ومن فضل الله على عباده أن خلق لهم هذا الماء بهذا القدر الكبير الهائل ، ليكون ريباً للظلم ، وإنباتاً للزرع ، وتطهيراً للأبدان ، وتنظيفاً للأدوات والآلات ، وجمالاً فى المنظر ، حتى

جاء في الأثر : « ثلاثة يذهبن الحزن : الماء والخضرة والوجه الحسن » ، كما أنه من لطيف صنع الله لعباده وإنعامه عليهم أن جعل النظافة والطهارة لوناً من ألوان العبادة مع أنهما في الوقت نفسه ترفيه وتجميل وتحديد للنشاط : « وما جعل عليكم في الدين من حرجٍ » .

والدولة تشن حملة واسعة النطاق لمحاربة الذباب ، وتنفق في هذه الحملة ما تنفق من جهد ومال ، لعلمها أن هذا الذباب يتلف الكثير من النفوس والأجسام والأموال ، ويسبب من الخسائر ما لا يسهل احتمالها ، ولكن الذباب لا يزول إذا اقتصر الأمر على قول القائلين : كافحوا الذباب ، حاربوا الذباب ، وإنما يزول الذباب إذا سادت النظافة والطهارة الأشخاص والأمكنة وأجدى وسيلة من وسائل النظافة هي صيانة الجسم والأطراف في حضن الطهارة وأقرب وسائل الطهارة هو الوضوء ، فكيف لا يكون الوضوء بعد هذا كله سلاحاً للمؤمن يفيد في بدنه وخلقه ودينه ؟ .

قد يقال إن هناك أناساً يحرصون على الوضوء وعلى تطهير أطرافهم وأعضائهم ، ومع ذلك لا تتطهر نفوسهم ، ولا تستقيم أخلاقهم ، ولا تصفو أرواحهم . . . وهذا القول لا يتعارض مع أن الوضوء سلاح المؤمن ، لأن الأثر الإسلامي لم يقل إن الوضوء سلاح لكل إنسان ، بل قال إن الوضوء سلاح المؤمن ، والمؤمن هو من آمن بالله تبارك وتعالى ، وهو أيضاً من آمن الناس شروره وبوائقه ، ومثل هذا لن يتسلح بالوضوء من الظاهر أولاً مع تسلمه بالطهارة الروحية من الداخل ، ولذلك قال الرسول . « الطهور شطر الإيمان » أى نصفه ، فطهارة الحس شطر ، وطهارة النفس هي الشطر الثاني ، ومن دقائق التشريع الإلهي والتأديب الإسلامي أن الوضوء تطهير حسي يرتبط بنية عبادة . فالمتوضىء يتوضأ ليصلي أو ليتقرب إلى ربه بإحدى القربات المختلفة . فكأنه لا يتوضأ لمجرد النظافة وحدها ، بل هو يتطهر حسيّاً

ليتطهر نفسياً ، ومن وراء هذا الارتباط البديع بين الوضوء والتعبد يلوح لنا التوجيه الحكيم والمقصد النبيل الذي قصده الشارع من الوضوء . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان من عادة آبائكم المسلمين ألا يمشى الواحد منهم إلا وهو متوضئ ، ليكون على صلة بربه وعبادته ، وليكون صالحاً لأداء صلاته وترديد ذكره ، ولتشعره طهارة الحس والجسد بوجوب طهارة النفس والروح ، فليت هذه العادة بقيت بيننا ، إذ ما أحوج المجتمع المادى إلى نسمات الطهارة ونفحات التعبّد ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الإسلام والتطهر^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو الطيب الذى يجب الطيب ، النظيف الذى يجب النظافة ، الجميل الذى يجب الجمال ، « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، دعا إلى الصلاح والنقاء : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدب وهذب ، وطهر وعمر ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، وأتباعه المعتمدين بشرعة اليقين : « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا الإسلام غريب بين كثير من أهله ، وقد اتسعت مسافة البعد بينهم وبينه ، بعد أن تنكروا له وساءت ظنونهم فيه ، وولوا وجوههم شطر نظم وتقاليد وعادات ، يستعبرونها من غيرهم ، ويعيشون عائلة عليها ؛ وقد يكون فى هذه النظم ما يثير إعجابهم أو يحوز تقديرهم ، ولو أقبلوا على الإسلام وتعرفوا إليه لوجدوا فيه ما هو أزكى وأعلى : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

وهذا مثل صغير عارض يشير إلى سبق الإسلام وفضله ؛ وقد تدل على البحر رشفة . كما تدل على الشمس نظرة إلى شعاع . فقد نشر^(٢) أن إحدى الدول الأوروبية حرمت أن خير أركوب السيارات العامة على من تفوح منه رائحة الثوم أو البصل ، وقد نشر هذا النبأ وكأنه مظهر من مظاهر المدنية المعاصرة ، فعاد الذهن بسرعة إلى هدى الإسلام وسنة محمد عليه الصلاة والسلام التى

(١) القيت يوم الجمعة ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٩٧٨ هـ ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .
(٢) انظر جريدة الشعب يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٨ .

علمت الناس منذ قرون وقرون آداب المجتمع قليلها وكثيرها ، كبيرها وصغيرها ، حتى رسمت لهم صورة الإنسان السليم الذوق ، الكامل الأدب ، الرقيق الإحساس ، المهذب في مختلف نواحي الحياة ؛ وخطر بالبال كيف سبق نبي الإسلام منذ أكثر من ألف عام إلى ما هو أنتى وأرقى من هذا التقليد الجديد ، فقال : « من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراتاً فليعتزلنا وليقعده في بيته » . وقال : « من أكل من هذه البقلة الخبيثة (أى مالها رائحة كريهة) فلا يقربن المساجد ^(١) » . ويلحق بالمساجد الأماكن العامة التي يجتمع فيها الناس ويتقابلون . ولقد حرم النبي على نفسه—وهو إمام الذوق والتهذيب — أن يأكل الثوم أو البصل أو ما أشبههما ، وأراد أن يصور ما يقصده بهذا التصون من تطهر وتسام فأخبر بأنه يناجى جبريل عليه السلام ، وكان صفاء لقاء الملائكة لا يلائمه أن يتناول النبي شيئاً من هذه البقول . وقد نهى النبي أمته عن غشيان المساجد والمجتمعات حين تناولهم شيئاً منهما لئلا يؤذوا الناس برائحتهما ، أو يضايقوا سواهم بأبخرتها ، ولذلك كانت نظرة الإسلام إلى تناول هذه الأشياء نظرة كراهية وتبغيض ، وقد يقال إن فريقاً من الناس قد لا يجدون غير هذه البقول ، وقد يكون فيها فوائد يطلبونها للعلاج ونحوه ، فيجاء على ذلك بأن الإسلام لم يحرمها ، وإنما حذر آكلها من الاختلاط بالناس متى بقيت رائحتها ، وفي الحديث : « من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا حتى يذهب ريحها » وعن أبي أيوب أن النبي أرسل إليه طعاماً فيه ثوم ولم يأكله فسأله أبو أيوب : أحرام هو؟... قال النبي : لا ، ولكني أكرهه من أجل ريحه ، ولذلك ينصح الهدى النبوي بأن تؤكل هذه البقول بعد طبخها أو إماتة رائحتها وإزالتها بالشى أو القلى ، فجاء في الحديث : « إن كنتم لا بد آكلها فأميتها » .

(١) وفي رواية : مساجدنا

ولكن الإنسان قد يمتنع عن أكل هذه الأشياء ، ومع ذلك تكون رائحة فمه كريهة من مرض في أسنانه ، أو جوع في بطنه ، أو غير ذلك من الأسباب ، ولذلك حرص الإسلام الإنسان على تطهير فمه في كل مناسبة ، فدعا إلى استعمال السواك ، أو ما يقوم مقامه كالفرشاة والمعجون ، أو السائل المطهر أو غيره ، فقال الرسول : « السواك مطهرة للفم مرضاة الرب » وقال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » . كان الرسول صلوات الله عليه يكره لقاء من اصفرت أسنانه من فضلات الطعام أو ترك التنظيف ، وكان يوصي بذلك الأسنان عند تطهيرها حتى يزول ما علق بها ، وذلك لكيلا يتأذى الناس بمرأى هذه الأسنان ، أو يتضايقوا من رائحتها السيئة ، والفقهاء يسقطون سنة الصلاة مع الجماعة عن المصاب بالبخر ، وهو نتن رائحة الفم ، وبعضهم يرى عدم وجوب الجمعة على مثل هذا حتى لا يتضرر بوجوده المصلون ، والبخر الدائم أو نتن الرائحة الذي لا علاج له قد يصلح سبباً للتفريق بين الزوجين إذا لم يستطيعا الصبر عليه . لأن الزوجية تقوم على الوثام والانسجام ، والإنسان قد يحتمل من غيره ألواناً من الأذى ولكنه لا يصبر على الرائحة المنتنة تنبعث من فم أو عرق أو غير ذلك ، ولذلك نص الكثير من النصوص الدينية على أن رائحة المسلم الكامل تكون على الدوام رائحة طيبة محبوبة .

والإسلام بعد هذا حريص كل الحرص على أن يتعود أبنائه نظافة الحس والنفس ، وطهارة الروح والبدن ، وشفاء القلب والجسم ، فإله تعالى يقول : « والله يحب المطهرين » ويقول : « ما يريدُ اللهُ ليَجعلَ عليكم في الدينِ من حرجٍ ، ولكن يريدُ ليظهِركم ». والرسول يقول : « الظهور شطر الإيمان » أي الطهارة نصف الإيمان ، وقد شرع الإسلام الوضوء كل يوم عدة مرات ، كما شرع الاغتسال في مختلف المناسبات ، والوضوء على الوضوء كنور على

نور ، كما حثت السنة النبوية على غسل الشعر ودهنه بالطيب وترجيله ، ولقد رأى الرسول رجلاً شعثاً قد تفرق شعره فقال : أما كان هذا يجد ما يسكن به شعره ؟ . رأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال : أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه ؟ . ورأى رجلاً في ثوب قديمة غير لائق به ، مع أنه غنى ميسور ، فعاتبه على ذلك وقال : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » . والإسلام حريص على تعليم أبنائه كيف يظهرون بالمظهر المحبوب الذى يشرح صدور الناس ويسرهم ، ولا يدخل عليهم بما يؤذيهم أو يضايقهم ولذلك حث على نظافة البدن والأطراف والثياب والأفواه ، وبخاصة أثناء الاجتماع والالتقاء بالناس ، .

وقد ذكر النبي أن من الفطرة (أى السنة التى دعا إليها الأنبياء وحافظ عليها المؤمنون ، حتى كأنها أمر طبيعى جلى) السواك ، والاستنشاق وهو تنظيف الأنف بالماء ، وقص الأظفار لكى لا يبقى تحتها أوساخ ، وغسل البراجم (وهى غضون مفاصل الأصابع) ونتف شعر الإبط لكى لا تنبعث منه رائحة كريهة ، وحلق العانة من أجل ذلك أيضاً ، والاستنجاء لتطهير المخرجين من النجاسة ، وكل هذه وسائل للتنظيف والتطهير .

وكذلك عودنا الإسلام العادات الطيبة الكريمة ، وباعد بيننا وبين ما يسوء الغير ، أو يقيح فى المنظر ، فليس من أدب الإسلام مثلاً أن تتشاءب فى وجه أخيك ، أو تتجشأ ، أو تنظف أسنانك وتخرج فضلاتها بحيث يراها ، وليس من أدب الإسلام أن تختلط بغيرك وأنت قدر الثياب ، أو وسخ الجسم أو فائح العرق ، وليس من أدب الإسلام أن يأكل الشخص بصلاً أو فجلاً ، ويركب الترام مثلاً ويدركه التجشوء ، فلا ينحرف بوجهه ليكتمه ، بل يفتح فيه فى وجوه الناس ، ويتجشأ فى منظر بغيض كريه منفر ، ولا يتحرز من التخط بصوت منفر أو البصق أمام الناس وليس من أدب الإسلام أن

يخرج العامل من المصنع وثيابه مليئة بالشحم أو الزيت أو الفحم ، ويركب الترام أو السيارة ، أو يأتي إلى صلاة الجمعة بدون تطهر ، فيلطيخ المكان ، ويوسخ ثياب غيره ويثير فيمن حوله الضيق به والتقزز منه ، والقوم مجتمعون في بيت الله ، وهم مشتركون في صلاة عامة يتوجهون بها إلى الله وأساس الصلاة طهارة الحس والنفس ، ونظافة البدن والثوب والمكان ، والله يقول (خذوا زينتكم عند كل مسجد) والرسول يقول (لا ضرر ولا ضرار) والإسلام ينفر من إيداء الغير في أى صورة من الصور فكيف يستنتج الإنسان لنفسه الإساءة إلى غيره بالحضور إلى المسجد في ثياب وسخة أو برائحة قذرة أو بمظهر غير نظيف مريح وإذا لفته أحد إلى ذلك غضب وثار ، وتحدث عن الكرامة والمساواة ؛ ونسى أن من المساواة أن يحترم الإنسان غيره ويحافظ على شعوره ، وأن يعامل الناس بما يجب أن يعاملوه به ، والمسلم هين لين ، وهو إلف مألوف ، وهو كالنسمة الرقيقة التي ينجذب الناس إليها ويودونها ، وهو كالعافية التي إن جاءتهم فرحوا بها ، وإن غاب عنهم حنوا إليها ، والله جميل يحب الجمال .

ولتذكر أن المسلمين هم الذين علموا أوربا الطهارة ، وهم الذين أدخلوا إليها الحمام ونظام الاستحمام والاعتسال بعد أن كان أهل أوربا يفتخرون بالقذارة وعدم الاستحمام . وحينما دخل المسلمون الأندلس نشروا فيها النظافة والتطهر ، وكان رجال الدين في الأندلس يعلمون الناس أن من وسائل التقرب إلى الله والتعبد له أن يمتنع الإنسان عن غسل جسده بالماء ، حتى كانوا يتفخرون بطول المدة التي يظلونها بدون اغتسال . . .

ولقد وضع المسلمون عقب فتحهم الأندلس نظاماً يقضى بأن كل من بنى داراً جديدة بنى بجوارها حماماً عاماً ليتطهر الناس فيه ، وعلم المسلمون

الأوربيين أن الماء الذي خلق الله منه كل شيء يجب أن يكون رقيقاً دائماً
للإنسان ليتطهر به .

وحينما دخل المسلمون أوروبا كان أهلها لا يعرفون لبس « القميص » ،
بل كانوا يلبسون الثوب على أجسادهم مباشرة ، فعلمهم المسلمون العرب
كيف يلبسون القميص تحت الثوب الخارجي ليكون وقاية يتشرب العرق ،
ويمكن تغييره بسهولة ، فلا يتسرب العرق أو الوساخة إلى الثوب الخارجي .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الإسلام يدعوكم إلى أن تتطهروا ، وتنظفوا ، وتتجملوا ، وتتطهروا
وتتزينوا ، وتبتعدوا ما استطعتم عن سبب العادات وضار التصرفات ، وهذا
الإسلام لم يترك جهة من جهات الآداب الاجتماعية إلا تحدث عنها ونظم شأنها
فعلمنا كيف نأكل وكيف نشرب ، وكيف نلبس وكيف نتزين وكيف نزور
وكيف نستاذن ، وكيف نتطهر وكيف نتنظف ، وكيف نمشي وكيف نجلس
وكيف نستريح وكيف نعمل ، إلى آخر ما هناك من عادات وآداب ، وفي
هذا الإسلام الغنى كل الغنى عما سواه من مذاهب أو طرائق . . . « ومن
يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » فإلى
الإسلام يا أبناء الإسلام وإلى هدى النبوة الكريم يا أتباع محمد عليه الصلاة
والسلام واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين
هم محسنون .

وهذه طائفة من الأحاديث التي تتحدث عن وجوه شتى من التطهير
والتنظيف في مختلف أعضاء الجسم :

قيل للنبي : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟ قال :
أرأيت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة بين ظهري خيل وهم بهم ، ألا يعرف

خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال فلأنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء رواه مسلم .

وقال النبي : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، والسواك ، وتمس من الطيب » رواه مسلم . وقال : « بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده » رواه أبو داود . وقال النبي : « تخللوا (أى نظفوا ما بين الأسنان بأعواد) فإنه نظافة ، والنظافة تدعو إلى الإيمان . والإيمان مع صاحبه في الجنة » . رواه الطبراني . وقال : « حبذا المتخللون من أمتي . قيل : وما المتخللون يا رسول الله ؟ قال : المتخللون في الوضوء ، والمتخللون من الطعام . (أما تخليل الوضوء فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع ، وأما تخليل الأسنان فمن الطعام) إنه ليس شيء أشد على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاماً وهو قائم يصلي » رواه أحمد . وقال : « ما جاءني جبريل إلا أوصاني بالسواك ، حتى لقد خشيت أن يفرض علي وعلى أمتي » رواه ابن ماجه . وفي رواية : « لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه ينزل عليّ فيه قرآن أو وحى » .

وقال : « لقد أمرت بالسواك حتى خشيت أن أوردَ (أى تسقط أسناني من شدة الدلك) .

وقال : « من بات وفي يده ريح غمرٍ (أى رائحة من زهومة الخمر) فأصابه شيء فلا يلو من إلا نفسه » رواه البزار .

وقال : « من كان له شعر فليكرمه » رواه أبو داود . وأتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم نائر الرأس والحية ، فأشار إليه الرسول كأنه يأمره بإصلاح شعره ففعل ، ثم رجع . فقال النبي : أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم نائر الرأس كأنه شيطان ؟ رواه مالك .

(م ٢ — خطب ج ١)

وعن أبي قتادة قال : يا رسول الله . إن لى جمعة (والجمعة مجتمع شعر
الناصية) أفأرجلها ؟ قال له النبي : نعم وأكرمها . فكأن أبو قتادة . ربما دهنها
فى اليوم مرتين من أجل قول رسول الله . رواه النسائى .

وقال الرسول : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر
فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة . فقال النبي :
« إن الله تعالى جميل يحب الجمال » رواه مسلم . وقال النبي : « إن الله تعالى
يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ،
فنظفوا أنفسيتكم ، ولا تشبهوا باليهود » رواه ابن خزيمة . وكان ابن عباس
يلبس أطيب الحلل ويقول : لقد رأيت على رسول الله أحسن ما يكون من
الحلل . رواه أبو داود .

سورة الفاتحة (١)

الحمد لله عز وجل ، أنزل الكتاب وفصل الخطاب : « وأنزلنا إليك نوراً مبيناً » أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل قرآنه منبع الحكمة ومصدر الرحمة : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل كتاب ربه رائدة وقائدة ، فكان خير الداعين وإمام المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

سأل سائل فقال : لماذا اختار الله تبارك وتعالى سورة « الفاتحة » بالذات لكي نكررها في الصلاة ؟ ومن الممكن أن تختصر الجواب على السؤال . فنقول : هكذا أراد الله واختار ، وحكمته أعمق من كل حكمة ، وعلمه أوسع من كل علم ، وفوق تدبيرنا لله تدبير . ومن الممكن أن نبسط الجواب بعض البسط ، فنقول إن الله تعالى قد اختارها لأنها تصور كليات العقيدة ومبادئ الإسلام . وتجمل في إيجاز وإعجاز ما فصله القرآن الكريم من معتقدات وعبادات ومعاملات واتجاهات ، ولعل هذا الإجمال الرائع في سورة الفاتحة هو الذي أهلها لكي تسمى بطائفة من الأسماء الكريمة العظيمة ، فهي أم الكتاب وفاتحة الكتاب التي تفتتح بها سوره ومصاحفه ، وهي الوافية والكافية ، ففيها ما يشفي ويكفي لمن تدبر واعتبر ، وهي السبع لمثاني التي تكرر وتثنى في الصلوات فتزداد حلاوة على تتابع الأوقات وتكرار المرات ؛ وسورة الفاتحة كما نعرف جميعاً تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ، إياك نعبد ، وإياك نستعين ،

(١) أقيمت يوم الجمعة ١١ شوال سنة ١٣٨٤ هـ ١٢ فبراير

سنة ١٩٦٥ م .

اهدنّا الصراطَ المستقيمَ ، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم ، غيرِ المغضوبِ عليهم ، ولا الضالينَ . في هذه الآيات السبع التي لا تستغرق تلاوتها دقيقة من الزمن تتجمع أصول جلية للدين الإلهي الخالد ، فهي تقرر أن البدء في العمل والقول يكون باسم الله ، وأن الرحمة الواسعة الشاملة المطلقة من اختصاص الله ، وأن الحمد كله يجب أن يكون لله . وأن الربوبية الشاملة الكاملة لا تجوز لغير الله ، وأن الأمر كله يوم البعث والجزاء بيد الله ، وأن العبادة له ، والاستعانة به وحده . وأن نعمة الله لمن اهتدى واستقام ، وأن غضبه وعقابه لمن طغى وبغى ، أو جهل وضل . وتمضى السورة في عرض هذه الأسس بتنسيق عجيب وتسلسل لطيف ، فتبدأ بتلمس البركة عن طريق الاستفتاح باسم الله : « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ » . ويلى ذلك ثناء على الله : « الحمدُ لله » ، ثم تسبيح لله وتمجيد : « ربِّ العالمينَ » ، ثم تأكيد لفضله ورحمته مرة ثانية : « الرحمن الرحيمِ » ثم تقرير لسلطانه العام يوم الجزاء : « مالكِ يومِ الدينِ » ، ثم عبادة خالصة لله : « إياكَ نعبدُ » ، ثم استعانة خالصة بالله : « وإياكَ نستعين » ، ثم رجاء للاهتداء بهدى الله : « إهدنّا الصراطَ المستقيمَ » ، ثم تحديد لأهل الخير : « صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم » ، ثم تمييز لأهل الشر : « غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالينَ » . وكل هذا في أقل من دقيقة .

ومن لطائف هذه السورة الوجيزة المعجزة أنها تتحدث عن صفات الله عز وجل فيأتى حديثها ممثلاً لثلاث شعب : شعبة تتعلق بالبداية ، وشعبة تتعلق بالوسط وهو مجرى الحياة ، وشعبة تتعلق بالنهاية ، فهي تشير إلى البداية حين تتحدث عن الإيجاد الرباني ، والإبداع الإلهي ، فنقول : « الحمدُ لله رب العالمين » أى موجدهم وموجههم والقائم على أمورهم ، ثم تشير إلى الوسط حينما تتحدث عن الرحمة الواسعة التي يفيضها الله تعالى على عباده منذ الأزل . ولا يزال يفيضها عليهم كل يوم إلى الأبد ، ولا غرو ولا عجب ،

فهو « الرحمن الرحيم » أى المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، وخفيها وظاهرها ، وماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وفى كل يوم يتجلى الله على عباده بآيات رحمته وآلاء بركته ، ثم تشير إلى النهاية ، وهى تأتى عند الرجوع إلى الله عقب البعث من القبور ، والاجتماع يوم النشور ، وإذا كان الله قد سيطر على الخلق فى البداية لأنه الخالق ، وسيطر على الخلق فى الوسط لأنه المنعم المتفضل على الدوام ، فإنه سيكون كذلك المسيطر يوم اللقاء الأخير : « مالك يوم الدين » . وإذا كنت أيها الإنسان قد عرفت أن الله تعالى هو المتصف بصفات الجلال والكمال والجمال فى البداية : لأنه خلق وأنشأ وربى ، وأنه المتصف بصفات الجلال والجمال والكمال فيما بين البداية والنهاية ، لأنه صاحب الفضل العظيم الموجود الدائم ، وأنه المتصف بصفات الجلال والجمال والكمال فى النهاية لأنه الباعث المحاسب المعاقب المثبت فى دار البقاء والخلود ، فليس لك إلا أن تخضع له وتعبده ، وحينئذ تلتفت أنت ومن معك من المؤمنين وقد عقلتم كل هذه الصفات ، وأدركتم كل هذه الحقائق : وإذا أنتم بلسان الاعتراف بالحق والخضوع لمقتضاه تقولون : « إياك نعبدُ وإياك نستعين » . ولو أن سائلا سألكم : ولم تخصصونه بالعبادة والاستعانة؟ لكان السؤال فى غير حاجة إلى ذكر لجواب ، لأنه هناك أوضح من هذا الجواب . فقد تقدمت بين يديه الدوافع والأسباب ، فقد استحق الله الاختصاص بالعبادة والاستعانة . لأنه رب العالمين . ولأنه الرحمن الرحيم ، ولأنه مالك يوم الدين .

وآية : « إياك نعبدُ وإياك نستعين » تتكون من فقرتين جليلتين . ونحن بذكرنا لأولاهما وهى : « إياك نعبد » ننزه أنفسنا عن الإشراك بالله فى العبادة فإنه لا إله إلا هو ، ولا شريك له . وله الدين الخالص . وهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، وهو الذى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ونحن بذكرنا للفقرة الأخرى وهى : « وإياك نستعين » ننزه أنفسنا عن

الاستعانة بما سوى الله تعالى ، فإذا سألنا فإننا نسأل الله ، وإذا دعونا فإنما ندعو الله ، وإذا استعنا فإننا نستعين الله ، ، وإن كان بعضنا يستعين بالآخر في ظاهر الأمور ومسالك الحياة فليس ذلك بمتعارض مع إيماننا الوطيد بأن سبب الأسباب هو الله ، وأن المعونة الأساسية من الله لا من سواه ، وهو سبحانه الذى يسخر بعض العباد لبعض ، ويربط بعض الأسباب ببعض ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، لذلك كان على كل مؤمن أن يبتهل دائماً إلى ربه فيقول : ﴿ وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي وَنَسْكَيَ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، وينبغي أن نلاحظ أن « إياك نعبد » سبقت « إياك نستعين » ، لأنه لا يليق في شرعة العقلاء أن نستعين به قبل أن نعبده ، بل المنطق السليم هو أن نعرفه أولاً ، ثم نعبده ثانياً ، ثم نرجو رحمته بعد ذلك ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ، فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا شعاع خاطف نقبسه في مجالنا الضيق من شمس سورة الفاتحة التي تضم ما لا يحصى من الأشعة والأضواء ، ومن هذا الشعاع . نستطيع أن نفهم بعض الحكمة في اختيارها لتلاوتها في كل صلاة ، ولو اتسع نطاق التدبر والتأمل لعرفنا بالتفصيل كيف تنطوي هذه السورة الوجيهة المعجزة على دقائق وحقائق تجعلها أهلاً لهذه المكانة التي نوه بها القرآن حيث قال : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

سيد الاستغفار (١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، أحمدته سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله القائل : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله القائل « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وصحابته ، وأتباعه وشيعته ، والذين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون » ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الكمال لله وحده ، والإنسان مهما بذل في الحياة عرضة للخطأ أو التقصير ولقد أشار الرسول إلى هذا حين قال : « لا يدخل أحدكم عمله الجنة . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ . قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ، وكان الإنسان قد خلقه الله تعالى كذلك ليحس دائماً ب حاجته إلى خالقه وبارئه فيبقى في نفسه عنصر الهيبة والإجلال لهذا الخالق العظيم سبحانه ، ويبقى على لسانه صوت الدعاء والرجاء من الله مولاه ، ولذلك جاء في السنة : « الدعاء مخ العبادة » وجاء فيها « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » . ومن اللافت للنظر المثير للفكر أن مادة المغفرة والاستغفار قد وردت في القرآن المجيد أكثر من ثلاثمائة مرة ، وأن وصف الله بصفة « الغفور » ورد نحو مائة مرة ، وأن وصفه بأنه « غفور رحيم » ورد نحو ستين مرة ، والله جل جلاله يأمرنا بالاستغفار فيقول : « واستغفروا لله إن الله غفورٌ رحيم » ويقول الرسول : « فسبح

(١) أقيمت يوم الجمعة ١٦ محرم سنة ١٣٩٩ هـ ٨ فبراير سنة ١٩٧٤ م .

بحمد ربك واستغفروه إنه كان تواباً». وكان الرسول إذا قام من المجلس قال سبحانك اللهم وبحمدك ، استغفرك وأتوب إليك ، وما أشد حاجتنا إلى تكرار الاستغفار ، خلال غمرات الغفلة والنسيان ، وشوائب التقصير والانحراف . حتى نجدد الصلة بربنا من حين إلى حين ، ونعاود الاستقامة على صراطه قدر ما نستطيع .

وإذا كان هناك أكثر من صيغة أو عبارة للاستغفار تكفلت ببيانها كتب السنة ، فقد أرشدنا سيدنا رسول الله إلى سيد الاستغفار ، فقال فيما يرويه البخارى : « سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء لك بذنبي ، أغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » . ثم قال النبي : « ومن قالها من النهار مؤمناً بها فمات بها من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو مؤمن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » . وتسمية هذا النص النبوى الكريم بأنه « سيد الاستغفار » تفيد أنه أفضل العبارات وأحسنها : وأنه الأكثر نفعاً لقائله عند توافر الإخلاص واليقين ، ولما كان هذا الدعاء جامعاً لمعاني التوبة كلها استعير له اسم « السيد » كأنه قد ساد غيره وعلاه . وحق له ذلك فهو يبدأ بقوله : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت » وهذا اتجاه إلى الله فى علاه ، وإقرار له بالألوهية والربوبية والوحدانية ، والتوحيد هو لب الدين وجوهر الإيمان « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » . « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » فى الله ، أناديك وأناجيك وألجأ إليك وأعتمد عليك ، لا رب لى غيرك ، ولا معبود لى سواك : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت » . أنت خلقتنى ورزقتنى ، وأنت الذى رببتنى ونميتنى . وأنت الذى حفظتنى وصتتنى :

الذى خلقنى . . . الآيات

يا منتهى الآمال أنت كفلتنى وحفظتنى
وعدا الزمان على كى يفتالنى فمنعتنى
فانقاد لى متخشعاً لما رآك نصرتنى
وكسوتنى نوب الغنى ومن المذلة صنتنى
فإذا سكت بدأتى وإذا سألتك زدتنى
وإذا شكرت غمرتنى ففحنتى وبهرتنى

« خلقتنى وأنا عبدك » هذا تعبير كالدليل على استحقاق الله جل جلاله للألوهية والربوبية والوحدانية ، فهو بديع السموات والأرض ، وهو الخالق لعباده ، الرازق لهم . وهم لا غنى لهم عنه ، فهم إذن عبيده وأسارى فضله ، « أفن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » .

« وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت » : أنا يارب على ما عاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك والخضوع لأمرك والإنخلاق لك ، فأنا مقيم على عهدك ، مستمسك بدينك ، طائع لأمرك ، وهذه مقابلة للجميل بالجميل « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » وإنما يقول المؤمن هنا كلمة « ما استطعت » ليدلل على أنه سيبذل كل جهد يقدر عليه ، « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وفى هذا إشارة إلى الاعتراف بالعجز والقصور عن بلوغ الكمال فى أداء حق الله سبحانه ، وكأن هذا تعليم من رسول الله لأمته أن أحداً لا يقدر على الإتيان بجميع ما يجب عليه ، ولا الوفاء بكمال الطاعات والشكر على كل النعم ، فترفق الله بعباده ، فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم وطاقهم ، إن الله بالناس لرءوف رحيم .

« أعوذ بك من شر ما صنعت » وهذا اعتراف بالتقصير وإقرار بالذنب والتجاء إلى الله جل جلاله أن يعينه ويحفظه من شر ما صنع ، بأن يتفضل بغفران الماضي ، وأن يوفق للصيانة والتحفظ من العودة إلى هذه الشرور والآثام .

« أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء لك بذنبي » : أترف لك بنعمتك على ، فأنا لم أحصل عليها بمهارتي ولا بذكائي ، بل بفضلك وكرمك وأنا لم أقم بواجب شكرك عليها ، وهذا ذنبي مني أترف به واستغفرك منه ، أيها الغفور الرحيم .

« أغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » : أنا استغفرك كما أمرت ، وأتوب إليك كما شرعت . ولا يملك المغفرة أحد سواك . فأنت القائل : « والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

إن الدعاء قوة حسية ونفسية ، فهو كالحمام الساخن ، المنظف المطهر ، الباعث على الهدوء والسكينة ، وبذلك يقوى حس الإنسان ويعتدل ، وهو قوة نفسية لأنه يجدد الصلة بالله ، ويوطد الثقة بالله ، ومن توكل على الله كفاه ، ومن رجع إليه تقبله وحماه ، وما أشد حاجتنا اليوم إلى الرجوع إلى الله . كَفَرُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مَّيِّنٌ . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

من أسرار الاستغفار (١)

لله الحمد ، فاضت من يديه على عباده النعمة ، وكتب على نفسه لخلقه الرحمة ، « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ، سبحانه سبحانه ، تقدم عفوك على عقابك ، وتغلب نعيمك على عذابك : « نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » . نشهد أن لا إله إلا أنت ؛ الكل منك وإليك ، والاعتماد بك وعليك ، ولا حول ولا قوة إلا بك يا على يا عظيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، إمام المرين ، وسيد المرشدين ، وقائد الغر المحجلين يوم الدين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آل بيته وأغصان دوحته ، والخلص الكرام من جنده وصحابته ، والموفين بعهدهم من أتباعه وشيعته ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هناك كثير من تعاليم الدين ، لا يستطيع المرء أن يصل فيها إلى الحكم الفاصل بالنظر العاجل أو الهوى المائل ، بل لابد من التأني والتحرى ، ومعرفة الغلل والأسباب ، ودراسة الحكم والثمرات ، وهنا يسهل عليه أن يحكم حكماً صائباً ، وأن يدرك ما انطوت عليه أمور ذلك الدين من أسرار وتماز ، « والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ! . . .

مر مثلاً بخاطرى موضوع المغفرة والاستغفار فى الإسلام فرأيت عجباً ، وبدالى ما يستوجب النظر ويثير الفكر ، إن آيات الاستغفار وأحاديث الحصى على التوبة كثيرة كثيرة تستلفت البصيرة والبصر ، فالقرآن الكريم لا يكتفى بإباحة الاستغفار ، بل يطالب به فيقول : « واستغفروا لله إن الله غفورٌ

(١) القيت يوم الجمعة ٢٥ صفر سنة ١٣٦٩ هـ ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٩ م .

رحيم . . . ويأتى بعض الأحاديث الشريفة فيستفيض في توسيع الياب قائلا : لو لم تذبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ، وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم . . . ويعود القرآن فيذكر العباد بأن الله هو البر الرحيم ، والروف الكريم ، الذى يجب أن يقصد لغفران الذنوب مهما كانت كبائر ، ، وأن يلجأ إليه فى الأزمان مهما كانت شدائد فيقول . « وذن يغفر الذنوب إلا الله » . . . ثم يصل الخاطئين بأسباب الرجاء والطمع ، مهما كان مقدار بعدهم عن رحاب الاستقامة ، فيقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . . . ثم يعمم المغفرة والقبول لكل من تاب وأتاب ، مهما سلف منه ، فيقول : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » . . . ويفسر هذا رسول الله عليه صلوات الله فيقول : « الذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأوا خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله لغفر لكم » . . . إلى غير ذلك من عشرات الآيات والأحاديث التى تشرق بأضواء الأمل فى التوبة والغفران . . .

قد يضل ضال فى فهم هذه النصوص المقدسة ، فيخيل إليه أن الباب مفتوح له بترحيب وبلا نظام مهما فسق واستعصى على أمر ربه ، فيقال له : كلا ، ليس الأمر كما حسبت ، فإن رب المغفرة هو رب المعاقبة ، والذى وسعت رحمته كل شىء هو نفسه الذى يقول : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » . . . ويقول : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . . . فيعترض الضال قائلا : إذن فهناك تناقض وتعارض بين بعض الآيات وبعض ، وستظل آيات المغفرة الكثيرة إذن بلا موضوع . فنقول له : إن التناقض ليس موجوداً إلا فى ذهنك الضيق وتفكيرك المحدود ، لأنك تحكم شخصك فى أمر عالمى وضعه رب العالم

للعالمين وفيهم أصناف وأشكال وألوان : وما هذا الحديث الطويل في القرآن عن الاستغفار والحض عليه إلا أسلوب الحكيم العليم في تربية الخلق ، فهو ينهض على كثير من الأسس القويمة العالية :

إن الإسلام الحنيف بأسلوبه هذا في التحريض على الاستغفار يريد ألا يصادم الطبيعة البشرية ، بل يتمشى معها بما يلائمها ، إذ هو يعرف أن الإنسان بطبيعته خطاء ، قد كتب عليه حظه من النقص والعيب ، فلو سد في وجهه باب الندم والتوبة لأخلد إلى الأرض ، وأفلس من أول الطريق ، وإذن فليتمس الإسلام للخطيء عذراً ، ولييسر لتقويمه أمراً ، وهو أن يحرضه على الاستغفار المشتمل على قوى التذكار والاستحضار ، المؤدى إلى لون من المحاسبة والمراقبة التي تحيي موات الضمير في الإنسان ، وتنقله من بيداء الضلال إلى جادة الإيمان ، ولعل الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم حينما كان يحرض صحابته على الاستغفار ويخبرهم أنه يستغفر في اليوم سبعين مرة ، لم يقصد نفع نفسه ، أو التخلص من ذنوب نسبت إليه ، فهو المعصوم الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولكنه قصد أن يعلم أتباعه كيف يفيثون بعد غفلة ، ويستقيمون بعد زلة ، ولا عجب فهو بالمؤمنين رعوف رحيم .

ومن أغراض الاستغفار والمتاب في الإسلام إظهار فضل الله الرحمن الرحيم على عباده الخياري الضعفاء فهو الذي برأهم ، وهو الذي أنعم عليهم ، وهو الذي حلم معهم ، وهو أيضاً الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ؛ فيألفها من منة لا يقدر عليها إلا الخلاق العظيم الذي يفتح أمام الخطائين عن سهو أو نسيان أو زلزلة باب الأمل والرجاء ، حتى لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سبيلاً : فإنه لا ييأس من روح الله ، إلا القوم الكافرون ؛ ويهيء لهم دائماً فرصة للارتداد والاسترجاع . والله أفرح بعبده التائب من

الذي فقد شيئاً نفيساً لديه ثم عثر عليه ؛ وها هو ذا سبحانه يجعل فرصة التطهر والتخلص ممزوجة بالتزود من الخير والاقتراب من البر فيجعل عمل الخير تكفيراً لسالف الشر ، وإتيان الحسنه محواً للسيئة ، وفي ذلك ما فيه من الإغراء والتحريض على الدنو من حمى الخيرات . فيقول : « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » ويقول عن فريق من عباده الناجين بمشيئته : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » . ويقول رسوله عليه السلام : « واتبع الحسنه السيئه تمحها وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن ثمرات الاستغفار الذي جعله الإسلام متكرراً ما تكرر الذنب والخطأ ، تربية الحياء والخجل في نفس الإنسان ، فإنه إذا أخطأ ثم استغفر فغفر له ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، حدثته نفسه — إن لم تكن قد ماتت — بأن هذا لا يليق به كإنسان ، ولا يجدر به كرجل حر ذى ضمير ، فيخجل من نفسه ، ويستحي من تكرار خطئه ، فيستشعر في صدره قوة عزم على المقاومة للهوى ، والمغالبة للشيطان حتى يقهره ويستجيب لنداء الرحمن ، ولعل هذا هو المعنى الذي أراده على رضى الله عنه حينما جاءه شخص فسأله قائلاً : رجل أذنب فماذا يفعل ؟ . قال على : يتوب ويستغفر ! . قال الرجل : قد فعل ثم عاد ! . قال على : يتوب ويستغفر ! . قال الرجل : قد فعل ثم عاد ! . . . قال على : يتوب ويستغفر ولو فعل ذلك مائة مرة حتى يخزى الشيطان ! . . . ولو فرضنا ما لا يليق بالمرء وهو أن يستمر في غيه وبغيه بلا خجل أو ارعواء ، رغم انفتاح باب المتاب أمامه ، لحقق الإسلام من ذلك شيئاً آخر هو الإعذار إلى مثل هذا الميت الخليل كيلا يكون له على الله حجة بعد ما ساسه بكل أساليب الرحمة والتكريم ! . . .

ومن فوائد الإكثار من حديث الاستغفار إشعار الهداة وتذكير المصلحين بأن الخطأ والزلل من طبيعة البشر ، فيجب على أولئك المرشدين أن تتسع

صلورهم ، وأن تقوى عزائمهم ، وأن يجمل صبرهم ، فلا يتضايقون ولا يياسوا لرؤية الفشل أو تكرار الزلل ، بل يحتلمون الصدمات ويعادون الكرات والمحاولات ، إذ لو كان الخير عاماً وطبيعة في الناس لما احتجنا إلى معلمين ومقومين ، ولكن الله يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ويقول : « وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . . .

ولاننسى أيضاً ما في الاستغفار والدعاء والمناجاة من لذة روحية وطمأنينة نفسية ، وتباعد عن صخب الحياة ، واتصال بالملأ الأعلى . وفي ذلك استعداد قوى وتهيؤ فعال لحسن التحول وكريم الاتجاه ، ولعل هذا هو مغزى الحديث النبوي الشريف : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

يا أتباع محمد عليه السلام . .

الكمال المطلق للبشر محال ، والعصمة للأنبياء والمرسلين ، والخضوع المطلق للهوى الأثيم ضلال أي ضلال ، فلم يبق إذن إلا أن نحاول الخير ما استطعنا ، ولا يضيرنا أن نعر أو نزل ، فذلك حظ مقسوم ، ولكن يضيرنا أن نستمر على الخطأ أو نرضى به ، أو نسعى إليه مختارين مستحلين ، فلنرفع رءوسنا مرة جديدة أخرى ، ولنطو صفحات الماضي بما فيه ، ولنستغفر الله إنه هو الغفور الرحيم ، ولنبدأ الطريق من جديد ، فلن يقطع علينا الحلیم الكريم ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

هدف الدعاء (١)

الحمد لله عز وجل ، هو سميع الدعاء محقق الرجاء : « آمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون » أشهد أن لا إله إلا الله يحكم بالعدل ويمن بالفضل « إن رحمة الله قريب من المحسنين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من دعا وعمل ، وآمن وأحسن ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

الدعاء أمر مشروع في الإسلام ، بل هو شئ محبوب مطلوب ، وقد قال الله جل جلاله : « وقال ربكم أدعوني أستجب لكم » وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض » ولكن آلافاً من الناس يدعون معتقدين أن كل المطلوب منهم هو تحريك ألسنتهم ، ثم ينتظرون في كسل وبلادة تحقيق ما أرادوا ، فإذا لم يتحقق غضبوا وثاروا ، أو عصفت بقلوبهم الشكوك والأوهام ، وبذلك تضيع جهود وأوقات ، وتتحرف أفكار ومفاهيم ، كما تزهد روح الاستجابة العملية التي أرادها الإسلام من الداعي حين يردد دعاءه ، فلو تدبر في معاني الكلمات التي يدعو بها ، لثارت هذه المعاني في نفسه ، وذكرته بما يجب أن يكون عليه من خير وفضل ، وجد وعمل ، وما يجب أن ينأى عنه من شر وعجز ، وجمود وكسل ، فيندفع بحسه ونفسه ، في مسالك هذه الاستجابة وأسبابها ، فيكون أهلاً لإعانة الله له ، وتحقيق الأقدار لما أرادته في دعائه ، وكأن الله

(١) القيت يوم الجمعة ٢٦ شعبان سنة ١٣٨٦ هـ ٩ ديسمبر سنة ١٩٦٦ م .

تبارك وتعالى يشير إلى هذا المعنى في قوله : « وَإِذَا سَأَلَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يُرْشَدُونَ » فهو يذكر عباده في مقام الدعاء ومقام التحقيق لهذا الدعاء بالاستجابة ، وهي إقبال عملي على مواطن الرضى الإلهي ومواقع الطاعة المقبولة ويذكر بالإيمان والإيمان تصديق ويقين يصحبهما عزم وهمة وتصميم ، ويذكر بالرشد ، والرشاد يفيد الصواب في العمل ، والمواقفة للحق والمصاحبة للواجب ، فكأنه يقول اعملوا وأطيعوا ، وأنا أحقق لكم دعاءكم ورجاءكم ، « إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » .

وفي الحديث : « الدعاء مخ العبادة » وفي رواية : « الدعاء هو العبادة » أى أن الدعاء هو كالعقل الواعي للعبادة المذكور بها ، فالداعي يستثير كل جوارحه وحواسه ، لتكون حاضرة مهياً للاستجابة ، ومعنى العبادة واسع فسيح ، فكل عمل طيب يؤدي بنية طيبة مخلصه يكون عبادة . وفي الحديث أيضاً : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » أى ادعوا الله بحيث تكونون على حالة تستحقون فيها الإجابة ، وهي حالة العمل والطاعة والمجاهدة ، وأما الدعاء مع غفلة عن الواجبات أو لهو عن الأعمال فهو غير جدير بالإجابة ، ولذلك قال عمر الفاروق : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويرفع يديه نحو السماء ويقول : اللهم أرزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » ثم حرص بعد ذلك على العمل والجد ، فالدعاء لم يشرع ليكون متممة سلبية ، أو ترديداً لكلمات دون استشعار لمعناها أو استجابة لمغزاها ، وإنما الدعاء كأنه لون من التوجيه والإدعاء : تردد الشفاه الكلمات ، فيحسن العقل تلقى معناها ، ويحسن القلب الاستجابة للتأثر بهذا المعنى ، ويشيع هذا التأثير في الإنسان ، وينتقل من مجال النفس إلى مجال الحس ، فتشرع الهمة في تسخير الأعضاء والحواس ، (م ٣ — خطب ج ١)

فيرتفع المرء إلى درجة الرضا الإلهي ، فيستحق منه الرعاية ، ويكون أهلاً لموطن العناية ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وحيثما نرجع إلى روضة السنة المطهرة نجد فيها من الأدعية ما نستطيع أن نعدّه لوناً من الحث والتحريض على إثارة معاني العزم والحزم والتصميم في نفس من أصابه فتور أو حزن ، وكان الدعاء في هذه الحالة حمام ساخن للبدن والنفس معاً ، يشملهما بمائه الطهور ، فيوجد فيهما اليقظة والنشاط ، ويدفع بهما إلى مواصلة الجهد في سبيل ما يريد الإنسان ، ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً جالساً في المسجد ، فقال له : « مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة » فشكا الرجل إليه هوماً وديوناً لزمته ، فقال له الرسول : « قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » . والواجب أن نطيل التأمل في قوله صلى الله عليه وسلم : « مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة » . كأن المكان الطبيعي للرجل في غير وقت الصلاة هو مجال العمل والكسب ، ولنتأمل كذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمسيت وإذا أصبحت » . كأنه يعلمه أن يجعل حديث التصميم والعزم والتأني على الضعف فاتحة يومه وخاتمة ، ليكون ذلك محرّضاً دائماً لحسه ونفسه . ولنتأمل أيضاً قوله : « اللهم إني أعوذ بك . . . » فهو هنا يستعيز بالله من شر قبيح ، ومن أمر يفر منه الإنسان إلى من يعصمه منه ، ولنتأمل قوله : « غلبة الدين وقهر الرجال » . كأن الداء الدوي في الإنسان هو أن يستسلم فيصبح مغلوباً أمام مشكلة أو مقهوراً لغيره من الناس . أليس هذا تحريضاً قوياً على الإحساس بمعاني الدعوات ، والاستجابة لما يليق بالإنسان العاقل البصير عند تذكر معانيها من جد واجتهاد؟! .

ولقد تعلمنا من تراثنا الديني أن الله تبارك وتعالى يجعل الاستجابة للدعاء في صور مختلفة ، فقد يجعل للإنسان قضاء ما يريد من أمور مادية ، وقد يؤجل له ذلك إلى حين ، وقد يعوضه عما يريد بما هو أفضل منه في دينه أو خلقه أو علمه أو سمعته أو غير ذلك من النواحي ، وكأن معنى هذا أن الدعاء ليس جواز مرور مباشر من الإنسان إلى ما يريد في كل الأحوال ، بل مرجع ذلك إلى الله القدير الذي تصير إليه الأمور ، وفي هذا ما فيه من توجيه للإنسان كي يظل حريصاً على رضى هذا الإله العظيم ، وعلى الاستمسك بما يأمر به والابتعاد عما يحذر منه ، وعلى الاستسلام للقانع الخاشع المطمئن المرحب بكل ما يقضيه الله ويأتي به ، حتى يكون المرء جديراً باستماع هذا الإله العظيم لدعائه ، واستجابته لرجائه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليكن دعاؤنا دائماً مقروناً باستشارة للنفس ، وتنبية للحس ، وإيقاظ للعزم ، ودفع بالهمة إلى الأمام في مضاء ، ولتتدبر مثل هذا الدعاء الذى دعا به أحد العقلاء : اللهم هبني الصبر والقوة لأرضى بما ليس منه بد ، وهبني الشجاعة والهمة لأميز ما تقوى على تغييره اليد ، وهبني الرشاد والحكمة لأميز بين هذا وذاك . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلو ربكم التوفيق يستجب لكم .

من دعوات الرسول صلى الله عليه وسلم (١)

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يتقبلُ التوبةَ عن عباده ويعفو عن السيئات والهفوات ، وهو اللطيف الخبير ، أحمدُه سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو واسع العطاء سميعُ الدعاء ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، استعاذُ بربه من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء ، فوقاه ربه وهو خير الحافظين ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وشيعته ، والسائرین على طريقته الذين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

جاء في الحديث الصحيح : « الدعاء مخ العبادة » ، وذلك لأن الداعي الواعى هو الذى إذا تدبر معانى الكلمات التى يرددُها لسانه ويدعو بها ، ثارت هذه المعانى فى نفسه ، وذكرته بما يجب أن يكون عليه من خير وفضل ، وجد وعمل ، وما يجب أن يحذره من سوء وإثم ، أو جمود وكسل ، فيندفع بحسه ونفسه فى طرق هذه الاستجابة وأسبابها ، فيكون أهلاً لإعانة الله له ، وتحقيق الأقدار لما أرادَه فى دعائه السليم القويم ، فكأن الدعوات حينئذ حوافز روحية تدفع الإنسان أثناء التدبر العميق لكلمات الدعاء إلى الأسباب والوسائل الموصلة لتحقيق هذه المعانى التى يديرها بعقله ، ويحظرها فى قلبه ، ويرددها بلسانه ، فيكون ممن قال لهم ربهم : « وقال ربكم أدعوني أستجب لكم » . وكأنى أفهم أن الله تبارك وتعالى يشير إلى هذا المعنى فى قوله عز من قائل : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » فإن الله تعالى يذكر عباده فى

(١) القيت يوم الجمعة ٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ
٢١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ م .

مقام الدعاء بالاستجابة ، وهى لإقبال عملى على مواطن الرضى الإلهى ، ومواقع الطاعة المقبولة ، ويذكرهم كذلك بالإيمان ، والإيمان تصديق ويقين بصاحبهما عزم وهمة وتصميم ، ويذكرهم بالرشد ، والرشاد يفيد الصواب فى العمل ، والموافقة للحق ، والمصاحبة للواجب ، فكأنه سبحانه يقول وهو أعلم بمراده :
أدعوني وأنتم مستجبون لى ، مؤمنون بى ، سالكون طريق الحق والصواب
نحوى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ،
واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون ﴾ (١) .

وللرسول صلوات الله وسلامه عليه أدعية كثيرة بليغة ليت المسلم يعكف عليها ، ويستمد منها ، ليكون ممن اهتدى بهدى سيدنا وقائدنا وإمامنا وزعيمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ومن جوامع الكلم فى دعائه قوله : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وعمل لا يرفع ، ودعاء لا يُسمع » (٢) . وهو دعاء قصير بليغ ، فيه أكثر من حكمة وأكثر من عظة ، فهو يبدأ بقول الرسول « اللهم إني أعوذ بك » ، والاستعاذة هى الالتجاء والتحصن والاستنجاد ولا يجوز لمسلم أن يطلب الحفظ والأمان إلا من الله واهب القوى والقدر ، ولذلك علم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعين به ، ويلتجىء إليه ، فقال له : « وإماماً ينزغناك من الشيطان نزعاً فاستعد بالله إنه سميعٌ عليمٌ » وقال له : « فإذا قرأت القرآن فاستعد بالله من الشيطان الرجيم » ، وقال له عز من قائل : « قل أعوذُ بربِّ الفلقِ من شرِّ ما خلقَ ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقبَ ، ومن شرِّ النفاثاتِ فى القعدِ ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسدَ » ، وقال له :

(١) انظر كتابى « وسائل تقدم المسلمين » ص ٥٠ .

(٢) حديث صحيح رواه أحمد والحاكم وابن حبان فى صحيحه وفى رواية « اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من كل هؤلاء الأربع » رواه الترمذى والنسائى والحاكم وابن ماجه .

« قلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ .
الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ » .

وأول دعوة دعاها الرسول هنا : « اللهم إني أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ »
وهكذا يعلمنا رسول الله التمييز وحسن الاختيار ، فيتعلم الإنسان ما يفيدُه
وينفَعُه في دينه ودنياه ، . يحذر العلوم التي تضر وتسيء ، كالسحر والكهانة
وعلوم الزندقة والإلحاد ، ووسائل التحريض على الفسق والفجور والفساد ،
وإذا كان المسلم يستعين بالله — كما علمه رسول الله — من العلم القتال المضل
الذي لا ينفع ، أو الذي لا يحقق المصلحة الفردية والجماعية ، فواجهه مع ذلك
أن يطلب العلم الصالح النافع المحقق لمطلب الحياة السليمة العظيمة التي يعيشها
الأحرار الأبرار ، ومن هنا جعل الإسلام العلم فريضة على كل مسلم ، وقال
الحق جل جلاله : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » . وكأن هذه الدعوة توجهه نبوي
كريم إلى ولاية الأمور في الإسلام أن يغربلوا مناهج تعليمهم وثقافتهم ليظهرها
من كل دخيل أو عليل ، وأن يقووا فيها جوانب الخير والبر ، وفي طليعتها
التربية الدينية والأخلاقية التي تظهر وتعمّر ، فذلك هو طريق الخير في الدنيا
والآخرة « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

والدعوة النبوية الثانية : « وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَمَلٍ لَا يَرْفَعُ » ، أي لا يقبل
عند الله ، بل يرد على صاحبه كما يرد الثوب الخلق القدر ، وإذا العلم الصحيح
السليم النافع قاعدة أساسية للإيمان والعمل الطيب المثمر ، فلا بد أن يكون من
وراء هذا العلم تطبيق وتنفيذ ، وما دام العلم سليماً قوياً ، فمن الواجب في شرعة
العقلاء أن يكون العمل كريماً نافعاً ، حتى يرفع إلى مقام القبول والرضى
والرضوان من الله عز وجل ، وقد أرشدنا القرآن إلى العمل الذي يرفع ،
وقرر أنه العمل الصالح : « مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ »

ومكرٌ أولئك هو يبورُ . كما قرر الكتاب العزيز أن من أراد لقاء الله لقاء حسناً يزينه الثواب والنعم فعليه بهذا العمل الصالح ، المرفوع المقبول : « قل إنما أنا بشرٌ مثلكم . يوحى إلىّ إنما لهكم إلهٌ واحدٌ ، فمن كان يرجو لقاءَ ربه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادةِ ربهِ أحداً » كما قرر أن أصحاب العمل الصالح هم الناجون من الخسران والبوار : « والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . والعمل الصالح ليس مقصوراً على العبادات الدينية المفروضة ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، وإن كانت تأتي في القمة وفي المقدمة ، بل يشمل العمل الصالح كل جهد نافع يبذله الإنسان فيحقق به خيراً أو نفعاً لنفسه أو لأسرته أو لوطنه أو للانسانية كلها ، وما أكثر هذه الأعمال .

والدعوة النبوية الثالثة : « وأعوذ بك من دعاء لا يسمع » أى لا يقبل عند الله ولا يستجاب له وقد أرشدنا رسول الله في حديث آخر إلى طريق الاستجابة في الدعاء فقال : « أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » أى ادعوا ربكم وأنتم بحال تستحقون فيها الإجابة ، وهى حالة القيام بطاعة الله تعالى ، واليقين بأنه يجيب الداعي إذا دعاه باستقامة وإخلاص ، وأما إذا دعا الإنسان وهو غافل عن واجبه لاه عن طاعته ، والقرآن الكريم يقول : « إنما يتقبلُ الله من المتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

العلم النافع والعمل الصالح ، والدعاء المخلص . . . إنها ثلاثة أعمدة تنهض عليها حياة المسلم الكريم ، فتعلموا وأعملوا وادعوا ربكم وأنتم موقنون بالإجابة أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

فانا أول العابدين^(١)

الحمد لله جل جلاله ، تعالى عن الشبيه والنظير : ليس كمثلهِ شيءٌ وهوَ السميعُ البصيرُ ، أحمدُه سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وله الكبرياءُ في السمواتِ والأرضِ ، وهو العزيز الحكيمُ ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أول من استجاب وطليعة من أناب ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى أغصان دوحته وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته « لهمُ البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديلَ لكلماتِ الله ذلكَ هو الفوزُ العظيمُ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن نقص الثقافة الإسلامية عند شبابنا ظاهرة فاشية مؤسفة ، لا يقتصر ضررها على هؤلاء الشباب ، بل يتسع أثرها وشرها ، حتى تسيء إلى الإسلام نفسه . لأن أبناء الدين مظهر له وعنوان ، والناس ينظرون إلى الدين من خلال تصرفات أبنائه وأقوالهم ، فإذا كان هؤلاء الأبناء يجهلون مبادئ الدين وتعاليمه ، فإنهم يعطون صورة مشوهة لهذا الدين ، ويظهرون بمظهر سيء مخجل أمام أهل الأديان الأخرى . ويزداد الأمر خطورة إذا تذكرنا أن هناك من يصيدون في الماء العكر . فيرددون الشبهات . ويروجون المقتريات ، ويسلكون طريقة المشككين الماكرين ، فيخادعون الغافلين عن فهم الدين ، المعرضين عن تدبر القرآن الحكيم .

وهذا نموذج من ذلك القبيل : جاءني شاب مسلم تبدو عليه الحيرة والضيق والقلق ، وقال لي إن شاباً غير مسلم قد أخرجته منذ حين فسأله عن آية في كتاب الله لم يعرف معناها ، فسخر منه وشككته وأثاره . فقلت له

(١) القيت يوم الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٩٤ هـ ٥ يوليه سنة ١٩٧٤ م .

بهدهوء : لعل العيب منك ، لأنك لم تحسن أولاً اختيار من تخالط ، ولأنك لم تكن ثانياً بتفقه دينك وتدبر قرآنك ، ولأنك لم تبادر ثالثاً إلى تطلب المعرفة من أهلها مع أن دينك يقول لك : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . ثم سألته عن الآية التي شككها السائل فيها : فقال : هي الآية التي تقول : « قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أولُ العابدين » . فقلت له : هون عليك ، وافهم أولاً أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً ، وأنه كل لا يتجزأ ، ويجب أن يؤخذ ككل ، لأن الآيات الكريمة تفهم مجتمعة متلاقية متعاونة ، والقرآن الحكيم قد عني في طليعة ما عني به — بتقرير الوجدانية وتأكيدها . ونبي الولد والصاحبة عن الله جل جلاله ، فقال مثلاً : « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه » وقال : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذ ذل لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون » وقال « وأنه تعالى جد ربنا (أى جلاله وسلطانه) ما اتخذ صاحبةً ولا ولدأ » . والآية المستول عنها تقول : « قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أولُ العابدين » ، وهى فى سورة الزخرف ، وقد تكرر اسم الرحمن فى هذه السورة سبع مرات ، والرحمن أحد أسماء الله الحسنى ، ومعناه : المنعم بجلائل النعم ، أو كثير الإحسان إلى العباد ، أو الذى تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، وهى إفاضة النعم والإحسان على الخلائق . ومعنى الآية باختصار هو أن الله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للكافرين والمشركين : إن كان لله المنعم الأول ولد — كما تزعمون وتفترون — فأنا أول العابدين الموحدين لله ، المكذبين لافتراءكم عليه بنسبة الولد إليه ، فهو هو سبحانه الأمر بقوله : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، فإن كان للرحمن ولد فى زعمكم الواهم أو وهمكم الزاعم . فلست من الزاعمين أو الواهين ، بل أنا أول العابدين له على بصيرة قريباً واحداً لا شريك له ولا معبود سواه ، فأنا

أعبده على أساس الحقيقة والواقع ، وهو أنه لا ولد له ، وأنا أول من يكذب
تكذيباً عملياً ذلك الاقتراء على الله عز وجل .

أو يكون معنى الآية : قل لهم يا محمد ، إن كان للرحمن ولد فرضاً ،
فأنا ملتزم طاعة ربي في كل الأحوال ، لأنني عبد من عبيده ، مطيع لجميع
ما يأمرني به ، ليس عندي أى إباء أو استكبار عن عبادته ، فلو فرض هذا
لكان هذا ، ولكن هذا الفرض ممتنع في حقه ، مستحيل عليه جل جلاله ،
والأمر على حد قوله في آية أخرى : « لو أرادَ اللهُ أن يتخذَ ولداً لا صطفىَ
مما يخلقُ ما يشاء سبحانهُ هو اللهُ الواحدُ القهارُ » . ولذلك جاء بعد الآية المستول
عنها مباشرة قوله : « سبحان ربِّ السمواتِ والأرضِ ربِّ العرشِ عما يصفونُ
فندرم نحرؤوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » . أى تقدس ربنا ،
وتنزه في جلاله وكماله . فهو خالق الأشياء كلها . ومالك الأشياء كلها ،
 ورب السموات كلها ، ورب الأرض كلها ، ورب العرش كله : تنزه عن
أن يكون له ولد ، بل هو الله الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفواً أحد .

وكان الله تبارك وتعالى يريد - وهو أعلم بمراده - أن يعلم رسوله الأكرم
صلى الله عليه وسلم ، الطاعة المطلقة لله الرحمن في كل الأحوال ، بلا تردد
ولا توقف ، فالحق واضح ، والصراط لائح ، واليقين موفور :

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهو على يقين من أمره ، وعلى
نور من ربه ، يجعل نفسه أول العابدين ، وأول المستجيبين وأول الملتزمين
بصفة العبودية الكاملة والطاعة الشاملة . لله الخالق البارئ المصور : الله لا إله
إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنةٌ ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرضِ

من ذا الذى يشفعُ عندهَ إلا بإذنهِ يعلمُ ما بينَ أيديهمُ وما خلفهمُ
ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلا ما شاءَ وسع كرميهُ السمواتِ والأرضَ
ولا يؤدُّهُ حفظهما وهو العليُّ العظيمُ .

لقد استراح الشاب الحائر إلى الحديث الذى اتسع وامتد ، وردد وكأنه
يتحدث إلى نفسه : آه لو كنت أعرف هذا حينما سئلت ؟ قلت : يا بنى من
أدب الإسلام أن يعود أبناءه عدم الإكثار من التلفت إلى الوراء على سبيل
التحسر والتأسف ، والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم المسلم بقوله : « ولا تقل
لو أنى فعلت كذا لكان كذا فإن لو تفتح باب الشيطان » . وأدب الإسلام
يعود أبناءه التطلع إلى المستقبل بعين الثقة والهمة والعزيمة وحسن الرجاء فى
الله أرحم الراحمين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

ان القرآن الكريم كنز قد نعرف بدايته ولكننا مهما بذلنا لا نبلغ غايته ،
وهو مآدبة الله فى الأرض كما قال الصادق المصدوق صلوات الله عليه ، ومن
واجبنا أن نقبل إليه وأن نتدبر فيه ، حتى تكون على بصيرة من أمرنا ، وهذه
من ديننا ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين .
أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

طريق السعادة^(١)

الحمد لله ، عز وجل خلق الخلق وهو يريد بهم اليسر ، ولا يريد بهم العسر ، وهو اللطيف الخبير ، وأجرى الرزق ليبدى عظمه ، ويظهر كرمه وهو الرؤوف الرحيم ؛ نشهد أن لا إله إلا الله ، أوضح الطرق والمعالم ، ويسر المناهج والمغام : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أرضى مولاه ولم يضع دنياه ، وعمل لأخراه ولم ينس أولاه ، ففاز فوزاً عظيماً ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعمل الخيرة الطيبة من آله ، والصفوة النقية من أصحابه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

كل إنسان في الحياة يبحث جاهداً عن السعادة ، ويود الوصول إليها والحصول عليها بأي ثمن من الأثمان ، وكثير من الواهين يدعون أن السعادة لفظ لا حقيقة له ، وخيال يبتدعه الوهم ويكذبه الواقع ؛ ويظهر أن هؤلاء جاهلون أو مخادعون ، لأنه لا يعقل أن يخلقنا الله تعالى في هذا الكون الواسع المليء بالآلاء والخيرات ، والنعم والبركات ، وهو يريد لنا جميعاً أن نشقى ، وكيف والله يقول لرسوله : « طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ويقول : « فإما يأتيكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى » ؟ وهو أيضاً يجعل الأشقياء أهل النار : « فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق » ، « ويتجنبها الأشقياء ، الذي يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى » ، « كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها » ، « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين » كما يجعل للجنة السعداء : « وأما الذين سعدوا ففي الجنة

(١) القيت في مسجد الصباح يوم الجمعة ١٩٧٥/٦/٦ م .

خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرضُ ؟ . . . ولكن يظهر أن السعادة بين أيديهم وهم عن الشعور بها والالتفات إليها غافلون . . .

لو نظر هذا الإنسان الواهم إلى ذاته لوجدها مكونة من جسم همه الطعام والشراب ، وازدياد من الغذاء بلا ارعواء ، ونفس همها أن ترتفع في الآثام ، وأن تعب من الفواحش والمنكرات بلا احتشام ، وقلب متقلب ينوء بما يحمل من هموم ، وما يصطنعه من أحزان وأشجان ، ولسان ينطلق بانحناءة والفحش واللغو فيخرج جراحات لا تقبل الالتئام ، وقد لاحظ هذا الطبيب الإسلامي المشهور ثابت بن قررة ، فاستخرج منه الطريق الموصل إلى السعادة ، وصاغه في عبارة قليلة جليظة ، هي من خير ما يوضع أمام بصر المسلم وبصيرته ليديم فيها تفكيره وتدييره ، قال : «راحة الجسم في قلة الطعام ، وراحة النفس في قلة الآثام ، وراحة القلب في قلة الاهتمام ، وراحة اللسان في قلة الكلام » ! . . .

صدق الحكيم اللبيب ؛ إن راحة الجسم في قلة الطعام ، لأن الجسم آلة وقودها طعامها ، والوقود يجب أن يعطى بمقدار ، فإن زاد كان أحيث النار ، والجسم حينما نطلق له العنان ليأخذ مشتهاه يصبح نكبة على صاحبه تسلخه من الإنسانية وتلحقه بالبهيمية ، وربما عجلت له بالتلف والدمار والعقلاء إنما يأكلون ليعيشوا ، بينما السفهاء هم الذين يعيشون ليأكلوا ، ومن هنا رأينا القرآن يقول : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ويقول الرسول فيما ينسب إليه : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » ويقول : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » ويقول : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمت يقمن صلبه ، فإن كان لابعد فاعلا فثلت لطعامه ، وثلت لشرايه ، وثلت لنفسه » .

وارحة النفس في قلة الآثام ، لأن النفس أمارة بالسوء ، وهي إذا انحورت من ضوابطها وانطلقت من عقالها جرت مع الشيطان في عناق ، فاختلست وانتهكت ، وغشت وخذعت ، وظلمت وأسرفت ؛ ولذلك كان أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه ، إن استجاب لها قضت عليه ، وإن حال بينها وبين مشتاتها من البغي والإثم عادت بالخير إليه : « ونفس وما سواها ، فألمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاهها ، وقد خاب من دساها » رصديق البوصيري حين قال :

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حبِّ الرضاع وإن تفضمه ينفطم
فاصرف هواها ، وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وحين نصح فقال :

وخالف النفس والشيطان وأعصهما وإن هما عصناك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكماً فانت تعرف كيد الخصم والحكم

ولقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يدعو بهذه الكلمات الموضحة لخطر النفس على الإنسان :

« يارب ، خلقتني وأمرتني ونهيتني ، ورغبتني في ثواب ما أمرتني به ، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه ، وسلطت على عدوِّ فأسكنته صدرى ، وأسكنته مجرى دمي ، إن أهم بفاحشة شجعني ، وإن أهم بطاعة ثبطني . لا يغفل إن غفلت ، ولا ينسى إن نسيت ، ينصب لى في الشهوات ، ويتعرض لى في الشبهات ، وإلا تصرف عنى كيده يستزلى . اللهم فاقهر سلطانه على بسطانك عليه حتى تحسثه ، بكثرة ذكرى لك ، فأفوز مع المعصومين بك ، ولا حول ولا قوة إلا بك (١) !! .. »

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٩٤

وراحة القلب في قلة الاهتمام ، أرى في قلة الهم والخوف والحزن لأن القلب الضعيف الجبان المنخوب يفتح على صاحبه دائماً أبواب الهم والحزن ، ويحول بينه وبين البركات والمنن وينوده عن مواطن العزم والإقدام ، فهو يخاف من الأوهام ، ويتفزع من طيف في الظلام ، ويبعث في هم مقعد مقيم . لأنه من هلمه وفزعه يفكر في الماضي ويندم على ما فيه ، ويضيق بالحاضر فتضيع بهجته ويذهب بهاؤه ، ويتصور الغد المحجب سبباً سيفتك به فلا يستريح ، وهو يخلق له من الناس أعداء بالحق وبالباطل ، ويحسب لكلامهم وهمهم ألف حساب فيصيبه ألف عذاب ، وهو يطمع فيما لا ينال ، ويتعلق حلمه بالخيال ، مع أن ما لا يمكن أن يدرك يمكن أن يترك ، وإذا لم يكن للمرء ما يريد فليرد ما يكون ، وبذلك يتمتع الإنسان بحياته ، ويخضع أيامه لرضاه ومسراته ، ويستقبل المنحة خير استقبال ، ويحتمل الهمة أفضل احتمال ، وهذه نعمة لا يفوز بها إلا صاحب القلب الثابت على الرضا بالله حظاً ونصيلاً ، ومن هنا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يكثر من قوله في دعائه :

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ! . . .

ومتى ثبت القلب على دين الله ، واعتصم بحبل الله ، ولجأ إلى حمى الله ، فقد آوى إلى ركن شديد ، والإسلام يعلم أهله أمن النفس ، وطمأنينة القلب ، ورباطة الجأش ، فيقول القرآن في صفة المؤمنين : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ويأمرهم بالابتعاد عن الحزن وأسبابه فيقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . ويقول في صفات أولياء الله : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا كانوا يتقون » ويصف العباد المستقيمين بأنهم لا يخافون ولا يحزنون : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم

توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلاً عن غفور رحيم . »

وراحة اللسان في قلة الكلام ، لأن المكثار معثار ، واللسان إذا تعود الكلام المنطلق بلا ضابط أو رابط كان مصيبة يجلب فيها العزاء ، ولذلك أوصى الرسول فقال : « أمسك عليك لسانك » . ولقد قيل لأحد الحكماء : متى يصبح الإنسان رجلاً قوياً ؟ فأجاب : عندما يشتهي لسانه أن يقول كلمة غير حكيمة فيصده عنها بقوة واقتدار .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

هذا هو طريق السعادة في الحياة ، يستطيع كل مكلف أن يسلكه ، ومن سار على الدرب وصل ، ولقد عبر عنه آخر فقال : إن التقي هو السعيد ، والتقوى هنا معنى يتسع فيعم ما فصله الطيب الحكيم ، فإذا اتقى الجسم الإسراف في الطعام ، واتقت النفس معاطب الآثام ، واتقى القلب أحمال الهم والاعتماد ، واتقى اللسان لغو الكلام ، فقد استقام المؤمن على الصراط ، وضمن لنفسه البهجة والهناء « قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

استقامة السلوك^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو الطيب الذي لا يقبل إلا طيباً : «إليه يصعدُ الكلمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعهُ» . أشهد أن لا إله إلا الله ، أدب عباده بالحسنى ، وهدبهم بالطريقة المثلى : «صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة؟» ونحن له عابدون . . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى فروع روضته ، ونجوم صحبته ، وأتباع ملته : «للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

الدين المعاملة ، والعقائد السليمة تظهر قيمتها في تطبيقها ، والتعاليم الكريمة تبدو ثمراتها في الحرص عليها والعمل بها ، وإذا ظل الدين اعتقاداً في القلب ، أو فكرة في العقل ، أو شعوراً في النفس ، دون ترجمته أو التعبير عنه في مجال السلوك ودنيا الحس والواقع ، كان محدود الأثر أو مطوى الخبر ؛ ويراد بالسلوك ما يجمع الأطراف الكثيرة من تصرفات الإنسان وأعماله وأقواله ، وهو يشمل معاملة الإنسان مع ربه ، ومعاملته مع بني جنسه ، ومعاملته مع نفسه ؛ وقد جمع القرآن الكريم دستور الاستقامة في السلوك مع الله عز وجل في أمرين هما الإسلام والإحسان ، بأن يسلم المرء نفسه وشأنه لربه ، فينقاد له في جميع أحواله وشتى أموره ، ويحسن العمل في السر والعلن ، فلا ينحرف عن صراط الاتزان والإحسان في قليل أو كثير ، وبذلك ينال الإنسان عظيم الأجر ودائم الطمأنينة يقول القرآن : «بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» .

(١) القيت في يوم الجمعة ٩ رجب سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٦٤ م .

وإسلام المرء نفسه إلى بارئته مع الاستقامة في الحركة والسكون هو مرتبة المراقبة الدائمة والإنسان الكامل الذى يعبر عنه سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه فيقول : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . ويصوره أبو ذر بقوله : « أوصانى خليلي صلى الله عليه وسلم أن أخشى الله كأنى أراه ، فإن لم أكن أراه فإنه يرانى » . وهو مرتبة الإيمان الكامل الذى لا يفضل له إيمان ، فقد جاء في الحديث : « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » . وإذا علم المرء أن الله معه دائماً ، يرقبه ويحصى عليه ، واستشعر أنه يراه ، ويرى ما فى صدره وما فى سره ونجواه ، استقام منه السلوك والمعاملة مع هذا الإله العظيم المحيط بكل الأمور .

واستقامة السلوك مع الخلق نتيجة لاستقامة السلوك مع الخالق ، فإن المؤمن المستقيم مع ربه لن يكون إلا مستقيماً مع عباده ، يحسن إليهم ويتلطف معهم ، ومن هنا جمع الحديث النبوى بين التقوى وحسن المعاملة للناس ، فقال : « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » والواقع أن حسن الخلق هو المفتاح العجيب الذى يفتح به الإنسان قلوب البشر ، ويستحوذ به على إعجابهم ورضاهم ، وقد يعجز المرء عن إرضاء الخلق من جهة المال والمادة ، ولكنه يستطيع أن يؤثر فيهم أقوى التأثير بروحه العالية وخلقه الطيب ، ومن هنا قال إمام الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق » . والناس يشتدون في عداوة من يسيء خلقه معهم ، أو يشذ في صلاتهم بهم ، إذ يرونه متكبراً متعجرفاً . وقد نبه الهدى النبوى الكريم على مثل هذا حين قال الرسول لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر . فقال رجل : يا رسول الله ، إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً

وفعله حسناً . فقال النبي : إن الله يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس (أى إنكار الحق واحتقار الناس) .

وأما استقامة المرء في سلوكه مع نفسه فهي أن يجنبها مواطن الذلة والصغار وأن يربطها بمعالي الأمور ، فلا يرتضى لكرامته موقف مهانة ، ولا لصدره عاطفة خسة ، ولا للسانه كلمة وقاحة ، ولا لبدنه مذلة إثم ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن الله يحب معالي الأمور وأشرفها . ويكره سفاسفها » . وأن يتسامى بنفسه عمالاً يعينها أو لا يدخل في اختصاصها ، فالرسول يقول : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » وأن يباعد بينها وبين ظلمات الريبة ومضان الشك والاثم ، فالرسول يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . ويقول سرى السقطي : « الأمور ثلاثة : أمر بان لك رشده فاتبعه ، وأمر بان لك غيه فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فقف عنده ، وكله إلى الله عز وجل » .

واستقامة السلوك كما تكون في جلائل الأعمال تكون في دقائق ربما لا يحفل بها الغافلون ، فالتلطف في الأخذ ، والنبل في الإعطاء ، والشكر على الجميل ، والإشعار عند الإقبال ، والاستئذان عند الإنصراف ، والاعتدال في الصوت ، والاتزان في المشية والجلسة والنظرة ، كل هذه أمور يجب أن يلاحظها من أراد أن يحسن المعاملة مع الناس لتتحقق له استقامة السلوك . وكذلك انحراف السلوك قد يكون في أمور يحسبها الغافلون هينة ، وهي قبيحة مستهجنة ، فالبصق في الطريق ، والتمخط بلا تحفظ ، والتشاؤب في وجوه الناس ، والتجشؤ في مواجهة الجالسين ، وفتح الأبواب على أهلها بلا إشعار أو استئذان ، والاطلاع على أشياءهم بلا إذن . والانصات إلى حديث المتناجين أو المتهمسين على سبيل الاستراق والتطلع ، والتجسس على المنفردين . والنظرة الوقحة إلى المرأة أو الفتاة ، والزيارة بلا موعد أو في

وقت غير مناسب ، والإطالة في الكلام بغير موجب ، والإلحاح في السؤال عن خصوصيات الناس ، والاعوجاج في الجلسة ، والتمايل في المشية ، وقضم الأظافر بالأسنان ، واللعب في الأنف أو الفم أو الأذن بالأصابع ، كل هذه وأمثالها حقائر ليست من استقامة السلوك في شيء . والمسلم الكامل في هذه الحياة قد برأه خالقه ليكون نسمة من نسمات الربيع الحانية الجميلة ، وليكون كالعافية التي تقبل على الناس فيفرحون بها ، ويطلبون المزيد منها ، والتي قد تدبر عنهم فيتلهفون عليها ويشتاقون إليها ، ومن هنا قال سيد الخلق : « المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » ، وقال : « أقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الذين يألفون ويؤلفون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

إن رسالة المسلم في الحياة أن يكون مستقيماً مع ربه بالتقوى والخشية والمراقبة وأن يكون مستقيماً مع الناس ، يبسط يده لإيهم بالخير ، ويمنع عنهم الأذى والشر ، وأن يكون مستقيماً مع نفسه ، فيصونها عما يشينها ، ويحفظها مما يهينها ويحملها بما يزيكها ، ليفوز ويسعد : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجوراًهاوتقواها ، قد أفلح من زكاهها ، وقد خاب من دساها » ، وليحسن التدبير في قول خالقه جل جلاله : لرسوله « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الدعوة الى الله (١)

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى النعمة ومصدر الرحمة : « ان رحمة الله قريبٌ من المحسنين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو نبي الرحمة وقائد الملحمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وأصلى وأسلم على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، واستفتح بالذي هو خير ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

يقول الله جل جلاله واصفاً ذاته القدسية : « والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم » ويقول عن دينه الكريم : « له دعوة الحق » . ويقول لرسوله صلوات الله وسلامه عليه : « فلذلك فادعُ واستقم كما أمرت » . ويقول لعباده : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . ومن الحقائق البديهية التي يجب أن تؤمن بها ونسلم لها ، أن الدين أساسه الدعوة ، لأنه لا دين بغير تكليف ، ولا تكليف إلا بتبليغ ، ولا تبليغ إلا بالدعوة : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . وكذلك كانت الدعوة في نظر الإسلام أمراً مقدساً يجب الحفاظ عليه وتلزم الاستجابة إليه : ولكن الدعوة إلى الله تعالى أمانة ودراية وعلم وفن ، ولذلك كان القيام بالدعوة على وجهها ، مع التزام أصولها وآدابها ، غير متيسر لكل من هب ودب ، فإنه واجب ثقيل جليل نبيل . يحتاج إلى الأخيار من الرجال والأبرار من الأبطال ،

(١) أقيمت بمسجد الفتح بالمعادي في ١٣/١٢/١٩٧٤ ، وسجلت بعد ذلك لإذاعة القرآن الكريم .

المتذرعين بالحكمة ، المتذرعين بالصبر ، المتضلعين من المعرفة والتقنين : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . وقد أوجز القرآن الكريم التصوير لمنهج الداعية إلى الله في آيات قليلة العدد وجيزة الكلمات معجزة البيان ، فقال : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال إنني من المسلمين ، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما ينزغوك من الشيطان نزع فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم » . وهذه الآيات الكريمة تشير أول ما تشير إلى أن الداعي إلى الله ينبغي أن يكون كلامه أحسن قول مستطاع في طاقة البشر ، بحيث لا يكون هناك من هو أحسن كلاماً من الداعية إلى الله تعالى ، ولذلك قالت الآيات السابقة : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله » . والكلمة الطيبة حسنة راجحة في ميزان الإسلام ، ولذلك قال القرآن عن الأخيار من العباد : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » . وقال : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » وقال : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

ويلزم الداعية أيضاً أن تكون مخلصه خالصة لوجه الله عز وجل ، ولا يسيرها غرض ولا مرض ، ولا يتحكم فيها جاه أو سلطان ، ولذلك جاء في الآيات قوله : « دعا إلى الله » لا لمعبود سواه ولا لكائن ما عداه ، ويزكي القرآن لزوم هذا الإخلاص بقوله : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » وقوله : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب » . ومما يؤكد وجود هذا الإخلاص أن يؤيد الداعية القول بالعمل .

وَألا يكتفى بأن يعمل كيفما اتفق ، بلا إتقان أو إحسان ، بل لابد أن يكون هذا العمل عملاً نقياً طيباً ، موافقاً لقوله النقي الطيب وعقيدته السليمة الطيبة جاء في الآيات : « وعمل صالحاً » ، وما أشد استنكار القرآن المجيد للقول الذى لا يؤيده العمل أليس هو القائل : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا إذا صادف محله وأصاب أهله ، وكان ناشئاً عن اعتقاد وإيمان ، ولذلك كرر القرآن قوله : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » عشرات المرات ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنها كم عنه وفي ذلك عبرة لأولى الألباب ، « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

ومن صفات الداعية الأساسية لتكوين شخصيته القويمية : الاعتزاز بالعقيدة ، وإعلان كلمتها ، وتأكيده الثبات عليها ، والافتخار بالإنساب إليها والتحدث عنها بلا ريب أو تردد ، ولذلك جاء في الآيات : « وقال اننى من المسلمين » . ولذلك جاء في القرآن (فاصدع . . .) الخ وجاء (لا تخافون لومة لائم . . .) الخ وجاء (. . .) إني آمنت بربكم فاسمعون) وقديماً قال أحد المعتزتين بعقيدتهم وإسلامهم ، في مجتمع كان يفخر كل الفخر بالآباء والأنساب :

أبى الإسلامُ لأب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ومن صفات الداعية تمجيد الشيء الحسن ، والميل إليه بالقلب والحس ، وتقبيح الأمر السىء والبعد عنه ، وكذلك التمييز بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين الصواب والخطأ ، ولذلك جاء في الآيات : ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . « فهناك أولاً فرق واضح بين الحسنة والسيئة ، وكذلك هناك بين الحسنة والحسنة تفاوت ودرجات ، فهناك حسنة خير من حسنة أو أعلى منها ، وكذلك يوجد بين السيئة والسيئة ، تفاوت ودرجات ،

فهناك سيئة هينة أو محتملة ، وهناك سيئة ثقيلة أو وبيلة ، وهكذا . ومعرفة الفروق بين الحسنات والسيئات ، أو بين الحسنات والحسنات ، أو بين السيئات والسيئات ، تحتاج إلى علم وبصيرة وحكمة . والواجب على الداعية أن يقابل السيئة بالحسنة لاجتذاب المدعويين إلى صراط الله العزيز الحميد عن طريق احتماله وصبره ، وأن يدفع السوء بالعمل الصالح الطيب ، وأن يقاوم الشر بعوامل الخير ، وأن يزيل الخبث بطهور الإيمان ، ولذلك جاء في الآيات : « ادفعْ بالتي هيَ أحسنُ » والحديث يقول : « اتقِ اللهَ حيثما كنتَ ، واتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها ، وخالق الناسَ بخلقِ حسنٍ » . فالداعية مطالب بأن يلزم التي هي أحسن أى أحسن الخصال ، وأحسن الأحوال ، وأحسن الأقوال ، وأحسن الأعمال . والمقابلة بالتي هي أحسن إنما تكون عند الإساءة التي تقبل الاحتمال أو الإغفال ، ولكن إذا كانت الإساءة موجهة إلى العقيدة أو الأمة ، أو أخذت صورة البغى والطغيان ، فهناك تكون الحسنة نعم الحسنة . هي التأديب والردع ، ولذلك قال القرآن : « والذينَ إذا أصابهمُ البغى هم ينتصرونَ » وقال : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيلٍ » . وقال : « ولا تهنؤا ولا تحزنؤا وأنتم الأعلونَ إن كنتم مؤمنينَ »

ومن واجبات الداعية العمل على كسب الأصدقاء والأولياء باسم الله تبارك وتعالى ، وباسم الدعوة إلى دين الله عز وجل ، وتحويل الأعداء إلى أنصار وأحباب ، على أساس من الإيمان واليقين ، ببراعة وذكاء ، ولذلك جاء في الآيات : « فإذا الذى بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌ خيمٌ » . ومن واجبه أيضاً أن يتذكر دائماً أن احتمال تبعات الدعوة إلى الله ، بما فيها من التزام القول الطيب والعمل الصالح ، والجهر بالعقيدة ، ودفع السيئة بالحسنة ، أمور تحتاج إلى عزيمة راسخة وإرادة ثابتة وصبر جميل : ولذلك قالت الآيات

« وما يلقاها إلا الذين صبروا » وتحتاج أيضاً إلى قوة الشخصية والتحلى بالنصيب الأوفر من الأخلاق والعلم والحكمة ولذلك قالت الآيات : « وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم . ومن واجب الداعية عدم الاستجابة لهواتف التردد أو الشك ، والبعد عن وسوسة الشيطان أو الاستجابة له في شيء ، والاعتصام بحبل الله القوى المتين أمام إغراء الشيطان ومخادعته والتحصن بقوة الله العلي الكبير ، ولذلك جاء في الآيات : « وإما ينزغتك من الشيطان نزع فاستعذ بالله . » والقرآن يقول : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم .. » وأخيراً يجب أن يكون عند الداعية إيمان جازم بأن الله جل جلاله هو المراقب المشاهد ، وهو المثيب المجازي ، لأنه يسمع كل شيء ، ويعلم كل أمر ، وهو لا يضيع أجر العاملين ، ولذلك جاء في الآيات : « إنه هو السميع العليم . » وهكذا صورت هذه الآيات الوجيزة منهج الداعية إلى الله « ومن أحسن قولاً . . . » الخ

الإيمان طريق النصر

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يهذى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل للحرية طلابها . . . وللعزة أسبابها : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، آمن فأيقن ، وجاهد فأتقن ، فكان خير المنصورين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

هناك من يظن أن الدعوة إلى اتخاذ العقيدة والدين أساساً في القتال والنضال إنما هي بضاعة يتعود رجل الدين تقديمها بحكم صنعته وحرفته ، وهذا ضلال في التفكير وبهتان في التصوير ، ومن أقرب الدلائل على ذلك أن ضابطاً عراقياً كبيراً أصدر منذ أيام كتاباً جعل عنوانه «الوجيز في العسكرية الإسرائيلية» وهذا المؤلف هو اللواء الركن محمود شيت خطاب ، وقد تحدث فيه حديث الخبير البصير عن أهداف إسرائيل التوسعية ، وأنواع قواتها العسكرية من برية وبحرية وجوية ، وطرق التدريب والتعبئة ، والقتال عندها ، وأنواع الأسلحة التي تستوردها أو تصنعها أو تحاول صنعها ، ثم تحدث عن واجب الأمة العربية أمام عدوان إسرائيل ونزعتها التوسعية الإجرامية . ومع أن الكتاب بحث عسكري فني من رجل عسكري متخصص نلمح فيه شواهد اليقين بأن الإيمان الديني الواعي هو الطريق إلى الفوز والنصر ، فالمؤلف يفتتح كتابه بنجبر عظيم من القرآن الكريم هو قول الله جل جلاله : « لتجدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا » ، وهو يجعل إهداء الكتاب « إلى المجاهدين الذين سيرفعون راية العرب والمسلمين فوق المسجد الأقصى » وحينما يبلغ المؤلف فصل «الخاتمة» يفتتحه بشعار كريم من كلام

رب العالمين، وهو قوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وهو في عباب بحثة الفنى العسكري لا ينسى ما يعتقد به بقلبه وعقله ووجدانه ، وما يعتقد به كل مؤمن غيور على دينه ووطنه وقومه وأمه ، وهو أن العقيدة الإلهية ، والإيمان الدينى ، وروح الجهاد المقدس ، ونزعة الاستشهاد فى سبيل الله ، هى مفاتيح العزة والسعادة ، فيتلمس المواطن المناسبة تلمساً لكى يترجم عن هذا الاعتقاد بأقوى ما يستطيع ، وبأعمق ما يحس ، كأن يقول مثلاً : « يجب أن نقول للشعب العربى : إن النصر لا يكتب إلا للذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » وهو يقرر مؤكداً أن أول أسباب الانتصار على اليهود والصهيونية هو « إعادة النظر فى تربية النشء العربى ، ووضع مناهج تربيتهم على أسس مستمدة من تعاليم الدين الحنيف ، وحضارتنا العربية الأصيلة » ومن بين هذه الأسباب أيضاً التعاون مع المسلمين فى كل مكان لإنقاذ فلسطين ثم تأتى آخر صفحة من الكتاب ، وفيها يختتمه بقوله : « البشر بدون عقيدة، غناء كغناء السيل ، وللعرب عقيدة سماوية قادتهم إلى النصر ، فكانت انتصاراتهم انتصارات عقيدة لا مرأى ؛ ولما ضعف العرب صاباتهم تلك العقيدة من التفسخ والانحلال ، وهذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله : العودة إلى الإسلام بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والفداء ، وحينذاك يقول اليهود عن العرب كما قال أسلافهم من قبل : إن فيها قوماً جبارين ؛ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

إن هذا ليس كلام عالم من علماء الأزهر الشريف ، ولكنه كلام ضابط عسكري برتبة لواء ، وتزداد قيمة هذا الكلام بجلالة وخطورة حين نتذكر أن الصهيونية تتخذ من دينها المحرف أساساً لتحركاتها ومحاولاتها للقضاء على أهل الدين الحق والعقيدة الباقية والكتاب الإلهى الذى لم يتطرق إليه أدنى تحريف ، لم تزد الدهور والعصور إعجازه إلا ضياءً وبهاء ، وباعجاباً كل العجب من باطل يتوقع ويتبجح ، ويتجمع ويتوسع ، على حساب حق

ضيعه أهلوه واستخف به جاهلوه ، فهذه هي الصهيونية تسمى دولتها الأئيمة باسم نبيها « إسرائيل » ، وتحبى لغتها الدينية « العبرية » بدعوى أنها لغة التوراة والدين اليهودى ، وتصف فلسطين بأنها أرض الميعاد لهم استناداً إلى مزاعمهم ، وتجعل من أهدافها أن تتجمع حول حائط المبكى لكى تعيد هيكل سليمان وتزيل المسجد الأقصى ، وهى تجمع فلوها من شتى أنحاء العالم وتناديهم باسم اليهودية وبعنوان أنهم « شعب الله المختار » ، وأنهم يجب عليهم فى شريعتهم — كما يزعمون — أن يعودوا من المنفى إلى فلسطين لأن البقاء خارجها خروج على الدين ، فبالله من حق يضيع بين باطل ينتمى ، وبالله لهُؤلاء العرب والمسلمين الذين يبذلون وكنهم لا يريدون الانتفاع بعظمت أو عبر ، وما أنت بمسمع من فى القبور .

وهذا هو كتاب « الوجيز فى العسكرية الإسرائيلية » يحدثننا بالأدلة والشواهد والنصوص من كلام الأعداء أنفسهم عن سعى اليهود لإحياء الدولة اليهودية من النيل إلى الفرات ، ومن شمال الموصل حتى المدينة المنورة ، والتي تشمل تبوك وخيبر وأماكن أخرى حول المدينة : مدينة الرسول العربى محمد عليه الصلاة والسلام ، وكانهم بهذا لا يكتفون بإحياء ديانة حرفت وبدلت ، بل يحاولون طمس المعالم البادية لدعوة الإسلام ورسالة محمد عليه السلام ، ويواصلون إحياء العادات الدينية القديمة بينهم حتى فى مجال الحرب ، فإن إسرائيل مثلاً لا تحتفظ فى معسكراتها بصفة دائمة بعدد كبير من الجنود ، بل تدرب كل أفرادها على السلاح والقتال ، ثم يعودون إلى أعمالهم فى الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها ، وعند التعبئة يسارع الجميع بالعودة إلى الخدمة العسكرية فوراً ، وتبغ إسرائيل فى ذلك طريقة تقول إنها مأخوذة من خطة حربية وضعها الملك سليمان قبل ثلاثة آلاف عام ، وتحدث عنها كتب اليهود الدينية ، فتقول إن سليمان قد بنى قلعة (مجدو) فى غرب من مدينة (جنين) وتضم القلعة مخازن للطعام والشراب تكفى خمسة آلاف مقاتل ، وأماكن

صالحة لثلاثمائة عجلة حربية ، ولا يقيم في هذه القلعة بصفة دائمة إلا مائة رجل فقط ، فإذا ظهرت بوادر الحرب انطلق من القلعة ثلاثون فارساً على خيولهم يجمع الناس في القلعة استعداداً للقتال ، وكذلك فعلت إسرائيل الآن ، فعند التعبئة العامة تظهر عبارة رمزية على شاشات السينما والتلفزيون ، فيبادر كل مجند احتياطي بترك عمله ، ويقف على الطريق العام خارج قريته ، وأى سائق مدني أو عسكري يمر عليه إلى المعسكر أو الميدان بمجرد (اطلاعه على ما يثبت شخصيته ، ولا يحتاج هذا الجندي إلى مجهود في إعداده لأداء واجبه فوراً ، لأنه يتدرب كل سنة ثلاثين يوماً بعقيدة دينية صارخة تغرس في نفسه أن هذا واجب ديني مفروض ، وبذلك تظل نفسه ممتلئة بما يسمى بالحق الإسرائيلي المقدس على العرب والمسلمين .

ويؤكد الكتاب العسكري الفنى أن الالتجاء إلى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن لن يحل قضية فلسطين ولن يرد حقوق العرب ، ولن يجرر الأرض المغتصبة ، وهذا يذكر بمن هتف بقومه منذ سنوات وسنوات فقال :

فيم انتظاركم والحق حقاكم	يعدى عليه ليعطى للملاعين
لا تطلبوه احتكاماً في مجامعهم	بل استردوه قسراً في الميادين
والمسلمون جميعاً من ورائكم	بأندونيسيا وباكستان والصين

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد استبان الصبح لذي عينين ، وقد أجمع العقلاء والبصراء على أنه لا نصر إلا بعقيدة وإيمان ، وقد تكرر الجهر بذلك مرات ومرات ، ولو اكتفينا بترديد القول دون عمل ، لما كانت هناك جدوى ، ولا تمت فائدة ، فليت بارئنا يأخذ بنواصينا إلى العمل بمقتضى ما آمنا به ورددناه ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

رسالة المسجد^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو الطيب الذي لا يقبل إلا طيباً : «إليه يصعدُ
الكلم الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعه» . أشهد أن لا إله إلا الله ، كتب عظيم
الأجر للسعي الحميد ، وضمن جميل الذكر للعمل الحميد : «المالُ والبنونُ
زينةُ الحياة الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيراً أملاً» .
وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص من عبد ربه ودعاه ، وأصدق
من تقرب إليه وناجاه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المستجيبين
خالقهم ، وصحبه المهتدين بملتهم ، وأتباعه الحافظين لدينهم ، ومن تزكى
فلإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما قيمة الحياة إذا خلت من السعي المشكور والعمل المبرور ؟ وما غناء
أيامها المعدودة وأعوامها المحدودة إذا لم يقدم المرء بين يديه ، أو يخلف من
ورائه ما يعظم به أجره عند الله ، أو يعلو به قدره ويحمد ذكره بين الناس ؟ .

دقات قلب المرء قائلةٌ لهُ إن الحياةَ دقائق وثوانٍ

فأرفع لنفسك بعدموتك ذكرها فالذكرُ للانسانِ عمرٌ ثانٍ

وقد جرت عادة الأنخيار الأبرار من أبناء هذه الأمة المؤمنة ن يتقربوا
إلى ربهم ويفيدوا أبناء دينهم ووطنهم ببناء المساجد ينفقون عليها الجزيل من مالهم ،
ويرجون بها سبباً للمثوبة عند خالقهم ، ولعل هذا العمل في طليعة الأعمال
التي يثبت أثرها ويدوم ثمرها ، مع ما أعد الله للقائمين بهذا العمل من تكريم
عظيم يوم لقائه ؛ وحسبنا قول رسولنا صلوات الله عليه : « من بنى مسجداً
يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة » . ولا عجب فإن من شاد مسجداً

(١) أقيمت بمسجد الصباح في يوم ٢٤/١٠/١٩٧٥ م .

فتح منفذاً لفسات اللجنة ونفحات الفردوس ، حتى أخبر الرسول بأن المساجد رياض الجنة .

وإنما نال المسجد هذه المكانة العالية الماحوظة لأنه مركز الإشعاع الأول في الإسلام ، بل نستطيع أن نقول إن المجتمع الإسلامي ينهض على نقطة ارتكاز أساسية هي المسجد ، ولعل القرآن الكريم يريد أن يلفتنا إلى هذا المعنى حينما يقرر أن أول بيت أقيم للناس باسم الله وباسم الدين هو المسجد الأول والقبلة الجامعة للملايين المسلمين المتمثلة في الكعبة : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » . وحينما انبثق نور الإسلام في أيامه الأولى كان هذا المسجد الأول مثابة للمسلمين ، إليه اتجهت أبصارهم ، ومن حوله تحلقت جموعهم وعلى فكرته الموحدة الماجدة تلاقت أفكارهم .

ثم نرى أن أول عمل قام به الرسول عقب الهجرة مع صحابته هو بناء المسجد ، وصار هذا المسجد كمرکز الدائرة ، صدرت عنه ورجعت إليه موجات الفئة المسلمة التي أخذت تتكاثر على الأيام ، ويجمعها ذلك البناء الواحد وهو المسجد . . . ولقد فتح المسلمون باسم الله وباسم الشريعة الغراء المحررة من العبودية كثيراً من البلدان والأمصار ، ونرى عقب الفتح أن المسلمين يبدأون بتشيد مسجدهم ويكون واسطة العقود المتوالية من صفوف الدولة الجديدة ؛ وعندنا شاهد تاريخي في وادينا ما زال قائماً ، فحينما تفتحت أبواب مصر لنور الإسلام القادم إليها من منزل الوحي في الجزيرة بدأ البطل

الفتاح بإنشاء جامع عمرو ، ثم صار الجامع بداية امتداد من مختلف الجهات للمجتمع الإسلامي الناشئ .

واتسعت رسالة المسجد في الإسلام أو تعددت ، فهو معبد تؤدي فيه الصلوات ، ويعتكف داخله القانتون وسذاكرون والمرتلون لتنزيل ربهم المجيد ، وهو أيضاً مدرسة مفتحة الأبواب ، لا يرد عنها راغب في علم أو طالب لثقافة ؛ وفي هذه المدرسة الإسلامية الشعبية يتلاقى أبناء الأمة ليفقهوا تعاليم شريعتهم ، ويسمعوا سير أجدادهم وبلادهم ، ويتدارسوا ما ينبغي لمجتمعهم وبنوعهم ؛ والمسجد أيضاً مبعث وجدان عام ومثار عاطفة مشتركة ، فمن فوق منبره وفي رخاب ساحته يتيسر لمداة الأمة أن يعبتوا مشاعرهم ، ويوقظوا أرواحها ويوجهوا موكبها نحو ما ينبغي أن يتجه إليه ، ولو طالعنا صفحات تاريخنا الإسلامي المشرق لوجدنا أن الأعمال الكبرى التي تمت فيه قد بدأت الدعوة إليها في أغلب الأحوال من داخل المسجد ، ففيه كانت تعد النفوس ، وتوضع الخطط ، وترسم المناهج ، ونعين الولاة وأمراء الجيوش ، كما كان المسجد يتخذ مجالاً للتعليم والتقويم الاجتماعي ، وللتدريب الحربي في بعض الأحوال ، وإنه لمن الخير كل الخير أن يسهم المسجد في وثباتنا الاجتماعية والعلمية والروحية بنصيبه الذي يحسن فيه الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، مسترشداً في ذلك بالأثر الإسلامي الحكيم الذي يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

ونحن نرى من مصلحة بلادنا وأمتنا أن نعزز بقوميتنا وأن نحرص على وطنيتنا ، وهذا مسلك إن طالبتنا به حريتنا وكرامتنا واستلزمته حياتنا ومصالحتنا ، فإن عقيدتنا تباركه وتؤيده ، لأنها تعلمنا أن حب الوطن من الإيمان ، وأن الغيرة على الحمى والحرمات والأوطان ، وعلى موارد الأجداد

من شأن المؤمنين الأوفياء ، وأن العروبة وعاء الإسلام والإسلام روح العروبة وأن الرسول يقول : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » . ومفهوم هذا أنه إذا عز العرب عز الإسلام ؛ والمسجد الإسلامى دعامة قوية للقومية العربية ، لأن علماء القوميات يذكرون أن اللغة هى الأساس الأول للقومية ، أو من الأسس الأولى لها ، ومعنى هذا أن عماد قوميتنا فى لغتنا ، والمسجد هو عماد هذه اللغة الفصحى ، فقد تموت هذه اللغة فى أماكن كثيرة ، ولكنها تظل حية دائماً فى المسجد الإسلامى ، لأن الصلوات المتكررة كل يوم يؤديها الألوف باللغة العربية الفصحى ، لغة القرآن أعلى بيان ، وجموع المصلين يرددون آيات هذا البيان المعجز يومياً ، ويسمعونها من أئمتهم ؛ ثم تأتى خطبة الجمعة كل أسبوع ، وهى تلقى على الجموع بلغة عربية ناصعة ، فتصنقى إليها الآذان فى صمت وخشوع ، فتظل موصولة الأسباب بهذه اللغة فى مفرداتها وتعبيراتها ومدلولاتها ، والدروس التى تلقى يومياً فى مختلف المساجد تعتمد على القرآن وهو بيان عربى معجز ، وعلى الحديث وهو عربى بليغ ، وعلى قصص التاريخ وآثار السلف وشواهد المنثور والمنظوم ، وكلها بلغة عربية مشرقة الأسلوب . . .

وأكبر العلم أن أمرين حفظا على لغة العرب حياتها وجدتها ، وشبابها ونضارتها ، وهما القرآن والمسجد ، ولسنا ندرى ماذا يكون مصيرها لولاها؟! .

ثم إننا ندعو إلى مجتمع ديمقراطى تعاونى اشتراكى ، وهذه أفكار يطبقها رواد المسجد عملياً ، فالصلاة أوضح مثال للمساواة والديمقراطية ، إذ لا فرق فيها بين كبير وصغير ، وفيها تصف الصفوف ، وتتلاصق الأقدام ، وتخضع الجموع لقيادة واجدة مهتدية بهدى الله العلى الكبير ، وهذا تعاون واضح ومشاركة عامة . ومن داخل المسجد تنبعث أصوات الحث على التكافل (م ٥ - خطب ج ١)

والتراحم وأداء الزكاة والتقريب بين الطبقات ، وفي هذا توجيه إلى الاشتراكية
العادلة . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما أحوجنا في عالمنا الصاخب اللاعب إلى روضة المسجد ، ، نتطهر
عندها ونتعبد ، وننسى في شعورنا ونتعالى ، ونتجمع حول تعاليمه السامية
ونتلاقى ، وما أجدرنا في نهضتنا بأن نجعل من المسجد دار عبادة ورياضة ،
وتعليم وتقويم ، حتى ندخل إليه طالين زاداً ومدداً ، ونخرج منه إلى الحياة
وفي حسنا يقظة ، وفي صدرنا بصيرة ، وفي أرواحنا ضياء ، والله يهدي
من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إنَّ اللهَ معَ
الذينَ اتقوا والذين هم محسنونَ . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ،
سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

في المسجد^(١)

الحمد لله عز وجل ، كتب السعادة لمن حرص على دعوته وطاعته ، وجعل العزة لمن خضع لسلطانهِ وعظمتهِ : « ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . كذلك نجزي الظالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، ذلت الرقاب أمام جلاله ، وخشعت الأصوات لبهاء مقاله : « إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون » . وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله ، خير من اعتر بربه ، واحتسب بجنابه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وذريته ، وأعلام صحبته ، وأنصار دعوته ، « أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

حُرمت يوم الجمعة الماضي متعة الحديث إليكم ، إذ كنت أتحدث مع إخوة لكم في الدين والوطن ، فقد دعيت لإلقاء خطبة الجمعة في المسجد الجليل الذي أقيم في معسكر الجلاء بمدينة الإسماعيلية ، فدارت بالعقل خواطر ، وثارَت في القلب مشاعر . ومعسكر الجلاء هذا معسكر ضخم ، كان فيما مضى قبل الاستقلال يبلو كدولة داخل الدولة ، أو كمدينة تنافس المدينة ، وكانت بقعته أيام الظلمات رقعة يتمثل فيها الخنا والفجور ، فالاحتلال الأجنبي الأثيم بطغيانه وبهتانه ، وفجوره وخموره ، كان يجعل منها ماخوراً واسعاً كبيراً ، وأذكر أنني دنوت من هذا المعسكر مرة في أيام الاحتلال فأحسست كأن الهواء قد أنتنت رائحته واشتد ضغطه ، وكأنه يريد أن يكظم أنفاسي ويفسد إحساسي ؛ ثم دخلت المعسكر في الأسبوع الماضي وقد عمر بأبناء الوطن المتحرر المؤمن ، فأحسست بنعيم الحرية بملأ صدري ويثير فكري ، ويرد لي صحوتي بعد غفوتي ؛ ورحم الله أجداداً لنا كانوا يضيقون بالخضوع للغير ولو تقلبوا فيه على الدمقس والحريير ، وكانوا يفرحون بالحرية ولو كان طريقها مليئاً بالأشواك والمصاعب .

(١) القيت في يوم الجمعة ٢١ من ذي القعدة سنة ١٣٧٨ هـ الموافق

٢٩ من مايو سنة ١٩٥٩ م .

لقد تذكرت أن هذه البقعة كانت تفيض بالرزيلة فصارت اليوم عامرة بصوت الفضيلة ، وبالأمس كانت تسيل فيها الخمر ، واليوم تتزكى بجباه الراكعين الساجدين المتطهرين : « إنَّ اللهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » وكان تنبعث فيها أصوات الدخلاء المعتدين فأصبحت تردد فيها أصوات المسبحين العابدين كأنها زجل الملائكة المقربين .

ودخلنا المسجد فإذا أغلب من فيه جنود وضباط وقواد ، والكل جلوس في صمت وخشوع يستمعون القرآن كلام الرحمن ، فثار في الذهن تخاطر عميق الدلالة ، وهو أن المسجد الإسلامى أصلح مكان لإظهار الديمقراطية في الإسلام ، ولا عجب فليس المسجد ملكاً لأحد من الناس كائناً من كان ، بل هو ملك لله : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » ، والمسجد هو بيت الله ، والله هو رب الجميع فينته بيت الجميع ، وباب المسجد مفتوح للجميع لا يرد عنه أحد قل أو كثر ، كبير أو صغر ، والأرجاء في المسجد متساوية ، ليس لمكان فيه فضل على مكان آخر . وليس فيه موضع محجوز لوجيه أو كبير بأجر أو بغير أجر ، والنصيحة في المسجد توجه عامة شاملة إلى الجميع بلا استثناء ، ويؤمهم الإمام في الصلاة فيتبعوه طائعين ، ولا يتخلفون ولا يسبقون ولا يعترضون ، اللهم إلا إذا أخطأ الإمام أوسها فإنهم في رفق ينيهون ، وبهذا تجمع الصلاة بين روح الجماعة وجلال الطاعة ورحمن التعاون على البر والتقوى ؛ وتطلعت فوجدت القوم من رتبة اللواء إلى رتبة الجندي العادي ، في عقد واحد متنسق فالجنود بمختلف درجاتهم والضباط بمختلف رتبهم والقواد بمختلف مناصبهم ، الكل قد سعوا إلى بيت الله عبادةً متساوين ، وخلعوا عند باب المسجد كل ما كسبوه من جاه الحياة ، ودخلوا بإنسانيتهم وإسلامهم فقط ، يسألون ربهم عفوهم وثوابه ، ويخافون حسابه وعقابه ، وكأن كل نفس من هذه النفوس قد توشأت من غرورها حين دخولها المسجد . فلو أدركها شيء من ذلك لأحست كأن وضوءها

قد انتفض فهي بحاجة إلى وضوء روحى جديد . . . لقد ناداهم المسجد بأذان واحد تردد فى آذانهم قائلا (حى على الصلاة حى على الفلاح) فسعوا إلى رب واحد وقبله واحدة ، هى الكعبة الحرام ، واقتدوا بإمام واحد ، يركعون حين يركع ، ويرفعون حين يرفع ، ويسجدون حين يسجد ، ويتشهدون حين يتشهد ، ويسلمون حين يسلم . . .

والتصقت الأكتاف بالأكتاف ، وتراصت الجباه بجانب الجباه ، وانتصبت الهام وصفت الأقدام ، وتوقفت قيادة الأرض عن مباشرة سلطاتها وأسلمت الزمام لقيادة واهب القوى والقدر ، رحمن الدنيا والآخرة ، قيوم السموات والأرض ، «وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً» ، وكان المسلمين يعدون أنفسهم فى الصلاة للقاء ربهم يوم الهول الأكبر ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم «وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً» .

فأية مساواة وراء هذه المساواة التى تحققها الصلاة فى الإسلام ، وتتجلى فى بيوت الله المساجد: «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون» إن المسلمين يدخلون المسجد مؤمنين بالله واليوم الآخر : «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين» ، وهم يدخلونها متوجهين إلى الله مخلصين له العباداة مستقيمين فى الطاعة ، «قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين» . وهم يدخلونها متجملين فى ثيابهم ومظهرهم : «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» وهم يدخلون خائفين راجين ، «فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار» ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وأية وسيلة لتعليم المسلم خلق التواضع كهذه الوسيلة ؟ . . . إن الإسلام يعرف أن خنزراً وأنية الكبرياء تراود الإنسان من حين إلى حين ولذلك يحرص الإسلام على أن يعليه التواضع والتخفف من الغرور والزهو ، ومن هنا قال الرسول : « إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد » وقال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان » . . . وهذا محمد صلوات الله عليه ، وهو سيد الأنبياء وخاتم المرسلين وإمام العالمين ، ما كان يظن في نفسه أنه صالح للتعالى على فرد من أفراد الأمة ، وما كان يشعر بمعنى التجبر في خلقه ، ولذلك قال للأعرابي الذي هابه من جلال روجه حين رآه : هون عليك يا أعرابي ، فلست بملك ولا جبار ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ! . . . وكان لحرصه على التواضع يدعو ربه فيقول : « اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، وأحشرنى في زمرة المساكين » . والتاريخ يروى الصورة المقابلة لذلك ، وهي أن جبلة بن الأيهم الملك الغساني أعلن دخوله في الإسلام على عهد عمر ، وأتى الكعبة يطوف حولها وفي خياله بقايا من خيلاء الجاهلية وتعظيم الملوك ، ظاناً أنه سيجد الرعوس من حول الكعبة وقد انحنى لجلالته المكذوبة ، ولكنه وجد رعوساً مرفوعة ، فيها عزة الإسلام ، وفيها وقار المؤمنين ، وحدث أن أعرابياً من فزارة كان بجانبه في الطواف فداس خطأ على ثوبه الطويل المرخي ، فثارث عنجهية جبلة الموروثة ، وضرب الأعرابي على وجهه ، فسارع بالشكوى إلى عمر العادل ، ففضى بالقصاص ، وعلم جبلة بالحكم فأطلق ساقية للفرار ، وتنصر بعد إسلام ، وتوالت الأيام وكلما كسب المسلمون عزا كسب جبلة هواناً وذللاً ، حتى قال يترجم عن ذله وندمه :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفني فيها لججاج ونخوة وبعث لها العين الصحيحة بالهور
 فيا ليتني أرعى المخاض بقفصرة وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر
 وياليت لي بالشام أدنى معيشة أجالس قومي ذاهب السمع والبصر
 فياليت أمي لم تلدني وليتني رجعت إلى القول الذي قاله عمر!

ولقد قلت لهؤلاء يومئذ إن الجنود أشد حاجة من غيرهم إلى زاد اليقين والإيمان ، لأن الجندي مرابط على ثغر من الثغور ، وهو يعد نفسه للثبات في ميدان النضال والجهاد ، ويترقب ساعة الهول في كل حين ، ولا بد له أن يكون في صدره من نور العقيدة ومدد الإيمان ما يجعله يقبل على الفرع ساعة الفصل جريئاً مقداماً ، لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، لأنه موثق أنه سينال إحدى الحسينين ، إما أن ينتصر فيكون غازياً في سبيل الله ، عزيزاً كريماً في هذه الحياة ، وإما أن يموت فيكون شهيداً له ثوابه العظيم عند الله ، فليكن ما يكون ، فإنه ليس بخاسر ولا مغبون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن المسجد في الإسلام معبد للصلاة مفروضة أو نافلة ، وهو أيضاً مدرسة يتلقى فيها المسلمون فقه دينهم ودروس شريعتهم وأبناء تاريخهم ، فيزدادون بالدين معرفة ، وبالحياء خبرة ، والمسجد نقطة ارتكاز يتلاقى فيه أبناء الإسلام ، فيعبثون مشاعرهم ، ويوقظون أرواحهم ، ويبدأون منه انبثاقهم ، وهو أيضاً مكان توجيه ، ولو راجعنا تاريخ الإسلام لوجدنا أن الأعمال الكبرى فيه قد بدأت الدعوة إليها والتحريض عليها من داخل المسجد ، ففيه كانت توضع الخطط ، وينظم التحريض ، ويعين الولاة وأمراء الجيوش ، فمن واجب المسلمين أن ينتفعوا برسالة المسجد وأن يعيدوا إليه وظيفته ومهافته وحيويته ، واتقوا الله الذي أتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

المسجد بيت الله^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو خالق كل شيء بديع السموات والأرض :
 «ومن آياته الليلُ والنهارُ، والشمسُ والقمرُ، لا تسجدوا للشمسِ ولا للقمرِ ،
 واجبدوا اللهَ الذي خلقهنَّ إن كنتم إياه تعبدونَ » . أشهد أن لا إله إلا الله ،
 بيده ملكوت كل شيء : « والله المشرقُ والمغربُ ، فأينما تولوا فثمَّ وجهُ اللهِ
 إن الله واسعٌ عليمٌ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، دعا إلى خير الدنيا
 والآخرة ، فكان رحمة الله للناس أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى
 أسرته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « إنه من
 يتقى ويصبر فإنَّ اللهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ »
 يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نشرت بعض الصحف أن خادم أحد المساجد استولى على هذا المسجد ،
 ومنع الناس من دخوله ، وقال لهم : فتشوا عن مسجد آخر لتصلوا فيه فهذا
 بيتي . وسواء أكان هذا الخبر صحيحاً أم كان من صنع الذين يجيدون تزوير
 الوقائع وتزييف التاريخ ، فإنه خبر يستحق التعليق عليه من الناحية الإسلامية :
 ونحن هنا نتذكر أولاً قول الحق تبارك وتعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجدَ
 الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى في خرابها » أى أليس هناك أحد أشد ظلماً
 من الذى يمنع الناس من دخول المساجد وتأدية الشعائر فيها ، فيؤدى ذلك إلى
 تعطيل وظيفتها وتخريب ساحتها من العبادة والعابدین ، وإذا كان هناك من
 المفسرين من يقول إن المراد بالمساجد هنا الكعبة أو بيت المقدس ، فالصحيح
 أن المراد به كل مسجد إلى يوم القيامة ، لأن اللفظ عام شامل لمساجد الله
 كلها ، وتذكر أيضاً قول الله تعالى : « وأن المساجدَ لله فلا تدعوا معاً

(١) القيت في يوم الجمعة ٢٣ من صفر سنة ١٣٧٩ هـ الموافق
 ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٥٩ م .

الله أحداً» أى بذيت المساجد لذكر الله وطاعته وتقديسه ، فهى بيوته الخالصة لوجهه ، فلا يذكر فيها إلا الله ، ولا يشرك معه سواه ، ولذلك أفتى الفقهاء الأصحاء قديماً وحديثاً بأنه لا يجوز أن ندعو فى المساجد لأحد ، أو نهتف أو نصفق فيها لأحد ، حتى قال البصراء من الفقهاء إن الدعاء للحاكم فى الخطبة الثابتة يوم الجمعة لا يكون باسمه ، بل يكون الدعاء لولاية الأمور رجاء أن يكتب الله لهم التوفيق والرشاد . وليس من هدى الإسلام فى شىء أن نستغل المساجد لترويج مذهب من المذاهب ، أو الدعوة إلى اتجاه من الاتجاهات التى لا تقوى صلتها بالدين ، أو الدعاية لشخص من الأشخاص فى مجال من مجالات الدنيا ، وليس من هدى الإسلام أن تستغل الدنيا المسجد ، فتخرج به عن رسالته التى هى تذكير وتبصير وعبادة لله ، بل المسجد هو الذى يهيم على المسلمين ووجهتهم ، ليسد خطاها ويستديم هداها ، فالله تعالى يقول : « قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النورِ بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم » . . .

وبلغ من هدى الإسلام فى احترام المساجد وإخلاصها لله ومراعاة الأدب فيها أنه نهى عن المناذاة فيها على الأشياء الضائعة حتى لا يحدث الضجيج والتشويش ، وجاء الحديث الصحيح يقول : « من نشد ضالة فى المسجد فقولوا : لاردها الله عليك ؛ فإن المساجد لم تبين لهذا » ومن هنا نعلم أن الذين يتخذون المساجد ميداناً للشحاذة منحرفون عن هدى الإسلام ، وأن الذين يرفعون فيها أصواتهم ولو بالتلاوة حتى يشوشوا على غيرهم منحرفون عن هدى الإسلام ، وأن الذين يشغلون المصلين عن صلاتهم واستماعهم أثناء الخطبة ببيع الكتب والمجلات ، أو نحو ذلك من الوسائل منحرفون عن هدى الإسلام ، وأن الذين يتخذونها مكاناً للنوم ليثوا فى ساحتها أسراباً من الحشرات التى تعبت فى أجسامهم منحرفون عن هدى الإسلام ، والله تعالى يقول :

« يا بني آدمَ خلوا زينتكم عند كل مسجد ». وكان الله أراد من يدخل المسجد أن يكون متطهراً متزیناً ، لابساً ثيابه النظيفة ، حتى لا يضايق غيره في بيت الله المفتوح للجميع ، ولذلك حث الإسلام عند دخول المسجد على التطهر والتجمل والتطيب ، ونهى عن أن يدخله المسلم عقب أكله بصلاً أو ثوماً أو كراتاً أو طعاماً له رائحة خبيثة ، وأباح الإسلام للمسلم ألا يحضر الجماعة أو الجمعة إذا كانت رائحة عرقه أو رائحة فمه مؤذية لغيره ولا يستطيع علاجها لأن بيت الله يجب أن يشعر فيه كل مسلم بالراحة والسكينة ، والهدوء والطمأنينة ليقبل على العبادة في بهجة وانسراح ، ولذلك كان واجباً على المسلمين — وليتهم يسمعون — أن يجعلوا مساجدهم في أرفع ما يمكن من درجات النظافة والطهارة ، وأن يصونوها عن القذارة والتراب وهوام الأرض وغير ذلك ، وصلوات الله على نبيه إبراهيم وإسماعيل إذ يقول فيهما : « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » ، فلم يأمرها بتطهير البيت ليكون وقفاً عليهما أو على آلهما ، بل ليكون لكل راعٍ ساجد في هذا الوجود .

وإن الرجل من المسلمين ليقدم على بناء مسجد من المساجد ، وينفق في ذلك ما يتفق ، ويبدل ما يبذل في شراء الأرض وبناء الجدران والسقف ، وتأثيث المسجد ، فإذا انتهى من ذلك كله لم يبق له من حق في المسجد أكثر من حق أى مسلم آخر ، فهو يدخله مصلياً فرداً عادياً كما يدخله أى مسلم من قريب أو من بعيد ، لأنه بوقفه هذا المسجد للصلاة قد خرج من ملكه إلى ملك الله ، وما كان ملكاً لله فهو مشترك بين سائر عباد الله ، ولذلك أجمعت الأمة على أن البقعة إذا عينت للصلاة بالقول خرجت من ملك صاحبها عامة لجميع المسلمين . . .

ومن حرص الإسلام على تجريد المساجد لله وإخلاصها لوجهه أنه حرم جعل القبور أو الأضرحة فيها بلا حاجز أو فاصل ، حتى لا يظن ظان أن السعى إليها هو بقصد التعظيم لهذه القبور أو الطواف حول هذه الأضرحة ، فإن الله لا يقبل مثقال ذرة من الإشراك به في العبادة والتقديس ، وهناك في بلاد المسلمين كثير من المساجد التي تضم قبوراً وأضرحة ، والتي يرتكب العامة فيها أموراً لا ترضيها وحدانية الإسلام ، ومن واجب المسلمين أن يعالجوا هذه الناحية التي تخل بجلال بيوت الله ، وتجعلها مظنة للابتعاد عن إخلاص العبادة لله وحده ، وأن يحجزوا بين المساجد والأضرحة حتى لا تذهب الظنون بأبناء الإسلام مذهباً غير حميد .

إن المسجد هو بيت الله عز وجل ، لا بيت أحد من الأحياء أو الأموات ، فيه تتطهر وتذكّر ، وفيه نسمو ونعلو ، وإن الإنسان ليتقلب في هذه الحياة ما استطاع التقلب ، وتؤثر فيه الدنيا بما تستطيع من تأثير ، فيناله اعوجاج هنا ، أو رهق هناك ، ويعلق به من زيف الحياة أو باطلها ما يعلق . فإذا سعى إلى المسجد ، وتطهر بالوضوء عند بابه ، ودخل في رحابه . وتوجه إلى الله في محرابه ، سما فوق المادة ، وتخلص من زيف الحياة ، وارتبقت أسبابه بالله وتنزلت عليه فيوضات ربه الغني الواسع الرحيم ، وأحس كأنه ليس في بقعة من بقاع الدنيا بل في رقعة من أرض الفردوس ، ولعل هذا ما يشير إليه الرسول حين يخبرنا بأن المساجد رياض الجنة ، وهو أيضاً القائل : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا حفّتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » !! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . يروى عن النبي أنه كان إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وقال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ، اللهم أنا عبدك وزائرُك ، وعلى كل مزورٍ حق ، وأنت خير مزور ، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار ؛ فإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال : اللهم صب على الخير صباً ، ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً ، ولا تجعل معيشتى كدا ، وأجعل لى فى الأرض جداً » أى يساراً وغنى وهذا الدعاء النبوى الرائع يشعرنا بأن رسول الله كان يدرك خير إدراك أن المسجد هو بيت الله ، ومحط رحمته ، ومستراد نعمته ، وأنه بدخوله فيه قد صار ضيفاً على الله ، وقريباً من سيده ومولاه . . . فلنحسن التمييز بين حق الله وحق العباد ، ولنعرف الفرق بين بيت الله وبيوت الناس ، ولندرّب أنفسنا على التأدب بأدب المسجد ، والانتفاع بروحانية المسجد ، حتى نكون ربانيين من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وذلك هو الفوز الكبير ، واتقوا الله الذى هم به مؤمنون .

وان المساجد لله

الحمد لله عز وجل ، تعالى بالسلطان فتنزه عن المثيل والنظير ، وتفرد بالقدرة فهو العلي الكبير ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين أشهد أن لا إله إلا الله ، يعطي ويمنع ، ويرفع ويضع ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمد أرسول الله ، استعصم بحجابه فكان أقوى الأقبياء ، واستغرق في دعوته فكان أوفى الأقبياء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأحفاده ، وصحابته وأجناده ، أولئك لهم عز الدنيا ونعيم العقبى : « الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

في شعاب الحياة لا بد من الدليل المبين ، وفي مفارق الطرق لا بد من المرشد الأمين ، وقد أنزل الله تعالى إلى عباده نوراً تضمن هديه الحكيم هو ذلك القرآن الكريم ، الذي جعل فيه الدواء والشفاء ، والهداية والهناء ، وأقامه كنزاً لا تفتني عجائبه ولا تنتهي مواهبه ، ومن خصائص القرآن الدقيقة أنك تنظر بعين الخبير اللبيب في اللفظة من ألفاظه ، فإذا هي تحوى الكثير من المعاني ، وكل معنى منها يفهم بحسب حاله ، ولا يتعارض مع غيره ، ولعل هذا برهان أى برهان على أن القرآن المجيد هو كلام الله العزيز الحميد .

هذه مثلاً آية من الآيات ، يقول الله تبارك وتعالى فيها : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » . فلننظر إلى كلمة « المساجد » في هذه الآية الكريمة . قد يكون المراد منها هو تلك الأبنية التي يقيمها المؤمنون للعبادة ، ويجعلونها للصلاة ، ولما كان أهم ما يقام فيها هو الصلاة ، وكان أكبر مظهر للخشوع في الصلاة هو السجود ، سمي البناء مسجداً لكثرة السجود فيه ،

ويكون المعنى إذن أن بيوت الله - وهي المساجد - يجب أن تكون خالصة لوجهه ، لا يشرك معه غيره ، ولا تستعمل إلا فيما أمر به . وقد يكون المراد من كلمة « المساجد » نواحي المعمورة ومواطن الأرض ، لأن كل بقعة طاهرة من الأرض صالحة لاتخاذها مسجداً ، وجعلها للصلاة ، ومن هنا قال رسول الله : « جعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهوراً » وقال أيضاً : « أينما كنتم فصلوا ، فأينما صليتم فهو مسجد » . ويكون مفهوم الآية حينئذ هو أن الأرض كلها لله ، يورثها من يشاء من عباده والعاque للمتقين : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير » . وقد يكون المراد من كلمة « المساجد » هنا أعضاء السجود التي يسجد عليها الإنسان ، فكل عضو منها يسمى مسجداً ، وهي الوجه واليدان والركبتان والقدمان ، ويكون مفهوم الآية إذن هو أن هذه الأعضاء قد أنعم الله تعالى بها عليك ، فهي فى الحقيقة ملكه ، فلا تذلها لغيره فتجحد نعمته ، وأن الإنسان مملوك لله ، فيجب ألا يعبد سواه ، وألا يخضع لغيره فى دنياه : « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . وقد يكون المراد من كلمة « المساجد » جمع مسجد بمعنى السجود . أى أن السجودات فى الصلاة لا تكون إلا لله ، ولا تجوز أبداً لمن عداه ، فثنى القامات وتعفير الجباه بذل السجود لا يليق إلا لبادىء هذه القامات وتلك الجباه ولا يدعى مشاركته فى ذلك إلا جهول أحمق أو طاغية جبار ، وكلاهما إلى الضلال والخسار وبئس القرار .

وقد يكون المراد من « المساجد » فى الآية أرجاء مكة المكرمة ، لأن كل ناحية منها تسمى مسجداً ، بحكم أن الكعبة المطهرة فيها ، وأن أية جهة نحوها تعتبر قبلة ، فتعتبر ناحيتها مسجداً ، ومن هذا نفهم أن مكة البلد الحرام يجب أن تكون طاهرة خالصة لله ، لا يرتفع فيها صوت إلا لله ، ولا يجرى

فيها شيء إلا لله ، ولا يتولى أمرها إلا عباد الله ، ولا يدنس أرضها أحد من أعداء الله : «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا تقربوا المسجِدَ الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليمٌ حكيمٌ» ، «وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع والسجود» ، «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم» . وقد يكون المراد من كلمة «المسجد» المساجد الثلاثة الكبرى التي يعتز بها الإسلام ، والتي يجب أن يحرص عليها المسلمون وأن يدافع عنها المؤمنون ، وهي المسجد الحرام في مكة ، ومسجد الرسول في المدينة ، والمسجد الأقصى في بيت المقدس (في فلسطين) ، لأن هذه المساجد هي التي تجمعت حولها نفحات الوحي والتنزيل ، وفي رحابها ظهرت النبوات والدعوات وبنور الله المنزل حولها جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ؛ ولذلك كرمها رسول الإسلام حين قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » . وما دامت هذه المساجد لله فيجب دائماً أن تكون هي وما حولها وما اتصل بها ميراثاً إلهياً مقدساً في أيدي الصادقين من عباد الله ، ويجب أن تكون حرماً آمناً للمؤمنين بالله ، ويجب أن تتطهر من رجس كل فاسق لا يدين بالحق من دين الله : « والله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

أرأينا إذن أن لفظة قرآنية واحدة في آية كريمة واحدة أثارت هذه الحواطر ، ونثرت تلك المعاني ، وبعثت من المكامن تلك العواطف ، وجالت بالألباب في هذه الآفاق ، وبقي لها مع كل هذا مفهومها العام الذي يؤخذ من قسط مشترك بين كل هذه المعاني التي أدركناها لكلمة «المسجد» ، وهذا المفهوم هو أن الأمر كله لله ، وأن الملك جميعه بيد الله ، فبيوت العبادة كلها ، والعبادة ذاتها ، والإنسان نفسه ، والأرض جميعها ، كل هذا لله ،

فلا تدعوا مع الله أحداً ، وأن هذه الأماكن وتلك الموارث يجب على عباد الله أن يجرسوها ويلودوا عنها ، ولا يمكنوا غريباً أو دخيلاً منها ، فلا يكون الإنسان عبد غيره وقد جعله الله حراً ، ولا تستغل المساجد لغير ما يرضى الله سبحانه ، ولا تهون أرض الموحدين حتى تصير نهياً مقسماً للباغين ، ولا يضيع الإيمان حتى يعبد المال أو الشهوة أو الجاه من دون الله : « بل الله فاعبد » وكن من الشاكرين . هذه كلمة واحدة كان من فيضها ما رأينا ، فكيف لو عاش المؤمنون مع كتاب الله وعكفوا يتدبرون آياته ويقطفون من ثمراته ؟ إذن لرتعوا في روضات من جنات العقول والقلوب والأرواح : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا ولو الأبواب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

فلنتذكر جيداً أن التدبر لكتاب الله سبب نعمة وأن الحياة مع كتاب الله مفتاح رحمة ، فهذا سيد البشرية يقول : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » ومن اللافت للنظر هنا أن الرسول ربط بين كتاب الله وبيوت الله وهي المساجد التي يستشعر عندها الإنسان الخير وتتجدد فيها حوافز البر ، ولذلك لم يكن غريباً أن يروى عن رسول الله أنه كان إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وتلا قوله تعالى : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ثم قال : « اللهم أنا عبدك وزائر لك ، وعلى كل مزور حق ، وأنت خير مزور ، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار ، وإذ خرج قدم رجله اليسرى وقال : اللهم صبّ على الخير صباً ، ولا تنزع مني صالح ما أعطيتني أبداً ، ولا تجعل معيشتي كدّاً ، واجعل لي في الأرض حذاءً أي غني ويساراً فليكن لنا في رسول الله أسوة حسنة نألف كتاب الله ونعمر بيوت الله نكن من الفائزين . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا وللذين هم محسنون .

طلاب يذكرون في المساجد

الحمد لله عز وجل ، ما أجل سلطانه ، وأعظم شأنه ، وأعم إحسانه ،
« إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يعز من يشاء
بعلمه وحكمته ، ويذل من يشاء بعدله وقدرته ، وهو أعدل العادلين ،
وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ربي وعلمي ، وأدب وقوم ، فكان
إمام المصلين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله مصابيح الدجى ،
وأصحابه مفاتيح الهدى ، وأتباعه خير الورى : « ومن يعتصم بالله فقد
هدى إلى صراطٍ مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

نشرت بعض الصحف أن المسئولين قد أمروا بفتح المساجد بعد صلاة
العشاء حتى منتصف الليل . ليذاكر فيها طلاب المدارس والمعاهد والكليات ،
نظراً لقرب مواعيد الامتحانات ، وقد قرأت هذا الخبر في سطور قليلة
ومكان غير بارز لعل الكثيرين قد مروا عليه دون أن يشعروا به أو يفكروا
فيه ، ولكني ما كدت أقرأ هذا الخبر حتى دار في ذهني قول الأول حين قال :
وقد يجمعُ اللهُ الشيتيين بعد ما يظنان كل الظن أن لا تلاقيسا
وحقاً قد يثاب المرء برغم أنفه ، ويؤخذ أخذاً إلى طريق دينه ، فإن في
الطلاب من غير شك عدداً كبيراً هائلاً لم يسبق لهم أن تعودوا السعي إلى
المسجد أو التعبد فيه ، ولعل هذا الإجراء الذي أريد لغير العبادة يكون سبباً
لحتمهم على ارتياد المسجد للتعبد ، ويكون معواناً على إنشاء علاقة بين الشباب

القيت في يوم الجمعة ٢٥ من المحرم سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٥ من
مايو سنة ١٩٦٧ م .

(م ٦ - خطب ج ١)

المسلم ودور العبادة ، ولقد خيّل إلى أن المساجد حين تفتتح أبوابها أمام هؤلاء الأفواج من الطلاب ستقول لهم : مرحباً بالوجه التي كنت أرقبها وأنتظرها من زمن بعيد . مرحباً بكم في داركم التي طال عنها إعراضكم وهجرانكم لها ، وإذا كنتم قد سمعتم نحوي لغرض عارض أو لهدف ليس من صميم رسالتي ، فإني لا أضيع بكم ، بل أفتح ذراعي لكم ، وأرجو أن تذكروني بعد امتحانكم وفوزكم ، فأبوابي لا تغلق في وجه من يقصدني ، وليس هناك من البشر من يملكني ليتحكم فيّ أو يوجهني ، وإنما أنا بيوت الله ، فأبوابي ينبغي أن تكون دائماً مفتوحة لكل عباد الله .

ولا ريب أن هناك أكثر من سبب مسوغ لهذا الإجراء ، فهناك كثرة السكان وازدحام المساكن مع ضيقها ، وهناك كثرة اللغظ والضوضاء التي يحدّثها من لا خلاق لهم من الناس فيحرمون التلاميذ والطلاب نعمة الهدوء في المذاكرة ، وهناك عدم توافر النور الساطع الكافي للاستذكار المريح ، ولكن ليتنا مع هذا الإجراء ننتهز الفرصة لنعلم أبناءنا وشبابنا أن المساجد هي بيوت الله تعالى في الأرض ، وأن عمارها هم زوار الله جل جلاله ، وأن الله عز شأنه هو الذي يقول : «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» ، وأن رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام يقول : « من أَلَفَ المسجد أَلَفَ الله تعالى » ويقول : « إذا رأيتَ الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » . ويقول سعيد بن المسيب رضي الله عنه : « من جلس في المسجد فإِنما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيراً » .

وليتنا ننتهز الفرصة لنعلم هؤلاء الشباب أن للمساجد آداباً وأوضاعاً ، فهي ليست منازل كمنازلنا ، ولا طرقاً كطرقنا ، ولا أسواقاً للبيع والشراء ، ولا مطاعم للأكل والشرب ، ولا فنادق للنوم والراحة ، بل هي بيوت الله ،

يسعى إليها الساعي وهو في طهارة من جسمه وأطرافه وثوبه وقلبه ، ويدخلها بالسكينة والوقار ، فلا يرفع فيها صوتاً كأصوات الحمير ، ولا يثير فيها جدلاً من ألوان الجدل الدنيوي الصاخب ، فقد جاء في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد ، فيقعدون فيها حلقاً حلقاً ، ذكروهم الدنيا وحب الدنيا ، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة » وكان هذا الحديث قد قيل في أناس من شأنهم أن يقتصروا وهم في المساجد على الأحاديث الدنيوية المادية التافهة التي لا تكون وسيلة لغرض من الأغراض الشريفة التي تحقق للإسلام أو أهله عزاً أو مجداً في حاضرهم أو قابلهم ، ليتنا نتذاكر ما روى عن أبي هريرة من أنه دخل السوق فوجد منهمكين في أمور البيع والشراء ، فقال لهم : أراكم ها هنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد ؟ فذهب بعض الناس إلى المسجد ثم عادوا يقولون لأبي هريرة : ما رأينا ميراثاً يقسم في المسجد . فقال لهم : فاذا رأيتم ؟ قالوا : رأينا قوماً يذكرون الله عز وجل ويقرأون القرآن . فقال أبو هريرة : فذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويؤيد هذا ما روى عن سيد الخلق حين قال : ما اجتمع قوم في بيت بيوت الله عز وجل ، يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكروهم الله فيمن عنده .

وقد يكون من حقنا أن نتساءل : ولماذا تقتصر هذه الصحبة بين الطلاب والمسجد على هذا الشهر من العام ؟ ولماذا لا نعمل على توثيق هذه العلاقة خلال السنة كلها حتى يكسب الشباب من ربانية المسجد ما يخفف عليهم سعار الحياة وجفاف ماديتها ؟ . وإلى متى تمتد هذه الصحبة الموقوتة ؟ . إلى نهاية الامتحان بطبيعة الحال ، ثم ينصرف الجميع ويولون الدبر وتعود المساجد سيرتها الأولى ويردد مردد :

صلى وصام لأمر كان يطلبه فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاماً

إن من واجبتنا أن نعمل كل ما نستطيع ، وأن نبذل كل ما نطيق لعقد الصلة الطيبة الدائمة بين شبابنا ومساجدنا ، حتى تتألق أضواء الإيمان في صدور هؤلاء الشباب ، وحتى تزدان المساجد بتلك الجموع الشابة المتوثبة ، بدل أن تظل خاوية على عروشها لا يرتادها في الحين والحين إلا هذه الطائفة القليلة العدد التي بقيت مستمسكة بدينها وكأنها قابضة على الجمر ، ومن واجبتنا أن لا تقتصر على فتح أبواب المساجد لتستقبل جموع الطلاب ثم ندعهم وشأنهم وإلا كانت التجربة عرضة للانحراف أو سوء الاستعمال ، بل لا بد لهؤلاء من إشراف ورقابة وتوجيه ، حتى نحسن استغلال الفرصة لإيقاظ الإيمان والخير عند هؤلاء ، وحتى يصدق عليهم ما صدق على أسلاف سابقين : « إنهم فتيّة آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

لقد أخبرنا الصادق المصدوق أن هناك سبعة يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله ، منهم شاب نشأ وقلبه معلق بالمساجد ، والأولاد أمانة بين أيدي الآباء ، فلو أحسنوا القدوة والتوجيه لهؤلاء الناشئين لعلموهم كيف يألفون المساجد ، ويرعون آدابها وبذلك تحيي نزعات الخير ، وتوأد نزعات للشيطان : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

المتدينون من منازلهم^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو الرحمنُ ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمهُ البيانَ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أوضح للإنسان الطريق ، ووهبه التمييز ، وكلفه العمل : «إنا هديناهُ السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً» . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ترك الناس على المحجة البيضاء : ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أغصان دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأتباع دعوته : «الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكرِ اللهِ ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

هناك فئة من الناس نستطيع أن نصفهم فنقول إنهم «المتدينون من منازلهم» وهم أناس يريدون تعطيل الشعائر الدينية والمظاهر الإسلامية والسنن المحمدية ، ويريدون أن يحيلوا فرائض الدين إلى رسوم وآثار ، وتعالجه إلى دمن وأطلال فإذا كانت الصلاة قد فرضت كل يوم خمس مرات ، وكان لكل صلاة وقت محدد ، وقال القرآن : «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً» فهؤلاء يقولون : ولماذا لا نصليها كلها دفعة واحدة في آخر اليوم إذا عدنا إلى منازلنا ، والذي يقبلها تفاريق يقبلها مجتمعة ؟ وإذا قيل لهم إن صلاة الجماعة لها شأنها ومكاتها ، وخاصة إذا صحبها سعي إلى المسجد قالوا : وهل لدينا من الوقت متسع لكي نسعى ونتجمع كلما جاءت صلاة ؟ ولماذا لا يصلّي كل واحد منا في منزله ؟ وحينما بدأت الإذاعة تذيع خطبة الجمعة وصلاتها قالوا : لماذا لا يصلّي الإنسان خلف المذيع وهو جالس في بيته ؟ ومنذ حين دعيت من التلفزيون لإلقاء أول خطبة للجمعة تذايع من مسجده ، وعقب ذلك وجدت من يقولون : ولماذا لا يصلّي الإنسان أمام جهاز التلفزيون في منزله ؟

(١) القيت في يوم الجمعة ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٨٤ هـ الموافق

٧ أغسطس سنة ١٩٦٤ م .

وهكذا يريد هؤلاء أن يصدق عليهم الوصف الذى وصفتهم به هو « المتدينون من منازلهم » .

ونتناول الآن آخر ما نساء لواعنه وهو مدى صحة الصلاة خلف جهاز التلفزيون ، فنقول إن الفقهاء قد اشترطوا فى صلاة الجماعة والجمعة اجتماع الإمام والمأموم فى مكان الصلاة ، بحيث لا يفصل بينهما طريق تمر فيه العربية ولا نهر يمر فيه الزورق ، ولا حائل مانع يصعب مع وجوده أن نقول إنهما مجتمعان فى مكان ، واشترطوا فى صحة صلاة الجمعة حينئذ أن يعلم المأموم بانتقالات الإمام فى الصلاة ، وقالوا إن هذا يتحقق بسماع المأموم صوت الإمام . أو سماعه صوت من خلفه ، أو مشاهدته للإمام ، أو مشاهدته من خلفه ؛ وقالوا إن المصلين ينبغى أن يصطفوا صفوفاً خلف الإمام ، ولا تضر كثرتها ، حتى ولو بلغ طولها ميلاً أو أكثر ، لأن من فيها مجتمعون فى مكان وإن كان فسيحاً واسعاً ، وينبغى ألا تزيد المسافة بين كل صف وآخر عن ثلاثة أذرع ؛ وفى حالة صلاة الإنسان من منزله على صلاة جهاز التلفزيون تكون صلاته آلية مقطوعة الصلة الفعلية بالإمام والمأمومين ، ولا نصح الصلاة ، والاتصال الموهوم بين الإمام والمأموم اتصال ظاهرى لا حقيقى ، وقد ينقطع تيار الكهرباء فيقف الجهاز ويوزل الاتصال ، فإذا يفعل الإنسان إذا حدث هذا وهو فى أثناء الصلاة ؟ وقد يعرض الخلل للجهاز أو تتوالى فيه الصور بسرعة فلا تظهر ولا تبين شيئاً ، وقد تعطل الأجهزة من جهة إدارة التلفزيون فيتعطل الإرسال فينقطع الاتصال ، والفقهاء ينصون على أن المأموم يكون خلف الإمام غير متقدم عليه ، وفى حالة الصلاة خلف جهاز التلفزيون قد يكون المأموم مقياً فى مكان أقرب إلى جهة مكة وجهة الكعبة من مسجد التلفزيون الذى تزداع منه الصلاة ، فيكون المأموم حينئذ قد تقدم على إمامة ، فكيف يستقيم أمر الصلاة على هذه الأوضاع .

ثم تعالوا بنا إلى كتاب ربنا عز وجل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإننا سنجدته يقرع أسماعنا بقوله : «يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » ، فالله جل جلاله هنا يأمر عباده عند صلاة الجمعة بالسعى إليها والمشى نحوها ، وأن يتركوا من أجلها كل عمل من الأعمال ، لأن حق الله تعالى أولى بالأداء والتقديم ، وإذا كانت الآية قد ذكرت البيع وحده ، فلنما ذكرته كرمز للعمل ويقاس على البيع غيره من الأعمال ، ولأن البيع كان أهم عمل عند العرب فترك غيره واجب من باب أولى ، وإنما أوجب الله ذلك ليتحقق الهدف المقصود من وراء صلاة الجمعة ، لأن الله تعالى قد شرعها لتكون عيداً أسبوعياً للمسلمين ، واجتماعاً دورياً لهم ، يلتقون فيه فيزدادون تعارفاً وتآلفاً ، ويتشاورون فيما بينهم ، ويتعاونون على البر والتقوى ، ويتراءون فيشاهد كل منهم حال أخيه فيشاركه فرحته ويشاطره شدته ، ويسمعون خطبة إمامهم سماعاً مباشراً فيكون له تأثير أكبر من تأثير السماع غير المباشر . وماذا يحدث لو أن رئيس دولة أو قائد أمة دعا إلى اجتماع مشهود ليخطب فيه ، واكتفى كل فرد بأن يسمع خطبته من المذياع أو التلفزيون وذهب الرئيس أو القائد إلى مكان الاجتماع فوجده خالياً ؟ وماذا يحدث أيضاً إن فكر كل مسلم في أن يسمع الخطبة في المنزل ، وذهب الأئمة إلى المساجد ليخطبوا فلم يجدوا فيها أحداً ؟ . ألا يذكرنا هذا بقول الله تعالى لرسوله في شأن خطبة الجمعة مندداً بالمعرضين عنها والمفرطين فيها : «إذآ رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » . وهذا رسول الإسلام يحث على السعى إلى المسجد لمطلق الصلاة ، فضلاً عن صلاة الجماعة فضلاً عن صلاة الجمعة ، فيقول : « من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من

بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداهما تحط خطيئته ،
والأخرى ترفع درجة » ، ويقول : «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا
ويرفع الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ،
 وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط » وذكر السبعة الذين يظلهم الله
بظله يوم لا ظل إلا ظله ، فجعل منهم الرجل المعلق قلبه بالمساجد .

قد يقال : إن الذى يصلى خلف جهاز التلفزيون ولا يذهب إلى المسجد
عنده عذر كمرض أو نحوه . والجواب أن هذا لا تجب عليه الجمعة ،
ويستطيع وهو فى المنزل أن يستمع إلى الخطبة من الراديو أو التلفزيون ،
ولكنه لا يصلى الجمعة ، بل يصلى الظهر بدلها ، لأنه هو الواجب عليه فى
هذه الحالة ما دام صاحب عذر ، وكذلك تستطيع المرأة المسلمة أن تستمع
إلى الخطبة من الراديو أو التلفزيون ، ثم تصلى الظهر ، لأن الجمعة غير
مفروضة عليها ، أما أن يصلى المسلم وراء الراديو أو التلفزيون فهذه بداية خبيثة
لشر مستطير ، لأن الأخوة الإسلامية ضعيفة وروح الجماعة بين المسلمين
هزيلة ، والمساجد مهجورة ، ولو فعل المسلمون ذلك لتعطلت الجمعيات
وذهبت روعة ذلك اللقاء الأسبوعى الإسلامى الباهر ، وتفرق المسلمون فى
منازلهم أبداً سباً ، مع أن القرآن يقول : «واعتصموا بحبل الله جميعاً
ولا تفرقوا» والرسول يقول : «يد الله مع الجماعة» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : أظن أنه لن يحاول واحد منكم
أن يكون من حزب هؤلاء المتدينين من منازلهم ، فأنتم بقية الخير فى حنايا
المجتمع ، وما تزال طائفة من أمة محمد على الحق ظاهرين حتى يقضى الله
أمراً كان مفعولاً ، وسبحان من لو شاء هلكى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ،
واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

طريق المؤمن (١)

الحمد لله عز وجل ، هو الذى نرجو رحمته وثوابه ، ونخشى بأسه وعقابه :
 « إنَّ الدينَ يخشونَ ربهمُ بالغيبِ لهمُ مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ » . أشهد
 أن لا إله إلا الله ، جمع بين الوعد والوعيد ، والتبشير والتحذير : « لينذرَ
 الذينَ ظلموا وبشراً للمحسنينَ » . وأشهد أن محمداً رسول الله ، هدى
 إلى النعمة ، وحذر من العقاب : « وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » . فصلوات
 الله وسلامه عليه ، وعلى فروع دوحته الزاكية ، وأهل صحبته الغالية ،
 وأنصار شريعته الباقية : « وبشرُ المؤمنينَ ! » .
 يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الحكمة ضالة المؤمن ، والله جل جلاله يصف عباده الأخيار بأنهم « الذينَ
 يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحسنهُ أولئكَ الذينَ هداهمُ اللهُ وأولئكَ همُ أولوُ
 الأبوابِ » ، وللإمام على رضى الله عنه كلمة جليلة فيها عظة وبلاغ لقوم
 يعقلون ، يقول : « أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها أبواب الإبل لكانت لذلك
 أهلاً : لا يرجون أحد منكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحين أحد
 منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم
 الشيء أن يتعلمه ، وعليكم بالصبر ، فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ،
 ولا خير في جسد لا رأس معه ، ولا في إيمان لا صبر معه (٧) » . . .

(١) القيت في يوم الجمعة ٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٨ هـ الموافق
 ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .
 (٢) انظر نهج البلاغة ، ج ٣ ص ١٦٨ . وآيات الأبل جمع ابط ،
 وذلك كناية عن سرعة السير إليها . وكذلك ذكر هذه الوصية في حلية
 الأولياء ، ج ١ ص ٧٥ بهذه الرواية « احفظوا عنى خمساً فلو ركبتهم الإبل
 في طلبهن لاتضيتموهن قبل أن تدركوهن : لا يرجو عبد الا ربه ، ولا يخاف
 الا ذنبه ، ولا يستحي جاهل أن يسأل عما لا يعلم ، ولا يستحي عالم
 اذا سئل عما لا يعلم أن يقول : الله أعلم ، والصبر من الايمان بمنزلة
 الرأس من الجسد ، ولا ايمان لمن لا صبر له » .

إنها حقاً خمس خصصها الله تعالى لشد الرحال ، وبذل الجهد من الرجال . . .
 الخصلة الأولى : « لا يرجون أحد منكم إلا ربه » . لأن قصر الرجاء على الله
 وحده تربية لقوة النفس وعلو الهمة وسمو العزيمة ، ومن قصر رجاءه على
 الله صرف وجهه عن سواه ، ومن صرف وجهه عن الخلق فقد استغنى عنهم ،
 ومن استغنى عنهم فقد مهد لنفسه طريق العزة والكرامة والاستعلاء . والرجاء
 من الله تعالى لا بد أن يكون نتيجة للإيمان به والثقة فيه والاعتماد عليه ، واليقين
 بأنه مالك الأسباب ورب الأرباب ؛ وإذا كان الله المرجو قادراً على الإجابة
 متمكناً من التحقيق ، فإن الراجي يلزمه أن يكون صالحاً لتلقى النعمة ، أهلاً
 لنيل التكرمة ، وذلك بأن يكون من الذين يستجيبون لأوامره وينحضعون لأوامره
 حتى يكون الله لهم ومعهم ، يجيبهم ويلببهم ، مصداقاً لقوله عز من قائل :
 « وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعي إذا دعاني ،
 فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي ، لعلهم يرشدون » .

ونكاد نفهم من معنى الرجاء أن الإنسان إذا رغب في مطالب الحياة ،
 أو أراد الحصول على شيء من دنياه ، توجه في رغبته وإرادته إلى رحاب
 مولاه ؛ يستعين بقدرته أولاً ، ويثق في نواله ثانياً ، ويسلك لبلوغ ذلك
 شريف الطرق وكريم الوسائل ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، ولأن من سلك
 صراط الله - وهو صراط الحق والعدل والعمل - فقد رجا ربه الرجاء
 المستجاب ، وسعى نحوه السعي المثمر واستعان به الاستعانة المقرونة بالنصر
 والتأييد ، ومهد لنفسه السبيل كي يحيا في الدنيا حياة نظيفة شريفة ، وكي
 يفوز في الآخرة بالرضا والرضوان والنعم المقيم في جنات النعيم : « في مقعدٍ
 صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ » .

وأما المستعين على قضاء مآربه ونيل مطالبه بالغش والتدليس ، أو بالسحت
 والحرام ، أو بنخب الاستغلال وسوء الاحتمال ، فإنه لا يكون راجياً لله ،
 ولا موصول الأسباب بحماه ، بل يكون راجياً للشيطان أو تابعاً له ، وقد

ينال شيئاً أو أشياء ، ويخيل إليه أنه قد وصل واطمأن ، ولكن عين الله لا تغفل ولا تنام ، فسرعان ما تأتي يد العلي القدير لتضع الأمور في مواضعها ، فتحق الحق وتبطل الباطل : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » .

وما أقرب اليوم الذي يتطلع فيه المبطلون والمخادعون فإذا الذي بين أيديهم « كسرابٍ بقيةٍ يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » .

الخصلة الثانية : « ولا يخافن إلا ذنبه » . والذنب هو الخطأ والانحراف عن السبيل السوي ، والمرء لا يعييه ضعف حسي ، ولا بطء في الحركة طبيعي ، ولا قلة في الإنتاج استلزمها ضرورة ، ولكن يعييه الزلل والخطيئة ، ولذلك يخاف المؤمن كل الخوف من الذنب والخطأ ، لأن قلة المبالاة بالذنب توجد في الإنسان جرأة على الانعتاق من الواجب ، والتحلل من الفضيلة ، والتخلص من الحياء ، ومتى خلع المرء ثوب الحياء فقد توقع وبلغ من الرذيلة والإثم الغاية والنهاية ، ولذلك قال محمد معلم الإنسانية ومصلح البشرية : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . وكثير من الناس يحسبون أن الخوف من الذنب يتحقق بتمتة ندم عاجلة أو همهمة استغفار عارضة ، وهذا كله مظهر شكلي للخوف ، ويبقى بعد ذلك لبه وجوهه وهو ترك الذنب والحذر منه ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وخوف الذنب نوعان : أولهما وأولاهما بالتقديم والرعاية أن يخاف الإنسان ذنبه بمعنى يتحاشاه ويتحاماه ، ويتباعد عنه فلا يقربه ولا يدنو منه ، وثانيهما أنه إذا زل العبد أو أخطأ خاف من تبعه هذا الذنب ، وظل هذا الذنب يخيف قلبه ويزعج خاطره ، ويقلق باله ويزلزل كيانه ، حتى يخرج من قيده الرهيب باستغفار صادق وتوبة نصوح . ولقد كان المؤمن من

السابقين تبتليه الأيام بزلة يزها ، فإذا هي عنده كالسبع الجائع يطارده في كل مكان ، يريد افتراسه وابتلاعه ، فهو من خطيئته في هم مقعد مقيم . . .

وإذا أحسن العبد المستقيم الجمع بين الرجاء من ربه والخوف منه ، فوثق بوعدته ، وطمع في ثوابه ، وخشى وعيده وخاف من عقابه ، فقد أفلح وفاز لأن اجتماع الخوف مع الرجاء في صدر الإنسان يجعله سائراً على صراط قويم لا يجيد عنه ولا يميل ، فهو يعمل عمل الأقوياء الأشداء لوجود الطمع والرجاء وهو يخشى خشية القانتين الصديقين لسيطرة الخوف على حسه ونفسه ؛ ولقد دخل الرسول على رجل وهو في النزاع فقال له : كيف تجردك؟ فقال الرجل : أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . . . فقال النبي : ما اجتماعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف . والله يقول : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الخصلة الثالثة : « ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم » فالعلم بحر لا ساحل له ، والعالم يجب أن يكون متواضعاً وأميناً ، فلا يضل ولا يدجل ، ولا يدعى أو يزدهى ، فقد علم شيئاً وغابت عنه أشياء ، ومن قال لا أدري فقد أفتى ، ولقد سئل الرسول عن خير البقاع فأجاب : لا أدري ، حتى أعلمه الله بأنها المساجد ، وسئل عن أشياء أخرى فقال : لا أدري . وما كان هذا عن عجز أو تقصير ، ولكنه للتعليم والإرشاد حتى يقتدى به العباد . ولقد قال الإمام علي : « من ترك قول (لا أدري) أصيبت مقاتله » وقال ابن مسعود : « إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون » وقال : « جنة العالم لا أدري ، فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله » .

والخصلة الرابعة : « ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه » . وهذا تحريض على مواصلة البحث والنظر والدراسة ، فباب العلم واسع ،

وبحره فسيح ، والعلم يطلب من المهدي إلى المحمد ، وطالب العلم لا يقنع أبداً :
 « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » . وحينما قال الله تعالى :
 « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » لم يرد تثبيط هممنا عن طلب العلم ، بل أراد
 تحريضنا على أن نزيد هذا القليل بفضله وتوفيقه ، ولذلك قال : « وقل
 رب زدني علماً » .

والخصلة الخامسة : « وعليكم بالصبر فإن الصبر كالرأس من الجسد » .
 والإيمان أمان واطمئنان ، والصبر ثبات ودوام ، فمن لم يثبت على مبدأ ،
 ولم يدم على خطة فهو ليس بمؤمن ، لأن التردد ليس من صفات المؤمنين
 بل هو من صفات المنافقين « مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » .
 وهل تمهدت الطرق بغير الصبر ؟ وهل بنيت الأمم بغير الصبر ؟ وهل تحررت
 الأوطان بغير الصبر ؟ وهل فاز الفائزون بغير الصبر ؟ « إن الله مع الصابرين ! »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . أين نحن اليوم من هذه الخصال ؟
 لقد أصبح كثير من الناس يؤمنون بالمادة ولا يؤمنون بالغيب ، ويرجون
 الناس ولا يرجون الله ، ويعتمدون على ما في أيديهم وهو عرض زائل
 ولا يعتمدون على القوى القدير ، ويغترون بما يعلمون وإنه لضئيل ، ويتهجمون
 على ما لا يفقهون فيضلون ويضلون ، فهل لنا أن نستعين ربنا جل جلاله
 أن يأخذ بناصيتنا إلى الثقة به ، والخوف منه ، والرجوع إلى حكمه وعلمه ،
 والثبات على دينه ، والصبر على أمره ! « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا
 ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

بين القوة والعقيدة (١)

الحمد لله ، هو أهل التكبير والتمجيد ، وهو مصدر العون والتأييد ، « يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، أعززت دينك بالقرآن والسلطان ، ونصرت كتائبك بالعزائم والإيمان : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أدب قومه فأحسن تأديبهم ، ودرّبهم على المكارم فأتقن تدرّبهم ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله ذوى المقاهر ، وأصحابه أهل الحمد والمآثر ، وأتباعه الموقنين باليوم الآخر : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

يا أتباع محمد عليه السلام

تنهض الثورات الإصلاحية عادة على أحد عاملين : القوة المقتدرة أو العقيدة المسيطرة ، أو عليهما معاً ، تسبق إحداهما ثم تقبل إليها الأخرى فتشد أزرها وتسد بناءها ، وقد بدأت ثورتنا الميمونة المباركة ببيعة القوة ورهبة الاقتدار ، وقام بها رجال تجردوا من شهواتهم ، وأخلصوا لله نياتهم ، وحرصوا على إرضاء خالقهم وبلادهم ، ووضعوا أرواحهم على أيديهم ، وخرجوا يريدون الحياة العزيزة أو الميتة الكريمة ، فقد كفاهم ما ذاقوه وذاقه إخوانهم من بلاء وشقاء ، وما اضطروا عليه كارهين من فساد وكبرياء ، فأراد الله لهم النجاح ، وكلل مسعاهم بالفلاح ، فحققوا في لحظات ما كان يعد خيالاً يستعصى على الدهور . . . ولا شك أن سلطان القوة كان العامل الفعال في ذلك الإقدام ، لأن الحق الأعزل لا يستطيع الوصول أو السيادة إلا بقوة . . . ثم إن النفوس كانت قد تحللت وتعفت ، وتهدمت قواعد

(١) أقيمت في يوم الجمعة ٢٩ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ الموافق

١٩ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

العقيدة فيها ، وزلزلت أركان الإيمان في نواحيها ، حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم وكانوا قوماً بوراً ، فلم يكن هناك مجال للبدء بالثورة عن طريق الإسماع والإقناع ، والله إذا أراد شيئاً قضاه ، وقد أراد ولا معقب لحكمه أن يكتب النصر لعباده على أيدي كتيبة قل عددها ولكن كثرت عدتها ، ففعلت باقتدارها ما لا تفعله آلاف المقالات والخطب . . .

واليوم لا بد لهذه الثورة الكريمة العظيمة من تسوية وترسيخ وتمكين ؛ لا بد لها من ارتكاز على أسس عريضة عميقة متينة ، من الفهم والهضم ، والاعتقاد والإقناع ؛ لا بد لها من رابط وثيق يربطها بجذور الإيمان في القلوب والأرواح ، حتى يدرك كل فرد أن هذه الحركة المباركة لازمة له ولعقيدته لزوم الماء والهواء ؛ وإذن فتحتاج الثورة إلى مبشرين وحواريين ، وإلى كتاب وخطباء ، وإلى دعاة ومرشدين ، يفهمون الشعب أولاً ماذا كان فيه ، ثم ماذا صار إليه ، ثم مدى الفروق بين هذا وذاك ، ثم يوجهون القادة إلى ما يجب أن يكون ليرضى الله ويسعد الوطن ، ثم يرسمون الأهداف المقبلة للناهضين العاملين ، حتى يبصروهم بوسائل الغلب ، ويحذروهم من مهاوى العطب ، ثم يحكمون الاتصال أو الامتزاج بين القوة والعقيدة ، أو بين الإصلاح والدين ، حتى يكون الدين مهيمناً على النهضة فتباركها يد الله ، وحتى يكون الإصلاح مستجيباً لهدى الدين القويم ، فيأخذ إلى النفوس أعدل طريق بلا تردد أو تعويق . وحينئذ يكون الصبر الجميل ، والثبات الواثق ، والنصر المبين : « ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وأنصرنا على الكافرين » ، وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » ، « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » .

ولا بد أن تسند القوة العاقلة هؤلاء الدعاة ، وأن تتمكن لهم بعد اختيارهم والإطمئنان إليهم ، حتى يكون لهم كيانهم واعتبارهم ، وحتى يلقي الناس

بيانهم وتوجيههم بالتوقير والمسارة ؛ فإنه من المؤسف أن يكون الداعى دعياً فيتكلم وكأنه طبل أجوف ، أو يتكلم وهو مرغم على ما يقول ، أو يتكلم حيث لا يجد المستجيب أو السميع . . . ولقد مرت أيام كنا ندعو فيها فوق المنابر لمن لا يؤمن به ، ولكننا مرغمون ، ومرت أيام حرمت فيها آيات من القرآن لا تتلى لأن فيها تعريضاً بالمجرمين الظالمين وهم الحاكمون المستبدون ، ومرت أيام حولت فيه مهمة الإفتاء إلى «مصنع» ينتج ما يشاؤه الجبارون بين العباد . . .

وقد آن الأوان لإصلاح هذه العيوب ، ولتمكين رجال الدعوة الإسلامية من أداء واجبهم ورسالتهم بقوة وعزة وانفساح ، حتى يخدموا هذه الثورة أكبر خدمة ، وهي صبغها بصبغة الإسلام الحنيف الذى جاء ليسعد لا ليشقى ، وليجمع لا ليفرق . ولينشر السلام لا ليثير البغضاء ، وليحفظ للجميع جميع الحقوق ، لا ليوجد الشحنة والعقوق : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

قد يستطيع المصلح أن يطعم الشعب سنة وستين ، وقد يستطيع أن يهر عينيه بإصلاحات تناول حياته المادية والاجتماعية . . . ولكن الشعب لن يقنع بها وإن كان يقدرها ويشكرها ويمجدها ، لأنه يرجو هذا غذاء لروحه وقلبه ، وضياء لعقله ونفسه ، ونبراساً يشعل جذوة العقيدة والإيمان فى صدره ، ويومئذ يقول لمصلحه لقد اكتفيت واشتفيت ، فقدنى حيث شئت فى ميادين العمل والجهاد . . . فلنؤيد قوتنا بتثبيت عقيدتنا ، ولنسند عقيدتنا بسلطان قوتنا ، ومتى اجتمع الإيمان والسلطان فقد تمت نعمة الرحمن . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

الله جل جلاله^(١)

الحمد لله ، يعطى ويمنع ، ويرفع ويضع ، ويهدى ويفضل ، ويعز
ويذل : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطير » . نشهد أن لا إله
إلا أنت ، تمهل ولا تهمل ، « وإلى الله ترجع الأمور » « يوم لا تملك نفس
لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك
لجأ إليك فنال الكرامة ، وأستعاذ بك فرزق السلامة ، وفاز فوزاً عظيماً ،
فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وذريته ، وأصحابه وجماعته ،
والقائمين بأمر شريعته « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم
الآمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . .

ما يسعد الخاطر ويوحى بالبشائر أن رئيس الحكومة البطل الذى أنقذ
الوطن وأخذ الفتن قد أمر أن تنزع صورة الملك المخلوع ، وأن توضع بدلها
لوحة كتب عليها « الله جل جلاله » ؛ وهذا صنيع بديع يوحى بأن الثورة
المباركة ليست للبطون والأجساد فحسب ، ولكنها أيضاً للأرواح وتثبيت
دعائم الاعتقاد ؛ وما دام اسم الله يعلو رعوسنا ، وما دامت رقابته تسيطر
علينا ، وما دام جلاله يملأ صدورنا ، فقد سلم الطريق وتحقق التوفيق :
« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما
ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » . . .

نعم هذا إصلاح جميل واتجاه حميد تكسب به الثورة بركة ربها ، وتبعد به
عن مخالبتها ، وذلك لأن حب الذات مع طغيان الهوى يدفعان صاحب السلطان
إلى الإسراف فى التنويه بشخصه والإعلان عن نفسه ، والمبالغة فى فرض
اسمه وطابعه ما يستحق وما لا يستحق ، وقد يغره ذلك البريق ويخدعه ،

(١) أقيمت فى يوم الجمعة ٢٢ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ الموافق
١٢ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

وقد يستبد به الزهو والخيلاء حينما يبتدى له كأن الدنيا كلها طوع يديه ،
فهى منه وإليه ، ولكنه من غفلته لا يدرك أن ذلك الإسراف يكون سبباً فى
نكبته وزوال اسمه ودولته ؛ وأمامكم شاهد قريب ، فهناك طاغية مستبد ،
فرض اسمه على كل شىء ، واحتمال لذلك بكل شىء ، وخيل إليه أنه قد
صار كل شىء ، وتوهم أكثر الناس أنه حقاً كل شىء ، وفى إطراقة جفن
ذهب منه كل شىء ، وزال اسمه عن كل شىء ، ولم يبق اسمه الطويل
العريض على شىء «فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون» .

ولا تظنوا أن سفاهة الطاغين من الحاكين فى ذلك الباب حديثة الميلاد ،
فتلك ضلة قديمة فى البلاد وبين العباد ، إذ كان الملوك القدماء تستبد بهم
الأنانية والشهرة الكاذبة وحب الذات ، فينحتون أسماءهم وأوصافهم ومحامدهم
على الصخور وأحجار الهياكل والمعابد وغيرها ، ويخيل إليهم أن ذلك تخليد
ليس وراءه نسيان ، ولكن هؤلاء الملوك يصيبهم هوان الافتقار أو الإنكسار
أو يعدو عليهم الموت هاصر الأعمار ، فيخلفهم ملوك آخرون ، فيمحون
أسماء السابقين ، ويضعون أسماءهم هم مكانها وينسبون الصفات المنحوتة إلى
أشخاصهم ؛ ثم تدور عليهم الدائرة كما دارت على سابقهم ، ويخلفهم من
يمثل نفس الدور معهم ، وهكذا . . . ثم تستقر الأمور أخيراً بأن يصبح
الجميع فى وادى النسيان والعدم ، وتطفح من حين لآخر رائحة ما أتوا من
مظالم وما ارتكبوا من قبائح ومآثم ، فتذكر قول الجليل فى محكم التنزيل :
« إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة
وكذلك يفعلون » .

ذلك شأن سلاطين البشر الذين يهبهم ربهم أجزاء من ملكه لحكم يعلمها
وهو اللطيف الخبير ، وقد دلتنا التجارب والحوادث على أن سلطانهم مهما
امتد لا يدوم ، وأن جشعهم مذموم ، وأن أسماءهم مهما لمت فهى إلى ظلمات
وغيوم ، وأما اسم العلى الأعلى فإنه دائم لا يزول ، باق لا يحول ، له وحده

الملك والسلطان ، وييده وحده الأمر والشأن : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير » . وما دام الله هو ملك الملوك ، وهو صاحب العزة والجبروت حقاً وصدقاً ، وما دام سلطان غيره عارية مستردة ، ومقصوراً على الظاهر والعنوان ، فاسم الله أولى بالتكريم ، ووصفه أجدر بالتعظيم ، وزعته أحق بالتعميم ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ؛ وفوق ما في هذا من عدل في التصرف وإنصاف في الحكم ، سيؤدى بنا ذلك التعلق باسم الله والتطلع الدائم نحوه إلى مراقبته وخشيته والخوف منه ، وإذا حلت الخشية قلوب الجماهير فقد استغنت عن التطهير ؛ إن الله لطيف خبير .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لقد مرت على بلادكم الغالية فترات حالكة الظلام ، سعت فيها ثعابين الإثم والمنكر بكل فسوق وكفران ، حتى عبدَ المجرمون من دون الله أصناماً وأوثاناً ، وهدموا بذلك للدين والإيمان أركاناً ، وكان اسم الله جل جلاله أحياناً محرماً على الشفاه ، حتى قيل متى نصر الله ، بل قيل أين الله . . . والله معكم أينما كنتم ؛ وخيل للضعفاء وللسفهاء ما خيل إليهم من شبه في الدين وأهليه ؛ ولكن هأنتم هؤلاء تشهدون النور يقبل بعد تطاول الديجور ، وهذه رجعة إلى الله فاتهزوها ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، فطهروا قلوبكم من سواه ، وطهروا دياركم من أسماء ما عداه ؛ واجعلوا اسمه نبراسكم في هذه الحياة : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » . واتقوا الله الذي أتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

إيمان الفريق (١)

الحمد لله، يكرم بالنعمة ، ويؤدب بالنقمة «ونبلوكم» بالشر والخير فتنّة ،
 وإلينا ترجعون . نشهد أن لا إله إلا أنت ، وسعت رحمتك كل شيء ،
 واتسع فضلك لكل حي ، وتقبلت الدعاء ، واستجبت للرجاء وكنت الكريم
 الحليم : «وإذا غشيهم موجٌ كالظلل دعواُ الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم
 إلى البرّ فمنهم مقتصدٌ وما يجحدُ بآياتنا إلا كل ختار كفور .» ونشهد أن
 سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، عرفك في السراء والأضراء واعتمد عليك
 في البأساء والنعماء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وشيعته ،
 وأقطاب صحبته ، وأتباع دعوته : «الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم
 وحسن ماآب .»

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أما أن الله عز وجل هو الرب المستحق للعبادة دون سواه ، الجدير
 بالتقديس دون غيره ، فذلك أمر أصبح واضحاً مفروغاً من تقريره عند
 جميع العقلاء ، والله في كل شيء آية تدل على أنه الواحد ، وما ينكر جلال
 الله اليوم إلا عتل حيوان أو خيث أفعوان ؛ ولكن الناس في عبادتهم لله
 أصناف وألوان ؛ فمنهم من يخضع له خضوع العبيد الأذلاء الذين لا تسيرهم
 إلا الرهبة ، ولا يسيطر عليهم إلا الخوف ، ومنهم من يتقرب إليه تقرب التجار
 المحترفين الذين تستحوذ عليهم الرغبة وحدها ، ويستبد بهم الطمع فحسب ،
 ومنهم من يعبده لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة ، لأنه لا معبود بحق سواه ،
 فهو يقده تقديس الصديقين المحبين ويعبده عبادة المؤمنين الموقنين وإن كان
 في الوقت نفسه يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ، فأين موقفنا نحن من هذه
 الأصناف ؟ ! . . .

(١) أليت هذه الخطبة في يوم الجمعة ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٧٦ هـ
 الموافق ٣١ من مايو سنة ١٩٥٧ م .

ومهما كان هناك من فرق أو فروق بين هذه الأصناف وكان الصنف الأخير أفضلها وأعلاها وأغلاها فإنها على أى حال طوائف عابدة لربها ، موصولة به ، ولكل طائفة منها أجرها المقسوم وحظها المعلوم ، سواء أكان حادى العبادة عندها هو الخوف ، أم الطمع ، أم صادق الحب والإيمان . .

يخيل إلى أن الكثيرين منا يعاملون ربهم معاملة النفاق والمخاتلة ، وكأنهم لا يعلمون أن الله جل جلاله أعز من أن يغلبه غالب ، أو تصح عنده مراوغة مراوغ : « ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » ؛ « إنهم يكيّدون كيّداً ، وأكيّد كيّداً ، فهل الكافرين أمهلهم رويداً !! . . .

ألсна - يا بنى آدم - نظل مسرفين فى اللهو والغفلة ، راتعين فى الإثم والخطيئة ، لا نعرف الله حق معرفته ، ولا نعبده حق عبادته ، ولا نذكره كما ينبغى لجلال وجهه وسلطانه ، حتى إذا ألمت بنا ملمة ، أو نزلت بساحتنا كارثة ، لجأنا إليه داعين راجين ، وذكرناه خائفين خاشعين ، وبدونا كأننا من خيار الصديقين ، حتى إذا انقضت الظلمات ، أو تكشفت الملمات ، عدنا من جديد إلى اللهو والعبث كأنه لم تصبنا ضراء ، ولم نلهج بتوبة أو رجاء ، فنكون كالذين تحدث عنهم القرآن الكريم أكثر من موضع ، وهم أولئك الذين يركبون السفينة فرحين آمنين ، متمتعين غافلين ، حتى إذا اضطرب الموج ، وعصفت الريح ، وتمابت السفينة ، ذكروا ربهم عند الغرق ، واستغاثوا به . ولجأوا إليه ، وعاهدوه فى ضراعة وذلة ، أن يكونوا اختياراً أبراراً إذا خلصهم ونجاهم . . . فلما انكشف سوء ، وأمنوا الغرق ، كفروا بربهم ، وعادوا مجرمين !! ..

خذوا مثلاً من الأمثلة . . . منذ حين طاف بالبلاد طائف من العدوان والظغيان . ورأى الناس الموت بأعينهم فى كل مكان . فأخذوا يفزعون

إلى ربهم ، ومحاولون مرضاته ، فهم يدعون ويصلون ، وهم يرتلون القرآن ويبتهلون ، ووقف الكثير من المساخري ، واستتر العديد من المنكرات ، وحذت الصحافة والإذاعة أغلب الجهود للتعبة الروحية ، ولبت آيات الجهاد ، وأحاديث الكفاح ، وتوجيهات القوة ، وخشعت أصوات الرذيلة والتحلل والتميع والإلحاد ، ووصل ذلك الإصلاح إلى الموسيقى والغناء ، فاخفت أغاني الرقاعة والوقاحة ، وظهرت أغاني الإيمان والقوة ، فأخذنا نسمع مثل قول القائل :

الله أكبر فوق كيد المعتدى الله للمظلوم خير مؤيد
أنا باليقين وبالسلاح سأفتدى بلدى ونور الحق يسطم في يدي

وأخذنا نسمع قول الآخر : « دع سمائي فسمائي محرقة » . بل وأخذنا نسمع في الغناء بالعامية : « والله يا زمان يا سلاحى ... ! » . وقال أصحاب الغيرة والإصلاح : الحمد لله على تلك الهداية أو على تلك البداية و انتهت ساعة العسرة ، وأقبل نور من السلام على الوادى ، وكان المظنون بأهل العقل والمصابين بالفزعة القريبة أن يظلوا على تماسكهم الخلقى ، وعلى قريهم من إلههم ، وصلتهم به ، ولكن سرعان ما عادوا سيرتهم الأولى ، ففتحت المواخير ، وظهرت المناكير ، وخفت أصوات الحق ، وقلت السنة التوجيه والهداية ، وخفت أناشيد القوة والفتوة ، وسال طوفان الرقاعة والتحلل في الغناء من جديد ، فأخذنا نسمع في الصباح والمساء تلك الأغاني التي تتحدث عن الهوى والغرام ، وعن شهوات النفس ورغبات الجسد ، والتي تحرض الشباب أعنف تحريض على التعرض لتجارب خطيرة أليمة لا يعرف عواقبها إلا الله ، وإذا بالنساء والفتيات والعوائل والمخدرات والفتيان والشبان يسمعون في الصباح والمساء مثل تلك الأغنية الذائعة : « يا أمه

القمعرع الباب ، حيث يشهدون عن طريق التصوير الواضح والتعبير الفاضح
محاورة لفتاة تريد أن تجعل من أمها شبه وسيطة بينها وبين فتاها الذي أقبل
نحوها مستراً تحت الزعم بأنه من « الخطاب » ، ولو كان خاطباً حقاً لعرف
طريقه إلى والد الفتاة لا إلى أمها المنفردة بها ؛ والأغنية تصور بعبارتها الجارحة
كيف تحرض الفتاة أمها على عدم الحياد أو الكسوف ، وتدعوها إلى فتح
الباب لهذا العطشان الذي يطلب الماء ، والجائع الذي يطلب الطعام ، والسهران
الذي يطلب الراحة والنام ، والبقية معروفة . . .

قد يقول قائل : إن الأغنية حلوة ! . . ولكنها كحلوة الطعام المحرم .
وقد يقول قائل : إنها لذيذة ! . . ولكنها كلذة الخيطنة والإثم ؛ وقد يقول
قائل : إنها مرغوبة ومشتهاة ؛ ولكن ليس كل مشتهى مرغوب يجوز تقديمه
بلا قيود ، وشتان بين ما يشتهى وما يليق ! . . أحتاج فتيات اليوم البارعات
المائلات المميلات إلى تحريض على شهوة ، أم إلى تحريض على شرف
وعفاف ؟ . . أما نتقى الله في هذه الخوم الفائرة التي نوقد عليها بالنار ،
ثم نقربها من أنوف القطط الهائجة والسنانير الجائعة ؟ ! . .

وفتحنا الباب على مصراعيه لرقصة « روك أند رول » ، وهيانا لعرضها
على الناس مكاناً كان بالأمس ماخوراً خاصاً ، فأصبح اليوم ماخوراً عاماً ،
وعرفت الرقصة الخطيرة طريقها إلى البيوت والأندية والمجتمعات ، وأقل
ما يقال فيها إنها نائرة مثيرة ، خليعة ماجنة ، بشهادة الكثيرين من رجال الفن
والحضارة العصرية ، لا من رجال الدين ، حتى طالب بمحاربتها وزير دولة
لا تعترف بالدين ، بل تحارب كل دين ؛ ولكننا بتساهلنا وتحملنا جعلنا هذه
الرقصة ديناً لكثير من الشباب اليوم . ونسمع من يحتج في تسويغ ذلك بأنه
جائز شائع عند الغربيين ، ومع أن الكثيرين من الغربيين قد ضجوا بالشكوى
من هذا البلاء ، فقد نسينا أو تناسينا أن القوم في الغرب يحتاجون بحسب جوههم

وطبيعتهم إلى مثيرات ومهيجات ومحرضات ، وأما نحن في الشرق فنحتاج بحسب جونا وطبيعتنا إلى مسكنات وملطفات ومهدئات ؛ فإذا تكون النتيجة إذا وضعنا على النار مزيداً من النفط « البنزين » ؟ ! . . . ولمصلحة من يكون هذا الهدم العنيف لمقومات الأخلاق وأركان التماسك الروحي في صدور الشباب ؟ . . . المصلحة الإسلام ، والإسلام براء من كل خطوة يهبطها الشيطان للآثم والرزيلة ؟ . . . أم لمصلحة الوطن ، والوطن في معركة عنيفة من معارك الجهاد لتثبيت دعائمه على أسس من القوة والفضيلة ؟ أم لمصلحة هذه الأفلاذ الغالية من الأكياد وهم الأبناء الذين إذا لم نحسن تربيتهم اليوم فسيكونون شجراً في حلوقنا غداً ؟ ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . يا رواد المساجد ويا أبناء الإسلام .
أنتم البقية الباقية المستمسكة بدينها ، الحريصة على أخلاقها ، والمستمسكة بدينه اليوم كالقابض على الجمر ، فعاهدوا أنفسكم وربكم على أن تجاهدوا في الله حق جهاده ، وأن تعملوا ما في وسعكم لرد هذا البلاء ، وأن تثبتوا على دعوة الخير والفضيلة والأخلاق : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وابطأوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

وان ليس للانسان الا ما سعى^(١)

الحمد لله ، لا يؤاخذ النفس إلا بما كسبت ، ولا يعاقبها يوم الحساب إلا بما اجترحت ، ثم توفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، قاهر الظالمين وناصر المظلومين ، وما الله بغافل عما تعملون ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أصلح ولكنه لم يظلم ، وعدل ولكنه لم يفسد ، وكان بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه المحلصين الصادقين ، وأتباعه الصابرين الثابتين ، أولئك الذين سعدوا ، وأولئك لهم عند ربهم نعم مقيم .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا انحطت النفس البشرية ، وحادت عن الطريق الذي رسمه ربها لها ، بلغت من اللؤم مبلغاً يحير الأبواب ، ويثير غضب الحليم ؛ وكأن الله سبحانه قد وضع في هذه النفس من أسباب الرقى والعظمة ما تسمو به حتى تشبه الملائكة الأطهار ، وجعل فيها من الاستعداد للشر والسوء ما لو انحدرت إليه وبالغت فيه لأصبحت من الشياطين ، وصدق العلي العظيم : « قد أفلح من زكاهاً وقد خاب من دسأه » « وهديناهُ النجدين » ، « إنا هديناهُ السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً » .

وواجب الدعاء والمرشدين أن يوقظوا في النفس البشرية عوامل الخير ويقودها ، وأن يجاهدوا نوازع السوء ويقهروها ، وبذلك تسود الفضيلة وتنطوى الرذائل في منحدرها السحيق . . .

(١) ألقيت في يوم الجمعة ٣٠ من شوال سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ٣ من أغسطس سنة ١٩٥١ م .

اندفع شاب نائر فاعتدى على حياة ملك عربي ، والجريمة هي الجريمة حينما كانت ، لا يرضى عنها عاقل ولا يتم بها إصلاح ، وقد أسرع الحرس فسفكوا دم القاتل برصاصهم ، وعلى الرغم من التسرع في الاقتصاص قبل البحث والاستقصاء ، فقد قتل القاتل ، وبذلك ذهبت نفس بنفس ، وردد مردد : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » . وليس من غرضنا ولا من غايتنا أن نتعرض للحادث وأسبابه ونتأججه ، فالحديث عن ذلك كله مستفيض مشهور ، ولكن الذي يغيظ ويسوء نرى لؤم البشرية يتجسد ويتمثل في هجوم بعض المتهورين على شقيق القاتل فيضربونه ويعذبونه حتى يسلم روحه ويلحق بأخيه . . . يا للحماسة والسفاهة . . . لقد قتل القاتل ثم قتل ، فما بال شقيقه البريء الهادئ يصيبه هذا الظلم والعدوان ، والله يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ويقول : « كل نفس بما كسبت رهينة » ؟ .

ألا يذكرنا هذا أيها السادة بفضائح ومهازل ومخاز يأتيها مجرمون في المشارق والمغرب ، فيأخذون البريء بذنب المجرم ، والقاعد بجرم القائم ، دون تذكر أو تبصر أو اعتبار بأن الله وهو أقوى من كل قوى ، وأعلى من كل على ، لو جاءه شخص بجرائم وفظائع كالجبال ، لما سأل عنها سواه ، ولا عذب معه بسببها أحداً من أهله أو أقاربه ، فما بال رعاة القطعان يضلون فيسرفون في الطغيان والعدوان ؟ . .

ما بال القاتل يقتل فتؤخذ أمه ليهتك عرضها على مرأى من الأبصار ومسمع من الأشهاد ؟ وما بال الأثيم يفعل فعلته ثم يقع في أيدي الأشداء فلا يكتفون بالقصاص منه ، بل يفتكون معه بأهله وذوي قرباه ؟ . . وما بال الهارب من وجه المسيطرين يهرب فلا يكتفون بالجلد في البحث عنه بل يقبضون على والديه وإخوته ، ليكونوا ثمناً لهروب من عجز العمالة عن الإتيان به ؟ ! . .

هرب أحد المعتقلين من قبضة زياد الطاغية في العهد الأموي ، فأخذ زياد شقيق ذلك الهارب وسجنه وقال له : لن أطلق سراحك حتى يأتي أخوك . فقال له الرجل : لو جئت بك كتاب من أمير المؤمنين يأمرك بإطلاق سراحى أكنت تطلق سراحى؟ . قال زياد : نعم ، فأنى عبد أمير المؤمنين وخادمه . قال الرجل : فأنا آتيتك بكتاب من العزيز المجيد ، وهو أكرم منى ومنك ومن أمير المؤمنين ، وأقيم لك عليه شاهدين من الأنبياء هما موسى وإبراهيم عليهما السلام ، يقول الله تعالى : «أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزرؤوا وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » فارتدع زياد طاغية زمانه وقال : أطلقوا سراحه ، فإن هذا رجل قد لقنه الله حجته ! . . .

وهذا عزيز مصر وهو يوسف عليه السلام لما جاءه إخوته وهم لا يعرفونه راجين أن يطلق سراح أخيهم المتهم بالسرقة وأن يأخذ أحدهم مكانه أبى ورفض ، لأن هذا ظلم وطغيان : « قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذناً أحداً مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون » . . .

فما بال جبارين فى الأرض يأبون إلا أن يكونوا شياطين تنفر عن فتعبت فى الكون فساداً بلا اقتصاد أو ارعواء ، يجرح الجرح بتفريطهم أو إيجاءهم ، فلا يسلكون معه سبيل القصاص ، بل يجرحون به عشرات الجراح ، ويزهقون به عشرات الأنفس البريئة بلا جناح ، مع أنهم يعلمون أن سيد البشرية محمداً غضب يوم صرع المشركون عمه حمزة سيد الشهداء فقال : لئن ظفرت

بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانه . . فجاءه تأديب الأله وتهذيبه : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » وروى الترمذى بسند حسن عن أبي ابن كعب رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة ، فثلا بهم ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لتريين عليهم (لتزيدنن) فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » فقال رجل : لا قریش بعد اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كفوا عن القوم إلا أربعة . ومع أنهم يعلمون أن الله يقول : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً » . . . هم يعلمون هذا ويعلمون أضعافه وأضعافه ، ولكن النفس البشرية إذا ولجت باب اللؤم ولجت صارت تلميذة في مدرسة الشيطان : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

عودوا أنفسكم العدل في الأحكام والإنصاف في التصرفات ، فحددوا المسئولية وأدركوا أين تقع ، واعرفوا التبعة ومن يؤاخذ بها ، ثم خذوا طريقكم في الحياة على نور من ربكم وهدى من دينكم ، وجاهدوا الذين يريدونكم على البغى جهاداً كبيراً ، فإن أفضل الجهاد كما قال رسولكم صلوات الله عليه كلمة حق عند سلطان جائر . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلو ربكم التوفيق يستجيب لكم .

عزة المؤمن^(١)

الحمد لله ، له الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحميد « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم » سبحانك سبحانك ، تعطى وتمنع ، وترفع وتضع ، وإلى الله تصير الأمور . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تعز من تشاء وتذل من تشاء : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبداً ورسولك ، جاءته الدنيا بلذاتها فأبأها ، وتعلقت عينه بالمكارم فاجتباها ، فكان إمام الثابتين وقدوة المترفعين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وذريته ، وحواريه وصحابته ، وأتباعه وجماعته ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لعل أعجوبة العجائب وأحدوث الغرائب أن ينزل الحق تبارك وتعالى دينه الإسلام ليكون شرعة العزة والسيادة في الوجود ، وليفتح أمام المسلم طريق الرفعة والعلاء ، فلا يذل لغير الله ، ولا يخضع جبهته إلا لله ، ولا يستعبد نفسه إلا لله ، ثم نتطلع في الوجود يميناً وشمالاً فترى المسلمين هم الأمة التي تضرب كل يوم مثلاً في الذلة والخضوع ؛ وكأنما يريدون أن يقولوا : إننا نحن المسلمين نريد بتصرفاتنا في الحياة أن نفهم العالمين أننا أول الذين يسيثون إلى الإسلام ويناقضونه ، وإن سمينا أنفسنا بالمسلمين . . . وإلا فما بالناس نرى شعوب الأرض تتعثر ثم تنهض ، وتفتقر ثم تغنى ، ويفرض عليها العسف أحياناً ثم تتحرر . وحضرات « العبيد » المسلمين في عثرات موصولة ، وافتقار دائم ، وذل لا ينتقل ولا يريم ؟ ! . . .

(١) القيت في يوم الجمعة ١٨ من رمضان سنة ١٣٧٠ هـ الموافق

٢٢ من يونيو سنة ١٩٥١ م .

ولكن إذا عرف السبب بطل العجب كما يقولون . . . لقد حيل بين المسلمين وبين الإسلام ، فما يعرفون منه إلا العنوان وفضول الكلام ، وذلك المسلم في نفسه حين أعرض عن ربه ، واتخذ له في دنياه معبودات من المسال والشهوة ، والطواغيت والشياطين ، وقديماً قيل : أذل الحرص أعناق الرجال وذلت الأمة المسلمة لأنها تفككت بعد اجتماع ، وتحللت بعد اعتصام ، واستبد بأموورها من لا يعرف ربها ، ولا يؤمن بدينها ، ولا يخشى سلطانها ، ولا يخاف عقابها ، وإذا أصيبت الأمة في أجزائها حين جعلتهم ولائها فصاروا أعدائها ؛ فقد ذل العزيز ، وتضاعف ذل الدليل ، ولن تجدى كثرة العدد ، ولا سعة الرقعة ، ولا ضخامة المتاع ، وصدق الرسول : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ . قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ؛ قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » . .

أين نحن من الإسلام أيها الناس ؟ . . . فلنعرف جواب هذا السؤال أولاً ، ولنحدد من الإسلام موقفنا ، فلما أن توّمن به فتقبل عليه ونعمل له ، وإما أن نكفر به فنهجره ونصد عنه . . . إن الإسلام دين لا يجتمع مع الذلة في مكان ، وما جاء به محمد إلا ليغرس في نفس كل مسلم شجرة الترفع على كل خصه ودناءة ، ويشيع فيه الاعتزاز بالله وحده : «ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً » . . والله سبحانه وتعالى يعلمنا الثبات في الأمر ، والعزيمة في الرشد ، والتسامي عن الهوان والحزن فيقول في كتابه : «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» . ويصف لنا محمداً وصحبه بأنهم أعزاء في نفوسهم ، أقوياء على أعدائهم ، وإن كانوا رحماً فيما بينهم ، يتعاطفون برحم الله الذي جمعهم ، فيقول :

« محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معه أشداءُ على الكفارِ رحماءُ بينهم » ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغونَ فضلاً من الله ورضواناً « وفي آيةٍ أخرى يقول : « يا أيها الذين آمنوا ، من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ، يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، والله واسعٌ عليم » . ثم يقرر أن العزة في الأرض والسيادة في الكون ميراث خالص يهبه الله لعباد الله فيقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . وهذا معلم البشرية محمد صلوات الله عليه يعلم المسلم كيف يكون أمة وحده ، وكيف يتنزّه عن التقليد الأعمى والمتابعة الخرقاء ، وكيف يكون عزيزاً في رأيه وفكره ومنهاجه فيقول : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

وقديماً كان المسلمون في مختلف العصور الزاهرة أمثلة رائعة للعزة وكرامة النفس وسمو الهمة ، يفضلون المنية على الدنيا ، ويطلبون الصدر أو القبر ، ولا يذلون أعناقهم إلا لخالقها ، ولا يقدمون أنفسهم إلا لبارئها ، وكل منهم يهتف مؤمناً بما يقول : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . وهذا هو الإمام الشافعي رضي الله عنه كان يترجم عن عزة المؤمن وكرامة المسلم حين ينشد :

أمطرى لؤلؤ أسماء سرنديب	وفيضى جبال تكرر تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً	وإذا مت لست أعدم قبراً
همتي همة الملوك ، ونفسي	نفس حر ترى المذلة كفراً

ولقد أراد أحد الحكماء في نقشفه وزهده أن يبين عن عزة نفسه وعلو همته وقناعة قلبه ، فقال : بينى وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ولا أجد شدته ، وأما الغد فإنى وإياهم منه على خطر ، فما هو إلا اليوم ، فما عسى أن يكون ؟ . . وقال رجل للحسن بن على وقد كان عزيزاً : إن الناس يزعمون أن فيك تيباً . فقال : ليس ذلك بتيه ، ولكنها عزة ؛ وتلاقوله تعالى : « والله العزةُ ولرسولهِ وللمؤمنينَ ، ولكنَّ المنافقينَ لا يعلمونَ » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

العزة ميراث المسلم أينما كان وكيفما عاش ، لا يفرض فيها لأنها جزء من إيمانه وثقته برحمته ، فحاربوا الترف والبطننة في أجسامكم ومعدكم ، لتصبحوا أعزة في نفوسكم وأخلاقكم ، واكفروا بطواغيت الأرض ولا ترجوهم لتصبحوا أعز منهم ، وثقوا بالله ربكم أكثر مما تثقون بما في أيدي الناس لتصبحوا أغنياء شرفاء ، وابنوا حياتكم ومجدكم بأيديكم ونضالكم وعملكم الصالح ، لتتحرروا من عبودية الاسترقاق لكذبة السادة ، وذل الاصطناع لسفله الباغين بغير الحق ، والله ربى وربكم ، له الحكم وإليه ترجعون . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

إيمان واستقامة (١)

الحمد لله عز وجل ، هو الباقي الذي لا يزول ، والدائم الذي لا يتحول :
 « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ». أشهد أن لا إله إلا الله القائم على
 كل نفس بما كسبت ، المراقب لها في كل ما عملت : « عالم الغيب والشهادة -
 العزيز الحكيم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، استقام لديان العالمين ،
 وقيوم السموات والأرض ، فمكن له بقدرته ، وأعزه بعزته التي لا تضام ،
 فضلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين
 صبروا وعلى ربهم يتوكلون » :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أوجب الله تعالى على الإنسان العاقل أن يتبصر ما حوله ، وأن ينظر فيما
 أمامه ، وأن يختار له في الحياة طريقاً يسير عليه ، وأن يتأكد من سلامة هذا
 الطريق وتوصيله واستقامته ، وأن يستمسك به بعد ذلك ويدوم عليه ،
 لا يعوج معه ولا يميل عنه ، ما دام مؤمناً بأنه طريق الحق : « فإذا بعد الحق
 إلا الضلال ؟ فأني تصرفون » ؟ . ولذلك جعل الله هذه الاستقامة أول أمر
 نسال الله تحقيقه لنا في صلواتنا ودعواتنا ، فبعد أن نقول في صلواتنا : « الحمد
 لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » وبعد أن نخصه بالعبادة
 ونقصر عليه الاستعانة قائلين : « إياك نعبد وإياك نستعين » نقول عقيب ذلك :
 « أهدنا الصراط المستقيم » أي دلنا على الطريق المعتدل الموصل ، وأعنا على
 اتباعه ، والتمسك به ، وعدم الخروج عنه .

(١) ألقيت في يوم الجمعة ٢٣ من رمضان سنة ١٣٨٥ هـ الموافق
 ١٤ من يناير سنة ١٩٦٦ م .

ويأمر الله نبيه بالحرص على الهدى ، والدوام مع الحق ، والاستمسك بمبدأ اليقين ، فيقول له: «فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم» ويقول له: فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم .

ويعم الله بعد التخصيص ، فيطالب المؤمنين بالإقامة الدائمة مع الحق ، والاستقامة الموصولة على الهدى ، فيقول لهم : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . » ويعود القرآن فيطالب النبي وأتباعه بالثبات والدوام والاستقرار على الاعتقاد ، وعدم مجاوزة الحق في قليل أو كثير ، وإلا عاقبهم العزيز المتقدر المطمع على جميع شئونهم فيقول: « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير» . وليس المهم في نظر الإسلام أن يغلو المسلم في دينه ، أو يسرف في اعتقاده ، أو يتعصب له تعصباً عنيفاً فترة من الفترات ، فقد علمتنا التجارب أن الإسراف يؤدي إلى الاعتساف ، وأن الإفراط يعقبه التفريط ؛ بل المهم هو أن يداوم المؤمن ويثبت ، ويستقر ويواصل ، فيقوم بعمله ، ويؤدي واجبه ، في إتقان من جهة ، واعتدال من جهة ثانية ، واستمرار من جهة ثالثة ، ولذلك روى أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . ولقد جاء رجل إلى النبي وسأله قائلاً : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . فأجابته : قل آمنت بالله ثم استقم . فلم يطالبه بكلمة الإيمان وحدها ، بل طالبه بما هو أهم وأعظم ، وهو الاستقامة مع الحق والدوام في العمل .

وهذا هو الصبر الذي احتفل بأمره القرآن الخيّد احتفالاً عظيماً ، وذكره في نحو ثمانين موضعاً ، وقال لنا فيما قال عنه : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . . . ما حقيقة هذا الصبر وما معناه ؟ . . إن الصبر هو حبس

النفس وحملها على ما يقتضيه العقل والشرع ، وهو أيضاً صدها ومنعها عما لا يليق بها في العقل والشرع ، وإذن فالصبر هو ثبات العقيدة ، وهو ثبات الأخلاق ، وهو الدوام على المبدأ الحق ، وهو الاستقامة على الطريق القويم ، ومن هنا خاطب الله رسوله فقال : « واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً (أى ملجأ) واصبر نفسك (أى احبسها وثبتها) مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً » .

وإنما اعتر الإسلام ، وتحقق المجتمع الإسلامى الكريم برجال درسوا فعرفوا فأمنوا فاستقاموا ، وما انحرفوا بعد استقامتهم هنا أو هناك . ولم يستطع المال أن يفتنهم عن إيمانهم ، ولم يستطع الجاه أن يلفتهم عن دينهم ، ولم يتمكن الجبروت أن يذل من رقابهم ، بل ظلوا كما أرادوا لأنفسهم : مؤمنين بدينهم ، عابدين لربهم ، مستمسكين بمبادئهم ، صابرين معها ، باذلين لها النفس والتفيس ، حتى صدق فيهم قول ربهم : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فنههم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

هكذا كان المسلمون الأولون ، وهكذا سادوا وقادوا ، ثم خلف من بعدهم خلف بل أخلاف ، في فترات الضعف والهوان ، فأجادوا اللون وأتقنوا التدبذب ، وبرعوا في الانتقال من مبدأ ، إلى مبدأ ، ومن اتجاه إلى اتجاه ، فضاعت بينهم القيم والمثل والأخلاق ، وأساءوا إلى الإسلام أيما إساءة ، لأنهم محسوبون عليه ، ومنسوبون إليه .

والرجل الذى ينتقل من مبدأ إلى مبدأ ، ويتأرجح بين لون ولون ، لا يخرج عن واحد من شخصين : إما أن يكون جاهلاً ضالاً ، فهو ينخدع بأسرع بريق ، ويسارع إلى التأثر بلا تفكير أو تدبر ، وإما أن يكون منافقاً خبيثاً يخادع ويصانع ، ويتخذ هذا التنقل تجارة ومغماً ، وسلاماً يصل به إلى مآرب أخرى . . . والمسلم الحق لا يكون واحداً من هذين . لا يكون المسلم الصحيح جاهلاً ، لأن الله تعالى جعل العلم أول موارث المسلم ؛ ولا يكون ضالاً ، لأن الله قد بث بين يديه الأشعة والأضواء : « قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيلَ السلامِ ويخرجهم من الظلمات إلى النورِ بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ » « قد جاءكم بصائرٌ من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » . والمسلم لا يكون منافقاً ، لأن النفاق أشد خطراً من الكفر الصريح ، ولأن المنافق لا يكون وجيهاً عند الله ، لأن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن نجد لهم نصيراً ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن إلهنا يطالبنا بدوام العمل ، وإن ربنا منظم كونه يطلب منا أن نكون منظمين فى اعتقادنا وأقوالنا وأعمالنا ، وإن خالقنا ورازقنا يطالبنا بواجبنا نحوه ، وهو الخضوع له وعبادته على الدوام حيث يقول : « واعبدوا ربك حتى يأتيتك اليقين » واليقين هنا يراد به الموت ، أى أعبد ربك ما دمت حياً ، إلى أن يأتيتك الموت وأنت على ذلك ، فتلقاه وأنت مسلم عابد : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم سلو ربكم التوفيق يستجيب لكم .

الطريق الى الله^(١)

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولي النعمة ومصدر الرحمة : « إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة ، وقائد الملحمة : « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذي هو خير : « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .

أما بعد

فإن الطريق إلى الله تبارك وتعالى عماده العلم والمعرفة ، مع الإيمان واليقين ، مع تحديد الغاية والهدف ، مع سلوك الطريق باعتدال واستقامة حال ، ومحاذرة الانحراف والضلال ، ولذلك نرى الحق جل جلاله يقول لرسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » . أى الزم الطريق المستقيم المعتدل الذى لا عوج فيه ، المتوسط بين طرفى الإفراط والتفريط ، أنت ومن آمن معك ، كما أمرك الله ودعاك ، ولا تتجاوزوا طريق ربكم فهو مطلع على كل أحوالكم « إنه بما تعملون بصير » .

وللامام السيد أحمد الرفاعى رضى الله عنه عبارة موجزة مركزة ، كأنها تستضيء وتستمد من هدى هذا النور الإلهى الساطع يقول فيها : « المتلفت لا يصل » . وهى كلمة عميقة المدلول دقيقة المفهوم . لو جعلها المؤمن البصير جزءاً من شعاره ، واستجاب لها على هدى وبصيرة ، لدفعت به إلى مراحل فى سبيل الاستقامة والأعتدال . ولو أخذنا بطريقة الصوفية وأسلوبهم فى

(١) أقيمت بمسجد الامام الرفاعى بالقلعة يوم الجمعة ١٨ من أغسطس سنة ١٩٧٢ م .

تفهم هذه العبارة ، لقلنا : إن من يشغل نفسه أو حسه عن ذكر ربه وطاعته ، يظل محروماً من دخول حماه ، فعليه أن يلزم طاعة مولاه ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، حتى يبلغ رضا الله عنه وقبوله له ، فيفوز لديه بالأمان والإطمئنان يا أيها النفسُ المطمئنةُ ، إرجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي .

ونحن نستطيع أن نفهم عبارة : « المتلفت لا يصل » بأسلوب عصرنا ، فنذكر أنها دعوة إلى وضع منهج ، وتحديد خطة ، ومواصلة مسيرة ، ودوام عمل ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويحقق المناضل عمله ، وهذا لا يكون إلا بدعامتين ، العقيدة القائمة على العلم الصحيح الثابت ، ثم العمل المستقيم المستمر الدائم ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » . فقولهم : ربنا الله « عقيدة وعلم ، واستقامة تطبيق والتزام ولهذا قال الله تعالى لرسوله : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » . وقال له : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

وحينما سأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول في الإسلام لا يسأل عنه أحداً بعده أجابه بقوله : « قل آمنت بالله ثم استقم » . والقرآن الكريم يجمع بين الدعوة إلى الدوام على العمل ، والاستمرار في بذل الجهد حتى النهاية ، والتحذير من التلفت أو الإنحراف ، فيقول « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » أى داوم على طريق الطاعة والعمل الصالح حتى الموت ، ويقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ويقول : « ولا تترددوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » .

والتلفت إنسان قلق مبعثر ، لا منهج له ولا خطة ، فهو كل حين مبدأ ، وكل يوم بسلوك ، إذ لا عقيدة عنده يخضع لها فتسيطر عليه في وجدانه وإيمانه ، ولا خطة بين يديه يلتزم بها ، أو يثابر على تنفيذها وتحققها ، فلا استقرار عنده ولا ثبات ؛ والتلفت أيضاً يتطلع إلى هؤلاء من الناس فينخدع بيريقيهم وتزويقيهم فيميل نحوهم على غير رشاد أو اعتقاد ، ثم يتطلع إلى أولئك من الناس ، فيعتر بظواهرهم ومناظرهم ، فيرتد إليهم بلا تفكير أو تدبر ، وهكذا يظل كرة تتلاعب بها الأقدام : « مذبلين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » . ومع الحيرة والاضطراب لا يتم إصلاح ولا يكمل بناء : « أفن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » ؟ .

والعامل أو الصانع إذا تلفت في عمله أو صنعته ، فلم يجمع شتات ذهنه وهو يعمل ، ولم يركز جهده وطاقته في إنتاجه وهو يصنع ، وشغل نفسه بتضييع الوقت تارة ، ومخادعة صاحب العمل أو غشه تارة أخرى ، فإنه لا يصل إلى جد الإبتقان والإجادة ، ومن هنا لا يستحق توفية أجر ولا تكريم ذكر ، فقد نسي قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » وقوله : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » وقوله : « من غشنا فليس منا » . والتلميذ إذا تلفت ذات اليمين وذات الشمال ، وشغله عن دروسه وتحصيله لعب يستبد به ، أو هو يسيطر عليه ، لا يمكن أن يصل إلى مقامة الصفوف أو يفوز بالنجاح ، وهكذا كل إنسان في الحياة لا يمكن أن يتم عملاً ، أو يحقق أملاً ، إلا إذا عرف الهدف ، ثم سلك الطريق ثم بذل الجهد ، ثم واصل العزم . بلا تردد أو اضطراب ، ولعل هذا هو بعض ما نفهمه من قول الله تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه . ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : الغاية الكريمة أمامكم ، وطريق الله مفتوح لكم ، والطاقة موفورة بفضل الله لديكم ، فأقدموا ، وتطلعوا إلى الأمام ، وواصلوا المسير ، ولا يشغلكم عن رسالتكم صارف أو لافت ، فإن المتلفت لا يصل ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو ولي الصابرين . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولي الهداية والتوفيق وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق فصلوات الله وسلام عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين . وبعد ، فإن خير ما يحرز به الإنسان في حياته من توفيق هو أن يعمق علمه . وأن يستقيم اعتقاده ، وأن تدوم على طريق الحق خطواته ، حتى يحقق في دنياه ما أراده له خالقه من حرية وعزة وكرامة ، وأن يفوز بما عنده من نعيم في دار الخلود والبقاء ، ولذلك قال الحق جل جلاله لنبيه : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « قل آمنت بالله ثم استقم » . وقال الإمام الرفاعي : « المتلفت لا يصل » . فليت كل واحد منا يعرف واجبه ، ويلزم طريقه ، ويمضى في أداء ما عليه لينال أسباب الرضى والتوفيق .

اللهم أغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات . . . إلى آخر الدعاء .

الملتفت لا يصل^(١)

الحمد لله عز وجل ، أنار الطريق ويسر التوفيق : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، فاز من اعتصم بحماه ، وخسر من لجأ إلى سواه : « أرباب متفرقون - خير أم الله الواحد القهار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء بالحكمة وفصل الخطاب : « وانك لتهدى إلى صراط مستقيم » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

مرت الأيام ، واستدار العام ، وأقبلت ذكرى الإمام أحمد الرفاعي ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وترشد المتدبرين ، وتفيد المعتبرين : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ، والإمام الرفاعي علم من أعلام التوجيه الديني والروحي في تاريخ هذه الأمة ، وله كلمات سواطع في التربية والتعليم ، منها قوله : « الملتفت لا يصل » وهي عبارة موجزة ولكنها مركزة ، ولو جعلها المؤمن جزءاً من شعاره واستجاب لمعناها على هدى وبصيرة ، لدفعت به إلى مراحل ومراحل في سبيل الاستقامة ، والاعتدال . ولو أخذنا بأسلوب الصوفية في تفهم هذه العبارة لقلنا : إن من يشغل نفسه أو حسه عن ذكر ربه وطاعته يظل محروماً من دخول حماه ، فعليه أن يلزم كلمة الله ومحبه ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، حتى يبلغ رضا الله عنه وقبوله ، فيفوز بكل خير « يا أيها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وأدخلي جنتي » . ولذلك قال ابن القيم : « وكل

(١) القيت بمسجد الامام الرفاعي في يوم الجمعة ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٦٧ م بمناسبة مولده .

واصل إلى الله فهو طالب له ، وسالك طريق مرضاته . وقال بعض الصوفية :
 « الواصل من اتصل بمحبوبه ، دون كل شيء سواه . » والمحبوب هنا هو الله :
 « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .

ولكننا نستطيع أن نفهم عبارة « المتلفت لا يصل » بأسلوب عصرنا
 فنقول إنها دعوة إلى وضع منهج ، وتحديد خطة ، ومواصلة سير ، ودوام
 عمل ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويحقق المناضل أمله ، وهذا لا يكون
 إلا بدعامتين هما العقيدة القائمة على العلم الصحيح الثابت ، ثم العمل المستقيم
 المستمر الدائم . ومن هنا قال القرآن الكريم : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم
 استقاموا أتتزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم
 توعدون » فقولهم : « ربنا الله » عقيدة وعلم ، واستقامتهم تطبيق والتزام ،
 ولهذا قال الله تعالى لرسوله : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا
 إنه بما تعملون بصير » ، وقال له : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة
 أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . وحينما سأل بعض الصحابة
 رسول الله عن قول في الإسلام لا يسأل عنه أحداً بعده أجابه بقوله : « قل
 آمنت بالله ثم استقم » . والقرآن الكريم يجمع بين الدعوة إلى الدوام على العمل
 والاستمرار في بذل الجهد حتى النهاية ، والتحذير من التلفت أو الانحراف ،
 فيقول : « وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ، أي ودوام على طريق الطاعة
 والعمل الصالح حتى الموت ، ويقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حتى
 تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، ويقول : « ولا تردوا على أديباركم
 فتقلبوا خاسرين » كما يقول : « ولا يلتفت منكم أحدٌ وامضوا حيث
 تؤمرون » .

والتلفت إنسان قلق مبعثر ، لا منهج له ولا خطة ، فهو كل يوم بمبدأ ، وكل يوم بسلوك ، إذ لا عقيدة عنده يخضع لها فتسيطر عليه في وجدانه أو إيمانه ، ولا خطة بين يديه يلتزم بها أو يثابر في تنفيذها وتحقيقها ، فلا استقرار عنده ولا ثبات ، والتلفت أيضاً يتطلع إلى هؤلاء من الناس فينخدع بيريقيهم وتزويقيهم ، فيميل نحوهم على غير رشاد أو اعتقاد ، ثم يتطلع إلى أولئك من الناس فيغتر بظواهرهم ومناظرهم ، فيرتد إليهم بلا تفكير أو تدبر ، وهكذا يظل كرة تتلاعب بها الأقدام : « مذبلين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً » ، والتلفت في ميدان الإصلاح لا ينجح ولا يفلح ، لأنه قد يأخذ منهاجاً عن طريق التقليد والمتابعة العمياء ، وينوه به ويثني عليه ويتعصب له ، وما يكاد يمضي في تنفيذه حتى يغير فيه ويبدل منه ، وقد ينتقل إلى منهاج سواه ، وينوه به ويثني عليه ويتعصب له ، وهكذا يظل متردداً متأرجحاً ، يقدم ويحجم ، وينبئ ويهدم ، ومع الحيرة والاضطراب والتردد لا يتم إصلاح ولا يكمل بناء : « أفن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم » : والتلفت رجل يشغل نفسه بغيره ، وقد كان الواجب ذاته بذاته ، فهو يتلفت إلى هذا وذاك وذلك ، ويظل يحصى عليهم عيوبهم ، ويتحدث عنها هنا وهناك وهناك ، ويحسمها ويبالغ فيها ويندد بأهلها فيهدم بذلك غيره ويمحق في الوقت نفسه جهده ويضيع عمره ، فلا هو أصلح في نفسه عيباً ، ولا هو ترك غيره يمضي في سبيله ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » وهو في هذا يهتدى بقول ربه : « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » .

والعامل أو الصانع إذا تلفت في عمله أو صنعته ، فلم يجمع شتات ذهنه وهو يعمل ، ولم يركز جهده وطاقته في إنتاجه وهو يصنع ، وشغل نفسه

بتضييع الوقت تارة ، ومخادعة صاحب العمل أو غشه تارة أخرى ، فإنه لا يصل إلى حد الإتقان والإجادة ، ومن ثم لا يستحق توفية أجر ولا تكريم ذكر ، فقد نسي قول رسول الله : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » وقوله : « من غشنا فليس منا » . والتلميذ إذا تلفت ذات اليمين وذات الشمال ، وشغله عن دروسه وتحصيله لعب يستبد به ، أو هو يسيطر عليه ، أو تردد يدمنه على دور السينما ، أو تسكع في الشوارع والحارات ، لا يمكن أن يصل إلى مقدمة الصفوف ، أو يتألق بين الناجحين فإن المتلفت لا يصل ، وهكذا كل إنسان في هذه الحياة لا يمكن أن يتم عملاً ، أو يحقق أملاً ، إلا إذا عرف الهدف ثم سلك الطريق ، ثم واصل العزم ، بلا تردد ولا اضطراب ، ولعل هذا هو بعض ما يفهم من مثل قول الله جل جلاله : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » وقوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : المتلفت لا يصل ، والله قد أنار الطريق ، ويسر أسباب التوفيق ، فحدد المعالم ، ورسم المنهاج ، « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، ومن أنا عليكم بحفيظ » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

بين المطلوب والطالب (١)

الحمد لله ، يصطفى لآلائه الأكرمين الأخيار ، ويركس في نعمته الأشقياء
 الفجار ، وما ربك بظلام للعبيد ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، ترفع بفضلك
 أقواماً كراماً إلى أعلى عليين ، وتخفض بعدلك آخرين لثاماً إلى أسفل سافلين ،
 وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ونشهد أن سيدنا محمداً
 عبدك ورسولك ، عاش لدعوته ، واعتز بعقيدته ، فكان خير المصلحين ؛
 فضلوأتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى فروع دوحته ، وأقطاب صحبته ،
 وجنود دعوته ، أولئك لهم عز الدنيا ونعيم العقبى بإيمانهم وعملهم وتقواهم
 « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .
 يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الحكمة ضالة المؤمن ، وإن من البيان لسحرا ؛ وقد أرادت إحدى
 الأمهات أن تحسن الدعاء لابنها العزيز عليها الحبيب إليها ، فقالت له : « جعلك
 الله يا بنى مطلوباً لا طالباً » . وفي هذه العبارة الوجيزة التي لا تزيد على خمس
 كلمات صورت تلك الأم الحكيمة طريق العزة والمجد في هذه الحياة ؛ فما أكثر
 الذين يأتون إلى الدنيا ويعيشون فيها جاهلين خاملين وكأنهم ليسوا بأحياء ،
 وما أكثر الذين يقبلون عليها ثم يرحلون عنها دون أن يحس بهم أحد ، وما أكثر
 الذين يعتلون فيها اعتلاء كاذباً غير مشروع ، فإذا جاء وعد ربك تهدم لهم
 كل شيء : « ووقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » . . . وصدق
 الشاعر الحكيم حين صور ذلك الغناء المتطائر والزيد المتناثر الذي لا يبقى ،
 وإن بقي لا ينفع ، فقال عن دهاء الناس ورعاعهم الذين لا يعاونون ولا ينفعون
 ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم الله يعلم أني لم أقل فساداً
 إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحداً

(١) القيت في يوم الجمعة ٦ من المحرم سنة ١٣٧٢ هـ الموافق

٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

والقرآن المجيد من قبل ذلك يقول وما أدق ما يقول : « فأما الزيدُ فيذهبُ جفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ ، كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ » .

وهناك من الناس قلة قليلة ، هم ملح الكون ، وصلاح الفساد ، وزينة الدنيا ، أولئك هم الأعزة الكلمة ، والغز الميامين ، الذين يوزن كل منهم بألف ، ويعيش الواحد منهم أمة وحده وهو فرد ، وقليل ما هم : « ثلثة من الأولين وقليلٌ من الآخريين » . وكل واحد من هؤلاء يكون في قومه محبوباً مطلوباً ، يبحثون عنه كما يبحثون عن الكبريت الأحمر ، لأن الرجل المحبوب المطلوب يكون رجلاً عزيز النفس ، كريم الطبع ، رفيع الهمة ، لا يتسفل ولا يتنزل ، بل يصون عرضه ، ويحفظ وجهه ، ولو لقي في سبيل ذلك العنت والعناء ، ويردد مع الإمام الشافعي رضوان الله عليه ما كان يردده كثيراً ، وهو قوله :

أمطرى لؤلؤاً سماء سرنديب وفيضى جبال تكرر تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتنا وإذا مت لست أعدم قبراً
همتي همة الملوك ، ونفسي نفس حر ترى المذلة كفراً

والمطلوب رجل مصلح نافع ، إذ لو لم يكن كذلك لما حرص الناس على طلبه ، ولما لجئوا إليه ينشدون عنده الإنقاذ والإصلاح ، والمنفعة والمعونة ، وخير الناس أنفعهم للناس ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، ولن يكون المرء معيناً نافعاً إلا إذا كان بارعاً في الجِد والاجتهاد . سباقاً في العمل والإنتاج .

وأما الرجل الحريص الطالب الراغب فهو نكبة على نفسه وعالة على الناس ، يريدويطمع ، ومتى أراد الإنسان وطمع فقد ذل وهان ، وصدق الأولون يوم قالوا : أذل الحريص أعناق الرجال . . . وهو يطلب ما يهوى وما يشتهي بجشع وتكالب وفي سبيل هذا الطلب يريق ماء وجهه ، ويمحق صحة دينه ، ويزهق جمال خلقه ، ويصبح عبداً لحاجته . . .

قد يطلب زينة الدنيا الكاذبة وحدها فتفر منه ، فيجري وراءها ، ويظل يجرى وهي مسرعة في فرارها ، حتى تنقطع أنفاسه دون أن يصل إليها ، وإن وصل إليها بعد أن ارتكب في سبيلها ما ارتكب من مآثم وعظائم ، وجدها بسوء سعيه وخيبث وسائله جيفة منتنة ، وقد يغالط نفسه فيزعمها جميلة حلوة ، ولكنها تذيقة الصاب والعلقم ، وقد احترس الإمام على بن أبي طالب رضى الله عنه من مثل هذا الاستعباد الدنيوى اللئيم فقال : « يا دنيا غرى غبرى ، إلى تعرضت أم إلى تشوقت هيبات ؟ قد فارقتك ثلاثاً لا رجعة فيهن ، آه من طول الطريق وقلة الزاد ووحشة السفر » .

وقد يطلب المال بإسراف في المطلوب أو اعتساف في الطريقة ، فيذله المال ويستعبده ، ويظل يلم ويكنز ، ويحصى ويحرس ويجمع ولا يقسم ، ويأخذ ولا يعطى حتى يفجأه الموت أو الدمار وهو على ذلك فيبوء بالخسران والبوار ، وينتهى إلى النار وبئس القرار : « والذين يكتزون . . . وصدق محمد يوم قال : « لكل أمة فتنة وفتنة أمتى في المال » ويوم قال : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار » .

وقد يطلب الجاه الكاذب في الحياة ، يطلبه عن طريق الشهرة الكاذبة التي تغره وتخدعه أول الأمر ، فيظل يطلبها ويحرص عليها ويحتال لها ، حتى إذا جاءت أضرته وأتعبته ، وكلفته الكثير من ماله وصحته ، وربما محق في سبيل ذلك بقية عقيدته ، ولعله لو عاش جندياً عاملاً مجهولاً مستوراً لسعد وفاز ، وصدق الرسول : « رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » .

وقد يطلب ذلك الجاه عن طريق رغبته الجشعة في المنصب ، فلا يفوز فيه ولا يفلح ، لأن من أراد المنصب يمشع حرص عليه ، ومن حرص عليه ذل له ، ومن ذل له لم يصلح فيه ؛ ولذلك روى عن عبد الرحمن بن سمرة أنه قال : قال لى النبي (ص) : يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإني إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها .

ودخل رجلا على الرسول وطلبا منه أن يوليها على بعض الولايات ، فقال :
إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سأله ، ولا أحداً حرص عليه .

والرجل الطالب للمتاع الزائل ، الراجب في الجاه الكاذب ، تراه عبداً
ذليلاً لأشياء كثيرة في هذه الحياة ، تراه عبداً لشهوته ، وتراه عبداً
لشيطانه ، وتراه عبداً لماله ، وتراه عبداً لمن يذل عندهم ويخضع أمامهم ، وهو
يرتضى لنفسه الحقيرة أن تحمل من قيود المهانة وأغلال الحقارة وأطواق
التسخير الشيء الكثير ، وليته إذا خضع لكل هذه القيود لم يطلق هواه الأثيم
من كل قيد ولم يجعله كالسائمة العشواء ترتع بلا بصر أو بصيرة .

وأما الرجل الكريم الحر المطلوب فإنه لا يرتضى في حياته عبودية لغير
خالقه ومولاه ، ولا يفرط قيد أملة في حريته التي وهبها له الله ، وكيف
يرضى العبودية وقد خلقه البارئ المصور حراً ؟ . . . ولكن هذا الحر
الكريم يقيد نفسه طائعاً مختاراً بقيود العدالة والاستقامة ومكارم الأخلاق :

قيد الحر نفسه برضاه وأبي في الحياة قيد سواه
وترى العبد راضياً كل قيد غير تقييد نفسه عن هواه

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الطريق إلى الحقارة والشر مفتحة الأبواب ، وأما المصاعد إلى الفضيلة
والخير فشاقة متعبة ورسولكم يصور هذا حين يقول : « حفت الجنة بالمكاره ،
وحفت النار بالشهوات » ويقول الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز :
« أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » .

ومن الميسور لكل إنسان أن يمد يده ليكون طالباً ملحاً ملحفاً ، ولكنه
من العسير أن يعد المرء نفسه بحيث يكون كريماً مطلوباً نافعاً ، واليد العليا
خير من اليد السفلى ، فليرفع كل منا وجهه وقلبه نحو السماء قبلة الدعاء ،
وليسأل ربه في السر والعلن ، قائلاً : « اللهم اجعلني مطلوباً لا طالباً » .
واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

بين الخالق والمخلوق^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو بديع السموات والأرض « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تباركَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ». أشهد أن لا إله إلا الله ، كل ما عداه خاضع لجلاله ناقص أمام كماله : « أفنُ يَخْلُقُ كمنُ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، رأى كمال شرفه في أن يكون عبداً لخالقه ومولاه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

كأن الإنسان الذى أعرض عن نداء قلبه ، وكفر بوحداية ربه ، لا يريد أن يقف في بهتانه عند حد ، ولا أن يرعوى عن التناول على حق خالقه ، فهو في كل حين يتعمق في مداخل وبيلة عليلة ، وكأنه سيظل هكذا حتى تصيبه من الله قارعة : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذهُ أليمٌ شديدٌ » . منذ حين نشرت بعض الصحف أن عالماً إيطالياً قام بعملية تلقيح صناعى بين مادى تناسل من ذكر وأنثى ، ونشأ عنهما جنين عاش فترة من الزمان ثم مات ، وقد أساء استغلال هذا الخبر بعض المضلين ، فسلكوا به مسلكاً وبيلاً ، وقاوا : لقد استطاع الإنسان أن يخلق الإنسان ، وهم بذلك يريدون أن يقضوا على الإيمان بالألوهية ، لأن أهم صفات الله تعالى أنه الخالق البارىء المصور ، ولا يختلف عاقلان في أن خلق الحياة هو عمل الإله ، لا يشاركه فيه سواه ، وهذا العالم الإيطالى لم يوجد حياة ولا شبه حياة ، وذل ما فعله أنه أخذ مادة حية هي المادة التناسلية في الرجل ، ومادة حية هي المادة التناسلية في المرأة ، ومزجهما وهياً لهما جواً يعيشان فيه يشبه إلى حد ما الجو

(١) القيت في يوم الجمعة ٣٠ من رجب سنة ١٣٨٤ هـ الموافق
٤ من ديسمبر سنة ١٩٦٤ م .

(م ٩ — خطب ج ١)

الموجود في رحم المرأة ، وبهذا ظهرت آثار الحياة المستورة في هاتين المادتين فقط . وهذه الحياة لا نعرف أسرارها ، وإن كنا نشاهد مظاهرها وآثارها ، وغاية ما يقوله العلم البشرى عن الحياة هي أنها طاقة أوجدها الله سبحانه في أجسام الكائنات الحية ، ونحن ندرك معناها بأفكارنا ، ولكننا لا نرى حقيقتها بأبصارنا ، ولا نعرف كنهها الذي اختص به علام الغيوب .

وهذا العالم الإيطالى لم يبدأ في الواقع من أول الطريق ، وإنما استخدم أشياء قد أوجد الله فيها خواص الحياة ، وكل ما فعله أنه حاول أن يقلد غيره أن يعمل وبأدوات سواه ، وهو لم يستطع أن يواصل خطواته إلى نهاية الشوط لأن الجنين الذى نشأ عن التقاء المادتين الحيتين فسد بعد حين ، وتردد في الآفاق قول الخلاق : « يا أيها الإنسانُ ما غركَ بربكِ الكريمِ الذى خلقكَ فسواكَ فعدلكَ ، في أى صورةٍ ما شاءَ ركبتكَ . » ويمكن أن نتساءل عن الدافع الذى دفع هذا العالم إلى هذه المحاولة الشوهاء : أهو الطموح إلى معرفة النتائج للتجارب العلمية ، أم هو الجموح الذى يدفع الرجل المادى إلى التناول على مقام الله جل جلاله ، محاولاً أن يتدخل في جانب مما اختص الله به ذاته . ومهما يكن من أمر فالذى لا ريب فيه أن إبداع الحياة هو شأن الإله ، وأن الناس لو اجتمعوا لما استطاعوا أن يوجدوا سر الحياة ولو في أصغر الأحياء : « يا أيها الناسُ ضربٌ مثلُه فاستمعوا له ، إنَّ الذينَ تدعونَ من دونِ الله لنُ يُخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإنَّ يسليهمُ الذبابُ شيئاً لا يستنقذونه منهُ ضعفَ الطالبُ والمطلوبُ ، ما قدرُوا اللهَ حقَّ قدره ، إنَّ اللهَ لقوىٌ عزيزٌ » .

ثم ما هى الثمرة المرجوة من وراء هذه المحاولة الشوهاء ؟ هل رأى صاحبها أن الأرحام قليلة الإنتاج ، فذهب يعاونها في تكثير النسل وتوسيع نطاق الذرية ؟ وكيف والعالم في شرقه وغربه يردد صيحات النذير والتحذير من

تضخم السكان وتناقص الإمكانيات ؟ ولت هذا العالم استهدف خير الإنسان مثلاً فوجه نشاطه وجهوده إلى استنباط علاج للأمراض الحديثة المستعصية التي أظهرتها المدنية المادية والمعيشة المعقدة ، مثل السرطان وانفجار الشريان وسكتة القلب . ولكن الذي يبدو أن الإنسان الملحد يريد أن يضاعف اعتزازه بنفسه حتى يغير بذاته ، ويخيل إليه أنه قد أصبح قادراً على كل شيء ، وحينئذ سيقبل قدر الله المقدور إلى الأرض التي بغت وطلت ، فيصف بها وبمن فيها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزمنت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً ونهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » . وصدق العلي الكبير إذ يقول : « كلاً ، إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى » .

ثم هناك التلقيح الصناعي بدعة العصر ومصيبة الدهر ، وفيه يلجأ بعض الناس إلى طريقة بشعة خطيرة تسمى طريقة « الصوفة » حيث تصنع المرأة في رحمها حين تريد أن تحمل قطعة من الصوف أو القطن قد مزجت بسائل منوى لأحد الرجال ، فتحمل المرأة من ذلك السائل ، وإذا كان هذا الرجل غير زوجها صارت العملية كالزنى ، لأن هذا يؤدي إلى خط الإنسان وضياع حدود القرابات والعلاقات ، والصلة بين الزوجين صلة نسب وتعارف وتشارك في السراء والضراء ، وينبئ على هذه الصلة حقوق وواجبات وارتباطات ، كما ينشأ عنها ذرية يجب أن تكون نسابها معروفة مفهومة ، فكيف يستقيم في النفوس أو العقول أن يتكون الجنين من نطفة رجل ثم ننسبه إلى رجل آخر ؟ . نعم قد يباح التلقيح بين الزوجين عند وجود دواعيه ، كأن يكون الزوج عاجزاً عن إيصال مائه التناسلي إلى رحم المرأة لضعف فيه ، وأن تكون الزوجة غير صالحة لمعاشرة زوجها . وينبغي أن نتذكر أن التلقيح الصناعي شاع في أمريكا منذ سنين ، وكان الأطباء هناك ينقلون المادة التناسلية

من رجل أجنبي إلى امرأة متزوجة بزواج لا يستطيع معها الإنسال ، فأحدث هذا التلقيح من بين عيوبه مشكلة هي أن المرأة تحب الشخص الذي تلقت بمادته ، وتعرض عن زوجها ، ولما حاول الأطباء أن يخفوا عن المرأة الشخص الذي أخذت منه المادة التناسلية لحملها أصيبت باضطراب نفسي وعصبي ، وحق لها أن تصاب بذلك ، لأنها تشعر بانحراف عن الطريق الطبيعي المستقيم الذي يجب أن تسير فيه الحياة الزوجية هادئة مطمئنة ، يتحقق بها قول الله تعالى : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

إن نظرة يلقبها الإنسان على الكون من حوله تراه ما أبدعته يد الخلاق العظيم من أرض وسماء ، وهواء وماء ، وأنهار وبحار ، وأشجار وأزهار ، وشموس وأقمار ، وجماد ونبات وحيوان وإنسان : « هذا خلق الله ، فأروني ماذا خلق الذين من دونه » .

وإذا كان دعاة الإلحاد والكفران يحاولون بشق الأنفس أن يضلوا الناس عن سواء السبيل ، فإن في صدر كل مؤمن هاتفاً يذكره على الدوام بأن لهذا الكون خالقاً سبحانه ، وأنه وحده بديع السموات والأرض ، وهو على كل شيء قدير ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

الإسلام رائدنا الأول^(١)

الحمد لله عز وجل ، يسر الخير لمن هداه واجتباه ، وكتب الشقاء على من أضله وأغواه: «من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً» . أشهد أن لا إله إلا الله ، الرشد في كتابه ، والسعد عند بابه : «ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم» . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كشف الغمة وهدى الأمة ، وجمع الكلمة ، فكان خير المصلحين فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : «أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

في جلسة من جلسات اللجنة التحضيرية قلت وأنا أتحدث عن ناحية إسلامية : «إن الإسلام هو الرائد الأول على الطريق» . وهذا قول لا نرسله على عواهنه، إنما هو الحقيقة الكبرى والواقع المبين : «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة» ونحن له عابدون» . فالإسلام قد نظم حياة الفرد والجماعة ، بصورة مثالية ، لا يرتقى إلى مستواها إصلاح دين من الأديان ، ولا دقة نظام من النظم ، ولا روعة دعوة من الدعوات ؛ وقد أقام الإسلام حياة الفرد على الموازنة بين الروح والجسد ، وعلى طهارة الحس والنفس ، وعلى صفاء القلب ، وذكاء العقل ، وسمو الخلق ، ومراقبة الله ، وعزة الحياة ؛ وأقام حياة المجتمع على العدالة والتكافل والتضامن ، والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» . . .

(١) ألقى في مسجد الرفاعي يوم الجمعة ٣٠ من جمادى الثانية سنة ١٩٨١ هـ الموافق ٨ من ديسمبر سنة ١٩٦١ م .

وما من مبدأ كريم ندعو إليه أو نحرص عليه ، أو نتمنى أن يكون ، إلا وجدنا الإسلام قد سبق إلى تقريره ، وحرصنا على التمسك به ، فنحن مثلاً ندعو إلى الديمقراطية ، ونتمنى تحقيقها سليمة قويمة ، فيها مساواة وفيها عدالة ، وفيها تنسيق بين الأخوة وبين حق الذات ، والإسلام يقرر مبدأ الديمقراطية السليمة ، ويرسخ قاعدتها ، ويصون خططها ، فيقول أولاً عن ديمقراطية الأمة المؤمنة: «إنما المؤمنون إخوة» ، والأخوة تقتضى المساواة والديمقراطية فى الحقوق والواجبات ، ويقول الرسول : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم» . وليس هناك صورة أكرم للديمقراطية من هذه الصورة ، ويقول القرآن عن الديمقراطية البشرية العامة : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرواُنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنا أكرمكم عند الله أتقاكم إنا الله علم خبير» . فقرر وحدة الأصل . وكرر ابطة التعارف ، ثم أشار إلى الثمرة المرجوة وهى التنافس فى التقوى والعمل الصالح .

ونحن ندعو إلى مجتمع تعاونى ، ونريد أن نثبت دعائم التعاون فى بلادنا ، حتى يصبح مبدأ وطريقة تغنينا عن التعامل الربوى وتحفظنا من الاستغلال المادى ، والإسلام يحدد الإطار الجميل الجليل للتعاون ، ويثبت صورته الكريمة الباهرة حيث يقول القرآن : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» . ويقول الرسول : «الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» . ويلفتنا القرآن إلى أثر التعاون حين يتحدث على لسان ذى القرنين فيقول : «فأعينونى بقوة» . وذو القرنين هو الفتى القوى المكين الذى يقول عنه القرآن : «إنا مكننا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً» . ومعنى هذا أن شرعة التعاون فى نظر القرآن لا يستفيد منها الضعفاء وحدهم ، بل إن القوى الشديد ينتفع بها أيضاً ، لأن التعاون تبادل منافع ، ولا يستطيع إنسان مهما كان أن يستغنى فى كل شىء عن غيره ، وصدق القائل :

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدام!

ونحن ندعو إلى مجتمع اشتراكي ، وفي الإسلام اشتراكية إنسانية أخلاقية عادلة ، تحسن التوفيق بين احترام الملكية الفردية وبين التكافل الاجتماعي ، فالقرآن يلفت أبصارنا وبصائرنا إلى الاشتراكية الطبيعية الأصلية في الطاقات ومنابع الثروات ومطالب الحياة الأساسية ، حيث يقول : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » ويقول عن الأرض : « وجعلنا لكم فيها معايش » والرسول يقول : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » وعمر يطمح إلى نطاق من الإشتراكية ، ويعبر عن هذا الطموح فيقول : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لرددت فضول الأغنياء على الفقراء » ومع هذه الإشتراكية الرحبة السمحة الكريمة يصون الإسلام مال الفرد فيقول الرسول : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وهكذا يؤتم بين حق الفرد كمالك ، وبين واجب المجتمع ، وهو الاشتراك فى الطاقات والمنافع العامة .

ونحن نعمل للوحدة والتكامل فى سبيل أهدافنا الحسية والمعنوية ، ونبذل كل ما نستطيع لتجنب الحزبية والتفرق والتزق ، والإسلام يحرضنا على ذلك فى أكثر من موقف ، فيقول القرآن : وإن همدتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ويقول : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ويقول : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . والقرآن يندد بالحزبية والتفرق فيقول عن الضالين : « فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً (أى قطعاً) كل حزب بما لديهم فرحون » ، فذرهم فى غمرتهم حتى حين » .

ونحن نحارب الترف والإسراف فى التمتع ، ونعتبر الترف هادماً للأهم ، والقرآن قد سبق فقال : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . ونحن نحارب تكديس الأموال الضخمة وتجميدها بلا نفع للناس منها وانتفاع القرآن قد سبقنا فقال : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعباب آليم ، يوم يحسب عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . ونحن نحارب أولئك المنافقين

الذين يريدون أن يطعموا من كل مائدة بغير حق ، والذين يعطون بألسنتهم أجمل الألفاظ ويخفون في صدورهم الحقد والكيد والخيانة ، والقرآن يحذرننا من أمثال هؤلاء فيقول أولاً عن المنافقين: « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ». ويزكرنا بعض صفاتهم فيقول: « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

وتتردد بيننا الدعوة إلى إبعاد المجرمين الآثمين الذين عوقوا ركب الصلاح وموكب الإصلاح ، والقرآن يحذرننا عن الخونة الكذبة ، المثبطين الآثمين الذين يحرصون على المكاسب لذواتهم ، ويعوقون المجاهدين عن جهادهم ، فهم لا يصلحون ويسوؤهم أن يصلح غيرهم ، فيقول عنهم فيما يقول: « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله أنبعاثهم فنبطهم ، وقيل أقعدوا مع القاعدين ، لو أخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، ولأوضحوا خلالكم يبيغونكم الفتنه ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . لو درسنا الإسلام دراسة الواعين البصراء ، واستلهمناه استلهام المؤمنين المخلصين ، لوجدنا فيه دواء لكل داء ، وتقويماً لكل عوج ، وإصلاحاً لكل فساد ، ولوجدناه يرسم لنا صورة متكاملة النواحي والأجزاء للمجتمع الفاضل السعيد الذى يعز أبناءؤه بالحق حتى يكونوا عمالقة ، ويرقون بالرحمة حتى يكونوا كالملائكة ، ويعسرون الجمع بين دينهم وديناهم ، فيعملون للآخرة كأنهم يموتون غداً ، ويعملون للدنيا كأنهم يعيشون أبداً ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الاسلام دين المقاومة^(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل الباقيات الصالحات شعار المؤمنين ، وجعل الدوام على المجاهدة دستور أهل اليقين . أشهد أن لا إله إلا الله جعل الثقة به نوراً رائداً دائماً على طريق المتقين « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، لازم طريقته وصان عقيدته ، فكان خير الموفين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

في حاضرنا المليء بالهموم والغيوم ، انعقد في الأسبوع الماضي مؤتمر أدياء العرب ، وكان الموضوع الرئيسي للبحث في هذا المؤتمر هو « أدب المقاومة » ، وهذا يذكرنا بقيمة الكلمة وأثرها ، فإن الكلمة الصادقة الصادقة بالحق سلاح قوى زكى ، ولذلك مجد الإسلام منزلة الكلمة حين قال : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء » وحين قال : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » وحين قال : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » كما قال سيدنا رسول الله : « المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه » .

ومع التقدير المنصف لبعض ما قيل في هذا المؤتمر عجبت حين وجدت أحد الأعضاء فيه يزعم أن فرنسا هي أول من اتجهت إلى « أدب المقاومة » ووضعت قواعده وأصوله ، وهذا افتراء على التاريخ وتشويه للحقائق ، لأن الأمة العربية المؤمنة كانت بفضل الإسلام أسبق من فرنسا وغير فرنسا في هذا المضمار ، فقد اهتمت بتوفيق ربها إلى روح المقاومة منذ أكرمها

(١) القيت في يوم الجمعة ٢٣ من ذى الحجة سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٢ من مارس سنة ١٩٦٨ م .

بقائدها ورائدها وهاديها إلى خير طريق وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام،
 ومرت العصور والقرون والإسلام العظيم يلقي أبناءه يوماً بعد يوم دروس
 المقاومة ومبادئ المغالبة ، فكان جهاد المؤمنين في عهد النبوة الناصر مقاومة
 للشرك والكفران ، وتطهيراً للانسان والمكان والزمان من جهالات الوثنية
 وسفاهات الطغيان ، وكان عهد الخلفاء الراشدين امتداداً لهذه المقاومة الصادقة
 حيث انساحت الجيوش المؤمنة تطهر الأرض العربية من التثن والعفن ، وتطهر
 ما جاورها من استبداد المستبدين وتطاول المعتدين ، ثم كان عصر الأمويين
 وعصر العباسيين امتداداً لروح المقاومة عند هؤلاء المؤمنين الذين باعوا الله
 وأرواحهم ، وصدقوا معه وعودهم ، وآثروا ما عنده على ما عند الناس ،
 فحملوا كلمة الله إلى المشارق والمغرب ، مرحبين في سبيلها بكل تعب ،
 محتملين من أجلها كل نصب ، لينيروا بها المسالك أمام الحيارى ، ويؤيدوا
 بها المستضعفين حتى يتحرروا ، ويقاوموا بها الجبارين حتى يرتدعوا
 أو يندحروا ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وحينما أقبلت على أمتنا فترات الابتلاء ، وتعرضت لعوامل التزق
 والتفروق لم تمت فيها روح المقاومة المستنيرة بهدى الله ، بل استطاعت أن
 تقاوم وباء التثاقل حتى قضت عليه ، وصهرت بعض أهليه فجعلتهم بفضل
 الله يتحولون من الكفر إلى الإيمان ، ثم استطاعت بعد ذلك أن تسحق
 طواغيت الحروب الصليبية وتردهم على أعقابهم ، وتحرر أرض العروبة
 والإسلام ومن بينها فلسطين ، بعد أن ظل كابوس الاحتلال الصليبي الاستعماري
 الغشوم يجم على صدرها ما يقرب من مئة عام ، ولقد حورب الإسلام بشقى
 أنواع المحاربة ، وابتلى المسلمون بكل ألوان الابتلاء ، ومع ذلك بقي الإسلام
 ولم يفن المسلمون ، وهذا سر من أسرار الله العجيبة التي غرسها في شخصية
 هذه الأمة المؤمنة المناضلة التي علمها قرآنها المجيد أن تظل دائماً مستمسكة

بشرعة الجهاد وروح المقاومة ، فلا أسمعها وقلوبها وعقولها بمثل قوله :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »
 وقوله : « قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ تُرَبَّصُونَ بِكُمْ أَنْ
 يَصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ » ،
 وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا
 تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُولُهمْ يَوْمئذٍ دِبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِئَةٍ
 فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » ، وقوله : « الَّذِينَ قَالَ
 لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ
 وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسَّهُمْ سَوْءٌ وَاتَّبَعُوا
 رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » .

وهذا هو الصبر الذي احتفل به القرآن الكريم كل هذا الاحتفال ،
 وذكره منوهاً به حائناً عليه في أكثر من ثمانين موضعاً ، وطالب الأمة المؤمنة
 كشعار لها ودثار ، هل كان هذا الصبر إلا أكرم أنواع المقاومة ؟ وهل
 الصبر كما يريد القرآن المحيّد إلا حسن الإستقبال للمتاعب والشدائد ، وحسن
 الاحتمال لها ، وحسن التصرف معها والتحكّم فيها حتى التغلب عليها والتخلص
 منها ، وحسن حملها بقوة واقتدار لقتلها بعيداً بعيداً عن طريق المسير ،
 وحسن العودة إلى مواصلة الخطوات الرشيدة السديدة على الصراط المستقيم ،
 وبذلك يستحق المؤمنون الصابرون المثابرون خير الجزاء ، كما قرر الحق
 جل جلاله في قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، وما كان
 ذلك الأجر المفتوح بلا مدى ، والموكل إلى فضل الله الذي لا يحد ونعمته
 التي لا تعد ، إلا لأن هؤلاء الصابرين جعلوا شعارهم الوفاء لله مهما كان
 الثمن ، والوفاء للمبدأ متى كانت التضحية ، والوفاء لروح المقاومة مهما

امتد النفس ، فكان جزاء الوفاء توفية العطاء بلا حساب : « ولما رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هذا ما وعدنا اللهُ ورسولهُ وصدقَ اللهُ ورسولهُ ، وما زادهمُ إلا إيماناً وتسليماً ، من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه ، فمنهم من قضىَ نحبهَ ، ومنهم من ينتظرُ وما بدلوا تبديلاً » .

وحق باريء السموات والأرض لقد آن ثم آن ثم آن أن نعرف شخصيتنا المؤمنة ، وذاتيتنا المتحررة ، وأن نطعم من مائدتنا الكبرى التي هيأها لنا ربنا ورسولنا وقرآنا وإسلامنا ، ولم يعد هناك أى مجال أبداً لنبقى عالة على موائد غيرنا من الشعوب والأمم ، حتى نستشهد بأقوالهم ونظن أنهم سبقونا إلى مبادئ الحق والخير والقوة ونحن الذين تلقينا من الملائكة الأعلى نداء العزة ودعاء القوة ، وطالبنا رب العزة والقوة بأن نستمسك بالذى أوحى إلينا : « وقل للذين لا يؤمنون أعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون والله غيبُ السموات والأرض ، وإليه يرجعُ الأمرُ كلهُ ، فاعبهدهُ وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : بالأمس هتف شاعر مؤمن فقال :

أقسمت بالله الذى فوق البرايا قد قهر
بالبيت بيت الله حج له الموحد واعتمر
سيقال حزب الله من حزب الضلالة قد ثأر

ومن تعاليم الإسلام أن يبر المؤمن قسم أخيه ، فلنستلهم الله جل جلاله أن يدفعنا إلى تزكية القسم . حتى لا نضيع بين الأمم ، والله ولى المجاهدين الصابرين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

ما هو الإسلام^(١)

لله الحمد كل الحمد ، وهو أهل الثناء والمجد ، خلق الخلق وأجرى الرزق ، وقد رالأمر وحدد العمر ، سبحانك سبحانك ، أحاط علمك بكل شيء ، فما يغرب عنك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، وأشهد أن لا إله إلا أنت تتجلى رحمتك فتحيل الجماد حياً ، وتكسب الوجود بهجة وجمالاً ، وتغضب فتفجّر الصخور من خشيتك ، وترتجف الراسيات من غضبتك ، « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبداً ورسولك ، بعثته على حين فترة من الرسل ، فصلح به الفساد ، واستقر بهديه أمر العباد ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحبابه ، وجنده وأصحابه ، ومن دعا بدعوة كتابه : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أسئلكم : ما هو الإسلام ؟ . وقد يكون فيكم من يعجب أو يغضب لتوجيه هذا السؤال ، فيقول : أبعد ألف سنة من نزول القرآن ، وبعد ألف كتاب في شرح الإسلام ، وبعد آلاف من الخطب في توضيح شرعة محمد عليه الصلاة والسلام تسائلنا عن معنى الإسلام ؟ . . . ولكن الحقيقة المرة أيها الناس أننا لم نتفق بعد على الإسلام ، وتحديد معناه ومغزاه ؛ فمنا قوم سيقت إليهم الدنيا فهم يتمتعون ويسرفون ، ويطغون في شهواتهم ولا يتذكرون ويتوسعون في فهم الإسلام توسعاً خاطئاً فيرونه دين تساهل وسماحة وتناس وغفران فحسب ويرددون : إن الله غفور رحيم ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، ورحمتي وسعت كل شيء ؛ ويستشهدون مثلاً بأن سليمان عليه السلام سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فلم إذن لا تكون دنيا هؤلاء مليئة بالربغات

القيت هذه الخطبة في يوم الجمعة ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٠ م .

واللذات ؛ وهكذا يسرفون في التأويل والتحريف حتى يحتفظوا بما في أيديهم من القوة والمتاع والمال . . .

وفي مقابل هؤلاء قوم حرموا من الدنيا ولذتها ، والحياة وبهجتها ، فزهدوا زهد ضعف وافتقار ، وتقشفوا عن عجز لا عن اقتدار ، فتراهم أيضاً يفهمون الإسلام فهماً خاطئاً إذ يعتبرونه دين ذلة ومسكنة ، وفقير وبطالة ، وكسل وخول ، وتراهم يرددون في ذلك قوله تعالى : « اعلموا أنمّا الحياة الدنيا لهوٌ ولعبٌ » وقول الرسول : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » وقوله « حب الدنيا رأس كل خطيئة » ، وهكذا تراهم حين فقدوا الحياة العاملة الكاملة يضيّقون على الناس مسالكهم ، ويشوهون أمامهم دنياهم ، وكأنهم يأبون إلا أن يتساوى جميع الخلق معهم في العجز والافتقار .

وبين هؤلاء وهؤلاء قوم حيارى مذذبون لا يستقرون على حال ، ولا ينتهون إلى مال ، هم لا يجدون كل شيء ، ولا يجرمون من كل شيء ، فإذا وجدوا ما أرادوا تمتعوا ورتعوا ، وعربلوا وأفسدوا ، وضلوا فرددوا : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وإذا جرت عليهم الأقدار يوماً بجرمان ، فحالت بينهم وبين ما يشتهون ، تظاهروا بالتقشف وتحدثوا عن الزهد ، ورددوا قول الرسول : « لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء » ؛ وهكذا يظل ذلك الفريق مذذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ فهل يقال مع ذلك الاختلاف إننا قد اتفقنا على معنى الإسلام وفهم مغزاه ؟ ! .

وهناك اختلاف كبير آخر حول الإسلام الغريب في بلاده ، فقوم ذوو بصيرة يؤمنون بالإسلام ديناً ودولة ، وعبادة وقيادة ، ويجاهدون في سبيل ذلك بما يملكون ، ويندوقون من أجله ما يندوقون ، وينفسح أمامهم الطريق فيسيرون ، وتحوطهم ظلمات البغي فيصبرون ، ويجوارهم قوم آخرون أقل منهم قدراً وأضعف شأنًا ، فهم يؤمنون بأن الإسلام صمام الأمان ومضخة

الإطفاء وزورق النجاة، ولكنهم خانعون خاشعون ، يخافون الناس والله أحق أن يخافوه ، فتراهم يتابعون ويسالمون وإن انطوت نفوسهم على غير ما يظهرون وفي مقابل هؤلاء وهؤلاء قوم ارتفعوا وامتلاؤا وسادوا ، وهم يرون في سيادة الإسلام الصحيح عليهم وعلى سواهم حداً لشهواتهم ، ومقاسمه منه في بعض أموالهم ، وتسوية لهم بغيرهم ، وخطراً على جبروتهم وطغيانهم ، وهم قوم استلذوا ما هم فيه سادرون ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، وإذن فليكونوا حرباً على الإسلام ، وعلى كل من يدعو إلى الإسلام ، وتراهم من خبثهم يعملون جاهدين لكي يقتصر الإسلام على ركعات تؤدى أو خطبة تقال أو احتفال يقام ، وكأن الإسلام عندهم كهنوتية بالية أو رهبانية فانية ، مع أنه جاء ليكون مصباح الظلام ومصدر الأحكام ومعقد الزمام : « قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيلَ السلامِ ويخرجهم من الظلماتِ إلى النورِ بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ » .

أفقال بعد ذلك الاختلاف المبين إننا متفقون على معنى الإسلام ؟ . . . يجب أولاً وقبل كل شيء أن نتفق على كلمة جامعة مانعة في الإسلام ، بعد أن ننفي عنه ما ليس منه ، وبذلك نستبين طريق الرشاد . . . يجب أن نتفق على أن الإسلام عبادة وعمل ، وجسم وروح ، وتهذيب وحكم ، وقيادة وسيادة ؛ جاء ليصلح النفس ويقوم الفرد ويربى الأسرة ويسوس الأمة ويخفف آلام العالم ؛ جاء ديناً وسطاً عدلاً ، لا يفرط ولا يفرط ، فأباح لك أن تجمع ولا تكثر ، وأن تأكل ولا تتخم ، وأن تنفق ولا تسرف ، وأن تتجمل ولا تتخذث ، وأن تكسب وتزكى ، وأن تثرى ولا تتفحش ، وأن تسمو إلى العلا وتعذل ، وهكذا يدعوك إلى كل ما ينفعك ، ويصلحك عن كل ما يرديك ، « إن الله بالناس لرءوفٌ رحيمٌ » .

جاء ليعلمك أن تكون على خير في سائر أحوالك التي تتقلب عليك في دنياك ، فغنى مع شكر وإحسان ، وفقير مع صبر وإيمان ، وصحة مع تواضع واجتهاد ، ومرض مع احتمال وعلاج ، لأن الذي خلق الدواء ، ورضاه بالقضاء والقدر مع السعي والاكتساب ، واتيكال على الله مع أخذ بالوسائل والأسباب ؛ وأنت في كل هذه الأحوال مأجور مشكور ، مؤيد بحفظ الله ورعايته ، موعود بفضله ونعمته ، قد سخر لك ما في الأرض والسماء ، وأعانك في السراء والضراء ، ما دمت تخلص النية وتريد وجه الله : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم . »
يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هذا والله هو الإسلام ، وأقسم لكم بالذي خلقكم لو أن كل إنسان منا أعطى الإسلام الربيع من حياته ، ففكر في أموره بربع عقله ، وضحى من أجله بربع كسبه ، وشارك المكالمين من دعائه بربع عواطفه ، وجاهد المنكر وأمر المعروف بربع مقدرته ، لأصبح للإسلام فينا شأن غير الشأن ، وسلطان غير السلطان ، ولعز المسلمون بين الأنام كما عز لهم أسلاف وأجداد ، يوم كان القرآن أول صوت يسمع ويطاع ، فإذا أمر الله فقد ذلت الأعناق ، وخضعت الرقاب ، وانتهى الجدل ! . . .

وأقسم لكم بالذي خلقكم إنه لن يستقيم لهذه الأمة أمرها إلا بهدى الله وكتاب الله وحكم الله ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ؛ وسنظل نجد ونرفع ونستعير ونتابع ، ونحن في أودية الحياة تأهبون ، ولن نهتدي إلى سواء السبيل إلا إذا أبصرنا نور السماء ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد .

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

منهج الإسلام^(١)

الحمد لله عز وجل ، أزال عن عباده النعمة ، وأتم عليهم النعمة ،
«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً»
أشهد أن لا إله إلا الله ، أعز بالإسلام قوماً وخفض بالكفر آخرين « أفجعل
المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول
الله ، شرح الله بالإسلام صدره ، فشرح به صدور المؤمنين ، فصلوات
الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وذوى صحبته ، والقائمين
بأمر دعوته : « أولئك هم خير البرية » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما زال الإسلام عند بعض أهله غريباً يحتاج إلى تعريف ، حتى يقبلوا
عليه ويعتزوا به ، بأنه طريق الخلاص وسبيل الأمان ومفتاح السعادة في الدنيا
والآخرة ، فهو دين ينظم شئون الحس والنفس ، ويوأم بين مطاب الروح
والجسد ، وينسق علاقة الفرد والجماعة ، ويضبط الإنسان في كل حالته
بضوابط حكيمة رشيدة ، تشعره بأن له مكانة ، ورسالة وأن له مرجعاً إلى
ربه ليحاسبه ويجازيه ، ولذلك يقول القرآن : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً
وأنكم لنا إنيلا لا ترجعون » ؟ . وقد أقام الإسلام نظام الحياة للإنسان على مراعاة
حقوق أربعة أساسية هي حقوق الله ، وحقوق النفس ، وحقوق العباد ،
وحقوق الأشياء .

أما حقوق الله تبارك وتعالى فهي أن تؤمن به رباً خالقاً قادراً رازقاً ،
ولا تشرك به أحداً ، وتعبر عن إيمانك بلسانك قائلاً « لا إله إلا الله » ، وأن
تخضع لما جاءك من عنده من الحق والهدى ، وهذا الخضوع يستلزم الإيمان

القيت يوم الجمعة ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٨١ هـ الموافق
٢٢ سبتمبر سنة ١٩٦١ م .

(م ١٠ — خطب ج ١)

بمحمد رسولا ، لأنه هو الذى بلغك ونقل إليك عن ربك ، فتنزل على حكمه وتقتدى بهجه ، وأن تعبر عن شكرانك لبارئك وتعظيمك لشأنه ، بذكره وعبادته ، والخوف منه ومراقبته . والله تعالى حينما أوجب لذاته العلية حقوقاً أو واجبات أو عبادات لم يجعلها مرهقة أو متعبة ، بل قال : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقال : « يريدُ اللهُ بكمُ اليسرَ ولا يريدُ بكمُ العسرَ » . وإذا كان في العبادات عزائم فيها أيضاً رخص ، والله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه . والصلاة مثلا تؤدى كما يتيسر للانسان ، إن وجد الماء توضأ به ، وإن عجز عنه تيمم ؛ وهو يصلى قائماً إن كان سليماً ، وقاعداً أو مضطجماً إن كان مريضاً ، وهو يقصر الصلاة إن كان على سفر ، وهو يقرأ في الصلاة ما تيسر من القرآن ؛ والصوم جعله الله أياماً معدودات ، ولم يجعله طويل المدة ولا موصولاً ، بل هو سحابة النهار ؛ وفي الليل متسع للأكل والتمتع . « فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » . والزكاة نسبة قليلة ضئيلة من المال ، يدفعها من قدر واكتسب وملك النصاب ، والحج لا يجب إلا على من استطاع إليه سبيلاً ، ووجد الصحة والقدرة والزاد وأمن الطريق ، وهو واجب مرة واحدة في العمر ، فما زاد فهو تطوع .

وحقوق النفس يدعو إليها الإسلام ويذكر بها وينظم طريقها ، فيقول القرآن : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ويقول الحديث : « إن لبدنك عليك حقاً » ويقول : « ابدأ بنفسك » . وحقوق نفسك عليك في الإسلام هي أن تمنعها وتعطيها حظها المعتدل من الطيبات : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وأن تحصنها من المهلكات والآفات كالمسكرات والمخدرات وخبيث الشهوات ومراتع الفساد : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » وأن تركيها بالطهارة الحسية والنفسية عن طريق النظافة

والتعبد والتفكير في ملكوت السموات والأرض ، وأن تجملها بمكارم الأخلاق ومحامد الصفات ، حتى تكون قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، والذي يقول : « أقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الذين يألفون ويؤلفون » . وقد وهب الله للإنسان في نفسه طاقات ومواهب ، وهي نعم تثمر أطيب الثمرات إذا أحسن الإنسان استعمالها واستخدامها . وتنتج أوخم العواقب إذا أساء توجيهها أو استخدامها ، ولذلك يقول القرآن : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ومن فضل الله علينا في الإسلام أنه أباح لنا استخدام هذه الطاقات في منافعنا ومصالحنا ولذاتنا الطيبة المشروعة . بحيث لا يضر ذلك أحداً غيرنا ، وبحيث نشكر الله ونمجده على فضله ونعمته ، لنكون منصفين من جهة ومستحقين للنعمة والزيادة فيها من جهة أخرى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » . وصلوات الله وسلامه على خيرة أنبيائه وصفوة أوليائه محمد حينما سهر الليل عابداً ساجداً ، فسألته زوجته عائشة : لم كل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ . فقال لها : أفلا أكون عبداً شكوراً يا عائشة ؟ ! . .

وأما حقوق العباد فتقوم في الإسلام على أساس أن الناس كلهم عباد الله ، وأن الكل مخلوقون من نفس واحدة ، فينبغي صلة رحم إنسانية ، يجب عليهم أن يرعوها حق رعايتها ، فلا بنى ولا علوان على الآخرين ، بل تعاون معهم وحسن معاملتهم وإحسان إليهم عند الاستطاعة ، يقول القرآن الكريم : « ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين » ويقول : « ولا تبغ الفساد في الأرض » ويقول : « وقولوا للناس حسناً » ويقول الحديث : « خيرُ الناس أنفعهم للناس » .

ويندرج الإسلام تدرجاً رائعاً في تحديد ما على الإنسان من حقوق للعباد ، وذلك لأن منهم القريب القريب ، ومنهم البعيد أو الغريب ، فيبدأ الإسلام بالأهم ثم المهم كثيراً ثم المهم قليلاً ، ثم العام الواسع أو الشائع بعد ذلك ، فيجعل الإسلام رعاية الأبوين والإحسان إليهما مرتبة أولى بعد عبادة الله : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، ثم ينتقل إلى الأسرة فيقول الحديث : « ابدأ بمن تعول » ثم ينتقل إلى القرابة والرحم فيقول القرآن : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » ثم ينتقل إلى أفراد الأمة المسماة فيقول الحديث : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ثم ينتقل إلى الناس كافة فيقول الحديث : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » ويقول : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

ثم تأتي حقوق الأشياء ، وهذه الأشياء إما حيوان أو نبات أو بخاد ، والإسلام يأمر المسلم بأن يحسن استعمال كل نوع من هذه الأنواع ، يأمره بالرحمة والرفق بالحيوان فلا يعذبه ولا يرهقه ولا يمثل به ، ولا يجبهه ولا يحمله ما لا يطيق ، بل يحسن إليه حتى في حالة الذبح ، وكذلك أمر الإسلام الإنسان بأن يقدر نعمة النبات فلا يفسدها لغير حاجة ، ولا يقطع شجراً لغير مصلحة ، بل يحسن استخدام ذلك كله في حدود المنفعة والاستقامة ، كما يجب عليه أن يحسن استخدام كل شيء من الجمادات في حدود الأصول الدينية والقواعد الشرعية ؛ وهذا هو الإسلام مثلاً ينهى الإنسان عن الإسراف في استعمال الماء ولو في حالة الوضوء ولو كان يتوضأ من البحر الكبير أو المحيط الواسع ، حتى لا يتعود الإخلال بسنة الإحسان في استعمال الأشياء .

وما دام الإسلام قد حدد للإنسان حقوق ربه وحقوق نفسه وحقوق العباد وحقوق الأشياء ، وجعل الإسلام بابه مفتوحاً لكل من يؤمن به ويردد

شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ولا يعوقه عن الدخول فيه لون أو جنس أو وطن أو نسب ، فهو إذن الدين الإلهي العام الخالد الذي يبقى ويدوم ليكون صالحاً لكل زمان ومكان ، لأنه لم يتم على أساس عنصري أو إقليمي أو زمني أو مكاني ، بل قام على الفطرة الإلهية الدائمة ، ولذلك قال القرآن : « فأقم وجهك للدينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ اللهِ ذلكَ الدينُ القيمُ ولكنَّ أَكثَرَ الناسِ لا يعلمونَ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا هو الإسلام . . ترونه نوراً في الدنيا ونوراً في الآخرة ، وتقويماً للفس والنفس ، وتكريماً للإنسان والإنسانية فمن ذا يجد بديلاً سواه يوازيه أو يدانيه ؟ وإذا كنا نؤمن بأنه الحق والصدق ، وأنه طريق الهدى والعلا ، فلم نصد عنه ؟ ولم نعرض عن حماه ؟ ولم نتقيد بقيوده وحدوده ؟ ولم لا نخضع لنظمه وتعاليمه ؟ . « أفحكّمُ الجاهليةَ ييغونَ ؟ ومن أحسنُ من الله حكماً لقوم يوقنونَ » ؟ . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

عبادة وقيادة (١)

الحمد لله عز وجل ، أنعم على العباد بدينه ودعوته ، وأكرمهم بتوضيح الطريق إلى مرضاته : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، له دعوة الحق ، « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله قائد المجاهدين وإمام المتقين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وعشيرته والفائزين بشرف صحبته ، والسائرين على هديه وطريقته « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

كان هذا الإسلام سيظل في حاجة إلى من يدافع عنه ، ومن يبين تعاليمه وأحكامه ، ومن يصحح أخطاء الناس فيه وتقولاتهم عليه ، وكان هذا الإسلام سيظل بسبب التحوير فيه أو الجهل به غريباً يحتاج إلى التقديم والتعريف حتى يهبيء الله له أهلاً يفقهونه وقيمونه ، ويستمسكون به قولاً وعملاً ، وعبادة وهداية : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » .

لقد قيل ونشر على الناس منذ حين إن الدين ليس إلا صلة بين العبد وربه ، وهذا قول إن صح على دين غير دين الإسلام فإنه لا يصح على الإسلام بحال من الأحوال ، لأنه يكون تعريفاً ناقصاً مبتوراً للهدى الذي أراد الله به للناس خيري الدنيا والآخرة ، فإن الإسلام مجموعة من المبادئ والتعاليم التي يراد بها تنظيم السلوك الإنساني في هذه الحياة من ناحية التفكير والاعتقاد ومطالب الروح والجسد وحقوق الفرد والجماعة ، وعلاقات الأفراد والجماعات والشعوب ؛ وهو من أجل ذلك دين ودولة ، وعبادة وقيادة ، وعقيدة

(١) أقيمت يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٨١ هـ الموافق ٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ م .

وشريعة ، ولا يمكن تصور دولة إسلامية بغير دين ، كما أنه لا يمكن أن نتصور الإسلام خالياً من توجيهه للمجتمع وسياسة الأمة ، وعلى هذا يجب أن يقال إن الإسلام صلة بين العبد وربّه ونفسه وبينته والناس والحيوان والأشياء كلها ، لأن الإسلام قد وضع للانسان مبادئ وتعاليم ، تنظم علاقته بكل ناحية من نواحي هذه الحياة ، فهو صلة بين العبد وربّه تقوم على الإيمان بعبودية الإنسان وربوبية الواحد الديان . وتعتمد على كلمة التوحيد الوطيدة الماجدة: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتقول للعبد : «ومن يسلّم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور» ويجعله يردد قوله : «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» .

والإسلام صلة بين الإنسان ونفسه ، لأنه يعلمه كيف يطهرها ويزكّيها ، وبذلك يصونها ويهديها فيقول له : «ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دساها» ويقول له : «فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى» . والإسلام صلة بين الإنسان وأسرته وقرابته . ألم يقل القرآن : «وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً» ، وآت ذا القربى حقه ، «إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى» . والإسلام صلة بين الإنسان والناس ، أليس من مبادئ الإسلام وتعاليمه هذه التصوص الكريمة : «وقولوا للناس حسناً» ، «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، الناس شركاء في ثلاثة «خير الناس أنفعهم للناس» ، «ارجعوا من في الأرض يرحمكم من في السماء» ، «الدين المعاملة» ، «الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» . والإسلام صلة

بين الإنسان والحيوان . ألم يقل الرسول : « اتقوا الله في هذه العجاوات » ،
« إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » ،
« دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من
خشاش الأرض » . والإسلام صلة بين الإنسان والأرض والسموات . ألم يقل
القرآن : « وفي الأرض آيات للموقنين » ، « وهو الذي جعل لكم الأرض
ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ، « قل انظروا ماذا في السموات
والأرض » ألم يقل الرسول « التمسوا الرزق في خبايا الأرض » ؟ .

فكيف يقال بعد هذا كله إن الإسلام صلة بين العبد وربّه فقط ؟ إنه
لو كان كذلك لصار ديناً سلبياً كهنوتياً مقصوراً على طائفة من الأدعية
والطقوس الدينية الفردية ، ولفقد أهم صفة له وهي أن يكون زماماً وإماماً
يقود البشرية إلى الخير ويعصمها من الضلال ، والعجيب المعجب في الإسلام
أنه يجمع بين العبادة والعمل الدنيوي في وقت واحد ، ففي الصلاة مثلاً
عبادة عن طريق المناجاة ، وقيادة عن طريق الإمامة ، ووحدّة عن طريق
الجماعة ، ونظام عن طريق التوقيت والاصطفاف ، وفيها طهارة للحس عن
طريق الاغتسال والوضوء ، وطهارة للنفس عن طريق الدعاء والرجاء ،
والقرآن نفسه يربط بين الصلاة وأمور الحياة فيقول : « فإذا قضيت الصلاة
فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » . بل في أثناء الصلاة يوثق الإسلام
الصلة بين محراب الصلاة ورحاب الحياة ، فالمسلم يقف حين الصلاة بين
يدى ربه يدعوه ويناجيه ، ويرتل قرآناً يتعبد به . ولكنه في الوقت نفسه
يلقنه دروساً في صميم الحياة والمجتمع والعلاقات الدولية ، مثل قوله تعالى :
« وأحلّ الله البيع وحرم الربا » ، وقوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم
به » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه »
وقوله : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، « وأعدوا لهم
ما استطعتم من قوة » ، « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

وهذه الحدود التي ذكرها القرآن وتحدث عنها فقه الإسلام كالقصاص من القتل وقطاع الطرق والمخربين ، وكجلد الزاني والقاذف وشارب الخمر ، وكقطع يد السارق ، وغير ذلك من العقوبات والحدود . . . أتكون هذه أيضاً من صلة الإنسان بربه فقط ، أم أن لها دخلاً كبيراً في أمور الحياة ونظام المجتمع وسياسة الأمة ؟ ! . . ثم هذه النصوص القرآنية الصريحة الهاتفة بأن الإسلام دين للحياة وللمجتمع والدولة ، ماذا نصنع فيها ؟ أنخذلها من المصحف أم نلغيها ؟ ماذا نصنع بقول الله عز من قائل : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وبقوله تبارك وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ؟ .

إنه من الخطورة بمكان أن يقال هذا القول أو ينشر على الناس في هذه الأمة المؤمنة التي لا تستطيع بحال من الأحوال أن تجحد ربه ، أو تنسى دينها ، أو تفصل بين عقيدتها وحياتها ، والتي تحرص على أن تكون الأسرة - وهي عماد المجتمع كله - ناهضة على الدين والأخلاق والفضيلة والوطنية : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » ونحن له عابدون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لا يجوز بحال من الأحوال في المجتمع الإسلامي أن يتحدث متحدثون عن فصل الدين عن الدولة ، لأن هذا الفصل قد يجوز في مجتمع غير إسلامي لا نحب أن نتعرض له هنا بقليل أو كثير ، وأما مجتمع الإسلام فهو مجتمع ينهض على الإيمان والاهتداء بهدى الرحمن ، والاتباع لسنة خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

منهاج الحياة الفاضلة (١)

الحمد لله عز وجل: «يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب، وأشهد أن لا إله إلا الله، كرم الإنسان بالعقل والجنان « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ». وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، زكى النفوس وهداها، وكرم العقول وقواها، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى ذريته وآله، وصحبه وإرجاله، والمهتدين بأعماله وأقواله: «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

هذه الحياة التي نحياها يلزمها أن يكون لها مستوى رفيع لائق بأصحاب الموارث الإلهية والروحية وأهل الدعوات الإنسانية الكريمة التي تعلق بالبشرية في مدارج السمو المادى والأدنى، حتى يكون الإنسان بهذا التسامى أهلاً لخلافة ربه في أرضه، ولتسخير ما في الدنيا من أجله، وحتى يحيا حياة فاضلة تليق بإنسانيته وتمييزه، ولكي نبلغ هذا المرتقى لا بد لنا من أن نعيش في هذه الحياة بعقول الرجال وهم الأبطال وقلوب الأطفال .

لا بد للأخيار من أن يعيشوا بعقول الرجال، لأن الصفة الأساسية المميزة للإنسان الفاضل هي العقل، والعقل هو ما نعقل به الأشياء، ونفرق به بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، ونستضيء به في مشكلات الأمور وظلمات الحياة، وكلما كان العقل عقل رجال درسوا وخبروا، وعرفوا وجربوا، كان رائداً لمواطن من النجاح والتوفيق. وقد بدت عناية القرآن الكريم بشأن العقل حين ذكره في نحو خمسين موضعاً، وحين كرر قوله المحرض الحافظ: « أفلا تعقلون »؟ وفي الحديث: « لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله »

(١) ألقى يوم الجمعة ٢٥ أبريل سنة ١٩٥٨ م .

فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعتم قول الفجار في النار : « لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحاب السعيرِ » . وقالت عائشة : يا رسول الله ، بم يتفاضل الناس في الدنيا ؟ قال : بالعقل . قالت : وفي الآخرة ؟ فقال : بالعقل . قالت : أليسوا يجزون بأعمالهم ؟ فقال : يا عائشة ، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون . وأتني قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا ، فقال النبي : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسلنا عن عقله ! فقال : إن الأحق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر ، وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات الزلني من ربهم على قدر عقولهم .

وكل من الفرد والجماعة في حاجة إلى هذا العقل وتنميته بالدرس والبحث والتجربة ، فالفرد محتاج إليه لتقويم ذاته وإصلاح شأنه وإعداد لبنة سليمة كريمة في بناء المجتمع ، والجماعة لا غنى لها عن رعوس تفكر وعقول تدبر ، وقد تبلغ الجماعة من العزة والمجد بعقل فرد بعيد النظر عميق البصر ، أو بعقول أفراد معدودين موهوبين ما لا تبلغه بالألوف الذين لا يمتازون بعقل أو تفكير ، وتاريخ هذه الأمة المؤمنة يفيض بشواهد استعانتها بعقول الفحول من أبنائها ، وقد ضرب الرسول لنا المثل في حسن الانتفاع بعقول الرجال واستغلالها الاستغلال الواسع ، فنفع المسلمين بعقل الحباب بن المنذر يوم بدر ، وبعقل سلمان الفارسي يوم الخندق ، وبعقل أم سلمة يوم صلح الحديبية ، واستنفذ طاقة العقول من حوله لخير أمته ، فوضع كل أمرىء في مكانه الملائم له ، وأسند لكل موهوب ما يجيده ويحسنه .

ولا بد للأخيار من أن يعيشوا بهمم الأبطال ، لأن العقل يرسم خطاً تحتاج إلى التنفيذ ، ويؤمن بمبادئ تتطلب النصر والتأييد ، وعيب الأمم

الضعيفة أن أبناءها قد يفكرون ثم لا يعملون أو لا يعملون إلا قليلا ، ولو أنهم فكروا ثم حققوا ما آمنوا به لسعدوا وفازوا :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

وكلما اتسعت همة الإنسان وانفسحت عزيمته علت رتبته وارتفعت مكانته وقديماً قال الصوفية : « قيمة كل امرىء بقدر هتمه » . وكلما حقق الإنسان جانباً من مبادئه سمت هتمه إلى أفق أعلى وأوسع ، وهذا مثلاً علم من أعلام هذه الأمة الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز تتطلع هتمه في فتوته إلى العلم بالدين والعربية فينال منهما قدراً كبيراً ، ثم تتطلع هتمه إلى ولاية المدينة ليصلح فيها ويعمر فينال ذلك ، ثم تتطلع هتمه إلى خلافة المسلمين فيلى أمورهم بالحق والعدل ، فلما ولى الخلافة وهى أسمى ما تطمح إليه النفس فى الدنيا تطلعت هتمه إلى ما هو أسمى وأبقى . تطلعت إلى الآخرة .

ونحن نريد أمام أبصارنا وبصائرنا مثلاً علياً للهيم العازمة التى لا تتردد فى الحق ، ولا تراجع ساعة الإقدام ، ولا تتزلزل حين الهول . فلنذكر همة محمد سيد الإنسانية يوم تحدى بهيمته الفريدة قوى الشرك والبغى فقال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . ولنذكر همة أبى بكر يوم صمم على وقفته الخالدة فى وجوه المتمردين من المرتدين وقال : والله لو منعونى عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه » . ولنذكر همة عقبة بن نافع حين فتح باسم الله المغرب العربى كله ، ووقف على شاطئء المحيط فوق جواده وقال : « اللهم رب محمد ، لو أنى أعلم وراء هذا البحر أرضاً يابسة لاقتحمت بفرسى هذا الموج الهائج لأنشر اسمك العظيم فى أقصى بقاع الأرض » . ولنذكر همة العمالقة من أجدادنا أيام كانوا يهتفون فى الشدائد والملمات : « الغمرات ثم ينجلينا » أى تقبل الأحداث القاسية على الرجال

فيحسنون لقاءها وعلاجها ، حتى تنجلي وترحل ويبقى الرجال كما هم ، ولا عجب فهم يذكرون جيداً قول رسولهم : « إن النصر مع الصبر » وقوله : « إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها » .

ولا بد للأخيار من أن يعيشوا بقلوب الأطفال ، ولا نقصد القلوب المهشة الضعيفة ، بل نقصد القلوب الصافية النظيفة ، فطالما ضرب الناس المثل في البراءة بقلوب الأطفال ، والصلة وثيقة بين العقل والقلب ، لأن العقل الذي يفكر دون صفاء القلب معه يشتط ويعتسف ، والقلب الصافي إذا لم يسنده عقل مدبر يهديه سواء السبيل ويمنعه المعاطب يكون طريقاً للغفلة والجهالة ، وما أحوج أصحاب العقول العبقريّة إلى القلوب الرقيقة الصافية ، التي لا تحمل غلا ولا حقدًا ، ولا تضمر غيظاً أو حسداً ، بل تفيض رحمة وحناناً ، وتأتلق يقيناً وإيماناً ، ومن هنا جعل القرآن سلامة القلب وصفاءه من صفة شيخ الأنبياء إبراهيم : « وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم » وجعل سلامة القلب خيراً ما يحمله المرء يوم لقاء ربه : « يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » وذكر من دعاء السابقين قولهم : « ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوفٌ رحيمٌ » . والرسول يقول : « قلب المؤمن أجرد (أي مصقول) فيه سراج يزهر » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الملهمين الأخيار من بناء الأمم الحية المؤمنة يحاولون دائماً أن يحققوا للأفراد والجماعات تلك الدعوات الثلاث التي تنهض بها حياة الفضلاء الأقوياء ، وهي عقول الرجال ، وهم الأطفال ، وقلوب الأطفال ، وفي هدى الله الذي أنعم به على عباده مفاتيح الطرق وأعلام السبل التي تؤدي إلى تحقيق هذه الدعوات ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

ملاحح المجتمع الاسلامى ^(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل عباد الرحمن خير أمة أخرجت للناس « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، حث أمته على الصلاح والإصلاح فقال : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان الإنسان الكامل ، وأقام المجتمع الفاضل ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن المجتمع الإسلامى ينهض على ثلاث قواعد هى : ضمان الضروريات ، وتوفير الحاجات ، وتهيئة التحسينات ، فى باب الضروريات نرى الإسلام يصون النفس والمال والعرض ، فىقول الحديث : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ، وفى باب الحاجيات نرى الحق تبارك وتعالى يحدث عباده بأنه خلق لهم ما فى الأرض جميعاً ، ويأمرهم بالإنتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . وفى باب التحسينات نرى الإسلام يبيع كل طيب ، ويمكن أهله من ملذاتهم بطرقها المشروعة وحدودها الحافظة : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون » وتقول عائشة رضى الله عنها : « ما تمتع الأشرار بشيء إلا تمتع به الأخيار وزادوا عليه رضى الله » .

(١) القيت يوم الجمعة ٢٠ رمضان سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٩٦٥ م .

وقد بدأ الإسلام في مجتمعه بإصلاح الفرد ، فأرشده إلى تطهير داخله وتزكية نفسه ، وحفظ مصدر الإشعاع والتوجيه في أعماقه وهو القلب ، فسمعنا القرآن يقول : «يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونٌ إلا من أتى الله بقلب سليمٍ» ويقول الرسول : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» . وما دام القلب سليماً صالحاً ذاكراً لربه ، ثابتاً على دين خالقه ، فإنه سيحرك صاحبه إلى الخير ، وسيحول بينه وبين الإثم والبهتان . ثم انتقل الإسلام من الفرد إلى المجموعة الأولى في المجتمع وهي الأسرة ، فبناها على السكينة والمودة والرحمة ، وعلى الخلق الكريم في المعاملة ، فقال القرآن : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون» . وقال الرسول : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي» . ثم انتقل الإسلام من الأسرة إلى المجتمع ، فجعله مجتمعاً يقوم على التكافل والتساوى بين الأفراد في حقوقهم الطبيعية وواجباتهم الأساسية ، فقال الرسول : «المسامون تكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم» . وهذا المجتمع يتكون من جماعة راشدة تحكم نفسها بنفسها على أساس كتابها وهدى نبيها : «وأمرهم شورى بينهم» «وشاورهم في الأمر» ، والفرد في هذا المجتمع له حرمة وكرامته وشخصيته ، ولكن هذه الشخصية الفردية تتعارض مع الشخصية الجماعية ولا تبغى عليها ، فهذا الفرد مطالب بالسمع والطاعة في الرضا والغضب ، والمنشط والمكره ، ولذلك يقول الحديث : «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» ولكن هذه الطاعة مشروطة بأن تكون في حدود ما أمر الله به أو رضى عنه ، أما إذا انتقل الأمر إلى حيز المعصية كان باطلاً ، ومن هنا جاء الحديث : «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وجاء الحديث الآخر : «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما

أحب أو كره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة «
وهذا هو سبيل التعادل بين سلطة الجماعة الراشدة وكرامة الفرد المسلم .

وهو مجتمع يقوم على العدالة في الجزاء ، والحساب الدقيق في العمل ،
والمراجعة المضبوطة في التصرف ؛ «فن يعمل مثقال ذرة خيراً أيره» ، ومن
يعمل مثقال ذرة شراً أيره» ، ويقوم على المائلة في مقابلة السيئة للردع والتأديب
ولكنه في مجال الخير والإحسان يقوم على إثابة المحسن أوسع إثابة ، ومقابلته
بأضعاف حسنته ، وذلك للترغيب والتشجيع ، فيقول القرآن :
« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » ويقول : « مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل
حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مثنة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع
عليم » ، وهو مجتمع رباني إلهي موصول الأسباب بالسماء ، فكل فرد من
أفراده يجب أن يريد بعمله الخاص أو العام وجه الله تعالى ورضاه ، ولا يريد
به المفاخرة أو المראה ، وهو إذا أراد وجه الله في أعماله كان له الأجر في
جميع هذه الأعمال ، سواء أكانت مادية أم روحية ، فيكون له الأمر في
السعى على أولاده كما يكون له الأجر في الجهاد من أجل دينه ، بل يكون
له الأجر على اللقمة يأكلها ، وعلى مضاحكة أولاده ، وعلى إعفاف زوجته
وإعفاف نفسه عن طريق المعاشرة الجنسية المشروعة ، وهذا المجتمع أخيراً
مجتمع طهور متحنث ، يتذكر دائماً أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وهو
يريد أن يكون المسلم طيباً في كل شيء ، يريد منه أن يكون طيباً في قلبه :
«الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب» ويريد
أن يكون طيباً في رزقه « كلوا من الطيبات » « قل من حرم زينة الله التي
أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وأن يكون طيباً في قوله : « وهدوا
إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » وأن يكون طيباً في جميع
الأعمال : « ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » وأن يكون طيباً حتى

في بيته : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه . »

ثم انتقل الإسلام بعد ذلك إلى المجتمع الإنساني كله . إلى عالم البشرية الواسع ، فأقام هذا المجتمع على دعائم ثابتة واضحة من اتحاد الأصل ، وشرعة التمايز للتعارف ، وأساس الأفضلية للتقوى ، وقاعدة الاصطفاء والتكريم بوجود النفع للغير ، والإسهام في الخير والبر ، فقال القرآن : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » وقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليمٌ خبيرٌ » وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « خير الناس أنفعهم للناس » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن العالم يعاني ما يعاني بسبب حيرته وهو في مفترق الطرق بين المذاهب والاتجاهات والمعتقدات ، وهو يخرج من تجربة إلى تجربة دون أن يستقر أو يهدأ أو يسعد ، وبين يدي العالم دواء السماء ، وفيه الشفاء والغذاء والهناء ، ولكنه يصد نفسه عنه ، أو تبعده عن ساحة يد الشيطان ، ولو تناوله واستعمله لسعد وفاز : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟ .

ومن العجائب ، والعجائب جمة قرب الدواء وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي

أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

نزهاوا الإسلام عن صفائركم^(١)

الحمد لله يا عزيزا يريد لعباده العزة بلا طغيان ، وقديراً يريد لأهل دينه اقتداراً لا يبيغون به على إنسان ، « وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها ، فنَّ عفا وأصلحَ فأجره على الله ، إنه لا يحبُّ الظالمين ». نشهد أن لا إله إلا أنت ، تكره سفاسف الأشياء وتحب معالي الأمور ، والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، كان سيد قومك بلا استبداد ، ورأس جماعته بلا فخر أو اعتداد ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وحزبه ، وجماعته وصحبه ، الذين لانوا في غير ضعف ، واشتدوا في غير عسف ، فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

كان المسلمون في أيام العزة والسيادة ، لا يشغلون أنفسهم إلا بما يتناسب مع على همهم ، وكبير عزائمهم ، فهم يفتحون عقول الناس بالحكمة والنور ، ويقتحمون أرجاء العالم بالهداية والتبشير ، ويحررون العبيد من أغلال الإهانة والتحقير ، ويبطشون صادقين بالجبارين ، فلما هداية من غواية ، ولما تطهير للدنيا ممن يريدون أن يكونوا في الأرض آلهة من دون الله يعبدون ؛ ولكن الذين يسمون أنفسهم بالمسلمين في عصور الضعة والضعف والهوان ، لا يفكرون في شيء من هذا النضال ، ولا يهتمون بقليل أو كثير من جليل الأعمال ، بل حسبهم أن يتكلموا على ميراث الأجداد ، وأن يتباهوا بكثرة الأعداد ، وأن يطيلوا الجدال باللسنة حداد ، وحسبهم أن يقيموا الدنيا ويقعدوها من البكاء والأنين ، والنشيج الحزين ، كلما ضاعت من الوطن الإسلامي رقعة ، أو هتكت للدين الحملى حرمة ، أو عطلت من شريعة السماء فريضة ؛

القيت يوم الجمعة ٨ ذى الحجة سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٩ م .

وتراهم يقبلون على تفاهات وصغائر يحسبونها من الدين والدين عنها بعيد ،
ويظنونها من الخير للاسلام وهى لو علموا طعنات توجه إليه منهم وهم
لا يشعرون ، وأقرب الأمثلة على ذلك ، ما قرأناه من أن بعض الجهلة
الأغرار ، الذين يحسبون كلا ووبالا على المسلمين ، ولا يحسبون منهم
ولا يعدون لهم ، قد تطاولوا على جنازة رجل مسيحي ، فعبثوا بجلال الموت ،
وتفوهوا بألفاظ نابية ، ثم عادوا وهم يتوهمون أنهم قد جاهلوا فأحسنوا الجهاد
فى سبيل الله ! . .

الإسلام برىء من هذه الصغائر ، والمسلمون أبرياء ممن يستحلون
العدوان على غيرهم ، ولو كانوا لا يدينون بدينهم ، والمسلم الدارس لدينه
المتفهم لسنة نبيه ، يدرك لأول وهلة ، أن مثل هذا التصرف الصغير الحقير ،
الذى ارتكبه بعض الجهلة الأغرار لا تقره الإنسانية ، فهو إذن لا يقره الإسلام
لأن الإسلام قد جاء ليحقق فى المرء معنى إنسانيته الكاملة ، التى تتعالى عن
شبهات الأجساد ونزوات النفوس ، وضلالات العصبية وترهات العقول ؛
ولقد روى عن جابر بن عبد الله قال : مرت جنازة فقام لها رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقتنا معه ، فقلنا يا رسول الله ، إنها يهودية ، فقال : إن الموت
فرع ، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا (أى إن الموت له رهبتة وزلزلة التى تخشع
لها القلوب ، وتعتبر لديها الأبواب ، فيجب أن يقوم المرء له مدكرا موقرا ،
دون التفات إلى شخص من مات) . وفى رواية أخرى أن سهل بن حنيف
وقيس بن سعد ، كانا قاعدين بالقادسية ، فمرت بهم جنازة فقاما لها ، فقيل
لها : إنما هو من أهل الذمة (أى ليس مسلما) فقالا : إن رسول الله صلى الله
عليه وسلم مروا عليه بجنازة فقام لها ، فقيل له : إنه يهودى فقال : أليست
نفساً ؟ ! . . نعم يا سيدى رسول الله ، إنها نفس لها حرمتها الإنسانية ، وإنه

الموت له جلاله وعظته ، فإذا مر علينا مثل هذا الحادث ، دون أن نتعظ به أو نلتفت إليه ، فكيف نكون من الناس ، أو ندعى أننا من أصحاب القلوب .

والنصوص الدينية والوقائع التاريخية الإسلامية ، التي تدلنا على سماحة الإسلام ، وعدالته مع غير المسلمين ، كثيرة مشهورة . قد صافحت الأسماع وطالعت العيون مرات ومرات ؛ وها هو ذا نبي الملة وإمام الأمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو المثل الأعلى في التمسك بالدين ، والحرص على رضا رب العالمين ، كان نبيلاً كريماً ، يعاشر جيرانه من اليهود والنصارى معاشرة كلها سماحة ورجاحة فهو يعينهم وينصحبهم ، ويعودهم ويزورهم ، ويحدثهم ويسمع منهم ، ويهدى إليهم من طعامه ومتاعه ، وما فكر صلوات الله عليه وسلامه يوماً أن يتخذ من اختلاف العقيدة أو تباين الدين ، سبباً للتطاول السفية ، أو الاعتداء الظالم ، بل لقد كان منه ما هو أسهى من ذلك وأكرم . قدمت إليه يهودية شاة مسمومة تريد بذلك قتله ، ثم أعلمه الله بأمرها ، واعترفت المرأة بفضيح جرمها ، ومنع ذلك عفا عنها مع أنها يهودية مجرمة ، لأنه يريد أن يوضح للعالمين كيف بعثه ربه متممًا لمكارم الأخلاق ، وكثرت جراحه عليه السلام في غزوة أحد جرحه المشركون الذين لا يدينون إلا بالأصنام وشق ذلك على أصحابه فقالوا له : لو دعوت عليهم ؟ . فقال : إني لم أبعث لعناً ، ولكني بعثت داعياً ورحمة ، اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون . فانظر كيف ترفع صلوات الله عليه عن طلب العقاب والتقمة لهم ، فضلاً عن الاعتداء عليهم ، أو الإساءة إليهم ، مع أنهم هم البادئون ! .

قد يضل ضال في التفكير فيقول : إن هذا التصرف من باب الغيرة على الملة ، والغضب من مخالفيها والخارجين عليها ، فنقول : بثست الغيرة ، إنها لغيرة مجنونة حمقاء عمياء . لا تحسن تصرفاً ، ولا تعرف كيف تدعو إلى دينها ، لأن الغيور على الدين يفعل ما ينفعه ويرفعه ، لا ما يشينه ويضعه ،

ومثل هذه الحماقات الصغيرة ، التي يرتكبها أولئك الأغرار باسم الإسلام ، وهم يعدون من المسلمين ، تصور الإسلام للجاهلين به ديناً همجياً وحشياً ، لا يحترم حقوق الناس ، ولا يرفع حرمة حرياتهم ، مع أنه الدين الذي يوصى بالإحسان إلى أهل الأديان كلها ، وأن نعامل المخالفين لنا في الدين ، من مواطنين وذميين ، معاملة المساواة والقسطاس ، لهم مالنا وعليهم ما علينا ، وإن المسلم الصحيح ليستطيع أن يكون أفضل داعية إلى دينه بمعاملته الشريفة ، وأخلاقه الجميلة وآدابه العالية ، وحسن سلوكه مع جيرانه ومعاشرته ، لأن المسلم إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ، وأقرب الناس من رسول الله في الجنة يوم القيامة أحسن الناس أخلاقاً ، المواطنون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون ! . . .

ليت الذين يدعون بأن الغيرة تآكل قلوبهم على الدين ، فتضلهم عن الصراط المستقيم ، ليت هؤلاء يوجهون طاقة جهودهم وجهادهم إلى ما يستحق المجاهدة والكفاح ، من كبائر الأثم وعظائم السيئات . . . ليتهم يؤدبون الذين يحاربون الله جهاراً نهاراً ، ويناهضون شريعته ، ويعطلون تعاليم كتابه ، ثم يقولون بلا خجل نحن من المسلمين ! . . . ليتهم يؤدبون أولئك الذين سادوا في غفلة الزمن ، فاتخذوا من الناس عبيداً ومطايا ، يركبونها ويسمونها الخسف والهوان ، ثم لا يتفضلون عليها بالقوت ! ليتهم يؤدبون الذين يمتصون دماءهم وأمواهم ، ثم ينفقونها جهاراً نهاراً على أجسام البغايا ، وموائد الخمر ، وحلقات القمار ! . . . ليتهم يؤدبون أولئك الذين يظنون أن الأرض قد ألقيت عليهم من السماء ، محتومة بأسمائهم وألقابهم ، فذهبوا يتحكمون وينكأون ، ويشردون ويتعسفون ، ويعطون ويمنعون ، ويرتكبون كبريات المخازي والمآسي ، لا في سبيل غرض شريف أو قصد نبيل ، بل في سبيل المطامع والشهوات ، والأهواء الضلالة ضلال الشيطان اللعين ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هناك نوع من البطولات يسمى البطولات الرخيصة ، وهو أن يعجز الإنسان عن بلوغ غاية أو وصول نهاية ، أو التغلب على مشكلة ، فيحاول أن يسترضعه ، ويرضى مركب النقص فيه بالتردى في هذه أعمال صغيرة حقيرة ، لا تقدم ولا تؤخر ، ثم يفتح فمه كالبركان قاذفاً منه عريض الإبداعات وطويل الافتخارات ، فحاشاكم أن تكونوا من هؤلاء ، فإنما أعددتهم لعمل موصول وسعى مقبول ، فترفوا بأنفسكم عن سفاسف الأمور ، وعلقوا هممكم بعظائم الأعمال ، واتقوا الله الذى أتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ! . . .

قال عليه الصلاة والسلام . ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذىء وقال عليه الصلاة والسلام : اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالت الناس بخلق حسن !

من ملامح الشخصية المسلمة^(١)

الحمد لله عز وجل ، خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وكرمه بفضله أعظم تكريم: « ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ». أشهد أن لا إله إلا الله ، أنعم على الإنسان بما أنعم ، فجعله خليفة في أرضه ، والمقدم بين خلقه ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، مزكى الإنسانية وظهر البشرية ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وصحابته ، ومن استقام على طريقته : « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراطٍ مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

شخصية الإنسان مجموعة من الصفات تميزه عن غيره ، وتحدد ملامح ذاته ، وتعطيه الطابع الخاص به ؛ وللمسلم شخصية مثالية يمكن أن نجتل مكوّناتها في هدى القرآن الكريم ، وأدب السنة المطهرة ، وعمل الصالحين من سلف المؤمنين ، ومن هذه المكوّنات ما يتصل بالبدن ومنها ما يتصل بالعقل ، ومنها ما يتصل بالروح . فالمسلم الحق رجل صحيح البدن قوى العضل ، صالح بقوته وفتوته للعمل والنضال ، والاحتمال وهدوء البال ، لأن الجسم الضعيف أو العليل قد ينال تفكير صاحبه بالخلل ، وقد يدخل على نفسه بالسأم والملل ، وجسم الإنسان بناية ربه الذي خاقه فسواه فعده ، في أى صورة ما شاء ركب ، وبناية الرحمن يجب أن تحفظ وتصان ، ولذلك قال سيد الخلق : « الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » . والمسلم الصادق رجل معرفة وفقه ، يطلب العلم من المهد إلى اللحد ، وكلما نال مزيداً من العلم أقنعه ذلك المزيد بأنه ما زال بحاجة إلى ازدياد ، لأن العلم لا نهاية له ، والقرآن يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » :

(١) القيت يوم الجمعة ١٦ رجب سنة ١٩٨٤ هـ الموافق ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٤ م .

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي
وإذا ما لزدت علماً زدت إيماناً بجهلي

والمسلم الحق رجل أخلاق فاضلة كريمة ، لأن مكارم الأخلاق هي دعامة الإسلام وأساس بنائه . وهذا التكامل الجسمي العقلي النفسي قد تلحظه في الهدف العام لقول الله عز من قائل : «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» أي في أحسن تعديل من جهة الشكل والصورة ، ومن جهة العقل والفهم ، ومن جهة الاستعداد ليكون خليفة الله تبارك وتعالى في هذا الكون العريض ؛ وخير الناس من استغل هذا التقويم المثالي الكريم ليؤتي أكله وثمره ما فضل الوسائل وفي أنظف الميادين ، وشر الناس من تنكر لهذا التقويم الحسن ، فاستحق الانتكاس إلى حمأة الأرجاس ، ولذلك قال الحق جل جلاله : « ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون » .

ومن مقومات شخصية المسلم أنه سيد نفسه بامتلاكه زمامها ، وسيد العالم بصلاحه ، وقوامته على الناس ، وشهادته على العالمين ، ولكنه أيضاً عبد الله وحده ، وليس عبداً لسواه ، لا تذلل جبهته لغير الله ، ولا تنخفض هامته إلا لبارئته ومولاه ، إذ خضوع المخلوق للبارئ عز ، ورضا المسلم بالمذلة أمام سوء الله كفر : «ولا تهنؤا ولا تحزنؤا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» .

وسيادة المسلم في العالم تقتضيه أن يكون أهلاً لهذه السيادة ، بعلمه وفضله ، وهدايته وعدله ، وأن يكون قدوة علياً للناس ، يحملهم على حقه ، ولا يحملونه على باطلهم ، والرسول الأعظم يقول في هذا : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

والمسلم الصادق موصول بييمين الحق عز وجل ، وهذه الصلة ترفعه عن ترابية الأرض إلى نورانية السماء ، ومن حضيض الضعف والاستكانة إلى

معاقل الاعتزاز والصيانة ، وتجعله موقناً بحقه ، مستمسكاً برأيه ، قوياً على بهتان الناس ، نفوراً من أهوائهم الضالة . « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليمٌ » . وما دام المسلم قد وصل حبله بحبل الله ، وقد أسلم وجهه لله ، وقد استمسك بالعروة الوثقى فلن يكون للشيطان عليه سبيل ، بل سيراه المسلم دائماً عدواً مبنياً له ، فلا يقبل عليه ، ولا يميل إليه ، بل يقيم من نفسه على نفسه حسبياً قريباً ، لأنه يتذكر دائماً أن ساعة ستأتي يلتقي إلى الإنسان فيها سجل أعماله ، ويقال له : « اقرأ كتابك » ، كفى بنفسك اليوم عليك حسبياً » ، وسيجد هذا الكتاب دقيقاً في التسجيل والتدوين ، وسيجد الجزاء هناك إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاهُ الجزاءَ الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى » .

ومن مقومات شخصية المسلم الصادق أنه رجل جماعي وليس بأناني ، يغرس في نفسه معاني الأخوة والمحبة والتآلف والتعاون ، لأن مولاه جل جلاله يقول له : « وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ورسوله يقول له : « الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » .

والمسلم الصحيح الشخصية يقول كلمة « أنا » في مواطن البذل والتضحية والإيثار ، فحينما دعا الله نبيه إلى أن يتمسك بالحق ، أمره أن يذكر نفسه أولاً ، لأن المقام مقام تبعة وجهاد وتطبيق ، فقال الحق جل جلاله : « قل هذه سبيلي ، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » . ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يصور في الأنصار هذه الروح التي تجعل صاحبها يذسى نفسه في مواطن الشهوة والرغبة ، ويقدمها في مواطن النضال والبذل ، فيقول لهم : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » وهذه صفة تجعل صاحبها في أعلى مراتب السمو الأخلاقي

فهو يعطى ولا ينتظر الأخذ ، وهو يبذل ولا يطالب بالأجر ، بل يكافح كفاح الجندي المجهول الذي يريد وجه الله وحده ، والرسول يصور هذا بقوله فيما ينسب إليه : أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها ، أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا والغضب ، وأن أعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأعفو عن ظلمي ، وأن يكون نطقي ذكراً ، وصمتي فكراً ، ونظري عبراً .

ومن تمام شخصية المسلم الحق أن يتجلى فيه الاطمئنان والثبات ، لأن النفس المطمئنة هي الراضية المرضية عند الله في الدنيا والآخرة ، وثبات المسلم على دينه وخلقه ومبادئه هو عنوان إيمانه وبقينه ، وهو الذي يجعله لا يبغى عند النعمة . ولا يتزلزل لدى المحنة ، والداء العياء الذي تشكو منه المجتمعات هو ذبذبة الأخلاق واضطراب النفوس ، ولو آتى الله عبده ثباتاً على ما يرثيه ، وصبراً على ما يلاقه ، وثقة بالذي يرتجيه ، لوجدت مكارم الأخلاق حراسها وخماتها ورجالها ، ولصان الله المجتمعات من مآثم الثعالب الماكرة التي تتلون بطباعها وأخلاقها تلون الحرباء كل يوم ، ولقد صور القرآن ثبات النفوس عند خيار المؤمنين فقال : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . هذا جانب من ملامح الشخصية المسلمة ، ولو تابعنا بقية الملامح لأسلمنا هذا الجانب إلى جوانب ، فإن شأن المسلم الكامل أن يظل دائماً مترقياً في مدارج الفضل والتبلي ، ومراتب السمو والعلو ، حتى يكون في الدنيا ربانياً ، وحتى يكون نعم الخليقة لبارئته في هذا الوجود ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الدخول في الاسلام (١)

الحمد لله، هو أقوى الأقوياء وأغنى الأغنياء ، « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد » ، نشهد أن لا إله إلا أنت سبحانك ، لا ينفعك إيمان من أقبل عليك ، ولا يضرك كفران من أعرض عنك ، اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، اعتر بالقللة المؤمنة الشاكرة فقهر بها الكثرة المغترّة المنكرة ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وجنوده وأحبابه « لهم دارُ السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لا يختلف إثنان يدرسان الإسلام بنزاهة وإنصاف في أنه دين رب السماء ، أنزله إلى عباده ليخرجهم من ظلمات الحيرة والشقاء ، إلى نور الهداية والهناء ، ولعل أقرب الشواهد على ذلك أن كل من اهتدى إلى صراط الإسلام تمسك به وحرص عليه ولم يرجع عنه ، حتى ولو فرط في بعض واجباته وتعاليمه ؛ وإنك لترى الرجل المسلم يهمل ، ويلهو ما يلهو ، فإذا مست عقيدته الإسلامية بسوء غضب وثار ، وهاج ومار ، لأن قواعد العقيدة راسخة في أعماق فؤاده ، وإن يكن قد علاها الصلداً بالتفريط والإهمال ؛ وقد كثر عدد المسلمين في الأرض حتى صاروا يعدون بمئات الملايين ، ولا يفيدهم أن يزيدوا مليوناً آخر ، ولا يضعفهم أن ينقصوا مليوناً من ملايينهم ، ولكن الأهم من ذلك كله هو أن يطبق المسلمون تعاليم دينهم ، وأن يتمسكوا بمبادئ ملتهم ، وأن يترجموا عن أقوالهم بأعمالهم ، وقد لفت القرآن المجيد أبصار رجاله إلى تلك

(١) أقيمت يوم الجمعة ١٥ من ذي الحجة سنة ١٣٧١ هـ الموافق ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

الحقيقة حين هتف : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون - كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وقد شاعت في الأيام الأخيرة ظاهرة تثير الاهتمام ، هي أن كثيراً من غير المسلمين يظهرون رغبتهم في اعتناق الإسلام ، ويشهرون هذا بلسانهم ويشاهد شرعى خاص بهم ؛ والعامه من المسلمين يظهرون الفرح كلما سمعوا بشيء من ذلك ، مع أن أغلب الذين يعلنون إسلامهم عن هذا الطريق المعروف يفعلون ذلك خاضعين لمؤثرات خارجة عن دراسة الملة المحمدية والافتناع بها بحق وصدق ، فهذا أعلن إسلامه لأنه يريد فراق زوجته ، وذاك أعلنه لأنه هام بحب فتاة مسلمة ، وذلك أعلنه للخروج من مشكلة ميراث أو عقار ، وهكذا . . . وكثيراً ما يرتد هؤلاء عما أعلنوه وأشهره إذا زالت الدواعى والأسباب ، فتتذكر قول الأول :

صلى وصام لأمر كان يطلبه فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صام

إن ملة محمد صلى الله عليه وسلم لا تعتر كثيراً بأمثال هؤلاء ، فهى لا تريد ولا تقبل أبداً أن تكون قنطرة أو معبراً يعبر عليه ذوو الأغراض والأهواء إلى شهواتهم ومآربهم ، والله سبحانه لا يريد من عبده أن يدخل دينه إلا عن بينة وبصيرة ، يدرس ويبحث ، فتلوح له الشواهد والبراهين ، فتسطع أنوار الإيمان في صدره ، فيقبل على ربه لإقبال العازم الواثق الموقن . لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يخشى في سبيل دينه المتاعب أو المغارم « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » . ومن واجب المسلمين ألا يطيلوا فرحهم إذا سمعوا بمثل هذا ، ومن واجبهم أن لا يجعلوا دينهم تكأة يستند عليها الميطل والمغرض ، بل عليهم أن يشرحوها فضائله ما استطاعوا ، ويدعو إليه بالحكمة

والموعظة الحسنة ، ويراجعوا من يريد الدخول فيه ليتبينوا أنه طاهر النية صافى المقصد ، وأنه قد درس من أصول الإسلام ومبادئه ما يكفي لاقتناعه بأنه دين الحق وملة الصدق ، ويومئذ نؤمن بأن الذين يقبلون علينا ويدخلون فينا سيكونون قوة لنا وإخوة معنا ، وفي هذا التحقيق وذلك التدقيق لإجلال حرمة الإسلام ، وتأمين الجماعة المسلمين ، وسد للطريق على المفسدين المستغلين الذين يتخذون التظاهر بالإسلام ستاراً يسعون من خلفه إلى ما يشاءون من خبيث الأغراض وذنء المقاصد ؛ ولتذكر في هذا المقام أن أناساً في الدساتس ، وكادوا للإسلام المكائد ، وكانوا مع شديد الأسف سوساً نخر في هيكمل الأمة الإسلامية ، فصبوا عليها البلايا والنكبات . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن المسلمين في العالم اليوم أربعائة مليون^(١) ، ولو كان هذا العدد الهائل نحلماً يثبت وجوده بطنينه لأصموا أسمع أعدائهم وأثخنوهم بالجراح ، ولكن تطاول عليهم الأمد فقسست قلوبهم وتبلدت عزائمهم ، واليوم يتأذن رب السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ببشائر نصر وطلائع خير ، فليتبصر المسلمون مواقفهم ، وليسوا صفوفهم ، وليطهروا كتابهم من الدخلاء ، فهم ليسوا بحاجة إلى الكثرة ، لكنهم بحاجة إلى الإخلاص والقوة ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ؛ أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستعجب لكم .

(١) زادوا الآن عن الالف مليون .

من آداب الإسلام^(١)

لك الحمد يا مصدر الكمال وواهب الجمال ، أنت الذى تقسم المعاش والعطايا بين عبادك ، فمنهم شقى وسعيد ، وفيهم قريب وبعيد ، والآخرة عند ربك للمتقين نشهد أن لا إله إلا أنت تحصى القليل والكثير ، وتحاسب على الفتيل والقطمير ، « وكفى بنا حاسيين » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من تأدب وأدب ، وقوم وهذب ، فصدق فيه قولك : « وإنك لعلى خلقٍ عظيمٍ » . فصلواتك اللهم وتحياتك ، ورحماتك وبركاتك ، عليه وعلى آله وصحبه ، وجماعته وحزبه ، أولئك الذين أشرفت أرواحهم بنور ربهم ، فهللوا به فى أحلك الظلمات وأخرج الشبهات ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

سأتعهد اليوم أن أترك خلقى ما تعارفتم على أنه من جلائل الأمور ومشاق الصدور ؛ فلن أتحدث عن هذه المشكلة ، ولا عن تلك المعضلة ، مما يقاتل المضاجع ، وتهم له المجامع ؛ ولكنى سأحدث إليكم عن أمر تحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ؛ ذلكم هو استخفاف الكثير منا بالكرامة الإنسانية والحرمة البشرية ، حين يسخر من صاحب العاهة ، أو يهزأ بمن نالته آفة ، فيبدو فى صورة المعارض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ؛ وذلك داء يصيب الساخر فيجعله محطاً لنقمة العزيز الجبار مستحقاً للعنة وسوء القرار ؛ وخذوا مثلاً من بين مئات الأمثال :

شاهدت رجلاً متعالياً على خلق الله ، يؤنب رجلاً مكفوف البصر على خطأ ارتكبه ، فسمعتة يقول له سائرأساخراً : لا لوم عليك فإنك أعمى ! ..

(١) ألقىت يوم الجمعة ٢٣ من ذى القعدة سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٩ م .

وكأنما جمع الرجل في كلمة « أعمى » هذه كل صفات الإهانة والتحقير ، فنزلت على كاهل الرجل الكفيف صخرة حاطمة ؛ وكثيراً ما نسمع من لا خلاق لهم يقولون لمثل هذا الكفيف ساخرين . حقاً إن كل ذى عاهة جبار ! . . . إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاحتقار ! . . .

إن هذا أولاً سوء أدب مع الخالق والمخلوق ، فلو أراد الله سبحانه لجعل الساحر المبصر مكان المسخور منه الأعمى ، فكان الواجب حينئذ على المرء أن يتذكر نعمة الله عليه ومقدار عطائه له ، وأن يأسى ويأسف لحرمان المحروم مما تتمتع به هو ، وأن يسأل له من فضل الله وعوضه ما يجزيه خير الجزاء ، عما أصيب به من نقص في جانب خلقته ، بدل أن يهزأ به وبسخر منه ، فيستوجب لنفسه المقت والغضب ، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن البلاء موكل بالمنطق ، ولو سخرت من كلب لخشيت أن أصير كلباً مثله ! . وليس وراء هذا التحفظ والتحرز من عبد الله غاية لتباعد عن رذيلة الاستهزاء ! . . .

ولست أدري والله لم يسخر الساحر مثلاً من الأعمى؟ . . . لئن كان الأعمى قد ولد مكفوف البصر فذلك سابق القضاء وحكم القدر ، والسخرية مما سبق في علم الله ، بحكمته وهداه ، محاربة له وتطاول عليه ، ومن يفعل ذلك فقد باء بسخط من الله وعذاب شديد ؛ وإن كان المكفوف قد فقد بصره في حادث أو جهاد أو كسب رزق أو تحصيل علم فذلك شرف له ، ومنزلة عليها تنتظره عند ربه ، ليسعد يوم لقائه بروية جلاله ، والافتباس من نوره الذى أشرق له الظلمات ، واصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولذلك روى عن أنس رضى الله عنه ، عن النبي صلوات الله عليه ، عن جبريل عن رب العزة والجبروت قال : يا جبريل ، ما ثواب عبدى إذا أخذت كريمته

(أى عينيه) إلا النظر إلى وجهي ، والجوار في داري . . . قال أنس : فلقد رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبكون حوله ، يريدون أن تذهب أبصارهم (وذلك اشتياقاً منهم إلى التمتع بروية ربهم ، وهي نهاية النعيم في جنات الخلود . . .) وحتى لو فقد الكفيف بصره في معصيته لكان مستحقاً للرحمة والثناء ، بدل التطاول والاستهزاء ، فرب معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خيراً من طاعة أورثت عزا واستكباراً ، ورأفتك بالمفرط المكسور عون له على أن ينجبر ويستقيم . وأما سخريتك منه فتحريض له على العناد ، والإبعاد في مهاوى الفساد ، ولقد شرب رجل الخمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فضربوه حداً وتأديباً ، فقال له بعض الصحابة : أخزأك الله ! فغضب النبي من ذلك وهتف : لا تقولوا هذا ، لا تعينوا الشيطان عليه ! . . .

وقد يكون الرجل الكفيف البصر ، المزدري في أعين الناس ، كريماً عند الله ، رفيع المكانة لديه ، قريب المنزلة إليه ، لتفتح قلبه وإن ذهب نور عينيه ، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ؛ فهذا هو ذا الصحابي الجليل عمرو بن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد من قريش وهدايتهم إلى الله ، فلا يجد الرسول فرصة عاجلة لينفرد بهذا الكفيف الساعي ، فينزل الله سورة في كتابه ، يعاتب بها نبيه على إهمال ذلك الكفيف ، فيقول عز من قائل معاتباً معرضاً موارياً : « عبسَ وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكرُ فتنتعهُ الذكري ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك أن لا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهي ، كلاً ، إنها تذكرة » . ولا يصف القرآن الكريم ابن مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » في صراحة وجهه ، كأنه يريد أن يقول إن هذا لو وصف الذي قبيل صاحبه بالإهمال أو الإهمال كان هو نفسه جديراً بأن يقابل بالرحمة والرأفة والاحتفال وصلوات الله وسلامه

على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ، ولذلك كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به وقال له : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ، هل لك من حاجة ؟ . وجعله خليفة وراءه على المدينة عدة مرات مع أنه كفيف ، لأن العبرة بجمال النفوس وطهارة القلوب وسعة العقول ، ولذلك كف بصر عبد الله بن عباس فكان يقول :

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففى لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكى ، وعقلي غير ذى دخل وفى فى صامم كالسيف مشهور

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان ، وبقائه فى الحياة بين هؤلاء الأحياء بدون عيذه يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من المخازى ، ومشاهدة عديد من المآسى ، ويعف نفسه عن معاينة تلك المفساد المكشوفة والمحارم المثوفة ، فقد أصبحنا فى زمن وييل عليل ، ترمى صورته وحوادثه أقداء فى عيون الناظرين فتعشيبها وتدميها ؛ وتاريخ المسلمين الطويل العريض يفيض بمفاخر العطاء الأبطال من المكفوفين الذين لم تحل هذه العاهة بينهم وبين أن يكونوا فى طليعة الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء ، وما هو ذا شوقى يخاطب ملكاً مصرياً فى شأن من يضمهم الأزهر المعمور من مكفوفى الشيوخ والشباب فيقول له مشيداً بهم مفاخرأ بشأنهم :

نظراً وإحساناً إلى عميسانه وكن المسيح مداوياً ومجبراً
والله ما تدرى لعل كفيفهم يوماً يكون أباً العلاء المبصر
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد غنبا ، وجل المشتري والمشتري

وحتى لو قصر الكفيف أو تقاصر عما يسبق إليه غيره من أعمال ومهام ،
لما كان ذلك مجوزاً لنا أن نشتم معه في الحساب ، أو نغلظ له في الخطاب ،
لأن الحق تبارك وتعالى قد جعل عاقبته ومثلها مسوغاً للمعذرة وسبباً لعدم
الحرج حينما يجب أن لا يعتذر غيرهم من الناس ، فقال القرآن الكريم « ليس
على الأعمى حرجٌ ، ولا على الأعرج حرجٌ ، ولا على المريض حرجٌ » . . .
ومن ثم كان واجباً على ذى الخلق الشريف أن يحسن التصرف والخطاب مع
الكفيف ، وأن يتجنب معه ما يثير في نفسه ألم الحسرة على فقدان ما فقد
من نعمة يتمتع بها سواه ، لقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا قصيدة
يصف فيها صاحبها مدينة خربتها إغارات الأعداء ، وكان فينا رجل كفيف
حساس ، وكان في وسط القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضرير » الخطا ينقل في كل بيت قدم !

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده
فيها ، فلما انفردت به سألته عن سبب تخطيه له ، وأنا أريد أن أؤكد ظناً
كريمياً جال بخاطري عن تصرفه ، فقال : لقد لحت كلمة « ضرير » في
البيت قبل أن أنطق به ، فخشيت أن تجرح إحساس فلان ، فتخطيته ! . . .
فشكرت له صنيعه ، وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق يسرى في صفوف
الجميع ! ! . . .

ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه فلا يرى فيها من أناسها من
يستحق التأمل فيه أو الاعتماد عليه ، ولذلك جعل يقول :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم الله يعلم أنى لم أقل فنسدا
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

فكيف لو تأخر الزمن بهذا الشاعر حتى أدرك زماناً نعيش فيه بأبصارنا ،
ونحن نتمنى أن نفقدنا لنستريح من خزي ما نرى ونشاهد ؟ ماذا كان يقول
لو أدرك زماناً كهذا الزمان ، أهون ما يوصف به أهلوه قول القائل :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل فعل منكرو
وبقيت في خلف يزكى بعضهم بعضاً ليدفع معور عن معورا

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

سخرية القوي بنقص الضعيف ليست من شيم الرجل الأصيل ، والتذكير
بالعورات أو التنذر بالعاهات ليس من طبع المسلم النبيل ، والمرء يفقد
إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الأمانة بالسوء ، أن تستطيل بالاستهزاء
أو الاستخفاف ، على رجل امتحنه الله وابتلاه لحكمة يعلمها ولا نعلمها ، بعله
مزمنة أو عاهة دائمة ، وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوماً بالأجسام
أو الأشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال ، فظهروا ألسنتكم من خنا
القول وفحش التعبير ، وانطلقوا تحت لواء الله إلى دنيا عريضة من مكارم
الطباع ومحاسن الشيم وفضائل الآداب ، واتقوا الله لعلكم تفلحون .

قال عليه الصلاة والسلام : بحسب أمرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ،
كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه : إذا أخذت كريمتى
عبدى في الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة .

الإسلام اصلاح لا ثورة^(١)

الحمد لله ، هو ولي الرشاد والتوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق :
 « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » ونحن له عابدون . نشهد أن لا إله
 إلا أنت ، لا خبير إلا منك ، ولا نصر إلا بك ، ولا اعتماد إلا عليك ، وعلى
 الله فليتوكل المتوكلون . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبداً ورسولك ،
 أصلح الفساد ، وأنقذ البلاد ، وهذب العباد ، « وما أرسلناك إلا رحمةً
 للعالمين » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده
 وحزبه ، « أولئك هم المتقون » ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين .
 يا أتباع محمد عليه السلام . . .

في الأمة الإسلامية قوم تربوا على غير مبادئها السليمة وأهدافها القويمة ،
 ترونها يحسبون منها وينسبون إليها ، ومع ذلك لا يعتزون بها
 ولا يثقون فيها ، وإنما تتجه ثقتهم إلى كل شيء يأتي من الخارج ، حتى فيما
 يتعلق بالعقول والقلوب ، أو يتصل بالوقائع والتاريخ ؛ وخذوا إن شتمت على
 سبيل المثال تمدحهم الدائم المتكرر بالثورة الفرنسية ، فهم يتغنون بها في
 حفلاتهم وكتاباتهم ، ويعتبرونها أكبر حادث قرر حقوق الإنسان ، وأعظم
 ناشر لمبادئ الإخاء والحرية والمساواة ؛ وكذبوا والله ثم ضلوا ضلالاً
 مبيئاً . . . إن الشمس عند أمتهم فكيف تركوها إلى المصباح الضئيل ، وإن
 السبق لدينهم العظيم الذى ينتسبون إليه ، فكيف يقدمون عليه لاحقاً لا يسمو
 عن مرتبة الذبول ؟ . . .

لقد سبق الإسلام ثورة فرنسا هذه بأكثر من ألف عام في تقرير حقوق
 الإنسان ، ، والدفاع عنها بقوة وإيمان ، والحرص عليها مع حياطتها بعوامل
 السلام والأمان ، ولم يكتب الإسلام بالنصوص يرددها ويلقيها ، أو يسجلها

(١) القيت يوم الجمعة ١٢ شعبان سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٨ مايو
 سنة ١٩٥١ م .

ويبقيا ، بل جعلها جزءاً من العقيدة لا تكمل صلة المرء بربه إلا إذا أقامها ورعاها ، ثم طالب أتباعه بأن يجاهدوا من أجلها ، ولا يلقوا أسلحتهم إلا إذا اطمأنوا إلى تنفيذها وسيادتها ، كما وضعها أمام أبصارهم في كتابه المجيد يتلونه صباح مساء ، ويتدبرونه في كل آن ، ويعبدون ربهم بترتيله مع تطبيق ما فيه ، وليس بعد هذا تركيز أو إعزاز . . . وحسبنا في مبدأ الإخاء قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » . وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . وقوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً » وقول رسوله عليه صلوات ربه : « وكونوا عباد الله إخواناً » . وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وحسبنا في الحرية قول الرسول : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وقول عمر وهو يترجم عن روح الإسلام الصحيح : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وحسبنا في المساواة قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » وقول رسوله : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لأفضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

وهناك بعد هذا فرق جوهرى كبير جداً بين الوثبة الإسلامية والثورة الفرنسية ، يبين لكم مدى الاختلاف بين عمل الإنسان وهدى الديان ، فقد كان عمل الفرنسيين ثورة ، والثورة مؤامرة يدعو إليها الخبيثاء وينفذها الجهلاء ويخني ثمرتها الجبناء ، وكانت حركتهم حركة تمردية غاضبة صاخبة ، لا تدرى كيف تخطو ولا إلى أين تتجه ، ، فليس هناك منهاج معلوم ولا طريق مرسوم ، بل ضاقت الشعب الفرنسي من ظلم حكامه وبغى طواغيته وترف رؤسائه وفجور كبريائه ، وجاع حتى اشتد به الألم من المسغبة والحرمان ، فظن أنه

ليس هناك أسوأ مما هو كائن ، فقام يهدم ويحطم ، ويقتل ويتخلص من الظالمين بلا تأن أو هوادة ، وأسرف في ذلك إسرافاً مشيناً بلا قانون أو معدلة ؛ وشاءت الأقدار أن تنجح الثورة ، لا عن بصر من أصحابها بالعواقب ، ولا عن طريق التدرج في الخطأ والمراتب ، بل لأن الحظ كان موافقاً ؛ وانتهت الثورة بمبادئها الثلاثة التي أذاعتها فرنسا وتغنت بها ، ولكنها خرقتها ألف مرة ، ومآسيها في التاريخ الحديث مستفيضة ، وحديث الأفاعي طويل المدى . . .

وأما الإسلام فقد كان على العكس من ذلك ، لم يكن ثورة عمياء بل كان إصلاحاً مبصراً ، ولم يكن حركة تمردية تهدم وتحطم بل كان إحياء للمشاعر وبناء للمجتمع ، ولم يكن ضربة طائش غير محددة الهدف ، بل كان صراطاً مستقيماً نزل به الروح الأمين من رب العالمين على قلب الرسول الأمين ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وما أوضح الرسول وما أصرحه ، حين يهتف في قومه أول الدعوة قائلاً : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله الذي لا إله إلا هو لتموتن كما تنامون ، ولتعبنن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتعجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدأ ، أو لنار أبدأ .

جاء الرسول قومه بهدى ربه وقد بلغوا ما بلغوه من انحطاط ووبار ، فأبان لهم ما هم فيه من ضلال ، وما يجب أن يعملوا له من نجاة وخلاص ، ورسم لهم الوسائل والسبل ، وحدد أمامهم الأغراض والمقاصد من التوحيد والفضيلة والإخاء والعزة والعبودية لله وحده ، إلى آخر ما في الإسلام من مبادئ مقررّة مصورة ، وغرس الرسول بنور نبوته وتأييد دعوته ورباني كلمته هذه المبادئ في نفوس أتباعه ، حتى آمنوا بها وعاشوا لها وحرصوا عليها ،

وأيقنوا أنه لا بد للعالم منها حتى يرقى ويسعد ، فقاموا عن رشاد وسداد يجاهدون من أجلها ، ويبدلون دماءهم الزكية رخيصة في سبيلها ، حتى حققوها في ديارهم وفي الديار التي فتحوها باسم الإسلام على صورة لم تشهد لها مثيلاً في التاريخ ؛ ومن هنا يظهر الفرق الجلى الكبير بين الإسلام والثورة ؛ فالثورات الهائجة الصاخبة قد تنجح وقد تفشل ، وقد تؤدي إلى عكس المراد منها ، وأما الإصلاح المرسوم المحدد ، المؤيد بالأدلة والشواهد ، الموثوق من حقه وصدقه فهو يمشى على نور ويصل إلى بلاغ ؛ ولقد جاء الإسلام إصلاحاً يقنع العقول ويجذب القلوب ويفتح الخسوم ويرسم الطريق ، ويصنع لكل مشكلة علاجاً ، ولكل مرض دواء ، حتى ما خف من الأعراض والنوازل ، ولذلك كان من تأديب الله لرسوله في القرآن : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الإسلام القيم الذى آمنت به الملايين لا يزال هو الإسلام : « لا تبديل نخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وإن الإسلام الذى اهتدت به الملايين لا يزال صالحاً لتهتدى به ملايين أخرى ، وهو لا يأتيكم بالمشاكل مناقشاً ، ولا يدعوكم إرغاماً بل طوعاً وإكراماً ، « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » . وإن لكم في هديه لغنى عن دعوات تنهض ثم تتعثر ، وشجيرات تنبت ثم تتكسر ، وإن لكم في صلاحه وإصلاحه لوقاية من نزوات تشط وتنحرف ، أو شطحات تجرف ثم تنجرف إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعهم الله ثم إليه يرجعون ، واتقوا الله الذى أتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الإسلام دين السلام^(١)

الحمد لله عز وجل ، هو صاحب الفضل ، والامر بالعدل ، « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماً يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولي الأمر ومصدر الخير : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة ومنقذ الأمة ، وقائد الغر المحجلين يوم الدين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آل بيته ، وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته : « أولئك هم خير البرية » .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن العالم الآن على حافة بركان ، وهو يحيا فيما يشبه الحمى من القلق والكرب في الشرق والغرب ، فأجواء الدنيا وآفاقها تتلبد بغيوم كثيفة خطيرة ، تنذر بالويل والثبور ، وتهدد بالخراب والدمار ؛ منذ حين سقطت قبلة ذرية خطأ ولم تنفجر ، فتلفتت الدنيا فرعاً ، وأمسكت بفؤادها خيفة وخشية ؛ وفي مثل هذا الجو الملبد بالغيوم ، والعالم المهتد بويلات الحروب وكوارث المعارك ، يجب أن تنبعث أصوات الهدى والحكمة ، انبعث النور في الظلمات ، وأن تنبثق كلمات الدعوة إلى السلام والأمان انبثاق الماء النير يلين الصخر ويروى الجلبد ويقوى الرجاء . . . والإسلام — وهو العقيدة التي تؤمن بها ونعبد الله عليها — هو أحق الأديان والدعوات بأن يسمى دين السلام ودعوة الأمان وطريق الاطمئنان ، وإن نور السلام ليشتع في دين الإسلام حيناً وليت وأينا اتجهت ؛ يشع في مظهره ومخبره ، وفي عباداته ومعاملاته ، وفي أقواله وأعماله ، وأول ما تظالعنا من ذلك أن لفظ « الإسلام » نفسه مشتق من السلام

(١) القيت يوم الجمعة ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٣ مايو سنة ١٩٥٨ م .

« إنَّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلامُ » ، وأنَّ اللهَ الذي نزلَ هذا الدينَ وشرعه لعباده يُسمى بالسلام « هو اللهُ الذي لا إلهَ إلاَّ هوَ الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمَنُ » ، وأنَّ الذينَ يؤمنونَ به يسمونَ بالمسلمينَ « هوَ سَمَكمُ المسلمِينِ منَ قبلِ » ، والإسلامُ يدعو حينَ يدعو إلى تثبيتِ الأمنِ وتحقيقِ السلامِ : « يا أيها الذينَ آمنوا ادخلوا في السلمِ كافةً ولا تتبعوا خطواتَ الشيطانِ إنه لَكم عدوٌّ مبينٌ » ، ويجعلُ العاقبةَ هي الإنتهاءُ إلى مقرِ السلامِ دارِ النعيمِ : « واللهِ يدعوُ إلى دارِ السلامِ ويهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ » . وقد شرعَ الإسلامُ لأبنائه تحيةً متبادلةً متكررةً ، مألوفةً معروفةً ، فكانت هذه التحية هي : « السلامُ عليكم ورحمةُ الله » ، ولم يجعل تحية السلامِ مقصورةً على الحياة الدنيا ، بل انتقل بها إلى الآخرة ، فجعل التحية التي تقال لأهل الجنة هي : « سلامٌ عليكم بما صبرتمْ فنعمَ عقبى الدارِ » وتحية الله لعباده المكرمين يوم القيامة هي السلامُ « تحيتهم يومَ يلقونهُ سلامٌ » . .

ويقول القرآن : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلامٌ »
 ويقول : « خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلامٌ »
 ويقول : « يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون »
 ويقول : « وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طيبم فادخلوها خالدين »
 ويقول : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » .

وحيثما علم الإسلامُ أبناءه أن يعطوا نبيهم حقه قال لهم القرآن : « إنَّ اللهَ وملائكتهُ يصلونَ على النَّبيِّ . يا أيها الذينَ آمنوا صلُّوا عليه وسلموا تسليماً »
 أى أظهرُوا شرفه وعظموا شأنه ، وقولوا « السلامُ عليك أيها النَّبيِّ » . ونحن المسلمون نقول في التشهد من كل صلاة : « السلامُ عليك أيها النَّبيِّ ورحمةُ الله وبركاته ، السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين » . ونجد أن السلام كان لوناً من ألوان التكريم الإلهي ، فنجد في سورة الصافات هذه الآيات :

« سلامٌ على نوحٍ في العالمين » ، « سلامٌ على إبراهيم » ، « سلامٌ على موسى وهارون » ، « سلامٌ على إيلياسين » وتختتم السورة بهذه الخاتمة العامة في شأن السلام على جميع الرسل : « و سلامٌ على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » .
 وفي سورة مريم نجد القرآن يقول في شأن يحيى بن زكريا : « سلامٌ عليه يومَ ولدَ ويوم يموتُ ويومَ يبعثُ حياً » . وفي نفس السورة يقول القرآن على لسان عيسى بن مريم : « والسلامُ على يومٍ ولدتُ ، ويومَ أموتُ ، ويومَ أبعثُ حياً » .

والإسلام يعلم المسلم ألا يدخل بيتاً إلا بعد أن يؤذن فيهم بالسلام : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلكم تذكرون » وهذا السلام مطلوب من المسلم حتى ولو دخل بيوته أو بيوت أقربائه وأحبائه ، فالقرآن يقول : ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حرجٌ ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقتكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

بل علم الإسلام أبناءه أن يلقوا السلام إلقاء متاركة ودعاء بالهداية على اللائقين الجاهلين : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين » . وفي سورة الفرقان : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » .

بل وعلم الإسلام أبناءه أن يتلقوا تحية السلام ممن يلقونها ويعاملوه على أسامه دون إثارة الشك في أمره ، يقول القرآن : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في

سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً» ويحدثنا القرآن - أن إبراهيم ودع أباه الكافر بسلام التوديع والمشاركة فقال: «قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيماً» .

وحدثنا الإسلام حديث الإجلال والإكبار عن أفضل ليلة في الحياة ، وهي الليلة التي نزل فيها القرآن تحفة الرحمة وتزفه الملائكة ، وهي ليلة القدر ، فإذا من الصفات البارزة لتلك الليلة العظمى أنها «سلام هي حتى مطلع الفجر» وفي الإسلام عبادات وقواعد ؛ منها الصلاة والزكاة والصوم الخ ، وأكثر هذه العبادات وقوعاً وتكراراً في حياة المسلم هي الصلاة ، لأنها تتكرر بفروضها وسننها المؤكدة نحو اثنتي عشرة مرة في كل يوم ، ويختتمها المسلم في كل مرة بتسليمتين ، أى أنه يكرر عبارة : «السلام عليكم ورحمة الله» أربعاً وعشرين مرة في كل يوم ، والصلاة رحلة إلى الله ، يرتفع فيها المسلم إلى خياه ، وينقطع أثناءها عن شهواته ودنياه ، ثم يعود إلى هذه الحياة ، ويقبل على الدنيا من جديد ، فإذا أول شعار يلتقى به الحياة والأحياء هو : «السلام عليكم ورحمة الله» ، ولا يقول هذا عن يمينه ، بل ويقول عن شماله ليشمل بسلامه من كان هنا ومن كان هناك ؛ والمسلم أثناء صلاته يدعو ربه ويناجيه ، ويخلص خواطره لبارئه وهاديه ، ثم يقبل بعد التطهر الحسى بالنظافة والوضوء والنقاء بطهارته في جسمه وثوبه ومكانه ، وبعد التطهر الحسى أثناء الصلاة ، يقبل ليبدأ أهل الدنيا من كل نواحيها بالسلام ، كأن السلام هو ثمرة ذلك التطهير المتكرر في كل يوم مرات ومرات ، أو كأن السلام هو الهدية التي يحملها المصلى إلى الناس من لدن قيوم السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ، وبارئ الخلق أجمعين . . .

وكثير من الناس يتعارفون اليوم على اتخاذ « الحمام » شعاراً للسلام ، وقد يظن ظان أن هذا التعارف لون من الابتكار الجديد أو الابتداع الحديث مع أن أمتنا المؤمنة أسبق إلى هذا التعارف وأدنى إليه وأولى به ، فأجدادنا منذ القدم يصفون الحمام بأنه من « الطير الميامين » ، ويتخذونه شعاراً للمودة والتآلف وهذا هو حمام الكعبة والبلد الحرام مكة ، إنه ذو قدم راسخة في تاريخ الأمن والسلام ، فحمام الحرم وادع آمن ، لا يصاد ولا يهان ولا يعتدى عليه ، حتى يضرب الناس به المثل في الأمن والسلامة فيقولون : آمن من حمام مكة ومن غزلان مكة . ويقول أسلافنا القدامى : إن هذا شائع على جميع الألسنة ، لا يرد ذلك أحد ممن يعرف الأمثال والشواهد . وهذا الحمام نفسه كأنه يحس قيمة السلام فلا يعتدى ولا يجوز ولذلك روى الجاحظ أنه يبلغ من تعظيم الحمام لحرمة البيت الحرام أن أهل مكة يشهدون عن آخرهم أنهم لم يروا حماماً قط سقط على ظهر الكعبة إلا من علة عرضت له ! . وهو بأمنه وسلامه يعلم الناس كيف يكون السلام ، ويوحى إليهم بنسيان البغضاء والخصام ، ويحرضهم على السهولة والوداعة والصفاء . . . وهناك بعض المصادر في قصص السيرة النبوية تحدثنا أن الحمام كان رمز الأمان والسلام في ساعة الهول ، والفضل فهذا هو رسول الإنسانية محمد مع صاحبه الأول أبي بكر يقضيان هذه الساعة « إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » . وجاء الحمام أو الحمام واليمام والييام نوع من الحمام كما قالت اللغة ونص عليه السابقون ، فباض وأقام على واجهة الغار ، فكانت الحمامة الضعيفة الأليفة من أسباب الوقاية الربانية ومن جنود الله التي لا تعد ولا تحصى . . . بل روى بعض المؤرخين أن حمام مكة أظل رسول الله عليه صلوات الله عليه يوم فتح مكة ، فدعا له النبي بالخير والبركة ، فإن صححت الرواية كان هذا دليلاً على أن الله تعالى أراد أن يكون يوم الفتح المبين يوم أمان وسلام تظله أجنحة الحمام

وهو رمز السلام . . . وهل نسينا حمامة « القسطاط » الذى اشتهر به عمرو بن العاص فاتح مصر باسم الله وباسم الإسلام ، فقد جاءت أثناء الفتح حمامة فاتخذت من أعلى فسطاطه - وهو الخيمة - عشالها ، فلم يقبل عمرو فيها بعد أن يقوض فسطاطه حتى لا يزعج الحمامة ، بل تركه وتتابع العمران من حوله حتى تكونت مدينة القسطاط بسبب هذه الحمامة ؛ فكأن الإسلام يتبدىء تاريخه فى مصر بحمامة ، ويفتح حصونها بهذه الحمامة الواعدة ، ويرسل قصتها مع القسطاط وصاحبه مثلاً يرويه الجيل بعد الجيل ليدل على سماحة الإسلام ، ورفق أبناء الإسلام ، وانبثاق السلام أينما سار دعاه الإسلام

وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه - كما يذكر الجاحظ فى الحيوان - أنه أراد أن يذبح الحمام ، ثم قال : « لولا أنها أمة من الأمم لأمرت بذبجها ، ولكن قصوها » ونهى عثمان عن اللعب بالحمام .

وفى قصصنا الدينى القديم أن الحمامة كانت راثاً لسيدنا نوح عليه السلام أرسلها لتكشف موضعاً فى الأرض يصلح مرفأً للسفينة عقب الطوفان ، وأعطاه الله طوقها الذى فى عنقها حلية لها وثواباً على إرشادها ! ! ! .

وكان يرتفع ثمن الحمامة الواحدة فى هذه الأمة حتى يبلغ خمسمائة دينار (الحيوان ج ٣ ص ٢١٢) واستعمل أسلافنا الحمام من قديم الزمان فى حمل رسائل الود والمحبة ، لأنهم أدركوا وقرروا أنه أسرع الطيور فى التودد والتآلف ، إذ تخرج الحمامة من عشها فتلتقى بجماعة من الحمام ، فتنسى عشها وولدها ، وتصاحب رفقتها ، وقد تلقى الملاك فى سبيل إرضاء المودة فى نفسها .

ويقول الجاحظ المتوفى فى وسط القرن الثالث الهجرى ، أى منذ أكثر من ألف ومئة عام : « ومن مناقب الحمام حبه للناس ، وأنس الناس به »

ويقول : « الحمام طائر ألوف مألوف ومحجب وموصوف بالنظافة » ووصفه بالثبات على العهد ، وحفظ ما ينبغى أن يحفظ ، وصون ما ينبغى أن يصبان .

وفي حديث مرفوع - كما يروى ابن الأثير في النهاية - أن النبي صلوات الله عليه كان يعجبه النظر إلى الأترج (التفاح) والحمام الأحمر ! . . .

وقد كرر الإسلام الأمر بالعدل والدعوة إليه ، وهو بهذا يكرر الأمر بالسلام والدعوة إليه لأن العدل هو أقوى حوافز السلام ، ولأنه لو أنصف الناس استراح القاضي ، فقال القرآن : « إن الله يأمر بالعد » وقال : « وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل » . وقال : وأمرت لأعدل بينكم » وقال : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » . ومن أجدادنا أيها الناس عشرات وعشرات من الحكام العادلين الشرفاء الذين زانوا صفحات التاريخ بإنصافهم وعدالتهم ، وما نسينا بعد الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز الذي حكم الديار ووجد الأقطار وأشاع العدالة ونشر الإخاء والسلام ، حتى توسع محبوه في تصوير عدله وسلام عهده فقالوا إن الذئب كان يلقي الشاة في أيامه فلا يمساها بأذى أو سوء ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إننا نريد السلام لأنفسنا وللناس ، نريد السلام العام الشامل ، نريد هذا السلام صادراً من أعماق نفوسنا ومن صميم عقائدنا ، نابعاً من تاريخنا ومبادئنا ، منبثقاً من هدى قرآنا وسنة نبينا ، مشعراً كل الناس أنه أصل من أصولنا وقاعدة من قواعدنا ، نحن فيه أئمة أصلاء ولسنا فيه بالتابعين أو المقلدين أو الذبول ، ففي ديارنا نحن ظهر عيسى وبشر بدعوته التي كانت تحيتها « السلام لكم » ، وفي ديارنا ظهر محمد وبشر بدعوته التي كانت تحيتها « السلام عليكم » فنحن أولى الناس بدعوة السلام ، ونحن بمكانة الصدارة والأصالة حين ندعو إلى السلام ونعمل للسلام ، نعم نحن

بعقائدنا أصلاء ، فمن ذا الذى يزعم أننا دخلاء ؟ ونحن بعون الله فى الخير أقوىاء فمن ذا يريدنا على أن نكون ضعفاء ؟ نحن بديننا وإيماننا شرفاء فمن ذا يحاول أن نكون أدنياء «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» إننا نريد السلام لأنفسنا ولإخواننا وجيراننا ، ونريده للناس جميعاً ، نريده لأصدقائنا ولغير أصدقائنا ما داموا له مستجيبين ، ولكننا . . . لا نريد السلام الذليل المهين ، بل نريد السلام الإيجابى ، السلام العادل القوى ، السلام الذى لا يبغى ولا يظلم ومع ذلك يحرس ويصون ، لأن الله يقول : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» . وإذا كنا نهتف ونقول : «نصّادق من يصادقنا ونعادي من يعاديننا» فمن الميسور لنا أن نركب هذا المنهاج من هدى قرآننا .. نصّادق من يصادقنا لأن خالقنا يقول : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ونعادي من يعاديننا لأن خالقنا يقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . فلنعد إلى السلام ولنلجأ إلى رب الإسلام نجد عنده الأمان والسلام ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

الإسلام محرر الإنسان (١)

الحمد لله عز وجل ، هو ولي المؤمنين ، وقاهر الفاسقين : « فنّ أسلمَ فأولئك تحروا ورشداً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو مصدر النعمة ، وواهب الرحمة : « إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ومحرر الإنسان ، وموطد الإيمان ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يقص علينا التاريخ أن بعض الملل المحرفة كانت تقول للإنسان : « اعتقد ثم اجتهد » أى استسلم ثم استعلم وأن بعضها كانت تقول : « الجهالة أم التقوى » ولكن الإسلام العظيم جاء فقرر أن أساسه هو : « اجتهد ثم اعتقد » ، وأن عماد التقوى هو العلم والنظر ، فقال القرآن الكريم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقال : « وما يعقلها إلا العالمون » وقال : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وجعل الإسلام العقل عماد الاعتقاد وحارس الدعوة ، حتى يتحرر المرء من الإرغام والتبعية والتقليد ، وحتى لا يكون من أهل الضلال والخبال لأن القرآن يقول : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ويقول عن الذين لا يستخلمون عقولهم وقلوبهم وحواسهم في البحث والتفكير : « أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون » . وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله » وقال : « لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته : أما سمعتم قول الفجار في النار : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ؟ .

(١) القيت بمسجد الرفاعي يوم الجمعة ٢٠ من ذى القعدة سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٣ أبريل سنة ١٩٦٤ م .

والإسلام - في سبيل تحريره للعقول والقلوب - طالب الناس بأن يستمعوا لما يقال ، وأن ينظروا فيه يميزوا بين طيبه وخبيثه ، ولذلك قال القرآن : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . والحديث يقول : « الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها » ويقول : « اطلبوا العلم ولو بالصين » .
 وحين قال هذا لم تكن هناك بين المسلمين والصين علاقات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، ولكنه الهدى النبوى الرائع فى التحريض على طلب العلم والهدى والحق فى أى مكان مهما كان نائباً بعيداً .

لقد قام الإسلام على أصل جوهرى ثابت هو عقيدة التوحيد التى تعبر عنها كلمة : « لا إله إلا الله » ، وهذه الوجدانية تحرير من الخضوع لغير الله ، ومن الدل أمام أحد سواه ، فالمسلم إذا آمن بربه الواحد الأحد ، اعتر به ولجأ إليه واعتمد عليه وأخلص العبادة له ، ومن أجل هذا ألقى الله تبارك وتعالى الوساطة بينه وبين العباد ، فهم يتجهون إليه فى دعواتهم وابتهالاتهم واستعاناتهم ، فيستمع لنجواتهم ويستجيب لدعواتهم ، بلا وسيط أو شريك ، ولذلك قال لرسوله : « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي ، لعلمهم يرشدون » .

وفى سبيل إخلاص العبادة لله وحده فوض الإسلام ما ادعاه بعض البشر من سلطة دينية على البعض الآخر ، فليس لهذه السلطة فى الإسلام رسم ولا اسم ، والرسول نفسه - وهو خير خلق الله ، وأمين وحيه - مبلغ ومذكر ، وليس بمهيمن ولا مسيطر : « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » ، « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ، « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، ولا نسأل عن أصحاب الجحيم » ، « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » .

وإذا راجعنا تاريخ الإسلام وجدناه سلسلة متصلة الحلقات من المقاومة للاستبداد والمحاربة لطغيان الجبارين على المستضعفين ، وإذا كنا نرى القرآن الكريم يشن الحملة القاسية على فوعون الذي استبد وطغى ، حتى قال الناس : « أنا ربكم الأعلى » فإننا نرى المسلمين عقب هذا ينساحون في الأرض هداة محررين ، فيخلصون الناس من طغيان الأكاسرة وطمعهم الناس على عبادة النار ، ومن طغيان القياصرة وطمعهم الناس على عبادة الأبطال ، ولا عجب فهمة الإسلام هي إحقاق الحق وإزهاق الباطل : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

وإذا كان الإسلام قد حرر الإنسان في تفكيره واعتقاده من كل قيد باطل أو متابعة هزيلة ، فقد ذكره في الوقت نفسه بأن يستمسك بالحق ولو لم يجد معه كثرة تسانده ، فإن الحق لن يتقلب باطلا مهما قل متبعوه ، وإن الباطل لن يتقلب حقاً مهما كثر مشايعوه ، والرسول يقول : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت . ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ! ومن تقدير الإسلام للحرية أنه لم يرغب غير المسلمين على الدخول فيه ، ونهى عن اضطهاد الناس من أجل عقائدهم ، وسمى هذا الاضطهاد « فتنة » ، واعتبر ذلك أشد من القتل ، فقال القرآن : « والفتنة أشد من القتل » وقال : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » وقال : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . ولقد أراد رجل على عهد الرسول أن يكره ولديه على الدخول في الإسلام ، فنهاه الرسول عن ذلك مع أن الرجل قال مشفقاً : « أيدخل بعض النار وأنا أنظر يا رسول الله ؟ » . وكذلك جاءت عجوز نصرانية إلى عمر الفاروق ، وسألته حاجة فقضاها لها ، ثم عرض عليها الإسلام فأبت ، فخاف عمر أن يقال إن ذلك إكراه لها ، فقال : اللهم إني لم أكرهها ، وتلا قوله تعالى : « ولا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

ولقد ترك الإسلام غير المسلمين يعيشون في مجتمعه وتحت ظل دعوته أحراراً يباشرون عبادتهم ، ويمارسون شعائرهم ، ويأتون أعمالهم الخاصة حتى ولو كانت مخالفة لتعاليم المسلمين ، ما لم يؤثر ذلك في المجتمع ، أو يتخذ طابع البث للأثم أو الإشاعة للمنكر ، واعتبر الإسلام هؤلاء أهل ذمة وعهد وأمان ، ووضع القاعدة العادلة الفاضلة التي تقول : « لهم مالنا وعليهم ما علينا » ، وأوجب الإسلام صيانتهم ، حتى قال بعض الفقهاء : « إن عظم الذمي محترم ، فلا يكسر إذا وجد في قبره » . ونهى الإسلام عن أى لون من الألوان إلا نداء هؤلاء حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » أى غلبته وكان مستحقاً للعقاب من الله تعالى بسبب ذلك ، ولما قال الحديث : « لا يبيع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه » قال الفقهاء : يحرم بيع المسلم على بيع غير المسلم الداخل في ذمة الإسلام ، كما تحرم خطبته على خطبته ؛ وهذا مثل رائع من أمثلة العدالة والإنصاف التي ضمنها الإسلام العظيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

الحقيقة الكبرى التي لا يمارس فيها إلا غافل أو مكابر أن الإسلام حرر الإنسان في اعتقاده وتفكيره ، وفي حسه ونفسه ، وكرمه بمختلف أنواع التكريم ، ومن واجب الإنسان أن يقر لهذا الدين الإلهي الجليل بفضله ونبله ، ولو اهدت البشرية بتعاليم هذا الدين ، واعتصمت بهديه . لسعدت بعد شقاء ، واستقامت بعد اعوجاج ، « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » ونحن له عابدون . « وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

(واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجاب لكم .

اصلاح الاسلام للبشرية

الحمد لله عز وجل هو بارئ الخلق، وواهب الرزق، وابدع الحياة « إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت، ومخرج الميت، من الحى، ذلكم الله فأتى تؤفكون »؟ نشهد أن لا إله إلا الله، أمر بالعدل وهو خير العادلين، وأنصف في الحكم وهو أحكم الحاكمين، « والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ». ونشهد أن سيدنا محمد رسول الله، لم تشغله دنياه عن أخراه، ولم يناقض مسعاه تقواه، فكان أطيّب الكاسيين وأخلص العابدين، فعليه من ربه الصلاة والسلام، وعلى آله وصحبه الكرام، وأتباعه الهداة الأعلام: « أولئك لهم أجرهم عند ربهم، إن الله سريع الحساب ».

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ميزة الإسلام الكبرى أنه جاء فلم يقتل غريزة من غرائز الإنسان، بل عرفها طريقها بعد أن هدبها وأعلاها؛ ولم يصادم قوة من قوى البشرية، بل أجرأها في ميدانها بعد أن أضلح من شأنها، ولم يرخ جبله حتى يوصف بالضعف والهوان، ولم يعتسف حتى يوصف بالتعنت والتشدد، بل ما من أمر فيه طرفان للافراط والتفريط إلا اختار الإسلام بينهما طريقاً عدلاً قاصداً فيه خير الطرفين، وليس فيه من شرهما قليل أو كثير؛ والإسلام يسبق في هذا غيره من الشرائع والدعوات السابقة واللاحقة؛ ولندكر على سبيل المثال أنه لما فسدت النصرانية في روما قبل قبيل الإسلام، واختلطت بالوثنية الياضية والمادية الطاغية، حاول بعض أديان أن يعالجوا ذلك بالرهبانية المسرفة في الزهد والعزلة والحرمان، فدعوا إلى تعذيب الجسد، وتجويع

البطن ، وترك الزواج والقرار من النساء مع المبالغة في احتقارهن ، وترك الجسم بلا نظافة ، حتى عدوا غسل البدن جرماً ، وعاش بعض الرهبان دون أن يغسل رجله طيلة عمره ؛ فكان من نتيجة ذلك أن فسد المجتمع وانتشرت الأمراض ، وتقطعت العلاقات وساءت الحال ؛ ولم تستطع الرهبانية المبتدعة التي لم يكتبها الله على الناس كما يقول القرآن أن تصلح ما انتشر من المادية ، بل بالعكس قتلت الهمم والعزائم ، لأنها أوجدت بترمتها وتعتها رد فعل كان شديداً جامحاً ، فترك الناس أشباحاً بلا أرواح ، وأجساداً لا تفقه للحياة معنى ، ولا تعرف للوجود قيمة ، ولم يكن هناك مفر من ذلك ، لأن كبت الطبيعة البشرية سفه وضلال ، كما أن الخضوع لها مع إطلاق العنان أمامها بلا حساب لإسراف وفسوق ؛ ويجوار ذلك أدت هذه الرهبانية إلى تحلل شنيع في الأخلاق والغرائز ، لأن الرهبان كانوا منعزلين في الصحارى يرهفون أنفسهم وأتباعهم بهذه العزلة وذلك الجمود ، وكلما رآهم عامة الناس في هذا الجمود الشديد المنفر عاندوهم وأسرفوا في شهواتهم ، إذ لم يطبقوا أسلوبهم العنيف ، ومن هنا حدثنا التاريخ بأن الرهبانية سارت مع الخلاعة والفجور جنباً إلى جنب ؛ فلا صلاح ولا إصلاح . . .

ثم جاء الإسلام على أعقاب هذا الفساد المركب ، فلم يرض عن أى شطر من شطريه ، بل أصلح هذا وقوم ذلك ، واتخذ لنفسه صراطاً مستقيماً بين الإفراط والتفريط ، وجعل أمته وسطاً ، فلا تخمة ولا جوع ، ولا رهبانية ولا إباحية ، بل عبادة وعمل ، وجهاد ومتاع ، وصلاة يعقبها سعى في سبيل المال والرزق : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » . . .

جاء الإسلام فوجد في الغرب شجاعة يسيئون استعمالها في حروب السلب والنهب والعدوان ، فلم يحارب الشجاعة ، بل امتدحها ، ثم أحسن توجيهها

إلى الجهاد في سبيل الله ، وفتح الأمصار على كلمة الله ، حتى صار أحدهم يتحرق شوقاً وهو أعرج إلى الاستشهاد في الجهاد قائلاً : « إنى أريد أن أطأ بعرجتى هذه في الجنة » . ونرى آخر يسمع أن الشهادة في الجهاد هي أقصر طريق إلى الفردوس ، وفي يديه تمرات يريد أكلها ، فيرمى بالتمرات ويسارع إلى موطن الجهاد قائلاً : « لئن صبرت حتى آكل هذه التمرات لإنها إذن لحياة طويلة ثقيلة » .

وجاء الإسلام فوجد للعرب اجتماعات واحتفالات كانت تعقد للمفاخرة الكاذبة والاشعار العابثة ، فأبقى على الرغبة في الاجتماع ، ولكنه حول هذه الاجتماعات إلى صفوف متراسة في صلاة الجماعة والجمعة والعيدين والحج الأكبر ، وإلى حلقات متلائمة لطلب العلم أو الشورى ، وقرر أن « يد الله مع الجماعة » ، وأن أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه « لا تجتمع على ضلالة » . . .

وجاء الإسلام فوجد في العرب ميلاً فورياً إلى الكرم والإعطاء ، ولكنهم كانوا يريدون بذلك أن يمتدحهم الناس ، وأن يصنعوا فيهم القصائد والخطب ، وقد لا يحسنون في هذا الإعطاء بسبب ذلك البلاء ، فحول الإسلام هذا الكرم في الانفاق إلى سبيل الله والمستضعفين ، وذلك بتنظيم الزكاة والصدقة والإحسان ، حتى أعد الله جنة عرضها السموات والأرض « للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » والله يحب المحسنين . . .

وجاء الإسلام فوجد غرائز منطلقة وشهوات مجنونة ، فلم يحاربها بالرهابية لأنه « لا رهابية في الإسلام » ؛ بل نظمها وأعطى كل غريزة منها قسطها الذي تعبر به عن نفسها ، وفي الوقت عينه تؤدي وظيفة أخرى لها فائدتها ومكاتها في إصلاح الفرد أو المجتمع ، فنظم شهوة الجنس بالزواج ، ونظم

شهوة البطن بالطعام الطيب والشراب الحلال وحينما شرع الصوم وهو تأديب بالجوع شرعه للقادر المستطيع وأباح لصاحب العذر كالمريض والمسافر والحامل والمرضع والشيخ القانى أن يفطر ، ونظم شهوة الربح بالتجارة والزراعة والصناعة والاحتراف ، ونظم شهوة الاستطلاع بطلب العلم والاعتراف من أنهار المعرفة ، بل ونظم الإسلام شهوة الزهو والافتخار ، فلم يمنع المسلم من أن يفخر في مواطن الحق والصدق ، وقد روى أن الرسول أمسك سيفاً وقال لصحابته : من يأخذ هذا بحقه ؟ . فقال صحابى : أنا يارسول الله ؛ فأعرض عنه ؛ ثم قام ثان فقال : أنا يارسول الله ؛ فأعرض عنه ، ثم قام ثالث فقال مثلاً قال صاحبه فأعرض عنه ، ثم قام الصحابى الجليل أبو دجاجة فقال : وما حقه يارسول الله ؟ . حقه أن تقاتل به فى سبيل الله حتى تقتل أو يتكسر . فقال : أنا آخذه بحقه يارسول الله . فأعطاه الرسول إياه ، فعلقه أبو دجاجة فى وسطه ، ومشى به متبختراً مزهواً بين الصحابة ، فنظر إليه الرسول مبتسماً وقال : إنها مشية يكرهها الله إلا فى مثل هذا الوطن يا أبا دجاجة ! . . . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الغيرة ما يحب الله ، ومن الغيرة ما يبغض الله ، وإن من الخيلاء ما يحب الله ، ومنها ما يبغض الله ، ، فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، وأما الغيرة التى يبغض الله فالغيرة فى غير الريبة ، والخيلاء التى يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال ، واختياله عند الصدقة ، والخيلاء التى يبغض الله فاختيال الرجل فى الفخر والبغى » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هذا هو الإسلام الذى أنعم الله به أولاً على العرب ، فجمعهم بعد شتات ، ووحد صفوفهم بعد فرقة ، وصنع بهم الأعاجيب ، وخلق على أيديهم وهم الأتلاء الضعفاء عالماً جديداً يفيض بالخير والنور والجمال ، وجدد بهم شباب

الزمان فعاد ناضراً باهراً له قيمته ومعناه ، ولا يزال الإسلام العالمى الخالد صالحاً لكى يجمع ويوحد ويصنع بالحكمة والموعظة الحسنة ومحتاجا إلى قوم يدرسونه على بصيرة ، ثم يفهمونه عن تدقيق ، ثم يعتقدونه بيقين ، ثم يلتزمون به فى أنفسهم على مكث ، ثم يحملون الناس عليه بالحكمة والموعظة ، وان يرد الله بنا خيراً اليوم أو غداً يجعلنا من طلائع هؤلاء ، ويدفعنا إلى ساحة هذا الميدان : وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبلَ فتفرقَ بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الإسلام والصدقة

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أبدع الكائنات بقدرته ، وسوى أمور الخلائق بحكمته ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، الحق كتابه ، والعدل بابه ، وهو أحكم الحاكمين ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، ربى فأحسن التربية ، وعلم فأتقن التعليم ، فكان إمام الأنبياء وقائد الحكماء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « فأولئك تحروا رشداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

« إن الرائد لا يكذب أهله » . هكذا حدثتنا السنة النبوية المطهرة ، ومن يخطب الناس كل جمعة لا بد له أن يكون صادقاً معهم ، لا يكذبهم ولا يخدعهم وجرياً على هذا السنن أذكر أن أحد الإخوة المصلين الفضلاء لقينى منذ أيام ، وقال لى : لقد أكثرت من أحاديث الفداء والوفاء ، والكلام عن الشهادة والشهداء ، وقد مل الناس هذا اللون من الكلام ، فهلا غيرت ونوعت ؟ . وقد شكرت له قوله ، ووعدته أن أفعل ، ومع ما أحسسته حينئذ وبعثت من دواعى الشجى ولو اذع الأسى ، قلت فى نفسى : جرب ولو إلى حين ، وإذا لم يكن لك قومك كما تريد . فكن لهم كما يريدون ، وفوق تدبيرنا لله تدبير . ثم لا أدرى كيف خطر ببالى قول سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « لا تحمل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرة سوى » . فقلت لنفسى : فليكن هذا الحديث العظيم موضوعاً لخطبة .

القيت يوم الجمعة ٢٤ من شوال سنة ١٣٩٢ الموافق اول ديسمبر سنة ١٩٧٢

إن كلمة « لا تحل » في الحديث تذكرنا بالحلل وهو ضد الحرام . وقد دعا القرآن أبناءه إلى إثبات الحلل وترك الحرام ، فذكر أن النبي (ص) قد جاء لكي « يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » وقال التنزيل : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » وقال : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفؤا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى » ، ولقد أصبح الحلل غريباً بين أدياء الإسلام ، وكأنهم نسوا قول المصطفى : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » . وكلمة « الصدقة » يراد بها الزكاة ، سواء أكانت مفروضة واجبة ، أم كانت تطوعاً مسنونة ، ولقد قال النبي لمعاذ : « أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » . وكذلك قال القرآن المجيد : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » . ولقد انحرف معنى « الصدقة » في تصور كثير من الناس ، فحسبوا مقصورة على تلك القروش القليلة أو المساعدات الضئيلة التي تقدم لمن يمدون أيديهم للسؤال والاستجداء ، مع أن كلمة « الصدقة » مشتقة من مادة « الصدق » فكان إخراج الزكاة تدليل على صدق الإنسان في إيمانه وإحسانه ، ومن هنا جاءت كلمة « الصديق » ، فليس « الصديق » كما يفهم الكثير هو من يكثر ترديد التصديق بلسانه فحسب ، وإنما هو من يقرن التصديق بالتطبيق ، والكلام بالالتزام ، والقول بالعمل ، فالصديق هو كثير الاستجابة الفعلية للغير ، وهو الذي تكثر منه الشواهد الواقعية والدلائل الملموسة على أنه صادق في إيمانه وطاعته ، ولذلك قال البصراء من العلماء إن الصديق هو الذي يصدق قوله بالعمل .

وكلمة « لغني » تذكرنا بالغنى ، وكثير من العامة يحسبون أن الإسلام ينظر بعين الكراهية والمقت إلى الغنى وأهله ، مع أن الغنى في حد ذاته

قد صار حملاً ، وأن الثائر الأحمر قد أصبح ملاكاً ، وأن الذى استبد بملايين كثيرة من المسلمين فاحتل ديارهم وسامهم الخسف والهوان قد أعطى هؤلاء حرياتهم وجعلهم يتقلبون فى جنات وفراديس ، ثم شاءت عناية الله ودقيق صنعه لدينه وعباده أن تلتى الشيوعية قناعها وتبدأ مع العروبة والإسلام صراعها فإذا الاحتلال الشيوعى يبدأ زحفه ، وإذا الإلحاد المادى يكشف عن حقيقته وإذا القرآن والدين والعلماء والأخلاق والحريات تتعرض لما تتعرض له على أيدي الشيوعية ودعاتها والمخدوعين بها ، وهنا أدركت الأمة أنه لا بد لها من التكتل. ضد هذا الخطر القديم الجديد ؛ واستبان للناس أن هذا الخطر لا يقاومه ولا يقضى عليه سوى الدين والإيمان بالله والاعتصام بالعقيدة التى تصل أسباب الإنسان بقيوم السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . . .

ومن عجيب صنع الله لدينه وقرآنه أنه قد صرح بضرورة الرجوع إلى الدين الذين كانوا يؤمنون به والذين كانوا يعرضون عنه أو يسخرون منه ، ورأينا الجميع — إما بطريق الإيمان أو بطريق المتابعة والمداهنة ، أو بطريق الخوف والرهبة — ينادون بالرجوع إلى الله ، والاعتصام بالدين ، والمسارعة إلى التعبئة الروحية لتقف فى وجه هذا الطوفان الشيوعى الإلحادى المادى ، وأقيمت لذلك مؤتمرات وندوات وهذا رجل يذيع عنه الناس أنه معروف بجرأته على الدين ومناهضته لرجالها ، يقف بين الجموع فيمجد الدين ويطالب بالرجوع إليه ، ويرفع شأن العقيدة ، ويظهر ألمه البليغ من التناول على القرآن ، ويقرر على مسمع من الناس أن الدين هو المقوم الأكبر للقومية ، وأن الإيمان بالله واليوم الآخر هو عماد الأمة وسنادها ، حتى عجب الكثيرون عندما سمعوه ، وقال البعض : إن كان هذا عن إيمان ويقين فلعلها رجعة أقبلت أو توبة جاءت ، وإن كان يصانع ويداور فيالقسوة الحكم على الإنسان إذا الريح مالت مال حيث تميل ! . . .

ثم جاءت في ختام الحديث كلمة «سوى» ومعناها الشخص المستوى الخالقة الذي لم يعرض له نقص حسى ، ولا عاهة مستمرة ، لحلف البصر والعرج والمرض الدائم ونحو ذلك ، عند هذه الكلمة ينبغى أن نفهم أمرين : أولهما أن الإسلام يجبب الإنسان في احتفاظه بصحته وأعضائه سليمة قويمه . حتى تكون أداة للعمل والكسب والإنتاج ، والآخر أن الإسلام يعنى برعاية أصحاب النقص الحسى والعاهات البدنية التي تحول بينهم وبين سهولة الحصول على مطالب العيش وحاجات الحياة ، ولذلك نظر القرآن إلى هؤلاء نظرة العطف والمعاونة ، فقال : « ليس على الأعمى حرجٌ ، ولا على الأعرج حرجٌ ، ولا على المريض حرجٌ » ونظر إليهم كذلك نظرة التقدير والصيانة ، وحسبنا في ذلك أن نسمع قول خالقنا جل جلاله : « عبسَ وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدرك لعله يزكى ، أو يذكر فتتفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك الا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة . »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، هكذا تحدث رسولكم حديثاً وجيزاً ومختصراً : « لا تحمل الصدقة لغنى ، ولا لدى مرة سوى » . ولكن التدبر في هذا النص الوجيز يثير في الأذهان كثيراً من الخواطر والعبر ، وإذا كان أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، فإن خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم القائل : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً ، كتاب الله وسنتي » .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الإسلام وروابط المجتمع

الحمد لله عز وجل ، هو رحمن الدنيا والآخرة ، وقيوم ، السموات والأرض ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، القائل له ربه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وأنصاره وأهل صحبته ، والقائمين بأمر دعوته ، « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

لقد جاء الإسلام ليوثق علاقة المؤمن بالمؤمن على أكرم أساس ، وفي ضوء أظهر نبراس ، ومن أجل هذا أقام مجتمعه على أساس « الأسرة » باعتبار أنها اللبنة المتينة الحصينة التي تجعل روابط هذا المجتمع عميقة وثيقة ، لأن الأسرة تتكون من شريكين يرتبطان بعقد توثقه كلمة الله ، ثم تكون للزوجين حياة مشتركة ، وعواطف متجاوبة ، ثم تكون لها ذرية تزيد روابط الأسرة وثاقاً وعمقاً ، ولم يجعل الإسلام معنى « الأسرة » مقصوراً على حياة هذين الشريكين وبيتهما ، بل علم أبناءه أن ينظروا إلى الحى أو القرية أو المدينة على أنها « أسرة » أكبر نوعاً ما من أسرة البيت ، وأن ينظروا إلى أمتهم المؤمنة على أنها الأسرة الكبيرة الواسعة النطاق إنما المؤمنون أخوة وأن الإنسانية أو البشرية هي الأسرة الكبرى التي تنتهى إليها غاية الإنسان وعزيمته بعد أن يكون قد أدى ما عليه من واجبات وتبعات نحو ما يسبق هذه الأسرة

القيت في يوم الجمعة ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٨٤ الموافق ٥ مارس
سنة ١٩٦٥ م

الكبرى من أسر أخرى أضيق منها نطاقاً ، وهى بحكم ضيق نطاقها ، وبحكم قربها من صاحبها أولى بالتقديم والعناية والاهتمام ، ولذلك قال رسول الإسلام : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ، ثم قرر أن الأقربين أولى بالمعروف ، ثم أوصى بالجار القريب والجار البعيد ، ثم قرر أن المؤمنين أخوة ثم قرر أخيراً أن خير الناس أنفعهم للناس .

ولتوثيق الروابط الإنسانية بين الأفراد شرع الإسلام نظام « الميراث » الذى يحفظ كيان الأسرة ويدعمه ، ويوثق الروابط بين الأقرباء وشرع نظام النفقة « بين الأصول والفروع أو بين الأقارب ليحقق التكافل بين هؤلاء وهؤلاء ، وشرع نظام « الحضانة » الذى يصبون الطفولة من التشرّد والضياح ، وشرع نظام « الوصاية » على القاصر ، لكى يتصرف الوصى الرشيد بدله تصرفاً سليماً حكيماً يودى إلى خير القاصر وحفظ ممتلكاته وتثمين أمواله ، فإذا كبر القاصر أدرك أن سابقه قد صنعوا معه الجميل فيقابلهم بمثله « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ، وشرع نظام الحجر على السفیه الذى لا يحسن التصرف حتى لا يبدد ماله ولا يضيع ثروته ، وهناك نظام « الكفالة لليتم » و « الكفالة للقيط » و « الضيافة للغريب » و « الإرشاد للضال » ، وكل هذه نظم اراد الإسلام بها أن يعمق الصلات بين الفرد والفرد ، وأن يقيم العلاقات بين أبناء الأمة على أسس من الأخوة والمحبة والتعاون على البر والتقوى .

ولتوثيق هذه العلاقات شرع الإسلام آداباً وقواعد للمعاملة الاجتماعية الحميدة فى الأمور الكبيرة والأمور الصغيرة ، حتى شملت هذه الآداب النظرة واللفتة والكلمة والتحية وهيئة الحركة ، فالإسلام يحث المسلم مثلاً على أن يحسن القول ويبدل التحية لمن يلقاه عرفه أم لم يعرفه حتى يشيع التعارف والتآلف ، فيقول سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام » . ويجرضه على مصافحة معارفه

حتى يتأكد الود بينه وبينهم ، وتزول عنهم ما قد يكون غائماً في أفق صلاتهم وروابطهم ، ولذلك يقول الحديث : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا » . ويحرضه على أن يتذكر دائماً أنه ليس وحده في بيئته ومجاله ، بل هناك من قد يكون أحق بسبقه في ركوب أو نزول أو مسير أو تناول شيء من الأشياء ، إلى غير ذلك من الأوضاع . وها هو ذا القرآن يعلم أهله مثلاً أن يوسعوا في المجلس أو يخلوا مكاناً فيه لمن يستحق التوسعة أو النهوض ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيلَ لكم تفسحوا في المجلس (أى توسعوا فيها) فافسحوا يفسح الله لكم ، وإذا قيلَ لكم انشزوا (أى انهضوا) فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ ، والله بما تعملون خبير » .

والحديث النبوي يعلمنا في هذا المجال أن نكرم الشيخ الطاعن في السن ، والمرأة العجوز أو الحامل ، والضعيف مهما يكن ، فيقول : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قبض الله له من يكرمه عند سنه » أى عند شيخوخته ، وفي رواية : « من أكرم ذا شبية سخر الله له من يكرمه عند شببته » ويقول الحديث : « الضعيف أمير الركب » ويقول الحديث : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر » . ويعمم الرسول الحث على الرحمة والرفق بالضعفاء وتقديم من يستحق التقديم فيقول : « الراحون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ، ويوسع الإسلام باب الإحسان في المعاملة ويسر أسبابه ، فنجد الرسول صلوات الله وسلامه عليه يخبرنا بأن الكلمة الطيبة صدقة ، وأن التبسم في وجه الإنسان صدقة ، وأن الإرشاد إلى الطريق صدقة ، وأن إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وأن إعطاء القليل من الماء صدقة ؛ وكأن الإسلام بهذا يريد

أن تتحلى كل ألوان المساعدات للناس بحلمية إلهية ربانية تؤدي إلى جمالها وبهاؤها في الدنيا ، وإلى حسن الثواب عليها في الآخرة .

ومن حرص الإسلام العظيم على توثيق الروابط الكريمة بين الناس أنه دعا إلى معاونة الإنسان غيره للاستقامة في السلوك والتحلى بالمكارم ، وذلك عن طريق النصح الرقيق والتوجيه الرفيق ، ومن هنا قال سيد البشرية محمد عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة وقال : « المؤمن مرآة المؤمن » وقال : « إن أحدكم مرآة أخيه ، فإن رأى به أذى فليمطه عنه » . ومن ألوان التعاون على هذه الاستقامة أن يحسن المرء الإغضاء عما يقع فيه صاحبه من هفوة أو خطأ ، فالحديث يقول : « من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة » ويقول : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ويقول : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تتبعوا عورات الناس ، فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ففضحه ولو في عقر بيته » . ولا يكتفى المسلم في هذا الباب بالإغضاء عن الزلة ، أو العفو عن الخطأ ، بل هو لا يتيح الفرصة للمفسدين كي ينالوا الناس بالتجريح أو الافتراء ، فما أوسع باب الشرف في هذا المجال ، والحديث يقول : « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فليكن الإنسان منا في هذه الحياة بحسن معاملته للناس ، وجميل سلوكه معهم - ورده تنفح غيرها بالشذا الطيب والعبير اللطيف ، فإذا رآها الناس شغفوا بها وحرصوا عليها ، وإن غابت عنهم تطلبوها وسعوا إليها ، « وإن الله لمع المحسنين » واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

مؤامرات ضد الاسلام

الحمد لله عزّ وجلّ ، هو يمهّل ولا يهمل ، ويحلم ولا يغفل : « ومكروا ومكرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكِرين » ، « واللهُ أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً » ... نشهد أن لا إله إلا أنت ، كتبت العاقبة للمتقين ، وجعلت الخسار للفاسقين : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » . ونشهد أن سيدنا محمداً عبداً ورسولك ، بعثته بنور الإيمان وشرعة الإحسان : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله مصابيح الخير والرحمة ، وأصحابه الأعلام الأئمة ، وأتباعه الهداة للأمة : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولاً ، وبالقرآن هادياً وإماماً ؛ لم يحملنا على ذلك إرغام ولا إكراه ، ولم يخامرنا في ذلك ريب ولا اشتباه ، بل آمننا بأن هذا هو الدين القيم الذي يجب أن نحياه وأن نلتقى الله عليه ؛ ولذلك كان من حقنا - بل من واجبنا - أن نغار على هذا الدين ، وأن نذود عنه سهام المفترين ، وأن نحذر فيه تضليل المخادعين . ولكن يظهر أن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام يفرطون في حقوقهم كما ينسون واجباتهم ، فهم يرون المكائد السافرة المنظمة المتلاحقة المنصبة على هذا الدين ، وهم في غمرة ساهون ! . . .

ألقيت في يوم الجمعة ٢٣ من ذى القعدة سنة ١٣٧٦ هـ الموافق
٢١ من يونيو سنة ١٩٥٧ م

(م ١٤ - خطب ج ١)

إن أعداء الدين الكبار والصغار يعملون بمجد ومكر على تحوير هذا الدين ،
وتسخيره للأهواء والرغبات ، وإخضاعه وهو هدى الله العلى الأعلى للحياة
الدنيا ، بدل إخضاع هذه الحياة لتعاليم هذا الدين السمح الكريم ، وكلما راجت
عندهم بدعة أو بلوى ، وراقت لشهواتهم ولذاتهم ذهبوا يفتصبون لها الفتوى
من الدين فى شطط وتكلف ، ويتأولون فى الرخص ويتوسعون فيها ،
ويأخذون بالآراء الشاذة والأقوال الباطلة والفتاوى الكاذبة أو المتهاكة ضعفاً
لا لضرورة ملحة ولا لمصلحة عامة لازمة ، بل لأن الهوى يريد ، ولأن الشهوة
تتحكم ، ولأن الاجلال لحق الله تبارك وتعالى ينكمش فيهم ويتضاءل ،
وهم يضحكون أهل الأرض حينما يستغلون نصوص الدين بعد تحريفها عن
مواضعها استغلالاً وقحاً ذنبياً فى تبرير وتسويغ منكراتهم ، وحينما يسخرون
باقتدارهم المختلف الألوان بعض المنتسبين إلى الدين لكى يأتوهم - بالفتوى
المصطنعة أو التسويغ الدينى المراد ، ومعنى هذا أنهم يريدون أن يجعلوا الدين
تابعاً للهوى ، لا أن يجعلوا الهوى خاضعاً للدين ، مع أن الرسول صلوات الله
عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ، واتباع الهوى
بهذه الصورة باب للكفران بالله « رأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ أفأنت تكون
عليه وكيلاً ؟ » « قل لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين » ! .

وترون أعداء الدين يقولون : « ليس فى الإسلام رجال دين » ، وهى
كلمة حق فى ظاهرها يراد بها باطل خطير فى باطنها ، فهم يريدون من وراء
ذلك أن يقولوا : « ليس هناك دين » ! . نعم إن الإسلام لا يعرف طائفة
خاصة لها سلطة روحية خاصة ، أو سيطرة دينية خاصة تعرف باسم « رجال
الدين » على النحو المعروف فى بعض الديانات ، ولكن الدين بحاجة إلى رجال
يدرسون مسائله ، ويفقهون تعاليمه ، ويبلغون للناس أحكامه ، وللإسلام علوم
تحتاج إلى جهد وتفرض ، فالتفسير والحديث والفقهاء والسيرة وآراء الدين فى

مشكلات الحياة ، كل هذه أمور عميقة واسعة تحتاج إلى صبر وعكوف ، والله سبحانه يوصينا بأن نسأل في الدين من له خبرة به . « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، « الزمخني ، فاسأل به خبيراً » ، « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

ونحن نعيش في عصر التخصص ، والناس يتادون بالتخصص في كل نواحي الحياة ، ويحاربون اعتداء أي طائفة على اختصاص طائفة أخرى ، فالأطباء مثلاً جماعة لا يزاول عملها من لم يتخصص في الطب ، ولو باشر أحد من الناس عملاً من أعمال الطبيب لتعرض للمحاكمة وناله العقاب ، وكذلك لا يجوز لغير المحامين أن يترافع في القضايا ، ولا يغير الصيدليين أن يجهز دواء ، ولا لغير الضباط أن يلبس ملابس الضباط فضلاً عن أن يباشر اختصاصهم ، فلماذا إذن لا يكون هناك متخصصون في الفتيا والدراسات الدينية وإذا لم يكن في الإسلام « رجال دين » بالمعنى الذي ذكرنا ، فلماذا لا يكون هناك في الإسلام « علماء دين » ؟ ! .. هنا يقول لك الماكرون المخادعون من أعداء الله وأعداء ملته : لالا . . . إن الدين ليس احتكاراً لأحد ؛ ويبيحون لكل من هب ودب — من هب هبوب الذباب أو دب ديبب الخنفساء — أن يقول في الدين بما يشاء ، وأن يكتب وينشر ويذيع أفكاراً وفتاوى دينية ما أنزل الله بها من سلطان ، وكلما حاول غيور أن يقف في وجه هذا البلاء ثاروا ثورة الحمر الوحشية ، وتباكوا على حرية الرأي والفكر ، وهم في الواقع يريدون ألا يكون هناك من يغار على حرمة الدين أو يدافع عنها ، حتى إذا لم توجد هذه الطائفة المناهضة لباطلهم المذكورة بحقوق ربهم ضاع الدين بين الجميع كما يحلمون ، ويقدرون فتضحك الأقدار : يريدون ليظفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » ! ! . .

ومن أجل هذا الغرض الخطير الخبيث ترونيهم يهاجمون الأزهر الشريف في كل مناسبة ، ويحملون على علمائه وأهله حملة شعواء بلا رفق أو استثناء ، ويهضمون حقوقهم ، ويفترون عليهم بالباطل ، ويعوقونهم عن أداء رسالتهم بشتى الوسائل ، ويسترون ذلك باسم الإصلاح والتجديد والتطور ، وهم في الواقع يريدون أن يهدموا الحصن الأخير للإسلام ، وهو الأزهر الذى طاول القرون ، وعاش أكثر من ألف عام باسم الإسلام ، وانكش في فترات الظلمات والانحطاط على التراث الإسلامى والثقافة العربية فحفظ لنا هذا الميراث الروحي العلمى الضخم الجليل . . . الأزهر صاحب الفضل علينا وعلى الناس جميعاً ، والذى نعي "من ساحته مشاعر المسلمين وعواطفهم كلما ألت بساحتنا ملمة ، والذى نعيش على حسابه وبفضل سمعته في سائر بلاد الإسلام ، ومع ذلك يحاربه فينا محاربون ، ويحمل عليه حاملون ، ويزيد في بلاياه وأسباب عجزه وتأخره عن أداء رسالته كثيرون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! ! ! . . .

وكان هؤلاء لم يكفهم أن الطوفان المدنى الاجتماعى قد اكتسح في طريقه كتابت تحفيظ القرآن الكريم ، فتضاءلت وانكشفت وقاربت أن تودع ، وقد كان الطفل في البيت المسلم يفتح أذنيه أول ما يفتحهما على القرآن ، ويحرك شفثيه أول ما يحركهما بحفظ سوره ، فالبيت المسلم حينئذ تتردد فيه الآيات كل صباح ، وكتاب الحى يتلقف الصبيان من أول الطريق ، فجاء أعداء الدين فلفتونا عن قرآن ربنا بقصصهم الداعرة وكتبهم الماجنة وصحفهم المتحللة ودعواتهم الإلحادية السافرة وثقافتهم الرقيقة المرقعة : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » ؟ ! .
واستغل هؤلاء موضوع المرأة ، لعلمهم أن المرأة هى ذات الأثر والخطر . وأن المثل يقال عند كل حدث : فنش عن المرأة ؛ وتعللوا أولاً بأنها مهضومة الحقوق مظلومة ، فقلنا : الإسلام يطالب بإنصافها ، وتعللوا بأن الرجل

بينها ويحتقرها ، فقلنا : نبي الإسلام يكرمها ويقول النساء شقائق الرجال ، وتعللوا بأنها جاهلة ، فقلنا : الإسلام يوجب عليها العلم بما يجب العلم به . . . ثم استغل الشياطين الماكرون موضوعها بعد ذلك في خبث عميق واسع ، فغرروا بالمرأة المسكينة ، ودفعوا بها إلى المعاطب والمهالك ؛ فلم تتعلم المرأة حقاً ولم تهذب صدقا عن طريقهم إلا في القليل النادر ، ولكنها في الأعم الأغلب أطلقت ساقها للريح - إلا من عصم الله وهن قليل - فتعرت المرأة باسم دعوة الحرية وتجردت ، ورقصت ودخنّت ، وسكرت وعربدت ، وتناولت المخدرات وخادنت ، وتاجرت بجسمها وخانت ، وأسرفت في تحررها وتبجححت ، فلم يثق بها الرجل ، ولم يسعد بها البيت ، ولم يصلح بها المجتمع ، ولم تسعد المرأة نفسها بذلك الانطلاق الجارف ، بل شقيت جزاء ما أسرفت ، ولم يكن هذا الاستغلال للمرأة من أعداء الدين إلا نوعاً خبيثاً من الهدم لتعاليم ذلك الدين ونظمه ، لأن المرأة المتهدمة الأخلاق والفضيلة هي العوبة الشيطان الخطيرة . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، يا أبناء الإسلام ، يا رواد المساجد وألاف المعابد ، يا بقايا الخير في حنايا المجتمع الصاحب . . .

ماذا يراد بالإسلام من وراء هذه الفتن المتلاحقة التي تصب عليه صباً كأنها قطع الليل المظلم ؟ . . . وكيف تتفق هذه المحاربة السافرة الفاجرة للإسلام مع أن المجتمع مسلم يؤمن بأناؤه بدينهم ، ويقررون أن عقيدتهم أعلى شيء عندهم ، وأن من يحاربها يكون خارجاً على هذا المجتمع ، ومتمرداً في وجه نظمه الأساسية ؟ . . اللهم إنه لم يبق إلا أن نتواصى بالصبر ، وأن نقف بجانب الخير ولو قل ، وأن نأخذ الطريق على الشر ولو كثر : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون » .

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

الإسلام والحركة الكشفية

الحمد لله عز وجل ، بديع السموات والأرض ، خلق الخلق وأجرى الرزق ، وهو خير الرازقين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أمر بالحق والعدل والخير والاستقامة : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا إنه بما تعلمون بصير » . وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله ، إمام المرين وقائد المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

تلقيت منذ أيام رسالة من نائب وزير التربية والتعليم يقول فيها إنه حضر معسكرا كشفياً جامعاً ، وإن الحديث دار فيه عن نشأة نظام الكشافة ، وقد وجدت هناك فكرة شائعة عند الكثيرين وهي أن الأوربيين هم أصحاب الفضل في ابتكار هذا النظام ، ودعاني إلى بحث هذا الموضوع لتبيان الحق فيه ؛ وإن أصدق عبارة تردد هنا هي قول القرآن : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . فإذا كان نظام الكشافة يراد منه تعويد الناشئة مصادقة الطبيعة فإن أجدادنا قد عرفوا هذه الصداقة بعمقها واتصالها ، حيث عاشوا في الجزيرة يسامرون مشاهد الكون من سماء وهواء ، ومن نجوم وسحب ، ومن أمطار ومياه ، ومن نبات وحيوان ؛ ولما أشرق الإسلام زكى هذه الصداقة ، فاعتبر الطبيعة كتاباً منظوراً لله تعالى بجوار كتابه المقروء وهو القرآن ، وقال حجة الإسلام الغزالي عن الطبيعة إنها « الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات »

(١) القيت في يوم الجمعة ٢٠ ربيع الآخر سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٦٤ م

وقال محيي الدين بن عربي إنها « المصحف الكبير الذي تلاه الحق علينا تلاوة حال كما أن القرآن تلاوة مقال ». واتسع صدر القرآن للحديث حديثاً واسعاً عن الأرض والسماء والليل والنهار، والنجوم والكواكب، والرياح والأمطار، وغير ذلك من آيات الله في الكون، وأشار إلى أن هذه الآيات هي المفتاح الموصل إلى معرفة الإله المبدع، لأن الخلق يدل على الخالق، ولأن الصنعة تشير إلى الصانع :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد !

وينص قانون هذا النظام على أن الكشاف يجب أن يكون نافعا للناس وأن يعين غيره، وهذا توجيه منقول بنصه وفصه من مبادئنا الإسلامية، فالقرآن الكريم يقول: « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » ويقول: « وتعاونوا على البر والتقوى » وكرر القرآن كلمة « وعملوا الصالحات » أكثر من ستين مرة، وهو يجعلها وصفاً للمؤمنين، وليس العمل الصالح مقصوراً على الصلاة والصوم والزكاة والحج فقط، بل يشمل العمل الصالح أيضاً كل سعى مشكور يقوم به الإنسان في هذه الحياة بذية طاهرة وإرادة كريمة، لينفع به فرداً أو جماعة، أو ليحقق به خيراً في وجهه من وجوه الحياة؛ ويقول النبي: « الناس بخير ما تعاونوا ». ويقول: « خير الناس أنفعهم للناس ».

وينص هذا النظام على أن متبعه ينبغي له أن يكون رفيقاً بالحيوان، والإسلام قد أرسدنا منذ بزغ فجره إلى الحرص على الرفق بالحيوان، وقد قص علينا رسول الله أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » كما أخبرنا أن الله تعالى قد غفر لرجل مذنب بسبب أنه كان في الصحراء، ورأى كلباً استبد به العطش،

فنزل الرجل بثرآ ، وملاً خفه بالماء وسقى الكلب . وقال الرسول : « اتقوا الله في هذه البهائم ، فأركبوها صالحه ، وكلوها صالحه » . وأمرنا الإسلام بالرفق بالحيوان حتى في وقت ذبحه ، فكان من أدبه أن الإنسان ينبغي له ألا يقسو على الحيوان حينئذ ، بل يريجه في ضجعته ، ولا يحذ السكين على مرأى منه ، ولا يطيل في عملية الذبح ، حتى لا يطيل الألم على الحيوان ، وقال الحديث الشريف : « إن الله كنب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم (قصاصاً) فأحسنوا القتل ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » . ولقد رأى عمر بن الخطاب رجلاً يقسو على شاة وهو يقودها ليذبحها ، فنهره وقال له : « ويلك ، قدها قوداً جميلاً » . وهذا خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان عنده غلام يشتغل على بغل له ، كان الغلام يأتيه كل يوم بدرهم ونصف درهم ، وذات يوم جاءه الغلام بثلاثة دراهم ، فقال عمر للغلام مستفسراً : ما بدا لك ؟ قال الغلام : لقد نفقت السوق (أى راجت) . فرد عمر قائلاً : لا ، ولكنك أتعبت البغل ، أرحه ثلاثة أيام . كما أصدر عمر أمراً يحرم شد الحجام على الحيوان شداً يؤلمه . ويحرم استعمال المنخسة في نحس الدواب ، ويحدد الوزن الذي يحمله الحيوان الذي يستخدم في النقل فلا يزداد عليه .

وينص هذا النظام على أن الكشاف يطيع والديه ورئيسه ومعلمه ، والقرآن يقول : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » وقال للولد المختلف مع والده : « أنت ومالك لأبيك » ومن مبادئ الإسلام الواضحة أن طاعة الوالدين من طاعة الله ، وفيما يتعلق بطاعة ولى الأمر نجد القرآن يقول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ويقول الرسول : « اسمعوا وأطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » . وأما طاعة المعلم فقد ورثنا منذ القدم ذلك القول المأثور الذي أراد أن يبالغ

في التنويه بمكانة المعلم فقال : « من علمني حرفاً صرت له عبداً » . والقرآن يقول على لسان موسى حينما ذهب ليتعلم من العبد الصالح : « ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً » . وشاعرنا هو الذي قال :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أرأيت أعظم أو أجل من الذي يبني ، وينشئ أنفسا وعقولا

ويدعو هذا النظام أبناءه إلى الصبر والاحتمال وعدم الضيق بالشدائد ، والقرآن هو الذي يقول : « واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » ويقول : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . إن موقف التذكير لا يتسع للتفصيل أو التفسير ، ولكن حسبتنا أن نؤمن بأن المبادئ والتعاليم التي ورثناها عن الإسلام وعن العروبة المؤمنة ، هي الرائد السابق على الطريق ، ومن واجبنا أن نتعرف إلى هذه المبادئ وأن نعود إليها ونستمد منها ، بدل أن نظل عالمة على سوانا ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

حاجتنا الى الدين

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله عز وجل ، له الحكم وإليه ترجعون ،
أشهد أن لا إله إلا الله ، منّ بالفضل ، وقضى بالعدل : « اليوم أكملت لكم
دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وأشهد أن سيدنا
محمد رسول الله ، جعل نور ربه على الدوام ملاك أمره وعماد دهره ، فكان
خير الهادين المهتدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وعترته ،
وأصحابه وشيعته : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول الأثر الإسلامي الحكيم : إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن ،
ومعنى هذا أن السلطان الحاكم يستطيع بما هيا الله له من أسباب وقدرة يقول
الكلمة الطيبة الهادية ، فيكون لها من الآثار النافعة ما ليس لغيرها من الكلمات
تصدر عن سواه ، ويتصرف التصرف الموفق الجميل فيتابعه فيه الكثيرون
هنا وهناك رغبة أو رهبة ، ولقد يظل بعض الناس يتكلم عن الخير والفضيلة
والدين فيطيل الكلام ، ويتحدث فيشقق الحديث ، ثم يظل الأثر مع ذلك
قليلاً أو معدداً ، ولكن إذا تكلم السلطان أصغت الأسماع وتنبهت الأذهان ،
وقالت الملايين : هذا هو الرجل الأول في الأمة يقول ، فلا يفوتنكم شيء
مما يقول ، واحذروا أن تهملوا العمل بما يقول ، وإلا حملكم على طريق الخير
حملاً بما لديه من أسباب وطاقت ، ، وهكذا يزرع الله بالسلطان ما لا يزرع
بالقرآن .

القيت في يوم الجمعة ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٨
يوليه سنة ١٩٦٧ م

ونحن ينبغي لنا أو يجب علينا أن نتذكر هذا بمناسبة ما جاء خاصاً بالدين في خطاب رئيس الجمهورية منذ أيام^(١)، فقد تلاتات خلال هذا الخطاب التاريخي المشهود كلمات دينية ، فرحت الأمة بها وطربت لها ، وتمنت منها المزيد والمزيد ، وكان القدر القادر أراد أن تأتي هذه الكلمات المشعة بترتيب ونظام ، فيأتي جزء منها في الصدر ، وجزء في الوسط ، وجزء عند الختام ، وأن يكون كل جزء منها تمهيداً لما بعده فجاء أولاً في الخطاب قوله : « لعل الله عز وجل أراد أن يضعنا موضع الامتحان ليرى : هل نستحق ما أنجزناه ، وهل نحن قادرون على حمايته ؟ وهل نملك شجاعة الصبر والثبات أمام المحنة ؟ . ولعل الله عز وجل أراد أيضاً درساً لنا ، يعلمنا ما لم نكن قد تعلمناه ، ويذكرنا ببعض ما يمكن أن نكون قد نسيناه ، ويظهر نفوسنا من شوائب لحقت بنا ، وعيوب يجب أن نتلافها ونحن نبنى مجتمعنا الجديد ، ومهما تكن إرادته عز وجل ، فإننا نقبل امتحانه باعتباره قدرنا ، ونثق ثقة مطلقة في أنه معنا يرعى جهادنا إذا خرجنا للجهاد ، وينصرنا إذا عقدنا العزم على النصر ، ويفتح طريق الحق أمامنا إذا استطعنا أن نضع أنفسنا على طريقه القويم » .

إن هذه نبرات دينية صوفية اجتماعية واعية لها دلالتها ولها قيمتها ، وفيها تفسير وتقليل لجانب مهم من جوانب ما نحن فيه ، وهذه النبرات يجب أن تذكرنا حق التذكير بالتمحيص الإلهي الذي ينال عباد الله من حين إلى حين لينهبوا أو يتذكروا ويحذروا ، والله جل جلاله يقول في كتابه الكريم : « ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » ويقول : « ولنبلونكم بشيء »

(١) يوم الأحد ٢٣ يوليه سنة ١٩٦٧ في قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة للثورة ، وهو اول خطاب للرئيس يواجه به الجماهير بعد النكسة .

من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ، وما دام الدرس الصارم العصيب قد أقبل علينا فنبه حواسنا وأيقظ نفوسنا ، وذكرنا ما نسينا ، فيجب ألا يمر علينا دون أن نتدبره وأن ننتفع ونستفيد منه ، وفي طليعة ما يلزم أن نتعلمه من هذا الدرس المطهر المحصن هو أنه لا بد لنا أولاً وقبل كل شيء ومع كل شيء وبعد كل شيء أن نوثق علاقتنا الصافية الطاهرة الخالصة المخلصة بالله رب العالمين ، قيوم السموات والأرض ، رحمن الدنيا والآخرة . الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، ولا بد من أن تكون هذه العلاقة الوثيقة بيننا وبين الله جل جلاله علاقة تملأ القلب وتعمر العقل ، وتظهر عقيدة وقولاً وعملاً وخلقاً وتشريعاً في حياة الفرد والأسرة والقرية والمدينة والمجتمع بكل قطاعاته ومستوياته ومنظّماته وفتاته ، ولذلك عاد خطاب الرئيس في وسطه يقول : « لا بد من التمسك بقيم الدين والاعتصام بها » وهذه عبارة تنفيذية - مع وجازتها - معاني ضخمة لا بد أن تتحول في المجتمع إلى حقائق ثابتة ووقائع ماثلة ، لأننا بغير الدين لا نساوى شيئاً ، ولأننا بالدين والتدين الواعي البصير ، والإيمان العميق الوطيد ، واليقين الثابت العتيد ، نكون كل شيء : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وإذا كنا نحتاج إلى الدين في أوقات السلام والهدوء ، ليكون رقيباً وحسيباً على الإنسان ، يذكره في حركاته وسكناته وخطراته وجميع تصرفاته بأن من فوقه إلهاً سمياً بصيراً قادراً قاهراً مسيطراً على عباده ، يعلم الجهر وما يخفى ، ويقول وهو أصدق القائلين : « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ، وإذا كنا نحتاج إلى الدين في سائر الأوقات ليعلم كل فرد مؤمن خشية الله في اللقاء

والخلاء ، وفي الليل والنهار وليذكر كل فرد بقول الحق عز من قائل :
« إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم »
وقوله : « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » . إذا كنا
نحتاج إلى الدين في الأوقات المعتادة ، فنحن أشد احتياجاً إلى الدين في أوقات
النضال والجهاد ، وفي فترات الشدائد والمصاعب ، لا ليكون لونا من العزاء
والسلوان فقط ، بل ليكون نوراً بين أيدينا يعصمنا من اليأس والقنوط :
« إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ويدفعنا إلى البذل والتضحية :
« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ويعلمنا الثبات
في الجهاد : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »
ويملؤنا رضى بما يساق إلينا من ابتلاء أو امتحان : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب
الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ويجعلنا نوقن بأن النهاية في
الجهاد الصادق المخلص كريمة مهما كانت العاقبة ، فإما نصر فيه عزة ، وإما
شهادة من ورأها نعيم : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص
بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » .

ومتى توافر لنا الإيمان والتمسك بالدين والاعتصام بمبادئه فقد حلت
المشكلة واجتازنا العقبة ، وضمننا الفوز ، ولذلك حسن جداً أن يتختم الرئيس
خطابه بقوله : « أثق أننا بعون الله سوف نجتاز الطريق بصعابه ومشاقه ،
وأثق أننا بعون الله سوف نتحرك على كل الطرق الممتوحة أمامنا ، وسنصل
نعم إننا سنصل ما دمنا نربط هذا بعون الله ، وما دمنا نعتصم بحبل الله ، وما دمنا
نهتدى بهدى الله الذى يقودنا إلى طريق العزة والحرية والكرامة : « وإن جندنا
لهم الغالبون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إنها كلمات استضاءت بنور الله عز وجل ، فكسبت من وراء ذلك قوة ومكانة ، وكلنا أمل ورجاء أن يكون من وراء هذا انطلاق عملي إيجابي ، تتحول فيه المبادئ والشعارات إلى حقائق وأعمال ، وأن يشارك كل فرد رجلاً كان أو امرأة ، حاكماً كان أو محكوماً في التعاون على تمكين مبادئ الدين وتعاليمه في كل منحنى من مناحي الحياة : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .. أقول قولي هنا واستغفر الله لي ولكم .

الدين والرحلة

الحمد لله عز وجل ، أمر بالسير والاعتبار ، ودعا إلى الكسب والإنتاج :
« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه
النشور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل دينه سبب الخير ومفتاح السعادة
« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ،
كان نطقه ذكراً ، وصمته فكراً ، ونظره عبراً ، فصلوات الله وسلامه عليه ،
وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى
الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

انعقد فى الأسبوع الماضى مؤتمر للمعسكرات والرحلات ، ونحن أمة
ذات تاريخ طويل فى الرحلة ، حتى نستطيع أن نقول إننا أمة من طبيعتها
التنقل والارتحال ، وحين تقام المعسكرات والرحلات يجب أن نتخذها وسيلة
من وسائل التربية والتقويم ، مع ما فيها من تسلية وترويح ، ولا شك أن
التربية الدينية من أعمق ألوان التربية — إن لم تكن أعمقها كلها — فى التأثير
والتوجيه ، ولذلك يلزم أن يكون للجانب الدينى نصيبه الملائم خلال هذه
الرحلات والمعسكرات ، لأن الدين مهمل فيها ، أو هو على الأقل لا ينال
حظه من الرعاية والاهتمام ، مع أن الفرد فى أثناء الرحلة أو المعسكر يكون
أكثر استعداداً لتجدد المشاعر الدينية والروحية ، وذلك بسبب قربه حينئذ من
مشاهد الطبيعة ، لأن الرحلات والمعسكرات تكون عادة عند الشواطىء أو فى

القيت فى يوم الجمعة ٢١ شوال سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ٧ من أبريل
سنة ١٩٦١ م

الحقول ، أو في الصحراء وعند الجبال ، أو في الأماكن الريفية والخلوية الأخرى ؛ والطبيعة هي كتاب الله المنظور ، الذي يؤدي القرب منه والتأمل فيه إلى تقوية عناصر الإيمان في نفس الإنسان .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا الحديث عن مشاهد الطبيعة يرد في مواطن كثيرة متتابعة ، فقد تكرر حديثه عن السموات والأرض ، والنجوم والكواكب ، والبحار والأنهار ، والجبال والأودية ، والزروع والثمار ؛ والقرآن يربط غالباً بين الحديث عن مشاهد الطبيعة والحديث عن خلق الإنسان وتكوينه ، وبعثه بعد موته ، وواجبه نحو خالقه ، وتحذيره من الجمود والكفران ، وتحريضه على اليقين والإيمان ؛ ولذلك يجب انتهاز فرص القرب من مشاهد الطبيعة لتقوية النواحي الدينية والأخلاقية عن طريق التأمل والدراسة والتفكير .

والرحلة من جهة أخرى تثير في الإنسان نزعة التحرر ، وبخاصة بين الشباب ، لأن الانتقال من البيئة المألوفة ، والابتعاد عن الأعين الملاحظة ، والشعور بالرغبة في انتهاز الفرصة ، يغري الكثيرين بالانطلاق أو الاندفاع ، وهذا التحرر إذا لم يكن له ضابط أو رابط يؤدي إلى لون من التحلل الموقوت أو الممدود ، ولذلك تجب الاستعانة بالعظات الدينية البصيرة ، والتوجيهات الأخلاقية الحكيمة ، والتحذير في لباقة وبراعة من المزالق والمعاطب . ومن الواجب أن يقوم المشتركون في المعسكرات والرحلات بشعائرهم الدينية وواجباتهم الإلهية ، لأن هذه الواجبات نظام وإيمان ، وقوة حسية ونفسية ، وسمول الروح وتهذيب للانسان ، فيفتتحون يومهم بفريضة الصبح ، ثم يرتلون طائفة من الآيات القرآنية ، ثم يستمعون إلى حديث توجيبي ، ثم ينطلقون إلى أعمالهم الأخرى . وكثير من المرتحلين يضيقون بأداء الصلوات لأنها كما يقولون تتكرر خمس مرات كل يوم ، وتشغل الإنسان في أثناء النهار ، ولكن هذا

الضيق يزول حين نتفزع خلال السفر بطريقة القصر والجمع في الصلاة متى صلحت الرحلة للأخذ بهذه الطريقة من الناحية الشرعية .

وهناك أعمال في الرحلة لها فائدتها الثقافية في تكوين المعلومات عن الكون والطبيعة ، ولها صلتها بالناحية الدينية ، فهناك مثلاً تحديد الجهات الأصلية لمعرفة القبلة ، ومراقبة الشروق والغروب لمعرفة وقتي الصبح والمغرب ، ومراقبة الشفق عند الفجر وعند العشاء لمعرفة وقتها ، ومراقبة استواء الشمس لمعرفة وقت الظهر ، ومراقبة طول الظل لمعرفة وقت العصر ، فيجدد بنا في هذه الأعمال أن نحسن الجمع بين أهدافها الثقافية وأهدافها الدينية ، ليزيد الارتباط بين الاهتمام في مجالات الدنيا والاهتمام في رحاب الدين ؛ ومن الواجب أن تكون هناك بجوار ذلك دراسات لها اتصالها المزدوج بالدين والدنيا ، ومن أمثلة ذلك أن الرحلة سفر فيمكن أن ندرس عندها آداب السفر في الإسلام ، والرحلة فيها اجتماع فيمكن دراسة هدى الدين في الدعوة إلى الجماعة والوحدة ، والرحلة تحتاج إلى التعاون ، فلندرس عندها مبادئ التعاون في الإسلام ، والرحلة صحبة فتناسبها دراسة آداب الصحبة في الإسلام ، وهكذا .

والرحلة لا بد لها من هدف ، ومن الخير أن نربط بين الهدف المادى والهدف الروحي ، ولو رجعنا إلى الدين لوجدناه يحرص على الرحلة تحريضاً قوياً ، ولكنه يجعل لها هدفاً نبيلاً يفيد الإنسان في عقله أو خلقه أو دينه ، فهناك الرحلة المشروعة لطلب العلم ، وهناك الرحلة للعبادة كالحج والجهاد والمرابطة على الثغور ، وهناك الرحلة لزيارة الأماكن المباركة ، وهناك الرحلة لتأكيد روابط الأخوة والمحبة ، وهناك الرحلة لطلب التجارة والكسب فيجب التذكير بالوصول بما للرحلة من أهداف مادية وروحية عالية ،

ويجب أن يكون لكل معسكر أو رحلة رائد ديني باعثاً للاشعاع الروحي والأخلاقي ، ويؤم المرتحلين في الصلوات ، ويلقى عليهم أحاديث الصباح ،

ويخطبهم في الجمع والمناسبات ، ويفتيهم فيما يعرض لهم من مشكلات ، ويحدثهم عن الآثار والأماكن والأشخاص الذين لهم تاريخ إسلامي أو صلوات بالنواحي الروحية ؛ كما يجب أن يعنى المسئولون بتنظيم الرحلات والمعسكرات للشباب في موسم الحج بصفة مستمرة ، لأن الحج رحلة ، وهو في الوقت نفسه عبادة ؛ وفي رحلة الحج دراسة لجزء كبير من وطننا الإسلامي الكبير وهو منزل الوحي ، وفيها التقاء بين جموع ضخمة من أبناء العروبة والإسلام ، وفيها يستفيد الفرد فوائد متنوعة من التقائه بهذه الجموع الضخمة التي تمثل بيئات وثقافات متعددة ، وهي في الوقت نفسه تخضع لإله فرد ، وتتجمع تحت لواء دعوة واحدة ، ونبي واحد ، وقبلة واحدة ، وكتاب واحد ، فهي أجدر الناس بتحقيق معاني الأخوة والترابط : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الشباب أمانة في أيدينا ، فيجب أن نتقى الله فيها . ونحسن رعايتها ونحريجها ، حتى يكون الجيل الصاعد خيراً في دينه وعقله وخلقه من الجيل النازل ، وإن لكم أبناء يشتركون في المعسكرات والرحلات ، فلتحرصوا بكل أسلوب ممكن على المطالبة بتحقيق الأهداف الدينية والروحية في هذه المعسكرات والرحلات ولقد وضعت هذه المقترحات الإصلاحية بين أيدي المسئولين في المؤتمر ، ولكنها تكتسب قوة وتنال تطبيقاً يوم يشعر المسئولون أنكم حريصون على هذه الاتجاه ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

الإسلام والمجتمع التعاوني

الحمد لله عز وجل ، خلق الخلق وأجرى الرزق : « وما بكم من نعمة
 فن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » أشهد أن لا إله إلا الله ، علم عباده
 أنهم مستخلفون فيما يملكون ، وأنهم فائزون حين يتعاونون ويحسنون :
 « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول
 الله ، عاش لأُمَّته لا لذاته ، فلم تشغله في دنياه رغبة ، ولم تحفه في دعوته
 رهبة ، بل أخلص لله العمل والجهد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى
 الطاهرين من آله وذريته ، والمخلصين من أنصاره وصحابته ، والأوفياء
 لدينه وسنته : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من طبيعة هذه الحياة أن يتفاوت الناس في المواهب والملكات ، والجهود
 والطاقات ، فمنهم قوى وضعيف ، وغنى وفقير ، وصحيح ومريض ، ومستطيع
 وعاجز ، ولكن هذه الفروق إذا تركت وشأنها فانتسعت وانفسحت ، ولم
 تحاول الأيدي المخلصة أن تخفف من حدتها أصبحت عوامل للهدم ووسائل
 للتحطيم ، فالواجب هو التقريب جهد الطاقة بين هؤلاء المتفاوتين عن طريق
 التفاهم والتراحم ، وبأسلوب التكافل والتعاون ، لأن الإنسان لا يمكنه أن
 يعيش منفرداً ، وهو مهما أوتي من قوة وميسرة ، سيحتاج في أحيان كثيرة
 إلى غيره ، يعاونه في حياته ، ويواسيه ، ويؤنسه في وحشته ، ويشاركه
 سعادة الحياة ليكون لها طعم ومذاق . . . والإسلام يسعى لإقامة مجتمع تعاوني

(١) أقيمت في يوم الجمعة أول جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ
 الموافق ١٢ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

متكافل ، تسوده الأخوة والتضامن والمساواة ، ويعمل للتخلص من سيئات الاحتكار ، ورواسب الإقطاع ، وسيطرة رأس المال، وجشع الاستغلال ، حتى تتحقق لنا العدالة الاجتماعية التي يريتها لأمة مؤمنة بربها ، معترزة بحقها ، مسالمة لمن سألها ، معادية لمن عادها ، قائمة بين الناس بالعدل والقسطاس ، والباحث في عالم الأحياء يجد أن التعاون غريزة في أنواع مختلفة فيها ، فأسراب النمل تتعاون في دأب وصبر على أعمالها المتعددة ومحاولاتها المتكررة ، وجماعات النحل تتعاون في دقة وتنسيق على القيام بواجباتها وتنظيم بيوتها وتعمير خلاياها والطيور والحيوانات الأخرى نراها تسير جماعات جماعات ، وإذا عرض لها خطر تكتلت وواجهته مجتمعة ، لإدراكها بالغريزة أنها إذا تقسمت إلى أفراد هانت وذلت ، وأصابها الخسار والبوار ، والإنسان هو سيد هذه الأحياء ، وأزكاها وأقواها . فيجب أن يكون تعاونه أوثق وأعمق ، لأنه خير من يدرك عقلياً وعملياً أن الجماعة خير من الفرقة ، وأن التعاون أجدى من النزعات الفردية والانعزالية الناشئة عن الأثرة وحب الذات ، وأنه :

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا وإذا افترقن تكسرت أحسادا

وبهذا التعاون يتحقق التحرر الاقتصادي الذي هو أقوى الدعائم والحوافظ للتحرر السياسي ، وبالتعاون يكون الفرد للجماعة والجماعة للفرد ، فيخدم الفرد بجماعته بجهده وطاقته ، فيؤيدها ويمجدها ، وتخدم الجماعة فردها بحمايتها وحصانها ، فتؤازره وتعضده ، وتلتئم العلاقة بين الطرفين على وجه كريم ، وتشيع بين أبناء الأمة جميعها عواطف التساند والمحبة والوثام . . .

وليس التعاون نظاماً وارداً إلينا من خارج بيتنا ومبادئنا ، بل هو دعامة من دعائم عقيدتنا وديننا ، فالله جل جلاله يقول لنا في كتابه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . أى تعاونوا على التوسع في فعل الخير ، وعلى تجنب كل ما يضركم

في الدين والدنيا ، ولا تعاونوا على سيئة من السيئات ، ولا على لون من ألوان الجور أو الظلم ، وهذا النص القرآني شعار كريم رفيع للمجتمع التعاوني الفاضل الموصول الأسباب بأعظم معين وأكرم مستعان ، وهو الخالق الوهاب ، فإن الله جل جلاله قد أمرنا بالتعاون على الخير ومحاربة الشر ، وأوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضاً في ميادين الحق والخير والبر ، حتى يعيشوا في هذه الحياة سعداء ، ويحققوا لأنفسهم معنى التقوى فيفوزوا برضا الله ولا يتعرضوا لغضبه ، فإنه شديد العقاب . . .

وقد زكى النبي عليه الصلاة والسلام منهاج التعاون بين العباد ، وتبادل المنافع بين الناس ، فقال من حديث له : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » . وقال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » . ومعنى هذا أن الإنسان إذا شارك بمجهوده في تحقيق التعاون وتهيئة فرص الانتفاع للمحتاج إلى المساعدة ، فقد وعده ربه بأن يتكفل له بحاجته ومطالبه ، وبإلحاحه من تحريض على التعاون ، ومن تكريم للذين يعاونون الناس ، وقد أخبرنا النبي أن من شأن أمته وأتباعه أن يكونوا على أكل صورة من صور التعاون وهي صورة الاتحاد المتين والتآلف الوثيق ، والتكامل الذي ينتظم الأفراد في المظهر والخبر ، والنفوس والحواس ، فكأنهم شيء واحد فيقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . ويقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وحيثما تحدث الرسول عن سلسلة النبوات والرسالات اعتبرها حلقات من تاريخ التعاون السامي النبيل ، وحيثما صور إخوته من المرسلين عرضهم في صورة التعاون الصادق والتكافل الوثيق ، فكلهم قد جاءوا ليينوا في الحياة

بناءً مشتركاً هو بناء اليقين والإيمان ، ومحمد ليس إلا جزءاً متمماً لهذا البناء ، يقول : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله ، إلا موضع لبنة (أى طوية) من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

فهل هذا إلا التعاون في أجل معانيه وأروع نواحيه ؟؟ وهل كان الإسلام الحنيف لإدوين التعاون الواسع النطاق بين العباد ، حتى وصف الحديث النبوي الشخص المعاون لغيره بأنه أفضل العباد فقال : « خير الناس أنفعهم للناس » . وهذا هو ذو القرنين الذي يحدثنا عنه القرآن الكريم ، والذي مكن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً ، نراه برغم قوته وعظمته لم يستغن عن التعاون ، فحينما سأله القوم أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً هتف فيهم بهتاف التعاون الذي تم به جلائل الأعمال ومكارم الفعال فقال لهم : « فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . ما أشد بلاء المجتمعات البشرية بالأنانيين الانعزاليين أصحاب النزعات الفردية ، الذين يجمعون ولا يوزعون ، ويكتزون ولا يشبعون ، ويمتصون ولا يعملون ، وينتهزون الشدائد والضوائق فيتحكمون ولا يستحون ، (ويحتكرون أو يرابون) ، فهؤلاء ليسوا من الإيمان ولا من الإحسان في شيء ولو شاء الله تعجل لهم العقاب ، فصنع بهم أضعاف ما يصنعونه بالناس من إعراض وإغفال ، وكأنهم ينسون أن أمامهم عقبة كؤودا يلاقونها بسبب ما تقترف أيديهم من استغلال واحتكار ، والرسول يقول : « أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة » . وما أسعدنا يوم يعمر دنيانا نظام التعاون الرحيم القويم ، الذي يدفعنا جميعاً إلى العمل والكسب والإنتاج ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذي أتم به مؤمنون .

لا سلبية في الاسلام

الحمد لله عز وجل ، هو القوى الذى يجب الأقوياء ، العزيز الذى يؤيد الشرفاء : « والذين اهتموا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يثيب على الطيبات والقربات ، ويعاقب على الخبائث والسيئات ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، كان المثل الأعلى في الإيثار وحب الخير للناس ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

من الكلمات التي شاعت في مجتمعتنا المعاصر كلمتا « السلبية والإيجابية » ، وفي السلبية معنى السلب والانتهاك مع الانسحاب والانعزال ، وفي الإيجابية معنى الوجوب والالتزام وحمل النفس على أداء ما يجب أن يؤدي ، ففي السلبية أخذ وعجز ، وفي الإيجابية إعطاء وقوة . ويدور مفهوم السلبية الآن على عدم الاهتمام بشأن الغير ، وعلى التخلص من التبعات ، وإلقاء الأخمال بعيداً عن الذات على أكتاف هذا وذاك وذلك ، دون أن يفكر صاحب النزعة السلبية في أن يتجاوب أو يشارك أو يعاون ، وهي صفة إن دلت على شيء فإنما تدل على ضعف النفس وخور العزيمة ، مع الأنانية وحب الذات ، وهذه الصفة إذا تمكنت من قوم تركتهم كأعجاز نخل منقعر ، إذ يغدون أشباحاً بلا أرواح ، وظلالاً بلا عزائم ، ولن تنهض لمجتمع فاضل دعامة إن كان

القيت في يوم الجمعة ١٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٨٣ هـ الموافق

٦ من سبتمبر سنة ١٩٦٣ م

أبناؤه على هذا الخلق الذميمة ، والإسلام العظيم قد علم أبناءه أن يحققوا ذواتهم ، وأن يعبروا عن همهم ، وأن يشاركوا بغزائهم ، وأن ينهضوا بكل ما يمكنهم النهوض به من تبعات وواجبات ، ضاقت بهم تلك التبعات أم اتسعت ، خصت هذه الواجبات أم عمت ؛ وحينما صور الحديث النبوي أتباع محمد عليه الصلاة والسلام بأنهم كالبنيان المرصوص ، وأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر ، أراد أن يعلمهم حقيقة الإيجابية ، وأن يبعد عن حماهم قمام السلبية ، فكل منهم راع ومرعى ، وكل منهم ناصح ومنصوح ، وكل منهم معين ومعان ، وكل منهم يسهم بما يستطيع ليكون الجميل من أهل النجاح والفلاح : فهم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وهذا هو معلم الإنسانية وسيد البشرية محمد يعطى أتباعه الدرس البليغ فى مقاومة السلبية فيقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ومن اهتم بأمر أمته بحث شئونها ، وعرف آمالها وآلامها ، وسعى فى جلب الخير لها ، وأسهم فى دفع الشر عنها ، ويعود الرسول إلى تدريب أتباعه على الإيجابية ومقاومة السلبية ، عن طريق تقديم الوجوه الكثيرة من الخير والنفع والمعاونة لكل محتاج ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » وهذا الهدى النبوى الكريم مستمد من التبعية القرآنى الصافى الذى يمرض على الإيجابية فى ميادين الخير ويدعو إلى مقاومة السلبية المؤذية المخربة ، وذلك حيث يقول القرآن الكريم : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

وإذا كانت الإيجابية العملية تتمثل في فعل الطيبات والخيرات ، فإنها أيضاً تتمثل في مقاومة الشر والآفات ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وحذر الرسول من ترك الشر يستفحل استفحال الداء العضال ، لئلا يؤدي ذلك إلى دمار الجميع ، فقال : « إذا رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » . وكما حارب الإسلام السلبية في مجال العمل حاربها في مجال القول ، فحث على الجهر بالكلمة الطيبة والقول النافع الذي يشارك به صاحبه في التوجيه والإرشاد ، فقال القرآن : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وقال النبي وما أبلغ ما قال : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » .

وهناك صنف من الناس لا عقل لهم ولا رشاد ، فهم يتبعون كل ناعق ، ويؤمنون على كلام كل ناطق ، ولا نجد لهم رأياً ولا فكراً ولا استقلال شخصية ، وهذه المتابعة العمياء لون صارخ من ألوان السلبية وضياع الشخصية وقد حارب الرسول هذا التميع أشد المحاربة ، فقال : « لا يكن أحدكم لمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

وحتى السلبية في التفكير حاربها الإسلام ، فالقاعدة الإسلامية تقول إن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ، وهذا تحريض على الاجتهاد أى تحريض ، والاجتهاد هو بذل الجهد في سبيل الوصول إلى الحق ؛ وهذا هو معاذ بن جبل رضى الله عنه يعطينا مثلاً للإيجابية الصالحة في التفكير والاجتهاد حينما يبعثه الرسول إلى اليمن ، ويسأله كيف يقضى بين الناس ، فيجيبه بأنه سيتبع القرآن والحديث ، فإذا لم يجد

الحكم منصوباً عليه فيهما ، فإنه سيجتهد برأيه ، فيفرح النبي لذلك ويقول : الحمد لله الذي وفق رسول الله ، لما يحبه رسول الله ولقد كان المثل الأعلى في محاربة السلبية وتحقيق الإيجابية ، فهو لا يدخر وسعاً في معاونة الناس ، وحل مشكلاتهم ، والنهوض بتبعاتهم ، وهو يحمل نفسه ما لا تحمله نفس أخرى في هذا المجال ، ولقد جاءه رجل يسأله ، فقال له النبي : ما عندي شيء ، ولكن ابتع علي (أى اشتر على حسابي) فإذا جاءنا شيء قضيناها ، وكان عمر بن الخطاب حاضراً فقال : يا رسول الله ، ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره النبي ، وهنا قال أحد الحاضرين : يا رسول الله ، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا ، فظهر البشر في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : بهذا أمرت .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : في ظلال هذه المبادئ الإسلامية الرائعة تربي رجال كلهم عزم وإقدام ، وحرص على الإيجابية ، ونفور من السلبية ، فليحاول كل منا أن يستجيب لنداء الإسلام فيكون محققاً لذاته مكرماً لشخصيته مقويماً لعزيمته مشاركاً بفكرته وكلمته ومعاونته حينما استطاع أن يصلح أو يعين ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

البيعة في الاسلام

الحمد لله عز وجل ، خلق فأبدع الخلق ، ورزق فأوسع الرزق ، وحكم فجاء بالحق ، وهو أحكم الحاكمين ، أشهد أن لا إله إلا الله اتصف بالوفاء ودعا إليه : « ومن أوفى بعهده من الله » ؟ « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون » وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، خير من عاهد فصدق ، ووعد فأوفى ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من مظاهر النظام وشواهد الأحكام في شرعة الإسلام أنه جعل لكل جماعة من الأمة راعياً يرعاها ، فالأسرة جعل لها الرجل ينهض بتبعاتها ، ويقوم على شئونها ، والجنود أقيم لهم قائداً يوجههم ويسوسهم ، والأمة جعل لها والياً أو خليفة يسهر على راحتها ويستمسك بعزتها ولقد ذكر الرسول ألواناً من الرعاية ثم قال : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » ، ولما كانت الولاية على الأمة أخطر المناصب في المجتمع شرع الإسلام لها نظام « الخلافة » القائمة على الاستخلاف والتوكيل ، والهادفة إلى الاهتمام بالدين الحنيف ، ورد القوى عن الضعيف ، ودفع العدوان عن الإسلام والمسلمين ورعاية الحقوق والواجبات بالأمانة والعدل وجعلها لا تنعقد إلا بإرادة الأمة ، ولا تجوز فيها الوراثية أو الإرغام ، بل هي بيعة تتم بالرضى والاختيار ، لأن أمر المؤمنين قائم على التشاور والتناصح ، لا على الاستبداد والتسلط ، والله

(١) القيت في يوم الجمعة ٩ من ذي القعدة سنة ١٣٨٤ هـ الموافق

١٢ من مارس سنة ١٩٦٥ م

تعالى يقول : « وشاورهم في الأمر » ويقول : « وأمرهم شورى بينهم » ،
 وشاعر الإسلام شوقي يقول :

والدين يسر ، والخلافة بيععة والأمر شورى والحقوق قضاء

وهذه البيعة اللازمة للولاية معناها إعطاء العهد الاختياري على السمع والطاعة . لولى الأمر المهتدى بهدى الله القائم بأحكامه ، ومن ثم تصبح طاعته استجابة . لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم حيث يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . ويلزم المؤمن حينئذ أن يكون صدوقاً في بيعته ، وفيأ في معاهدته ، دائماً على طاعته ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بها فلاسمع ولا طاعة ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، والمثل الأعلى للبيعة في الإسلام هي البيعة التي بايعها الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله صلوات الله عليه عند شجرة الرضوان في غزوة الحديبية ، وهي التي عطر التنزيل المجيد ذكرها وخبرها حين قال : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرأ عظيماً » . وحين قال : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

وكما بايع المؤمنون رسولهم بايعوا خلفاءه الراشدين من بعده ، وقدّر هؤلاء الأعلام عظم التبعة التي ألقيت على عواتقهم حين أفضت إليهم الخلافة فقال أولهم وهو الصديق أبو بكر يوم تولى الخلافة . « أيها الناس ، إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتُمونى على باطل فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، ألا وإن أقوامكم عندى الضعيف حتى أخذ الحق له ألا وإن أضعفكم عندى القوى حتى أخذ الحق منه » . ونحن نرى الفاروق عمر يسأل وقد تولى

الخليفة : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جيتت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعت في غير حقه ، فأنت ملك غير خليفة . فبكى عمر ، والتزم العدل قدر طاقته ، وأخذ يقول : من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه « فيقول له قائل المسلمين : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا يا عمر . فلا يبتئس الخليفة العظيم بذلك ولا يحزن ، بل يقول : الحمد لله الذي جعل في الأمة من يقوم اعوجاج عمر بالسيف ! . ولقد ذكر أهل البصر بالإسلام أن من شأن الوالى أو الخليفة أو الإمام أن يكون من أهل النجدة ويراد بها القوة وإعداد العدة لرد العدوان وصد البغي ، وأن يتصف بالكفاية ، ويراد بها الاهتداء إلى وجوه الإصلاح والاعتدال على التصرف فى معضلات الأمور ، وأن يتصف بالتعفف عن الجشع واستغلال المنصب لبناء الدور والقصور ، أو جمع الأموال والكنوز ، والانطلاق فى طوفان الشهوات والملذات ، وأن يتصف بالخبرة والبصر بما يجوز وما لا يجوز ، والدراية بما يحل وما يحرم ، وبهذه الصفات وما تستتبعه كفاية وعدل يصبح الإمام أهلاً للقيادة ومستحقاً للسمع والطاعة وجديراً بالحبّة والإخلاص ، لأنه حينئذ يدخل فى مفهوم قول الرسول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم (أى تدعون لهم) ويصلون عليكم » . فتنى بايعته الأمة ، وأسلمته زمامها ، وارتضته قواماً على أمورها ، كان واجباً عليها أن تصدق فى معاونته ، وأن تخلص فى طاعته ، فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اسمعوا وأطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » . وعن عبادة قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثره علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » : بل لقد أشار القرآن الكريم من طرف دقيق عميق إلى أن البيعة الصحيحة التامة المخلصة التى يعطيها المؤمن بوحى من دينه ودافع من يقينه ، تقتضيه أن يكون على استعداد

لئذ لنفسه وماله في سبيل عقيدته ، لأن البيعة مأخوذة من مادة « البيع » جريا على عادة العرب ، والبيع فيه مشتر وبائع ، فانظر إلى القرآن وتدبر إشارته حين يقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

ويحذر الإسلام العظيم تحذيراً شديداً من نقض البيعة بعد انعقادها ، ومن الخروج عليها بعد إعطائها بصدق وإيمان وطواعية ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « من خلع يداً من طاعة الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » . وفي الوقت نفسه يحذر الإسلام العظيم الوالي أن يخون الأمانة ، أو يفرط في التبعة ، أو يخرج عن سواء الطريق ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » . وكان النبي يدعو ربه جل وعلا ، فيقول : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فرفق به » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن أرسخ أساس للمجتمع المؤمن القاضل هو أن يتوافر فيه ولي الأمر الصالح المصلح المخلص كما تتوافر فيه الأمة الواعية المطيعة عن إيمان وبصيرة ، ومن بين صلاح الراعي وإخلاص الرعية تنبثق أضواء الخير والسعادة للجميع ، ويتردد قول الحق سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

العمل في الاسلام

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، المجازى لها بما عملت ، « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً أحده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله » الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، « وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير من حمل لواء العلم والعمل وفتح أبواب الرجاء والأمل ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

جرت عادة مجتمعتنا منذ حين على أن يجعل أول يوم في شهر مايو عيداً للعمل والعمال ، وهي عادة طارئة علينا ، وليست نابعة من صميمنا أو تراثنا ، فتحن فيها مقلدون أو متابعون ، وليتنا نرجع في تقاليدنا وعاداتنا إلى ديننا وشريعتنا وتاريخنا . ومع ذلك ننتهز الفرصة لتأخذ من مناسبة عيد العمل ذكري فالذكري تنفع المؤمنين ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها ، أو حيثما وجدها فهو أحق الناس بها ، كما أرشدنا الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه . وليس في الدنيا كلها عقيدة أو شريعة كرمت العمل ودعت إليه وحثت عليه ونوهت به مثل الإسلام ، ويكفيها هنا دليلاً إجمالياً أن دين الله أقام أساسه على دعامين رئيسيتين هما الإيمان والعمل ، وقال القرآن فيما قال : « فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ، وقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

(١) القيت في يوم الجمعة ٣ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٤ هـ الموافق

٢٦ من أبريل سنة ١٩٧٤ م

وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . ولم يطلب الإسلام مطلق عمل ، بل حدد نوعية العمل ، وشرط أن يكون عملاً صالحاً طيباً ، وأخبر أن العمل الصالح سيكون خيراً للإنسان ، وأن العمل السيء سيكون وبلاً عليه ، فقال القرآن الكريم : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » ، ولا يكاد الإيمان يذكر في القرآن حتى يقترن به العمل الصالح ، حتى تكررت فيه عبارة « الذين آمنوا وعملوا الصالحات أكثر من خمسين مرة ، ووعد الله جل جلاله بوفاء الأجر وإكمال الجزاء والثواب لهؤلاء العاملين الصالحين فقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » ويقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » أى غير مقطوع .

وإذا كان العمل يحتاج إلى رقابة ومتابعة وتقويم ، فإن الله عز شأنه قد أقام من ذاته القدسية رقيباً على هؤلاء العاملين ، يحصى عليهم أنفاسهم وأقوالهم وأعمالهم ، ولذلك يقول القرآن : « وما الله بغافل عما تعملون » ، ويقول : « إن الله بما تعملون بصير » ويقول : « إن ربى بما تعملون محيط » ويقول : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » ولقد جعل الإسلام أى عمل يقوم به الإنسان أمانة بين يديه يسأله عنها فيدقق السؤال يوم لقائه ، ولذلك يقول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » والراعى هو الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ما أوتى على حفظه فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه . بل لقد قال العلماء إن الرجل المنفرد

الذى لا زوجة له ولا خادم يصدق عليه أيضاً أنه راع ، لأنه مطالب شرعاً بأن يكون راعياً على نفسه وجوارحه ، حتى يعمل الأمور ، ويتجنب المنهيات فعلاً ونطقاً واعتقاداً ، فجوارحه وحواسه وقواه هى رعيته التى وكل الله إليه رعايتها وصيانتها ، والحساب بين يلى الإنسان دقيق عميق « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسيين » . والرسول يقول : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أم أضاعه . « وهو ينذر كل مفرط فى رعيته كثرت أم صغرت ، عمت أم انفردت ، فيقول : « ما من وال يلى رعيته من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » .

وأرشد الإسلام إلى أن الله جل جلاله لا يجب العمل المتقطع ، أو المتبور أو الناقص ، بل يجب العمل الحسن المتقن ، الكامل الموصول ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » ويقول : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان أحب العمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يدوم عليه صاحبه » . وكذلك روى الإمام البخارى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه « كان يعجبه الدائم من العمل » . وليس فى الإسلام أى ظل للمحاباة أو الاستثناء من شرعية العمل ، والحديث الشريف يخاطب الجميع قائلاً : « اعملوا فكل ميسر : وكل فرد فى الأمة يمكن أن يسهم بأداء عمل مهما كان قليلاً أو محدوداً ، وتنوع الأعمال يناسب تنوع الملكات والطاقات ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى القدوة فى الحرص على العمل ، وهو لا يكتفى مع أنه سيد الأمة وخير الناس — بالاشتراك فى العمل ، بل يسبق إليه ويجتهد فيه حتى يكون مثلاً وقدوة ، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ينجحون كلما رأوا نبيهم يسبقهم فى العمل وبذل الجهد فيرددون قولهم :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذلك منسا العمل المضلل

وكان يدفع بأهل بيته دفعاً - وهو أشرف البيوت وأعلاها وأزكاها إلى العمل ، نساء ورجالاً ، فكان يقول لفلذة كبده وحشاشة قلبه فاطمة الزهراء « يا فاطمة ، اعلمي فاني لا أغني عنك من الله شيئاً » ويقول لآل بيته « يا آل بيت محمد ، لا يأتيني الناس ، بالأعمال وتأتوني بالأنساب ، أعملوا فاني لا أغني عنكم من الله شيئاً » . وكان الله تعالى قد أراد حكمة بليغة حين كتب على نبيه رعى الغنم وهو في شبابه . حتى قال الرسول : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » فإن رعى الغنم يحتاج إلى يقظة وانتباه ، وإلى صبر وأناة ، وإلى فعالية واحتمال ، ورعى الغنم يعلم الإنسان التواضع ، فإذا أدب نفسه يرعى الغنم لم يجد أى غضاضة في أن يقوم بعمل آخر من الأعمال .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الإسلام يحذر الولاة من الاعتساف والانحراف ، فيقول الرسول : « إن شر الرعاة الحطمة » ويأمر الرعية بالطاعة في الحق والعدل ، ولذلك يقول الحديث : « إنما الطاعة في المعروف » . وعلى الجميع أن يستجيبوا لأمر الله وتوجيهه ، فإن الامام علياً يقول : « اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

النظام في الإسلام

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أبدع الكائنات بقدرته ، وسوى أمور الخلاق بحكمته : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، الحق كتابه ، والعدل بابه : « وكل شيء عنده بمقدار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ربى قومه فأحسن تربيتهم ، وعلم أتباعه فأجاد تعليمهم ، فكان إمام الأنبياء وقائد الحكماء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، « فأولئك تحروا رشداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

النظام هو أساس الكون الرحيب الواسع ، ولو فسد النظام لفسد أمر السموات والأرض ومن فيهن ، وقد أبدع الخالق البارئ المصور ملكه على أدق نظام وأعمق إحسان ، وقال سبحانه : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » . وقال : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » . وقد أوجد الله الإنسان والزمان والمكان ، وأهمننا أن لكل إنسان في الحياة عملاً محدداً يقوم به ، وينبغي له أن يحسنه ، وأن لكل مكان أشياء تناسبه وتلائمه ، وأن الزمان يجب أن يكون فرصة للعمل والسعى ، وإلا انقلب غصّة مهلكة ، ولا يمكن الانتفاع بهذا الزمن على وجهه إلا إذا عرف الإنسان له حدوداً ، وأخضعه للنظام والترتيب ، ولأعم بين زمانه وأعماله ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى مثل هذا الضبط والتنظيم في قوله : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات

(١) القيت بمسجد الرفاعى في يوم الجمعة ١٣ من مايو سنة ١٩٦٦م

لقوم يعلمون . « وقال : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

والمشاهد بين الناس أن كثيرين منهم لا يحسنون العمل أو التصرف في الحياة بسبب إهمالهم مبادئ النظام وقواعد الترتيب ، فهم يخلطون عملاً بعمل ، وقد يقبلون على العمل في غير إبانة ، فلا يأتي على وجهه الحسن ، وقد يؤخرون العمل عن أوانه ، فيجور على وقت غيره من الأعمال ، وقد يسرفون في العمل بلا ضرورة حيناً ، فيؤدى بهم هذا الإسراف بعد قليل إلى إسراف في الركود والكسل ، إلى غير ذلك من مظاهر الفوضى والاضطراب

والإسلام الحكيم القويم قد أعطى النظام حقه الوفور من العناية والاهتمام ، ليلفت الأبصار والبصائر إليه ، ويحمل أتباعه عليه ، فلا يقولون ولا يعملون ولا يسعون في حياتهم إلا بنظام وإحكام ؛ وإذا نظرنا إلى القواعد التي بنى عليها الإسلام وجدناها تنهض بالنظام وعلى النظام ، فكلمة التوحيد : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » نظام في الاعتقاد ، إذ هي إقرار بالعبودية لإله واحد لا يشاركه في تديره أو ملكه سواه ، وإذا توافر الإخلاص في هذا الاعتقاد ، اعتدل العبد على طريق واحد مستقيم ، ولم تتفرق به السبل عن سبيل ربه ، ولا أشك أن توحيد الطريق حتى يكون معروف الغاية والنهاية نظام وأى نظام : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

وهذه هي الصلاة اليومية المتكررة خمس مرات في اليوم والليلة ، قد أتمها الله عز وجل على النظام والتحديد ، ولم يتركها مبهمه غامضة ، لهُوى المرء النى قد يضل وقد ينسى ، بل قال تعالى : « إن الصلاة كانت على

المؤمنين كتاباً موقوتاً « أى فرضاً ثابتاً ثبوت الكتابة على الورق ، وموقوتاً أى منجماً موزعاً في أوقات معلومة محددة ، لا بد من أدائها فيها بقدر الإمكان ، والله يطالب بها في مواعيدها ، حتى في موطن عدم الاستقرار ، فهو يقبل الصلاة مقصورة في السفر ، ومقسومة في الحرب ، وغير كاملة الهيئات والحركات في المرض المانع من الإتيان بكل حركاتها ، فذلك الأداء المحدد في الموعد المحدد خير من تأخيرها عن ميقاتها لتأديتها فيما بعد ، وهذا تنظيم يبلغ وربط حكيم بين الوقت والعمل المخصص له .

وهذا هو الصيام ، لم يكتب الله علينا فيه مطلق صوم ، ولم يكلفنا بمدة صوم مجهولة أو متروكة لتقدير كل إنسان ، بل نظم ذلك وحدده ، فقال تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات » أى محدودات معينات بالعدد ، وهي أيام رمضان الذي ذكره عقب ذلك بقوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . وزاد الإسلام الصوم تنظيماً وتحديداً ، فجعل لبدايته حداً معلوماً هو الفجر ، ولنهايته حداً معلوماً هو غروب الشمس ، وتلت السنة القرآن في تحديد مدة الصيام فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام عن الهلال : « صوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً » .

والزكاة وهي نصيب الفقراء في مال الأغنياء ، وهي المعلوم للسائل — لم يتركها الله سبحانه غامضة مبهمه ، ولم يكلها في مقاديرها أو مواعيدها إلى النفوس التي قد تشح وقد تبخس ، بل حدد الإسلام مواعيدها ومصارفها ، وأحصت السنة النبوية الأشياء التي تجب فيها ، وفصلت الكثير من أمورها ، وفي القرآن الكريم قوله عن الزرع : « وآتوا حقه يوم حصاده » فزكاة الزرع تجب يوم القطاف والجنى ، وزكاة المال تجب عندما يحول عليه الحول ، ويتم

على حيازته العام ، والمقدار معلوم ، فهو في زكاة الزرع إما العشر ، وإما نصف العشر وهو في زكاة المال ربع العشر ، والمستحقون للزكاة ثمانية أصناف حددتهم سورة التوبة ، وذلك هو عين النظام .

ثم يأتي الحج ، ذلك الفرض في العمر مرة واحدة ، لم يدعه الله للهوى والاختيار ، بل حدد وقته ، ونظم عمله ، ورتب شئونه ، ودعا الناس إليه في وقت واحد ومكان واحد ، والقرآن الكريم يقول : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » . فيؤدى المسلم الحج في أشهره المعلومات المحددة ، وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والوقوف بعرفة يجب أن يكون في اليوم التاسع من ذى الحجة ، وبقية المناسك في أيام العيد ، وبعد الآية السابقة بآيات يقول القرآن : « واذكروا الله في أيام معدودات ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » والأيام المعدودات هي الحادى عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذى الحجة ، وهي الأيام المعينة المحددة لرمى الجمرات ونحر الضحايا والهدى ، وقد جمعت الآية بين التحديد وبين التوسعة الخفيفة ، فمن فعل ذلك في اليومين الأولين جاز ، ومن تأخر إلى الثالث جاز ، ولكنه لا يخرج عن الثلاثة .

ولو استعرضنا أمور الزواج والطلاق والتفقة والعدة والرضاع والحضانة والمعاملات المختلفة في الإسلام لوجدناها مقامة على التنظيم والتنسيق ، فلها شروطها وحدودها ومواقبتها وأوضاعها الخاصة والتميزة ، وهذا كله يوحى إلى المسلم بأن يكون في أمره كله على نظام ، لأن النظام يوفر الجهود ، ويضعف الثمرة ، بينما تذهب القوضى بالخيرات وتقضى على الثمرات : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : ما أحوجنا في حياتنا الخاصة والعامة إلى النظام ، فالمعلم محتاج إلى النظام كي يحسن التعليم والتقويم ، والعامل محتاج إلى النظام كي يتقن أداء واجبه ومضاعفة إنتاجه، والتاجر محتاج إلى النظام لينسق سلعه ويرتب بضائعه ، فيصونها ويحيد عرضها ، ولا يخلط العسل بالخل ، ولا السكر بالملح ، والتلميذ محتاج إلى النظام ليؤدي واجباته المدرسية في موعيتها ، ولا يؤخر عمل اليوم إلى غد ، والدولة ، لا بد لها من النظام ليقوم كل موظف فيها بأداء واجبه في موعده بلا تسويف أو تأخير ، فلنتواصل بالنظام ، ولنحرص على النظام ليستقيم لها أمرها وتبلغ فيما ترجى الأمل المنشود ولنصبر عليه ولنندوم فيه فإنه طريق الحق والخير ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

الإسلام ومكافحة الأمية

الشعب المصرى شعب متدين يؤمن برسالة السماء ؛ وهذا الشعب يرحب لتدينه بكل فكرة يرى أنها تتفق مع تعاليم ما يؤمن به من دين ، فإذا خرج عليه المصلحون بمشروع جديد ، أو إصلاح ما فى ناحية من النواحي ، تساءل الشعب أولاً ، ولو بينه وبين نفسه ، عن صلة هذا الإصلاح الجديد بالدين : أيتفق معه أم يختلف ؟ يأمر به الدين أم ينهى عنه ؟ . . . وعلى مقدار المنزلة التى يحتلها هذا المشروع من الدين واحتفاله يكون مقدار الإقبال عليه من الشعب ! . . .

وبعد ، فإلى أى حد عنى الإسلام بالتعليم ؟ . .

يكفى أن يعلم القارى " أن أول آية نزلت من القرآن الحكيم على الرسول الكريم كانت أمراً بالقراءة ، وتذكيراً بنعمة التعليم التى منحها الله للناس ، وفى ذلك ما فيه من التنبيه على الاعتناء باستثمار هذه النعمة حتى لا تضيع ، فقال عز من قائل : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ! » . . . وتعجبنى فى هذا المقام كلمة لكبير من أدبائنا يتحدث فيها عن مكانة التعلم والتعليم فى الإسلام ، وفيها يقول : « . . . وفى تاريخ الإسلام ما يحير القارى من الحث على العلم والدأب على تحصيله والولوع به ، واحتمال المشقة فى سبيله ، والرحلة إلى الأقطار البعيدة من أجله ، والتنافس فيه ، فقد جاء الإسلام داعياً إلى العلم ، حاثاً على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وسمى دستور الكتاب والقرآن ، وكانت أول كلمة نزلت من القرآن (اقرأ) . وحمل العرب أمانة الإسلام ورعوا سنن القرآن ، فاجتمعت الأمم فى رعايتهم على

حب العلم وطلبه ، والكد فيه والدأب عليه ، حتى صار العالم الإسلامي كله كمدسة واحدة ، يجد معلموها ومتعلموها في التعليم والتعلم ، ويقوم عليها خلفاء وأمراء وكبراء يبذلون من مالهم وجاههم لأولى العلم ؛ وقد بلغ الخلفاء بالعلم والعلماء منزلة التقديس ؛ وأثرت عنهم في هذا سير لا يعرف الزمان نظائرها ، ولا يعي التاريخ أشباهها ، فهذا هرون الرشيد يصب الماء على يد عالم ضرير ، ويقول إنه يفعله إكراماً للعلم ، وولده الأمين والمأمون يتنافسان في تقديم النعيلين لأستاذهما الكسائي ، والخليفة المعتضد بالله كان يطوف يوماً في بستانه وهو آخذ بيد ثابت بن قرة الحراني ، فجنبتها دفعة وخلها ، فقال ثابت : « ما بدا يا أمير المؤمنين ؟ . قال : كانت يدي فوق يدك والعلم يعلو ولا يعلى عليه ! » .

ومن الواضح الجلي أن القراءة هي الوسيلة الغالبة التي توصل إلى المعرفة والعلم ، وقد رفع الله من شأن العلم في كتابه الحكيم ، ودعا إليه وحث عليه وأمر به ، فقال : « قل رب زدني علماً » . وقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . وقال : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » . وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ، إلى غير ذلك من الآيات التي تبين لك كيف احتفل القرآن بالعلم وشأن المتعلمين ! .

وجاءت السنة النبوية الكريمة من وراء القرآن الحكيم تحبب وترغب في التعلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . وخرج عليه الصلاة والسلام ذات يوم فرأى مجلسين ، أما الأول ففيه جماعة من الناس يدعون ربهم ويرغبون إليهم ، وأما الثاني ففيه جماعة يعلمون الناس ، فقال صلوات الله عليه : « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى ، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت

معلما ! « ثم عدل إليهم وجلس معهم ! . . وقال صلى الله عليه وسلم : علي خلفائي رحمة الله . قيل : ومن هم خلفاؤك يا رسول الله ؟ . قال : الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله ! . .

وروى الإمام الغزالي عن معاذ بن جبل في فضل العلم ما يأتي - قال : ورأيت مرفوعاً - : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قرينة وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأئلاء ، والقريب عند الغرياء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير سادة قادة هداه يقتلهم بهم ، أدلة في الخير تقتني آثارهم وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة في خلقتهم ، وبأجنتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس يستغفر لهم ، حتى حيطان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، به يبلغ العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكير فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل ، وبه يعبد وبه يوحد وبه يمجّد وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو لإمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء ! » .

ولقد كان لعناية المعلم الأول صلوات الله وسلامه عليه بالتعليم أثر كبير في صحابته وأتباعه ، فتخرجوا في مدرسته الكبرى وهو يؤمنون أعمق الإيمان بما للتعليم من آثار ، وما للعلم من فضائل ، فهذا هو ذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضی الله عنه يقول : « العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، المال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق » . ويقول عبد الله بن المبارك : « عجبت لمن لم يطلب العلم كيف

تدعوه نفسه إلى مكرمة ! » . ويقول أبو الدرداء : « كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ، ولا تكن الرابع فتهلك ! » .

والمطالع للسيرة النبوية الكريمة لا ينسى ذلك الموقف الجليل والعمل الخالد الذي نصر به الرسول قضية التعليم ، ورفع به من شأن القراءة والكتابة ، وأرى الدنيا كلها أن تعلم القراءة والكتابة أجدى وأنفع من المال والسلاح والمتاع . . . ذلك أنه حدث أن أسر المسلمون جمعاً من المشركين في غزوة بدر ، وكان المسلمون يومئذ لا يزالون قلة في عددهم وعدتهم ، وهم أحوج ما يكونون إلى المال والطعام ، وجاء وقت الافتداء ، فنادى الرسول العالم في هؤلاء الأسرى أن من كان منهم يجيد القراءة والكتابة ففداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين الأميين ؛ فعل ذلك بينما كان يستطيع أن يفرض عليهم الأموال الكثيرة ليغني بها نفسه وقومه ودعوته ؛ لكنه صلوات الله عليه فضل تعليم القراءة والكتابة لأهله وصحابته على زينة الدنيا وأموالها وعتادها ؛ وما كان في ذلك إلا حكيماً بعيد النظر ، إذ هو يعرف أن انتشار القراءة والكتابة في صفوف أتباعه سيقفهم على أسرار الحياة ، ويمكنهم من المعارف ، ويصلهم بما في الكون من خفايا ، ويفتح أمامهم أبواب الثقافة والعلم التي تجعلهم أئمة ، وتجعلهم الوارثين لقيادة الشعوب بنور العرفان .



أما وقد أبنا منزلة التعلم في الإسلام بإيراد جانب من الآيات القرآنية الشريفة والآثار النبوية الكريمة وأقوال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، ومواقف السيرة المشهورة ، فلنتقل إلى الفوائد التي يراها العقل في هذا المشروع الجليل ، ويرى أنها وسيلة فعالة إلى خدمة الإسلام ونشره ، وتصحيح فكرة الكثيرين عنه ، وهدايتهم إلى ما فيه من أسرار وتعاليم . . .

لا ريب أن الرجل العاى الأى الجاهل لا يستطيع أن يأخذ عن الدين المشتمل على عميق الأشرار ودقيق المعانى وسامى التشريع إلا فكرة مبهمه عامه قد تكون بعيدة عن الحقيقة فى بعض المواضع إن لم نقل فى أكثرها ، فهو لا يفهم من الدين إلا أنه فروض تؤدى فى صورة تقليدية لا روح فيها ، وكلمات يرددها دون أن يفهم لها معنى ، ولكنه لو تعلم القراءة والكتابة ، واستطاع أن يزيد فى ثقافته يوماً بعد يوم بالمطالعة والاستماع ، لأمكنه أن يقف على أسرار ذلك الدين العظيم ، وأن يتصل بروحانيته ، وأن يتأثر بجماله وجلاله ، فيتأصل لإيمانه ، ويقوى يقينه وتصح عقيدته ، ويصبح مسلماً مؤمناً بمعنى الكلمة ! . . .

استحضر فى ذهنك الآن صورة ذلك الفلاح الأى وهو يدخل الصلاة ، ويتلو الفاتحة كما حفظها تلقيناً من ذلك الواعظ أو الفقيه ، فهل تراه يفهم معنى ما يتلو ؟ وهل تظن أنه يتأثر بهذا الموقف الإسلامى الرهيب وهو يركع ويسجد ويسبح ويدعو ؟ وهل تراه يقيم كبير وزن من ناحية الإدراك والفهم لهذه الأعمال ؟ . . أنا لا أخالفك فى أن إخلاصه وإيمانه متوافران ، ولكنى أعتقد أنه لو تعلم ووقف على معنى ما يقول وما يفعل لأزداد تأثراً وازداد خشوعاً ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » كما يقول القرآن الكريم .

واستحضر فى ذهنك صورة ذلك المؤذن وهو فوق منبذة المسجد العالية ، يدعو الناس ويهتف بهم : حى على الفلاح ! حى على الفلاح ! . . أعتقد أن العاى يدرك إدراكاً صحيحاً تلك الهتافات الرائقة التى يرددها المؤذن مذكراً بكبرياء الله وعظمته ووحدانته ، وداعياً الناس إلى الهدى والفلاح ؟ .

ثم لعلك تسلم معى أن الوقوف على تعاليم الدين وأحكامه ومسائله يحتاج إلى دراسة طويلة تستغرق من الزمن جانباً طويلاً ، وهذه الدراسة تتمثل فى تفهم القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وكلها باللغة العربية الخالصة ،

وتفاسيرها وشروحا كذلك ، فلو أن ذلك الأحمى تعلم القراءة والكتابة لاستطاع أن يستغنى عن غيره في فهم دينه ، ولأمكنه أن ينيء إلى القرآن الكريم وتفاسيره ، وإلى الحديث النبوى وشروحه ، فيجد هناك الغذاء والدواء والشراب الطهور ؛ ولأصبح من السهل على ذلك العاى أن يقوم لسانه بكلمات القرآن ، فينطقها في صحة وضبط ، بدل أن يرطن بها كما يرطن الإنسان بلغة غيره من الناس ، دون أن يدرك ما يؤدي إليه اللحن والتحريف من تغيير وتبديل في المعنى لا نستطيع أن نحدد أخطارهما في هذا المجال . . .

وأذكر بهذه المناسبة أننى سمعت فلاحاً في قرينتنا «البعجلات» يتلو في الصلاة : «أهدنا الصراط المستكين» بدل أن يقول : «أهدنا الصراط المستقيم» فحاولت أن أصحح له قراءته ، فتأبى على قائلها : «وايه يعنى الفرق بين المستكين والمستقيم ؟ : آهى كلها من بعضها يا سيدى !» . . . فقلت له : إن الطريق المستكين هو الطريق الذليل ، وهو طريق الكافرين ، أما الطريق المستقيم فهو الطريق المعتدل طريق المؤمنين ! . . . فتظاهر الرجل بأنه فهم ليرضىنى ، ثم ولى مدبراً وأنا يغلب على ظنى أنه ما فهم ، وأنه سيقم على قوله : «أهدنا الصراط المستكين» ! .

هذا وبعض علماء المسلمين يشترطون في خطبة الجمعة التى تلقى كل أسبوع ، فى كل مسجد ، فى كل بقعة من بقاع الوطن الإسلامى ، ويسمعوها كل مسلم ، أن تكون باللغة العربية الفصحى ، والأميون بيننا - وهم الأكثرية لا يستطيعون أن يتابعوا الخطيب فى موضوعه ، ولا أن يحيطوا بفكرته ، وكثيراً ما يفهمون كلام الخطيب على عكس ما يريد ، لأنهم أميون ، وما يلقى بلسان عربى مبین !.. فلو أن هؤلاء الأميين تعلموا القراءة والكتابة ، وأدركوا معنى اللغة الفصيحة ، لسهل عليهم أن يفهموا معانى الخطبة ، وبذلك

يقفون على كثير من أسرار دينهم وحوادث مجتمعاتهم ، فيزداد الدين في نفوسهم وضوحاً ، ويكسب الوطن خيراً كثيراً .

وهناك الفضائل الدينية والأخلاق الإسلامية ، كالصدق والعفة والأمانة والوفاء والشجاعة والتضحية والاخلاص ، وغير ذلك ؛ كل هذه الأخلاق الفاضلة لا يستطيع الأحمى الجاهل أن يدرك قيمتها ويعرف منفعتها إلا بدراستها وتفهم سمو غايتها ، وكذلك تراه يستقلها ويفر منها . وكثيراً ما يحاول التبديل فيها والخروج بها عن دائرتها المرسومة لها ؛ وكذلك يقول بعض الباحثين في الأخلاق : « من لم يتعلموا النظريات الخلقية لا يعرفون كيف يتصرفون في المواقف المختلفة ، ولا كيف يواجهون المشكلات المتعددة ، فيخطئون ؛ ولا كيف يستفيدون من تجاربهم ، فلجهاهم بالشئون الخلقية يميزون الكذب مثلاً لمصلحة ، ولا يعتبرونه شراً ورذيلة ولا يتورعون عن ملاسته مستترين خلف تلك القولة الشائعة : « الكذب جائز لمصلحة » . أما أولئك الذين أتبع لهم الإلمام بمسائل الأخلاق فلا يسعهم إطلاق مثل هذا الحكم لما يعلمون من عدم إباحة الكذب في حال من الأحوال حتى في أتفه الأمور وأصغرها ، إلا في الصلح بين المتخاصمين وفي سياسة الحروب . . . إلخ .

إن توجيه الإرادة نحو الخير يتحقق بمعرفة الخير ومزاياه والشر ومساوئه ، فجمال الفضيلة ومعرفة وسائلها وعواملها وطرائقها يغرى بابتغائها ، ويوحى للإرادة بالعمل في سبيلها ، وقبح الرذيلة ومعرفة آثارها الوخيمة وعواقبها المؤلمة يصدان النفس عن قربها ، والإرادة عن مباشرتها ؛ فن عرف الفضيلة ووقف على جمالها وجلالها ، ودرس طرقها ووسائلها ونتائجها ، وكان مستعداً لها سعى لها سعيها وهو مؤمن بها موثق بخيرها ، وأبعد إرادته عن الشر جهده ، لأنه درس عقباة وعرف آثاره . . . وإذا ذكرنا أن الفضائل والأخلاق

الشريفة هي عماد الإسلام ، وأنها سر بقاء الأمم ، أدركنا ما لتثيتها في النفوس عن طريق العلم والمعرفة من تحتم ووجوب لازمين لزوم الهواء للأحياء ! .

وكذلك حينما نذكر قول الحق تبارك وتعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ونعرف أن الجهل هو الدابة العمياء التي تقود الإنسان إلى مهاوى الفساد والهلاك ، ندرك ما للتعليم من قيمة في توجيه المرء إلى ما يعصمه من الانغماس في الموبقات ، أو الانغمار في الأوباء ، أو السير نحو الفناء ، دون شعور أو إحساس ، وليس كالجهل فهو يعمى ويردى ويهلك ، حتى لقد صدق أحد الكاتبين حينما تكلم عن مكافحة الأمية في مصر فقال :

« وماذا يصنع التيفود والتيفوس والملاريا والرمذ والانكلستوما والبلهارسيا أشد مما تصنعه الأمية بإخواننا المصريين المساكين من فلاحين وعمال وصناع وتجار وجنود وشرطة ؟ . . إن هذه الأوبئة التي ذكرنا ، وغيرها مما لم نذكر ليس مصدرها الميكروب كما يزعم الأطباء ، وإنما تلك الأمية التي تغشى عقول هذه النسبة العالية من اخواننا المصريين البائسين ! . . إن الفلاح الذي يشرب من البركة الراكدة ، والفلاحة التي تغتسل في البركة ، إنما يصنعان ذلك بعامل الأمية التي حالت قسوة البلاد ونومها الطويل الذي نامته دون إنقاذ غالبية الشعب من برائتها ؛ وإن المرابي الذي يفتال أموال الفلاحين وغير الفلاحين من طبقات الشعب إنما يفتالهم من طريق أميتهم التي رانت على أبصارهم ، وناءت على عقولهم ، وحجبت عنها النور بتلك الطبقة الكثيفة من السذاجة والغفلة والجهل الميين ! » .

وإذن فتعليم الأميين القراءة والكتابة إنما هو حفظ لأغلبية الشعب من أن تلقى بأيديها إلى التهلكة ، وبذلك يكون هذا التعليم تنفيذاً لأمر إلهي أنزله الله في صميم كتابه الحكيم ! . .

حرب على الاسلام

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أشهد أن لا إله إلا الله ، أتم النعمة وأكمل الملة : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وترك الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله المستجيبين لربهم ، وأصحابه المعترزين بيقينهم ، وأتباعه الثابتين على دينهم وإيمانهم : « الذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كم تود النفس المؤمنة أن تجد من حولها متنفساً تستريح فيه ولو إلى حين - من الشكوى والأنين ، وكم يتمنى المسلم الغيور أن لو استقام أمامه الطريق ، حتى يهدأ ويطمئن ، ويخلص للتحدث بنعم ربه ، والتأمل فى جمال كونه ، والاستمتاع بما شرع الحكيم العليم من أسباب الخير ووسائل النعيم ؛ ولكن ماذا يصنع المرء وهو لا يكاد يخلو من شجن حتى يصطدم بشجن ، فيظل مرغماً على مواصلة التوجع والبكاء ؟

يقضى على المرء فى أيام محتته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

ماذا يصنع المرء والشواهد تتكاثر من حوله دالة على أن هناك حرباً واسعة منظمة ضد الإسلام وتعاليم الإسلام وأخلاق الإسلام ، وأن هذه الحرب

(١) القيت فى يوم الجمعة ٢٠ شوال سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٦ من مايو سنة ١٩٥٨ م

تسفر عن وجوهها الكالحة وأساليبيها الخبيثة الفاضحة في كل مناسبة وكل مقام ،
ويظهر لها جنود وأنصار وأتباع ، ويتسع نطاقها يوماً بعد يوم بما تعان به من
السنة وأقلام ، وصحف ومجلات ، وكتب ونشرات ، وأعوان وأموال ،
وبما تتفنن فيه تفنن الشياطين من مكائد ومفاسد ، ودعوات ومحاولات ،
تتوسل بها جميعها لكي يصبح هذا الدين نسياً منسياً ، وبعدها يقترف هؤلاء
ما يشاءون ! . . .

ليتكم تستمعون واعيّن إلى جانب من فصول هذه المأساة التي لم تتم بعد ..
إن هؤلاء قد بدأوا محاولاتهم بالطعن في علماء الدين والتندر عليهم والسخرية
منهم ، ولم يكن قصدهم من وراء ذلك أن يشوهوا علماء الدين بنذواتهم
وأنفسهم ، فقط ولكنهم يقصدون تشويه الدين بتشويه حملته ونقلته ، حتى
يصبح سلطانه في النفوس ضعيفاً ضئيلاً ، وقد يكون في رجال الدين ما يؤخذون
عليه ولكنهم على اكل حال يستطيعون أن يميزوا لنا بين الحلال والحرام ،
ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . . . ثم انتقل أعداء الإسلام من الطعن
في العلماء إلى الطعن في الفقهاء وأئمة المذاهب الأعلام ، فأخذوا يكتبون في
صحفهم ومجلاتهم ، ويقولون في مجتمعاتهم وأنديتهم ما لا يصح أن يقال في
هؤلاء الأئمة الكرام والرواد العظام الذين مهدوا لنا الطريق وبنوا الشريعة ،
وجعل هؤلاء المتطاولون يصفون الكثير من أقوال الأئمة ومذاهبهم بالجمود
والرجعية وضيق الأفق ، ولو نصبت موازين الحق والعدل لما صلح أحد
هؤلاء المهاجرين أن يكون تلميذاً صغيراً لواحد من أولئك الأئمة الخالدين . .
ثم انتقلوا إلى الطعن في حديث الرسول صلوات الله عليه ، فأخذوا يكتبون
في صحفهم ومجلاتهم يشككون في الأحاديث ويطعنون عليها . ويحكون على
أحاديث رواها الإمامان البخاري ومسلم بأنها موضوعة أو باطلة أو لم يقلها
الرسول ، وهم يحاولون من وراء ذلك أن يبطلوا الاحتجاج بالسنة والاستدلال
(م ١٧ — خطب ج ١)

بالأحاديث ، ليكون ذلك فصلاً هاماً من فصول المسألة المبكية وهي محاولة القضاء على الدين . . . وأغلب الظن أنه إذا استمرت الحال على ذلك دون ردع لهؤلاء من ولاية الأمور أو احمرار من عين الدولة فإن الخطوة القادمة منهم ستكون هي نقد القرآن والظعن فيه بصراحة ، فيبلغون قمة الإجماع ويقولون مثلاً عن آيات من القرآن لا تعجب فجورهم وتحللهم : هذه آيات مكذوبة ، أو هذه آيات غير سليمة ، أو هذه آيات استنفذت أغراضها ، أو هذه آيات شرعت لحياة الصحراء لا لحياة المدنية ، أو هذه آيات لأبناء القرن السابع لا لأبناء القرن العشرين ! . . . وهكذا . . . وهكذا تتم المسألة وتقبل الطامة الكبرى ! . . .

أنظنون أنهم لا يفعلون ؟ . . . وكيف وقد فعلوا ذلك بطريق غير مباشر أو من وراء ستار ! . . أليست دعواتهم التحليلية والإلحادية التي يرددونها الآن دليلاً على إنكارهم لتشريع القرآن وهدى السماء ؟ . . إنهم مثلاً يشككون الناشئة في وجود الله عز وجل ، أفليس هذا إنكاراً منهم لقوله عز وجل : « فأينا تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » ؟ . . وهم ينادون بمنع تعدد الزوجات إطلاقاً ، ومعنى هذا في زعمهم الأئيم أن نلغى قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » . . وهم يطالبون بإلغاء الطلاق ، ومعنى هذا في باطلهم الأئيم أن نلغى قوله تعالى : « إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة » . . وهم ينادون بالتسوية المطلقة الشاملة بين الرجال والنساء ، مدعين أنه لا فرق بين النوعين في أى شأن ، مع أن الله خلقهما نوعين : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ، « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » ، وليس الذكر كالأنثى ، وأشار القرآن الكريم إلى الذكر والأنثى في نحو سبعة عشر موضعاً منه . . . وإذن فالطبيعة البشرية قائمة على ذكر وأنثى ، وستبقى مكونة من ذكر وأنثى ، وكلما استأنث الرجال ،

أو استرجل النساء ، أو طغى أحد الفريقين على الآخر في حق من حقوقه أو اختصاص من اختصاصه فسدت هذه الطبيعة ؛ فن التبجح أن يقال إن الرجل والمرأة سواء في كل شيء ، لأن الله تعالى لا يخلق نوعين متمايزين وهو يريد أن يكونا متساويين في كل شيء ، وإلا لكان ذلك عبثاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . . وهم يطالبون بأن يكون نصيب النساء في الميراث كنصيب الرجال فإذا نصنع في قوله تعالى : « للذكر مثل حظ الأنثيين ؟ . . . وهم يطالبون بإلغاء رعاية الرجل للمرأة ، فإذا نصنع في قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء » وقوله : « وللرجال عليهن درجة » . . . وهم يعملون لإشاعة التبرج وإظهار مفاتن النساء ، فهل نلغى قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن » ؟ . وهم يطالبون بإبقاء الخمر مباحة حلالة ، فهل نلغى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

أرأيتم ماذا يريدون وماذا يحاولون ؟ . . . إنهم يريدون ألا يبقى من الدين شيء . ولذلك أصبح الذين يتحدثون في دين الله على صفحات الجرائد والمجلات المتحللة هم الذين لا يؤمنون بالدين ولا يؤمنون بوجود الله ، أصبح الذين يفصلون في أمر الحديث النبوي هم الذين لا يعرفون النبي ، أصبح الذين يتحدثون عن القرآن والأخلاق والأعراض هم الذين لا يغارون على الأعراض ولا يؤمنون بالقرآن ولا بالأخلاق والبقية تأتي ، فإن الرواية لم تتم فصلاً . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن أعداء الله وأعداء دينه ورسوله يبذلون الجهود الجبارة للقضاء على الإسلام وإخراج المؤمنين من دينهم إلى ساحات الإلحاد ومواخير الفجور فابدلوا جهودكم المستطاعة في

الإعراض عنهم والإقبال على ربكم ، ذاكرين دائماً أن ربكم يدعوكم إلى دار السلام ، ويهديكم إلى أكرم مقام ، وأن شياطين الفجور والإلحاد يدعونكم إلى الضلال والفساد : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » فاستمسكوا بدينكم ولو وجدتم في ذلك لدع الجمر أو لفح الهجير ، فلأن تكونوا مؤمنين معترزين بعزة الله مع التعب والنصب والمجاهدة ، خير لكم ألف مرة من أن تكونوا ذبولاً أو خيولاً يركبها هؤلاء الفاسقون ليصلوا بها إلى ما يشاءون من إلحاد وفساد ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

الإسلام ضد الإرهاب

الحمد لله عز وجل ، وزن الأمور بتقديره ، وأضياء الصدور بنوره :
 « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا
 عليكم بحفيظ » . أشهد أن لا إله إلا الله ، العدل دينه ، والاستقامة طريقه :
 « وعنت الوجوه للحى القوم وقد خاب من حمل ظلما » . وأشهد أن سيدنا محمداً
 رسول الله ، إمام البشرية ، فى كل خير ، وهاديها إلى كل بر ، فصلوات
 الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن تزكى
 فلنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : الإسلام دين الفطرة : « فطرة الله
 التى فطر الناس عليها ، لا تبدل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر
 الناس لا يعلمون » . وهذه الفطرة التى برأها الخالق جل جلاله وزكاه ،
 تهدى صاحبها بتوفيق الله وعنايته إلى سواء السبيل ، فتقوده إلى طرق الحق
 والعدل ، والخير والبر ، والإيمان والإحسان ، وهذه الفطرة الصافية الزاكية
 تعلم صاحبها أن التدين المستقيم ينشأ من النظر فى ملكوت السموات والأرض ،
 والتدبر فى آيات الله وآلائه ، وهذا يهدى إلى الشعور بوجود الخالق ، وجلال
 البارئ المبدع ، ويتساند القلب مع العقل فى التعرف إلى شواهد الإيمان
 ودلائل اليقين ، فإذا الإنسان عبد من عباد الله المخلصين بلا قسر ولا إكراه
 ولا إرغام . وإذا جاز لنا أن نتصور الإكراه موجوداً فى ناحية من نواحي
 الحياة ، فإن هذه الناحية ستكون بعيدة عن حقيقة التدين والإيمان ، لأن التدين
 شعور ووجدان ، ولأن الإيمان يقين ينبعث عن اقتناع وتصديق ، والقرآن

(١) أقيمت بمسجد الرفاعى فى يوم الجمعة ٢٨ من جمادى الأولى

سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٦٥ م

الكريم يؤكد هذا بوضوح حيث يقول : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ، وحيث يقول : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليفكر » وحيث يقول : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » .

وليس في المسلمين أعلى شأننا أو أرفع مكاناً من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فهو رحمة الله للعالمين ، وهو البشير النذير ، وهو السراج المنير ، ومع ذلك يحدثنا القرآن بأن الله تبارك وتعالى طالب نبيه بأن يكون بعيداً عن معاني الإكراه والإرغام والتسلط ، لأنه داعية إلى عقيدة ، ورائد إلى الطريق ، فعمدته البيان والتذكير والإقناع ، فقال له : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ، وقال له : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ . ورسم له طريق دعوته ، ومنهج تبشيره ، وأسلوب تبليغه ، فلم يجعل عماد ذلك الغلظة أو الفظاظة أو الإرهاب ، وكيف وهو الذي قال له : « فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . بل جعل طريقته متمثلة في قوله : « أذع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . وقد أمر الله عباده بأن يكونوا أمثلة للرقة والملاطفة حين الدعوة ، حتى مع المخالفين لهم في الدين ، فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » . وأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقول لمخالفيه في الاعتقاد ، متلطفاً في الحوار : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » .

والإسلام في دعوته الواضحة وطريقته الصريحة دين لا يعرف التخفي في الظلام ، ولا يعرف الالتواء والإبهام ، إنه دين يمشى في وضوح النهار ، ويضئ طريقه بالعشى والإبكار ، وهذا هو القرآن يخاطب الرسول قائلاً : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » فهو يدعو على بصيرة ،

ويدعو على نور ، ويدعو بلا استتار أو ائثار ، ويدعو إلى طريق الاستقامة وحسن المعاملة وكريم المسالمة ، فالرسول يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمن الناس بوائقه » أى آمنوا من اعتدائه عليهم في حواسهم أو نفوسهم . والإسلام يعادى المناجاة الباطلة الشريرة فيقول : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . ويحمل القرآن على النجوى الظالمة الآئمة التي يكون فيها شر أو معصية أو عدوان ، فيقول : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ؟ » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون ، إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والميل إلى الإكراه والإرهاب يؤدي إلى العدوان على الغير في حسه أو نفسه أو ماله أو أشياءه ، والإسلام يقف في وجه الاعتداء على الغير بكل صرامة وقوة ، فهو يحرم تهديد الناس في حياتهم أو أمنهم أو ممتلكاتهم أو معتقداتهم ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » . بل أخبر النبي أن حرمة الإنسان المؤمن عند الله أكبر من حرمة الكعبة الحرام التي جعلها الله تعالى قياماً للناس وقد كرر القرآن الكريم النهي عن الاعتداء على الغير بمثل قوله عز من قائل : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . والميل إلى الإكراه والإرهاب يدعو صاحبه إلى التحريف والتضليل حتى يتلمس لنفسه حسب زعمه وهو مستنداً يعلل به عدوانه وبغيه ، فينحرف في التأويل ، ويعتسف في التعليل ، وقد

يفسر النصوص الدينية على غير وجهها ومرماها، والقرآن الكريم يهدد ويتوعد من يحرف أو يضلل أو ينقل عن الله تعالى ما لم يأمر به ، أو يقول في الدين ما ليس منه ، وهذا هو كتاب الله عز وجل يقول في طائفة لم تسلم وجهها لله ، ولم تؤمن بالإيمان الحق ، وادعت أنها على الحق تسير : « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب ، لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الدين الإلهي نعمة ورحمة ، وسلام ومحبة ، وإيمان وإحسان ، ومعاملة واستقامة ودعوة بالحكمة ، وإقناع بالحجة : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . وإن المسلم الحق هين لين ، وإلف مألوف ، كما يقول الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه . والله تعالى يصور عباده الأبرار بصورة شفاقة جميلة فيقول : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » وهو القائل لهم : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

السبق للإسلام

الحمد لله عز وجل ، هو ولي الرشاد والتوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق ، نشهد أن لا إله إلا الله ، لا نصر إلا به ، ولا اعتماد إلا عليه : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أصلح الفساد ، وهذب العباد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ، وذلك جزاء المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

في الأمة الإسلامية أفراد تربوا على غير مبادئها السليمة وأهدافها القويمة وترونها يحسبون منها وينسبون إليها ، وهم لا يؤمنون ولا يثقون فيها ، بل تنجده تقثم إلى كل شيء يأتي من الخارج ، حتى فيما يتعلق بالقلوب والعقول ، أو يتصل بالوقائع والتاريخ ، وهم على سبيل المثال ما زالوا يتمدحون بالثورة الفرنسية ، ويعتبرونها أكبر حادث قرر حقوق الإنسان ، مع أن الشمس في هذا المجال بيد أمتهم فكيف يتركونها إلى مصباح دخيل ضئيل ؛ فلقد سبق الإسلام ثورة فرنسا وغيرها بمئات من السنين في تقرير حقوق الإنسان ، والدفاع عنها بقوة وإيمان ، ولم يكتف الإسلام بالنصوص يرددها ويلقيها ، أو يسجلها ويبقيها ، بل جعلها جزءاً من العقيدة لا تكمل صلة المرء بربه إلا إذا أقامها ورعاها ، ثم طالب أتباعه بأن يجاهدوا في سبيل تطبيقها وسيادتها وحسبنا في مبدأ الإخاء قول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم

(١) القيت في يوم الجمعة ٢٩ من مايو سنة ١٩٦٤ م .

أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وحسبنا في الحرية قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » وقول عمر وهو يترجم عن روح الإسلام أصدق ترجمة : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . وحسبنا في المساواة قول الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وقول الرسول : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » وقول عمر لجيلة الغساني حين أبي وهو ملك أن يقتص منه فرد عادى ضربه جبلة : إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشيء إلا بالتقوى والعافية .

وهناك بعد هذا اختلاف جوهرى كبير بين الدعوة الإسلامية والثورة الفرنسية ، يبين مدى الفرق بين عمل الإنسان وهدى الرحمن ، فقد كانت ثورة فرنسا حركة تمردية غاضبية . ليس لها منهاج معلوم ولا طريق مرسوم ، بل ضاق الشعب الفرنسى بظلم حكامه وترف كبرائه ، وبجاع حتى استبد به الألم من الجوع والحرمان ، فظن أنه ليس هناك أسوأ مما هو كائن ، فقام يهدم ويحطم ، ويقتل ويتخلص من الطغاة والحكام بلا تأن أو هوادة ، وشاعت الأقدار أن تنجح المحاولة ، لا عن بصر من أصحابها بالعواقب ، ولا عن طريق التدرج في الخطأ والمراتب ، بل لأن اللحظة كان مواتياً ، وانتهت ثورة فرنسا بمبادئها الثلاثة التي أذاعتها وتغنت بها ، وإن تكن فرنسا ذاتها قد خرقها ألف مرة ، ومآسى فرنسا السود في التاريخ كثيرة مريرة لا تنسى ، وحديث الأفاعى طويل المدى .

وأما الإسلام فكان على النقيض من ذلك . لم يكن ضربة عمياء ، بل كان إصلاحاً مبصراً ، ولم يكن حركة تمردية تهدم وتحطم ، بل كان إحياءاً للمشاعر وبناء للمجتمع ، ولم يكن خطوة طائشة غير محددة الهدف ، بل كان صراطاً

مستقيماً نزل به الروح الأمين ، من رب العالمين ، على قلب سيد المرسلين ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وما أوضح الرسول وأصرحه ، بل ما أحكمه وأرحمه ، حين وقف بين قومه في أول الدعوة يهتف قائلاً : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله الذي لا إله إلا هو لتموتن كما تمانون ، ولتبعن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً وإنما لجنة أبدا ، أو لنار أبدا .

لقد جاء الرسول قومه بهدى ربه ، وقد بلغوا ما بلغوا من انحطاط ووبار ، فأما بدلهم ما هم فيه من ضلال وخيال ، وما يجب أن يعملوا له من نجاة وخلص ، ورسم لهم الوسائل والسيب ، وحدد أمامهم الأهداف والمقاصد : من التوحيد والإخاء والعزة والفضيلة والعبودية لله وحده ، إلى آخر ما في الإسلام من مبادئ مقررّة مصورة ؛ ثم غرس الرسول بنور نبوته وتأيد دعوته ورباني كلمته هذه المبادئ في نفوس أتباعه ، حتى آمنوا بها وحرصوا عليها وعاشوا لها ، وأيقنوا أنه لا بد للعالم منها حتى يرقى ويسعد . ثم قاموا عن رشاد وسداد يجاهدون من أجلها ، ويبدلون دماءهم الزكية رخيصة في سبيلها ، حتى حققوها في ديارهم ، وفي الديار التي فتحوها باسم الإسلام على صورة لم نشهد لها مثيلاً في التاريخ ، وبهذا ظهر الفرق بين إصلاح الإسلام وبين حركة التمرد التي قد تنجح وقد تفشل ، وقد تؤدي إلى عكس المراد منها ، ولقد جاء الإسلام هدياً مرسوماً محدداً مؤيداً بالأدلة والشواهد ، موثقاً من حقه وصدقته ، فلا بد من نجاحه لأنه يمشي على نور ، فهو إصلاح يقنع العقول ، ويجذب القلوب ، ويفحم الخصوم ، ويرسم الطريق ، ويضع لكل

مشكلة علاجاً ، ولذلك قال الله تعالى لرسوله في القرآن : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ولعل هنا عظة كبرى يجب أن نأخذها عن الإسلام ، فالإسلام لا يريد من المصلحين أيما كانوا أن يسيروا في طرقهم كيفما اتفق ، ولا أن يتصرفوا بلا قاعدة أو منهاج ، ولا أن يقتصروا على مسaire الظروف والمناسبات ، بل لابد من معرفة الطريق أولاً : أين يبدأ ، وأين ينتهي ، ثم الإيمان باستقامته وتوصيله ، ثم الثبات عليه ، وبذل الجهد والطاقة لبلوغ نهايته ، ومن هنا قال القرآن : « يا أيها الذين آمنوا ، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ، وقال الرسول : قل آمنت بالله ثم استقم ! » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الإسلام العظيم الذي أضاء العالمين ما زال هو الإسلام : « لا تبديل نخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وإن الإسلام العظيم الذي اهتدت به الملايين ما زال صالحاً هداية ملايين أخرى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وهو لا يأتيكم باطشاً بل مناقشاً ، ولا يدعوكم إكراماً أو إرغاماً ، بل طوعاً وإكراماً : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

التفاضل بالعمل الصالح

الحمد لله عز وجل ، تفرد بالعظمة والكبرياء ، وتعالى عن الأشباه والنظراء : « ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يعز من اهتدى بهداه ، وينصر من لجأ إلى حماه : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله ، فضل أن يعيش عبداً من العباد ومسكيناً في المساكين على أن يكون ملكاً من الملوك أو طاغية من الجبارين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المهادين المهتدين ، وأتباعه الصالحين المصلحين : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كنا نظن أن أضواء الدين والعلم والثقافة قد هذبت أخلاق الإنسان ومشاعره ، وعلمته حقاً وصدقاً أن التفاضل بين أقدار الناس ليس بالحسب أو النسب ، بل بالتقوى والعمل الصالح والخلق الفاضل ، وكنا نظن أن التباهي بارتفاع الدرجات المادية والتعير بالوظائف الصغيرة مما مضى وانقضى إلى غير رجعة ، ولكن يظهر أن فريقاً من الناس لا زالت تعلق أبصارهم غشاوة الجهالة والجاهلية ، وتسامر عقولهم خواطر التكبر والعنجهية ، فهم يرون أنفسهم في علو ورفعة ما داموا في منصب أو مال أو جاه ، ويرون غيرهم من الناس أقل منهم منزلة ومكانة ، لأنهم أقل مالا أو وظيفة

فترى هؤلاء المتعاليين الشاخبين يحتقرون هذا أو ذاك أو ذلك من الناس لأنه كناس أو حمال أو حلاق أو دباغ ، أو غير ذلك من أصحاب الحرف التي

القيت في يوم الجمعة ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٨ من نوفمبر سنة ١٩٥٧ م

تواضع الناس على تسميتها خطأ بالحرف القليلة القيمة، مع أنه قد يكون من أصحاب هذه الحرف من هو أشرف نفساً وأطهر ذمة وأنظف يد أ من كثير من هؤلاء الذين طالت أعناقهم بغير حق ، أو غلظت أجسامهم عن طريق السحت ، أو كثرت أمواهم بوسائل الباطل ولست أنا الذى أقول لكم هذا ، بل هو ربكم ومولاكم الذى يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » والذى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » . ولست أنا الذى أقول هذا ، بل هو نبيكم ورسولكم الذى يقول : « الناس سواسية كأسنان المشط في الاستواء ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .

ويقرب من ضلال هؤلاء أنهم قد يعيرون بعض الناس لأنهم خدوم لغيرهم أو لفقر أسرهم ، أو لسواد ألوانهم ، مع أن الإسلام لا يفرق بين الأسود والأبيض ، ولا بين الخادم والمخدوم ولا بين الغنى والفقر في القيمة البشرية والمكانة الإنسانية ، ومحمد نبي المساواة يقول : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » والإسلام لا يمنع أن يكون كبير القوم القائد لهم عبداً أسود ، فيقول الرسول : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى » .

وإذا رجعنا إلى تاريخ السلف الصالح وجدنا من اللامعين البارزين بين الصحابة طائفة كان أفرادها في الأصل عبيداً ، أو كانوا يمتنون مهناً ليست مرموقة المكانة أو ملحوظة الشأن ومع ذلك كانوا أئمة أعلاماً ، ومنهم زيد ابن حارثة وبلال الحبشى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى . . . زيد بن حارثة الذى كان عبداً وأسلم ومع ذلك يقول الرسول عنه إنه من أحب الناس إليه وبلال بن رباح الحبشى مؤذن الإسلام الذى يخبره الرسول بأنه قد سمع خفق نعليه بين

يدى الرسول في الجنة^(١) ويقول الفاروق عمر بن الخطاب عن بلال :
« أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » يعنى بلال بن رباح ! . . ، وسلمان الفارسي
الذى سئل عن نسبه فقال أنا ابن الإسلام والذي أخبره النبي بأن الجنة تشناق
إليه ، وصهيب الرومي الذي يقول فيه النبي : « نعم العبد صهيب ، لو لم
يخف الله لم يعصه » .

ومنهم أنس بن مالك الذي كان خادماً للرسول ودعا له النبي فقال :
« اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه » . ولما مات أنس قال مورق : « ذهب
اليوم نصف العلم » قيل له : كيف ذلك ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء
إذا خالفنا في الحديث قلنا : تعال إلى من سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم (يعنى
أنس بن مالك) . ولم يفرق الإسلام بين بلال وأبي بكر ، ولا بين صهيب
وعمر ، ولا بين سلمان وعمان ! . .

ثم مالنا نذهب بعيداً وأمامنا أفضل قدوة وأعظم أسوة ، وهو رسول الله
عليه صلوات الله : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة . . . لقد كان
محمد سيد الإنسانية وإمام البشرية راعياً للغنم ، ونشأ يتيماً بلا أب ثم بلا أم ،
وكان يصف أمه بأنها كانت امرأة تأكل القديد بمكة ، وكان وهو نبي مرسل
لا يأنف أن يحلب الشاة ، وأن يخلص النعل ، وأن يرقع الثوب ، وأن
يجمع الحطب ؛ فهل يجرؤ حقير أو صعلوك على أن يعيب محمداً لأنه كان
يقوم بهذه الأعمال التي يحسبها المتغطرسون من حقائر الأشياء ؟ ! . .

(١) ثبت في صحيحى البخارى ومسلم: أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال لبلال : « دخلت الجنة فسمعت خشف نعليك بين يدي »
(تهذيب الأسماء للنووي ج١ ص ١٣٧) .

ومتى كانت الحرفة - مهما كانت منزلتها - سبباً لعيب صاحبها ، وقد قيل : « رب حجام أو دباغ أو نساج أو بقال هو عند الله وعند نبيه خير من قرشى أمير أو ملك » ؟ ! ومن يدرى فقد يصير هذا المتواضع في حرفته ، المستضعف في حياته ، سيداً وقائداً لغيره من المتطاولين عليه ، أو المستخفين به ، والشاعر يقول :

لا تحقرن أمراً قد كان ذا ضعة فكم وضيع^(١) من الأقوام قد رأسا
فرب قوم جفوناهم فلم نرهم أهلاً لخدمتنا صاروا لنا رؤسا !

وحسب هؤلاء المكافحين في سبيل العيش والقوت شرفاً أنهم لا يتكلمون على ميراث أو اختلاس أو اغتصاب أو استغلال أو سحت ، بل يكسبون قوتهم بعرق جبينهم ، وبطريق شريف نظيف ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له » . وقيل إن النبي رأى رجلاً ورمت يده من العمل بالمسحاة فقال : « هذه يد يجبها الله ورسوله » .

ونظراً في أعلام هذه الأمة الإسلامية وقادتها وأئمتها والبارزين من رجالها فنجد الكثيرين منهم كانوا يعملون ، وكانوا يحترفون ، وكانوا يعالجون بأيديهم ، وكانوا يزاولون حرفاً يعدها الناس قليلة ضئيلة ، فأبو بكر الصديق وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وميمون بن مهران كانوا بزازين ، أى يبيعون الثياب . والزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعامر بن كريز كانوا جزارين ، والعوام أبو الزبير وعثمان بن طلحة - الذى دفع له النبي مفتاح الكعبة يوم فتح مكة - وقيس بن محزمة ومجمع الزاهد كانوا خياطين ، وطائفة كبيرة من أعلام هذه الأمة كانوا يبيعون بزر الكتان ولقب كل منهم بلقب « البزار » وجاء في « القاموس » أسماء كثير منهم . ومالك

(١) الوضيع : الرجل المحطوط القدر الذى لا يحفل به الناس .

ابن دينار الزاهد العالم المحدث المشهور كان وراقاً ، يكتب المصاحف بالأجرة . . .

وهذا قاضى قضاة المالكية فى عصره الشيخ شمس الدين البساطى كان يجمع بين خدمة دينه ودنياه ، إذ كان يأكل من صيد السمك ، فكان يخرج بشبكته فيصطاد ما يبيعه ويقطت به ، ثم يخلع ملابس الصيد ويلبس ملابس القضاة ويجلس للحكم بين الناس ، وكان فى عصر واحد مع ابن حجر المحدث الكبير . . .

ولأبى بكر أحمد الخلال محرر المذهب الحنبلى رسالة فى الحث على التجارة والصناعة والعمل . وقد ذكر « الخلال » أن نبى الله داود كان لا يأكل إلا من عمل يده ، وكان يخطب الناس على منبره وإنه ليعمل الخوص بيده . فيعمل منه القفة أو الشىء ، ثم يبعث به مع من يبيعه ثم يأكل من ثمنه ، وكان سليمان ابنه يعمل الخوص بيده ، وادريس نبى الله كان خياطاً ، وكذلك كان زكريا نجاراً ! ! ! . . .

والرسول صلوات الله عليه لم يستقنر للمسلم أن يحترف بأى حرفة ، حتى ولو كانت جمعاً للخطب ، فقد قال : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتى الجبل ، فيجىء بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ويستغنى بثمنها ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه !

لقد جاء إلى النبى - كما يروى الخلال - رجل يشكو الفاقة وله كساء وقدح ، فباعهما له الرسول بدرهمين ، ونصح الرجل أن يشتري فأساً بدرهم وبالآخر طعاماً لأهله ، ثم أمره بأن يجمع الحطب وغيره من الوادى طيلة خمسة عشر يوماً ، وأطاع الرجل فكسب عشرة دراهم ، فأمره النبى أن يشتري طعاماً لأهله بخمسة دراهم وكسوة لهم بالباقى . فقال الرجل : يا رسول الله (م ١٨ - خطب ج ١)

الله ، لقد بارك الله فيما أمرتني . فقال له النبي : هذا خير من أن تجيء يوم القيامة في وجهك نكتة المسألة ، إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة : لذي دم موجه ، أو غرم مفضع ، أو فقر مدقع (١) ! .

وربما يعيب رجل منتفخ الأوداج عريض الألواح متكبر النفس رجلاً آخر بأنه حمال مثلاً ، ولو ذهبنا نبحت عن حال الأول المتكبر لوجدنا فيه عيوباً ومثالب ، ولو بحثنا حال الحمال لوجدناه شريفاً عفيفاً ، غيوراً على الحرمات متحرزاً من الحرام ، مجاهداً للباطل وأهله ، فأى الشخصين أحق بالتقدير وأولى بالاحترام والتوقير ؟ : « أفن يمشى مكباً على وجهه أهدي ، أم من يمشى سويًا على صراط مستقيم ؟ ! . . . »

لقد سمعت رجلاً مسلماً عاملاً يقول إنه يستطيع لقمة العيش إذا حصل عليها بعرق جبينه ، وأنه يجد لذة كبيرة إذا أكل هذه اللقمة بعد أن تعب فيها وبعد أن سال عرقه في بلوغها ، وأنه لا يحس للطعام بلذة إذا أكله وهو هادىء مستريح لم يشتغل ولم يتعب ، ويقول إنه يشعر إذا أسال عرقه في سبيل اللقمة بأن هذه اللقمة طيبة مباركة طاهرة يجعل الله فيها الغذاء والدواء والشفاء . . .

أليس هذا أيها الناس نوعاً من التفسير والشرح لقول الرسول عليه الصلاة والسلام « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » ؟ . وأمام هذا الرجل العامل الكادح الفقير يوجد أناس من المجرمين اللصوص الذين لا تطيب لهم لقمة العيش إلا إذا اختلسوها . أو عجنوها بعرق البائسين الذين يستبد بهم هؤلاء المجرمون أو يتحكمون فيهم أو يتسلطون عليهم ناسين قول النبي : « كل لحم نبت من

سمحت فالنار أولى به « وسمعت عن رجل حلاق ربى أبناءه تربية كريمة . وهياً لهم إتمام دراستهم الجامعية ، وشغلوا وظائف ملحوظة . وسمعت بآخر غنى مترف ، له الدور والقصور ، والعقار والمال . وله ولد وبنت ، فاساء تربيتهما ، فخرج الولد نصف رجل أو قل نصف امرأة ، وحلت البنت شعرها وأسلدت ساقها للرياح ! ! ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا جيداً ودائماً أن الإسلام يحترم « الكناس » المخلص في عمله ، الذي يعرق في أداء واجبه ، ، وأن الإسلام يحتقر الرجل الكبير الخائن الذي يهمل في واجبه ، أو يسرق ويختلس ، أو يأخذ أزيد مما يستحق . . . واذكروا أن الإسلام يكرم العاملين المحترفين مهما كان عملهم ومهما كانت حرقهم ، وأن الإسلام يهين كل متكبر يعتمد على الأنساب والأحساب ، أو يفتخر بالمال والجاه : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » : فيا عناية السماء كوني مع العاملين الكادحين ، وبالعنة السماء تنزلي على المستغلين المبطلين ! ! (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .) .

المسلم بين الغنى والفقر

الحمد لله خلق الخلق وأجرى الرزق ، وهو أفضل الواهبين وخير الشاكرين ، سبحانه أبدع الكون وزانه بنعمه وآياته ، وحشده بخيراته ، ليسعد به من شاء من السعداء ، ويغيظ به من حرم من الأشقياء ، والله عنده حسن الثواب ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، تريد بعبادك التيسير ولا تريد بهم التعسير ، وتدعوهم إلى البناء والتعمير ، إن الله بالناس لرعوف رحيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبداً ورسولك ، جاهد من أجلك وأجل عبادك . فأحيا الموت وجمع الشتات ، وأخرج البشرية من كهوف التأخر والانحطاط إلى مدارج الرقى والكمال ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحبابه ، وعشيرته وأصحابه ، وأتباعه العاملين بكتابه ، أولئك تتلقاهم الملائكة عند باب الفردوس المقيم هاتفين : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

لا يزال بين المسلمين مع الأسف قوم عميت أبصارهم وضلت أفكارهم ولكنهم علت بحكم الصدف أقدارهم ، وانتشرت بين الدهماء إخطارهم ، وهؤلاء الشراذم يذيعون بين الحين والحين ، دعوات أئيمة يصبغونها بصبغة دينية ، يوهمون بها المسلمين أن الدين لا يريد لهم إلا فقراء صاغرين ، كسلاء زاهدين ، ويحرضهم على العزوف عن الاكتساب والامتلاك والادخار وجمع المال ، ويقولون ضالين : إن الله إذا أعطى الدنيا لأحد حرمه من الآخرة ، لأن الله لا يمكن أن يجمع النعيم للإنسان هنا وهناك ؛ وتلك فرية تنسب إلى الإسلام وهو منها برىء ، إذ لا يعقل أن يدعو هذا الدين العظيم الخالد

إلى العزوف عن الحياة والحمول فيها والفرار منها ، وهو الذى جاء ليقول
للإنسان : إنك خليفة الله فى أرضه ، وقد سخر لكم أيها الناس ما فى السموات
وما فى الأرض نعمة منه وفضلاً ، واستعمركم فى الكون لتكونوا رعوها
واقطباً ، لا لتكونوا عالة أو ذباباً ، ولتستخدموا ما استطعتم من مظاهر
وأسباب فى تجميل الحياة وتنظيم المجتمع . . . والإسلام هو الذى يحرص على
العمل والنشاط ، والكسب من وجوه حله وطيبه ، وفى القرآن الكريم آيات
كثائر تتحدث عن ذلك بوضوح وجلاء والرسول صلوات الله عليه هو الذى
يقول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ويقول : « كاد الفقر أن يكون
كفراً » . ويقول عبد الرحمن بن عوف : « يا حبذا المال أصون به عرضى ،
وأقرب به إلى ربى » . ومن وصايا لقمان لابنه : يا بني ، استغن بالكسب
الحلال فإنه ما افتقر أحد إلا أصابته ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف
فى عقله ، ووهاء فى مروءته ، وأعظم من هذا استخفاف الناس به ! . .
وإذن فلا يدعو المسلمون إلى الذل والمسكنة والافتقار ، والإعراض عن
مناعم الكون وطيبات الحياة إلا أحد اثنين : إما جاهل بالإسلام الحنيف يحسبه
رهبانية مبتدعة ، أو تصوفاً محرفاً ، أو تبلاً مسرفاً ، وإما مخادع ماكر له فى
تلك الدعوة مآرب خبيثة أخرى ، فهو يريد أن تظلوا فقراء حتى ينفرد هو
وحده بالثراء ، وكل منهما مظلون الرأى ، مطعون النصيحة ، خبيث الغاية ،
من حنقكم إن لم يكن من واجبيكم أن تقابلوه بالإعراض والاستهزاء . . .

لعل متسرعاً سيجادل قائلاً : كيف تقول هذا وفى الإسلام نصوص
كثيرة فى القرآن والسنة تحجب فى الافتقار ، والتخفف من زينة الحياة وعدم
الشفغ بها والتفرغ لجمع حطامها ؟ . . فنجيب بأن تلك النصوص إنما قامت
لظروف خاصة ، ولتعالج عللاً طارئة ، ولتصلح أوضاعاً مختلفة ، كأن
يشيع الترف والسرف ، أو تشغل الحياة المرء عن العبادة ، أو يتخذ المال من

صاحبه عبداً له يكثره ويقدمه ؛ والإسلام يريد ممن يحبه في الفقر أن يفتقر عن قوة واقتدار ، لا عن عجز ومذلة ، بمعنى أن المسلم يجب أن يرفض الفقر الدليل المهين إذا فرض عليه ، أو أناخ بكلكله فوق صدره ، وأن يسعى جاهداً لإزالة سبته عن نفسه الآية الكريمة ، بأن يكسب ، ويجمع ، ثم ينفق ويفرق ، ولو أدى به ذلك إلى أن يأتي على أغلب ما عنده ، لأن هذا سيدعوه إلى معاودة الكسب من جديد ، وهكذا دواليك ، وذلك هو معنى الحياة التي تسمى بمن فيها من الأحياء . . . وإذا كان الحق سبحانه قد اختار لرسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم أن يكون قليل المال ، ليس في ثروة كسرى وقصر ، فما كان ذلك عن إهانة أو مهانة ، إذ كان الرسول كسباً قادراً على الاستثمار والربح ، ولقد عرضت عليه الجبال لتكون بين يديه ذهباً وفضة فأبأها ، وفضل أن يعيش مسكيناً ، وأن يموت مسكيناً ، وأن يحشر في زمرة المساكين ، وإنما حدث ذلك بصفة خاصة لتطيب خاطر المحرومين الذين انقطعت بهم الأسباب أولاً ، وإزالة الشبهة عن مقام النبوة الخالصة لله ثانياً ، فلا توصف بأنها ملك أو إمارة ، ولأن الرسول مثل أعلى لا ينطبق حاله على العامة ثالثاً ، وحسبنا أن الرسول الذي أراد له ربه وحده أن يكون قليل المال ، هو نفسه الذي كان يمرض صحابته على الاكتساب والربح ، حتى غدا منهم رجال لهم أموال تلفت الأبصار ، وتسير الأحاديث بشأنها في البقاع والأمصار ، ولم يمنعهم غناهم أن يكونوا المثل السامى في الهداية والإيمان .

وإذا فن الواجب علينا إذا أصابنا الفقر لعامل من العوامل أن نرضى به كقضاء كتبه الله علينا ، وأن نحاول التخلص منه أيضاً كما نتخلص من محنة سيقنت إلينا . لتشخذ منا الهمم أو تجلو العزائم ، فقد أثر : لو كان الفقر رجلاً لقتلته . ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يصبح الفقر ويمسبه باللعنة ، ويمسبه « كفراً » . . . فإذا نجحنا في التخلص من الفقر وكسبنا الكثير المعجب

فلنأخذ في إنفاقه بحكمة وتعقل على أنفسنا وأهلينا وأقاربنا ، وإخوان لنا في الوطن والإنسانية ، ولنبدل من موفوره الغزير بذل من لا يخاف من ذى العرش إقلالا ؛ فإذا حدث لفرد منا تحت ضغط ظروف قاهرة أن عجز عن إزالة فقره ، فليصبر عليه صبر الرجال ، لا يذل به ولا يمنح له ، بل يتطلع في أمل ورجاء إلى تبدل الحال وتغير المآل .

ولعله من واجبنا أن نذكر الذين بأيديهم أعتة الخلائق هنا وهناك ، بأنه ليس كالفقر في تقويض البناء وتشويه الرواء ونشر الداء . فإن الفقر في الغالب رذيلة مجرمة ، تسخر بكل فضيلة ومكرمة ، والفقر يستبيح تحت نير الحاجة وضغط الحرمان أن يسرق ويغش ويختلس ، ويتجر بالعرض وغير ذلك من الموبقات ؛ ومراجعة يسيرة لقوائم الجرائم المسبية تكفي لتعريفنا أن الفقر هو القائد الأعظم لكثائب الجريمة والإفساد ، ومن أمثلة العرب : لا تم بجوار جائع فيأكلك ! . . . أما يوم نبذل المجهود ، نوحده المجهود ، للقضاء على الفقر ، بالتكافل بين الطبقات وتنظيم الإحسان والصدقات ، وجمع المفروض من الزكوات ، وإنشاء الشعبي من المصانع والمعامل والشركات ، والقضاء على الجشع والطمع في مترف الأسر والعائلات ، فسنصل إلى عهد مجيد ، وسنبني دعائم الحياة على أساس وطيد ؛ فبم نعرف النفس عن ضلالها إلا بالمال ، وبم نبني مرافق الأمة إلا بالمال ، وبم نعد الجيوش إلا بالمال ، وبم نعلم الكون إلا بالمال ؟ فاجمعوا المال أيها الرجال ، اجمعوه من حلال وانفقوه بلاضلال ، واكتسبوا به المحامد وكريم الفعال ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

انطلقوا يا أبناء الإسلام في رحاب الكون ساعين كاسيين ، طاهرين طيبين ولا تدعوا منيع استثمار مباح دون أن تستنفذوا ما فيه من خيرات ،

فالكون قد خلق لكم أنتم ، وإلا فستظلون أذلاء ما دمتم فقراء ، بين أغنياء
من مواطنين ودخلاء ، وسيظل المتخمون فيكم بلا حق يتخذون منكم عبيداً
أرقاء وخداماً أذلاء ، فتخسرون دنياكم وتصلون فيها نار الحرمان ، وتخسرون
دينكم بإعراضكم عن صوت الرحمن ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن
الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم
سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

الحياة حركة

الحمد لله عز وجل ، بيده ملكوت كل شيء : « والله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يسبح له الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس : « تولىج الليل فى النهار ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قضى دهره لله عابداً ، وأقنى فيه مجاهداً ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أغصان دوحته وأقطاب صحبته وأنصار دعوته « إن للمتقين لحسن مآب » .

إن من شأن المسلم العاقل أن يولج بالتدبر فيما يمر عليه ، ويحرص على الاعتبار بما يراه فى توالى الليالى والأيام : « يقرب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . ونحن الآن قد دخلنا أبواب الفصل الذى يسمونه فصل الخريف ، فقد انتهت حدة الصيف ، وبدأ الحر يكسر من شدته ، وشرع النهار يقصر ، والليل يطول ، وأخذت الأشجار تنهياً لإسقاط أوراقها ، والرياح تتأهب لتعصف هنا وهناك ، ولعل أول خاطر يخطر على بال المسلم وهو يشهد انتهاء فصل من العام وابتداء فصل آخر هو أن يتذكر اقتدار البارئ المصور على مداولة الأيام ، وموالاته الأعوام ، وتقليب الليل والنهار : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار » .

ويخطر بباله أيضاً أنه إذا كان قد شهد مرحلة من الحياة فربما لا يشهد مرحلة مثلها بعد ذلك : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس

(١) القيت فى مسجد الرفاعى بالقلمة يوم الجمعة ٢٩ من سبتمبر

بأى أرض تموت إن الله عليم خبير . ويخطر بباله أن المسيطر القادر الذى جعل عقب الصيف خريفاً ، وبعد الحرارة برودة ، قادر على أن يجعل عقب الشتاء ربيعاً ، وبعد الربيع صيفاً ، وهو قادر على أن يجعل بعد الضعف قوة ، أو بعد الحياة موتاً : « إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت . ويخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأتى تؤفكون » ويخطر بباله خاطر المراقبة والمراجعة والمحاسبة لنفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، فهو يرى أياماً تمر ، وشهوراً تكرر ، وعمراً يتناقص حيناً بعد حين ، وكل يوم يطالعه من أيامه يقول له : يا ابن آدم ، أنا يوم جديد ، وخلق جديد ، فإذا أعددت لى ؟ وكيف تقضىنى ؟ وهنا يتذكر المسلم قول خالقه . جل جلاله : « أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » . ويتذكر الأثر الإسلامى الذى يقول : « لا عمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وكثير من الناس يعتبرون « الخريف » نذيراً بالإدبار بعد الإقبال ، وبالهمود بعد الحركة والنشاط ، حتى جعلوا الخريف مثلاً فى هذا فقالوا : هذا الرجل قد أدركه الخريف ، أى ضعف وشاخ ، وقالوا : هذه المرأة فى خريف حياتها ، أى ذهب جمالها وبهاؤها . وقد يكون فى الخريف من المظاهر الخارجية ما يوحى بهذا الفهم ، ولكن الخريف فى الواقع فترة انتفاضة ، تخلع الطبيعة فيها ثيابها التى استعملتها فى وجوهها ، واستخدمتها فى أغراضها ، وكأن هذه الثياب قد بليت أو وهت فهى تريد أن تزيلها عنها وتجدها ، وتعد عديتها لارتداء ثياب جديدة قشبية تصلح لأداء المطلوب منها فى عهد آت بعد قليل ، ولذلك تلقى الأشجار أوراقها ، وتخلع الأرض ما عليها ، وتنطوى على نفسها حيناً ، وكأن أمطار الشتاء تأتيا لتغسلها وتطهرها وتزيل عنها كسل التعب وغبار النصب ، وتهيئها لانتفاضة الحياة ونضرة

الازدهار في مطلع الربيع بعد وقت يسير : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ،
« إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

تعالوا بنا نشاهد الطبيعة كتاب الله المنظور لنرى كيف تتطور وتتجدد،
ليكون لنا من وراء ذلك عظة وعبرة ، ودرس ومثل : إن البراعم والأكمام
تتفتح في مطلع الربيع ، وتورق الأشجار ، وتزهو الرياض ، وتفرغ الأطيوار ،
فيزي الناس في ذلك جمالا ومتاعاً ومنفعة ، ثم يقبل الصيف بقوته وصولته ،
فتنضج الثمار ويستوى الحصاد ، ويجمع الناس خير الأرض من هنا وهناك ،
وكان الطبيعة تحس عقب هذا الميلاد الكبير والإنتاج الواسع والإخصاب النافع
بأنها قد تعبت وأجهدت نفسها ، فلا بد لها من راحة واستجمام ، فهي تنزع
عنها في الخريف ثيابها ، ثم تنطوي وتضممر ، وتتفاعل من داخلها أثناء الشتاء ،
استعداداً لربيع جديد ، وصيف مخصب آخر ، ثم ينتهي الشتاء بزواجه
وزعازعه ، فإذا الطبيعة العاقبة تتجدد وتنتفض انتفاضة تشعرنا بظهور الحياة
القوية التي كانت مستورة لم تضع كما ظن بعض الناس : « وترى الأرض
هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » ،
« ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ،
إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير » .

فلنتعلم من هذه الطبيعة أيها الناس . أن الحياة من سننها التجدد والتنقل من
حال إلى حال ، ولو بقيت على صورة واحدة بلا تطور أو تغير لما كانت
حياة ، لأن الحياة في أبسط معانيها حركة ، والحركة انتقال من وضع إلى وضع
ومن حال إلى حال ، ولو جمد الماء في مكانه لفسد وأتت ، ولو جمدت الشمس
في مكانها لضاعت فائدتها وتفاقم ضررها ، ولو استقر القمر في موضعه
لما سعدنا بضوئه ، ولو جمد كل حي على وضع له لما كانت هذه الحياة

الكبيرة الواسعة الدائبة التي نرى ونشاهد : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

فلنتعلم من الطبيعة أنها تقبل وتدبر ، وتقوم وتقعّد ، وتنام وتستيقظ ، وتستجم ثم تخصب ، فأين هذا من الذين قد ينالهم مرض طارىء أو فتور عارض وهم ما زالوا فى وسط القمر أو نضرة الحياة ، فيخيل إليهم أنهم قد بلغوا أُرذل العمر ، وأنهم شارفوا النهاية وإن لم يبلغوا الغاية ، فيستشعرون الضعف والوهن ، ويميلون إلى الجمود والكسل ، ولا يفكرون فى تجديد أو تطور ، أو معاودة للتفتح واستقبال الحياة ، ويحجم عليهم ظلال القنوط مع أنه لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ، « ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

إن هناك كثيراً من الأشجار تسقط أوراقها ، وتتجرد أغصانها ، ويخيل لرائيها فى نهاية الخريف أو أثناء الشتاء أنها قد صارت حطياً أو خشباً عديم الحياة أو غير صالح للخضرة ، ولكن هذه الأشجار يأتيها الربيع ، فتتفتح وتختضر ، وتزهو وتثمر ، ويحبنى الإنسان منها الجنى الطيب والثمر اليانع ، لأن فيها من الداخل قوة الإخصاب وسر الإنتاج والاستعداد للتجدد والتفتح ، وهناك أنواع كثيرة من الأشجار تظل مخضرة مورقة من الظاهر طيلة العام ، ومع ذلك لا نجد لها ثمرأ ، ولا نجنى منها شيئاً ، فالعبرة إذن بالخبر لا بالمظهر ، وبالقلب لا بالصورة ، وبالجوهر لا بالعرض ، ومن هنا قال الرسول : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، وأقوالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقال : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » . فإذا رزق الله عبده قلباً حياً نابضاً واثقاً

به ، مستمداً منه ، غير يائس ولا قانط ، فقد فتح أمامه أبواب الحياة المفتوحة المتجددة المستجيبة لدوافع الطموح والرجاء .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . يقول ربكم جل جلاله في وصف ذاته : « كل يوم هو في شأن » أى هو يحدث في كل وقت أموراً ، ويجدد أحوالاً على ما سبق به قضاؤه ، ويقول الحديث الشريف : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » فلنرفع أبصارنا وبصائرنا إلى رحمة هذا الخلاق القدير ، آمليين أن يأخذ بناصيتنا إلى ميادين الحركة واليقظة والتجدد والتفتح للحياة ، ذاكرين أن الخريف بعده شتاء يتلوه ربيع فصيف ، وهكذا دواليك ، وبعد ظلام الليل نور الصباح ، ومن خلف السحب الداكنة تتألق أشعة الشمس الساطعة ، ومن وراء الشدة فرج ، وبعد العسر تيسير : « إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الهداية والتوفيق وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، اللهم أغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب الدعوات يارب العالمين .

اللهم أنا نسألك أن تؤيد الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى بفضلك كلمة الحق والدين ، وأن تثبت عزائم المؤمنين العاملين ، وأن تتوب على العصاة المخطئين اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا ينشع ، ومن عين لا تدمع ، ومن دعاء لا يسمع يارب العالمين . اللهم وفق ولاة المسلمين للعمل بكتابك وسنة نبيك الكريم ، اللهم وفق ولاة الأمور لما فيه رضاك ، ولما فيه خير العباد والبلاد يا أرحم الراحمين . يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون .

الحياة أمل وعمل

الحمد لله عز وجل ، هو مصدر الخير الذى لا ينفد ، وصاحب الفضل الذى لا يجحد: « والله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون ». نشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى المؤمنين بنوره ورحمته : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ويشقى المجرمين بطردهم وحرمانهم : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ». ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فى الله حق الجهاد ، وجمع باسمه الناس على دعوة الخير والرشاد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » .

هذه الدنيا ميدان تنافس وصراع ، وجنودها المتنافسون فيها هم أهلها من الأحياء ، والصراع بينهم مباراة وسجال ، فرة يسبق هؤلاء ومرة يسبق هؤلاء ، والحياة ليل ونهار ، وإقبال وإدبار ، وصحة ومرضى ، وراحة وتعب ، وفوز وفشل ، وبضدها تتميز الأشياء ، فلولا لذعة الحرمان ما ذاق المرء لذة الفوز والوصول ، ولولا وخزة الألم والعللة لما عرف المرء قيمة الصحة والعافية ، والصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، ولولا مرارة الفشل والهزيمة لما أحسس المرء بمتعة النجاح والتوفيق .

ولذلك كان من الواجب على الإنسان أن يعيش فى هذه الحياة مستعداً لملاقاة الأحوال المختلفة والظروف المتباينة ، متدرعاً بقلب المؤمن ، وعزيمة الصبور ، وأمل الموقن ، الذى ينتزع النجاح من بين أنياب الفشل ، وينتظر

(١) التقيت بمسجد الامام الرفاعى بالقلعة يوم الجمعة ٢٩ يونية

الضياء من خلفه الظلمات ، ويحسن احتمال الصعاب يمهّد طريقه إلى غايته ومأموله ، لأنه لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة ؛ وهناك فريق من الناس يظنون الحياة — أو يريدونها — على الدوام طريقاً مفروشاً بالورود والرياحين والحريير ، فإذا أصابتهم أزمة ، أو نالتهم صدمة ، ركنوا إلى اليأس ، وسقطوا في هاوية القنوط ، مع أن الحق تبارك وتعالى يقول : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ويقول : « فلا تكن من القانطين » .

وقد يرسب الشاب في الامتحان مثلاً ، ففيلت منه زمام نفسه ، في الانتحار أو الانكسار ، أو الإدبار عن مواصلة المحاولة والمغالبة لأسباب الرسوب ، وقد يفشل الرجل في صفقة أو عمل فتتهار أعصابه ، ويسد منافذ الحياة في وجهه بنفسه ويده ، وقد يخون الحظ رجلاً في معركة أو جولة فينفرط عقده وينتفض جسده ويتبلبل خاطره ، حتى يرى الدنيا أمامه ، وكأنها ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكدرها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فإنه من نور . . . ولو تذكر هؤلاء أن الليل مهما طال يعقبه نهار وضاح ، وأن الفشل قد يكون أخصب مزرعة لثمرات التوفيق ، وأن الغمرات تقبل على الأبطال ثم تنجلي ويبقى الأبطال كما هم ، وأن فترات من الزمان تمر على الرجال بيأسائها ولأوائها لتمتحن نفوسهم وتبتلى عزائمهم فتزيدهم خبرة وتمحيصاً . . . لو تذكر هؤلاء ذلك لتلقوا ما ينالهم من صعوبة أو تعويق بعزم حديد وصبر جميل .

والله جل جلاله — وهو خير معلم وأول مؤدب — يرشدنا إلى أن نحسن الظن به ، وأن نوسع الرجاء فيما عنده ، وأن نتذكر أن الأمور بمواقيتها ، وأن شئون الحياة تجري بمقدار وأقدار : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » فرزقه ممدود ، وفضله غير محدود ، ولكنه سبحانه ذو تدبير وتقدير : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » . وهو يرشدنا إلى مواصلة الطلب

واستمرار الدأب ، ويحذرنا من الاستكانة للضعف أو اليأس ، فيقول :
 « وكأين من نبي قاتل معه ربيون (مؤمنون بربههم عابدون له) كثير ،
 فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين »
 ويقول : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم (أعداء المؤمنين) إن تكونوا تألمون
 فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً
 حكيماً » .

وتاريخ المسلمين الأوائل يفيض بمواقف المصابرة والمغالبة ، والمواصلة
 للأعمال والجهود ، والمقاومة لليأس ، والمكافحة للهزيمة ، والمغالبة للفشل ...
 ألم تروا أسلافكم المسلمين وقد انكسروا في غزوة أحد ، ودارت عليهم
 الدائرة لحكمة يعلمها ربهم ، وكثرت جراح رسولهم ، واشتد الأمر عليهم ،
 وصرخ زعيم المشركين المنتصرين يومئذ يقول : « إن الحرب سجال ، يوم
 بيوم بدر ، اعل هبل » . فأراد الرسول أن يهون أمر الشدة على أتباعه ، وأن
 يبعث الأمل والثقة فيهم ، فقال لعمر : قم يا عمر فأجبه فقل : « الله أعلى وأجل ،
 لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاككم في النار » .

ريعود أبو سفيان فيصرخ : « إن لنا العزى ولا عزى لكم » . فيقول
 الرسول : « الله مولانا ولا مولى لكم » . . وفي اليوم التالي لغزوة أحد أذن
 مؤذن الرسول في المسلمين بالخروج للملاحقة العدو ، حتى لا يظن بهم الضعف
 واليأس ، وأمر الرسول بأن لا يخرج إلا من حضر غزوة أحد ، وذلك لتقوى
 معنويتهم . ويعتزوا بأنفسهم ، وخرجوا فأرهبوا المشركين إرهاباً شديداً . .

ونحن نذكر غزوة الخندق يوم أحاطت أحزاب البغي والطغيان بمدينة
 الرسول يريدون القضاء عليه وعلى قومه : « إذ جاءكم من فوقكم ومن
 أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ،
 (م ١٩ - خطب ج ١)

هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً » ومع ذلك صبروا وصابروا ، وجاءت عاصفة الله فشتت شمل الجرمين ، وعقب الرسول على ذلك تعقيب الراجي الآمل الذى لا ييأس ، ولا يقبل اليأس ان معه فقال : « الآن نغزوهم ولا يفزوننا ، نحن نسير إليهم » . وقد تحقق ما وعد به الرسول ، فتوالى انتصار المسلمين على الكافرين حتى فتحوا الفتح المبين ، وذلك بفضل الثبات واليقين ، والوقوف فى وجه اليأس والقنوط : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً .

ويأتى يوم « صلح الحديبية » وتفرض على المسلمين شروط ظاهرها القسوة ، ولكن الرسول يقبلها ويصبر عليها ، لبعده نظره ويقينه بوعد ربه ونصره ، ويشتد الأمر على بعض المسلمين حتى يقول عمر : « علام نعطى الدنيا فى ديننا » ؟ . ويجيب الرسول : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » . ويرجع المسلمون بلا حرج ، ويظن بعضهم الظنون بهذا الرجوع ، ويرونه هزيمة وانكسار ، وفى الطريق ينزل قرآن مجيد ، يفتح أبواب الأمل ، ويطرد شبح الهزيمة والكدل ، ويصور هذه الشدة خيراً ونصراً ، ويعدّها قنطرة الفوز والغلبة : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن العرق المتصيب من جيبي المكافح المناضل الراجي الآمل هو الرى الذى يسقى شجرة الفوز والتجاح ، وإن الطريق المحفوف بالمصاعب والأشواك هو المؤدى إلى المجد والرفعة ، ويد المؤمن فى هذه الحياة موصولة بيد الرحمن جل جلاله ، كلما عثر أو تعب أوى إلى ركن شديد ، وهو ركن الله العزيز الحميد ، واستعان بيد قوية هى

يد الله القوى الحكيم ، فلنقبل على الحياة إقبال المغالبة والمناضلة في عزيمة وإيمان ، ولنرقب نور الله حتى في أحلك الظلمات : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . ولنتذكر قول الرسول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا ، فإن لو تفتح باب الشيطان » وقوله : « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » ، ولنؤمن دائماً بأن الله معنا ، وأنه هادينا وراعيينا بإيماننا ويقيننا : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

الدين والصناعة

الحمد لله عز وجل ، « بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى العاملين ، ويثبت المحسنين ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بنى وعمر ، وأصلح وأثمر ، فكان خير المصلحين وإمام المرسلين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، المهتدين بأعماله وأقواله : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أصدقكم الحديث حين أقول لكم إننى اهتزت هزة الفخار والاعتزاز والثقة حينما رأيت صاروخاً عربياً صنعه وطنى ، وأتقن صنعه إخوة لى فى هذا الوطن ، ولا يمكن لأى فرد سوى مؤمن فى هذه الديار المؤمنة إلا أن يهتز ويعتز بمثل هذا النصر الصناعى الكبير ، لأن مثل هذا الصاروخ سيكون لنا درعاً وحصناً ، نتخذه وغيره من الأسلحة فى يوم الفصل أداة لرد العدوان وتحرير ما اغتصب من الأوطان ؛ ولقد كانت بلادنا فى عهود الظلم والظلام مقصورة على الزراعة ، يدخل أعداؤها فى وهمها أنها لا تزيد عن كونها مزرعة ، وكانت خيرات هذه المزرعة تنهى إلى الدخلاء ، وفضلاتها تبقى للمكافحين الشرفاء ؛ ثم اتجهنا إلى الصناعة والتصنيع ، فإذا الأيدى الماهرة تحسن العمل والصنع والإنتاج ، وإذا بنا نجنى ثمرة ضخمة من ثمرات التصنيع فى بلادنا وهى الصاروخ ، وإذا بنا نزداد إيماناً بأننا نستطيع أن نعمل الكثير ،

(١) ألقى فى يوم الجمعة ٢٥ صفر سنة ١٣٨٢ هـ الموافق ٢٧

يوليه سنة ١٩٦٢ م

وأن نصنع الكثير ، فترداد أماننا الثمرات والخيرات ، وتتضاعف الصناعات والمنتجات ، لنستعين بها في السلم والحرب على السواء .

ومن واجبتنا هنا أن نتذكر قول ربنا جل جلاله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وكلمة « قوة » تشمل كل نوع من أنواع القوة ، وكل جزء من أجزائها ، سواء ما كان منها بادياً أو خافياً ، وسواء منها ما كان حسياً أو معنوياً وسواء ما كان منها للتحصين أو الدفاع أو الهجوم ؛ وهذا هو القرآن الكريم يحرضنا بقوة وشدة على الصناعة والتصنيع ، فهو يقول : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » والحديد هو المادة الأساسية لأغلب الصناعات السلمية والحربية ، وقد جمعت الآية بين الصنفين من الصناعات ، فهي يذكرها « للباس الشديد » قد أشارت إلى صناعات الحرب والقتال ، وبذكرها لمنافع الناس قد أشارت إلى الميادين المختلفة التي يستعمل فيها الحديد لتوفير الخدمات والمصالح لأبناء الأمة هنا وهناك . ومن عجيب حديث القرآن المجيد عن الصناعة أنه أشار إلى صنعة الله المبدعة الخلاقة ، حين قال : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تعملون » ، وذكر القرآن أن طائفة من الأنبياء كانت تصنع ، فقال عن داود : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون » واللبوس عند العرب هو السلاح كله كما يقول المفسرون وقال عنه أيضاً : « وألنا له الحديد أن أعمل سابعات وقدر في السرد ، واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير » وقال عن نوح : « ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملاً من قومه سخر وامنه قاك إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » . ثم انتقل القرآن إلى تصور حالة الصناعة في عهد نبي الله سليمان وكيف اتسع نطاقها ومجالها ، بعد أن سخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر وبعد أن أسال له « عين القطر » وهي معدن النحاس الذائب ، وكيف سخر الله الجن « يعملون له ما يشاء من محاريب ونماثيل وجفان كالجواب وقدور

راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور . وفى هذه الآيات التى تتحدث عن الصناعة عند داود وسليمان نجد القرآن قد جمع بين صناعات السلام والأمن والمنفعة الاجتماعية وبين صناعات الحرب والحصانة والمقاومة ، فقد ذكر اللبوس والسباغيات فى شأن داود وهى الدروع والأسلحة ، وذكر فى شأن سليمان الأبنية والنقوش وأدوات الطعام وأوعية القوت الكبيرة ، وكان القرآن بذلك يريد أن يقول لأبنائه : لا تنسوا الصناعة ، بل امنحوها عنايتكم ورعايتكم ، ولا تقتصروا على صنعة دون صنعة ، بل اصنعوا للحرب وللسلام ، واصنعوا للاعداد وللإسعاد ، واصنعوا للإنسان وللميدان ، وبذلك تكونون من المفلحين .

وهذا سيد الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كان الرحمة المهداة والنعمة المزجاة ، والنور لهذه الحياة ، وكان يدفع قومه إلى كل مجال من مجالات العمل والصنع ليعودوا على أنفسهم وإخوتهم والإنسانية بالخير والبر والرفاهية ، فإذا جد الجدد ، وحان وقت النضال ، كان هذا الرسول الكريم الرحيم هو القائد الحكيم العظيم ، وهو المجاهد الحازم الصارم ، وهو الذى يجند كل شىء فى سبيل النصر والفوز ، ويحرض على ذلك حتى يهتف ويردد : « من مات دون ماله فهو شهيد ، ومن مات دون عرضه فهو شهيد ، ومن مات دون دينه فهو شهيد » ؛ ولقد رأيناه فى حصاره للطائف ينصب عليها « المنجنيق » ، وهو ما يرسل القذائف كالقنابل ، وقد أشار عليه بهذا سلمان الفارسي ، وروى أن الطفيل بن عمر وهو الذى أحضر المنجنيق ومعه بعض الدبابات على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فاستعملوها فى غزوة الطائف ، وكانوا يضعون الدبابات ويغطونها بجلود الإبل والبقر ، ويدخلون فى جوفها فتحفظهم من السهام والحجارة ، وكان هذا أول منجنيق رعى به فى الإسلام ..

ويجب أن نتذكر أن القرآن المجيد حينما يدعو إلى الصناعة والتصنيع ، إنما يدعو إلى صناعة الخير والنفع والإصلاح ، فهو يدعو إلى صناعات يسعد

بها الجميع في عهد السلام والأمان ، ويدعو إلى صناعات حربية ، ولا تبغى ولا تظنى ، ولا تخرب ولا تدمر حبا في التخريب والتدمير ، بل تكون إعداداً للدفاع وصد العدوان . وتكون إرهاباً لأعداء الله وأعداء عباده ، حتى لا يتناول هؤلاء المجرمون على كرامة الإسلام أو عزة المسلمين ، ولذلك يحمل القرآن حملة شديدة على صناعات البغى والتجبر والتكبر ، ويقاوم إنشاءات العبث والخبث ، فيقول على لسان هود لقومه الكافرين : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخلون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون » . ويقول عن بنى فرعون وقومه ، وما كانوا يقيمونه من أبنية للتعذيب ، ومنشآت للبغى والطغيان : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ويقول مرة أخرى عن الذين يعملون في ضلال وخيال ، ويسعون على غير هدى أو منار : « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . وهكذا يمضي القرآن في الحملة على صناعة الظلم والإثم ، بعد ما أيد صناعة الخير والبر ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الأمة المؤمنة بعد أن استيقظت ونحرت وعرفت طريقها في الحياة ، وأدركت موعدها مع القدر ، في أشد الحاجة إلى العقول المفكرة ، والأيدى البانية ، والهمم الصانعة ، والمواهب المبدعة . وهى في أشد الحاجة إلى أن تعمل كل ما تستطيع لدعم أمنها ورفاهيتها ، وأن تعمل كل ما تستطيع لصيانة حرمتها وكرامتها ، ولذلك يبارك الإسلام كل جهد يبذل في هذه المجالات ، ويعتبره لوئاً من ألوان التقرب إلى الله ما دامت تتوافر فيه عناصر الإيمان والإخلاص والقصد إلى وجه الله تعالى وخدمة عباده في هذه الحياة ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

خمسة ركائز

الحمد لله عز وجل ، رسم معالم الطريق ، وهياً أسباب التوفيق : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » أشهد أن لا إله إلا الله ، دعا إلى الخير ونهى عن الشر ، « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أمرنا بالاتباع ونهى عن الابتداع ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول الإمام الأوزاعي رضوان الله عليه : « خمس كان عليها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان : لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المسجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد في سبيل الله » . والأوزاعي هو الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي الذي عاش في القرن الثاني الهجري حيث توفي سنة سبع وخمسين ومائة ، وهو فقيه الشام الذي أضع قومه فقهه ، كما أضع أهل مصر فقه إمامهم الليث بن سعد رضي الله عنه ، وفي هذه العبارة التي ردها الأوزاعي أعطانا صورة لما كان عليه صحابة الرسول والتابعون لهم بإحسان ، وهؤلاء هم الرعيل الأول والطلبة المباركة في تاريخ الإسلام ، وفيهم يقول القرآن : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » . ويقول الرسول عن المخلصين الأوفياء من أصحابه : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وأول

(١) القيت في يوم الجمعة ٤ من رجب سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ٣ من

أغسطس سنة ١٩٧٣ م

صفة من صفات هذه الطليعة : « لزوم الجماعة » والاجتماع على الإيمان والعمل الصالح هو أصل الفلاح وسر النجاح ، ولذلك قال التنزيل : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقال : « ولا تنازعوا فتشعلوا وتذهب ربحكم » . وقال رسول البشرية محمد : « يد الله مع الجماعة » وقال : « عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد » .

والصفة الثانية هي « اتباع السنة » والسنة هي كل ما صدر عن الرسول من قول أو عمل أو تقرير أو سلوك ، ومادام الرسول هو المثل الأعلى الذي صاغته القدرة الإلهية ليكون قرآناً عملياً يمشى بين الناس ، حتى قالت عنه عائشة « كان خلقه القرآن » . فإن الاقتداء به في كل الأمور هو الهادى إلى الصراط الذى لا يضل ولا يزيغ ، ولذلك قال رب العزة : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتاه أجره عظيماً » ويقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . ويقول المصطفى : « تركت فيكم ، ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، كتاب الله وسنتي » .

والصفة الثالثة هي « عمارة المسجد » والعمارة كما تكون بالبناء والتشييد ، والتطهير والتنظيف ، تكون أيضاً بالتردد على المسجد وتعميره بالصلاة والذكر والدعاء ، والقرآن يمجّد عمارة المساجد حين يقول : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أحب البلاد (أى البقاع) إلى الله مساجدها » . وفى الحديث القدسي « إن بيوتى فى أرضى المساجد ، وإن زوارى فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ، ثم زارنى فى بيتى ، وحق على المزور أن يكرم زائره » .

والصفة الرابعة هي « تلاوة القرآن » ، والقرآن هو الدواء والغذاء ، وهو الضياء والشفاء ، وتلاوته فرض على كل مسلم حسب طاقته واستطاعته ، وهي من طلائع الأوامر الإلهية لنبي هذه الأمة المحمدية : « ورتل القرآن ترتيلاً » ، وهي دعوة أبي الأنبياء لحفيده محمد : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » وهي وظيفة الرسول مع الناس : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ويقول سيد الخلق محمد : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ويقول : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحضتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

والصفة الخامسة هي « الجهاد في سبيل الله » والجهاد هو عماد الأمر وسنامه وهو بدء العز وختامه ، وهو التجارة الراجحة ، والطريقة الناجحة ، والقرآن يقول : « انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار إليها » .

هذه هي الصفات الخمس التي كان عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان ، فإذا بقي لنا نحن المسلمين من هذه الصفات؟ ماذا بقي لنا من « لزوم الجماعة »؟ . لا جماعة لنا في فهم الدين ، فالمذاهب شتى والفتاوى متضاربة . ولا جماعة لنا في السياسة ، فكل دولة من دول الإسلام في واد ، وكل حاكم من حكام المسلمين في اتجاه ، وأعداؤنا يأكلوننا تباعاً ، ثوراً بعد ثور ، ولا جماعة لنا في التقاليد والعادات نحن نتبع كل ناعق

ولا شخصية لنا كسلمين بين الناس . وماذا بقي لنا من اتباع السنة ؟ أنحن نتبع سنة الرسول حقاً في الاعتقاد والتعبد والسلوك ، وكيف وقد بلغ استخفاف كثير منا بالسنة أننا أصبحنا نطلق كلمة « سني » على أنها لفظة سخريّة واستهزاء ، ونجعلها دليلاً على التنطع والجمود . ؟ وماذا بقي لنا من عمارة المساجد ، وقد كان القادرون من المسلمين قديماً يحرصون على إقامة المساجد وتعميرها ، حتى شاهدنا عدة مساجد تجتمع في ميدان واحد ، وصرنا اليوم نحتاج إلى مساجد كثيرة في كثير من الأماكن ، وأصبحت مساجدنا ، القائمة في حاجة شديدة إلى الترميم والتنظيف ؟ . وماذا بقي لنا من تلاوة القرآن المجيد ، وقد كان أسلافنا يفتتحون نهارهم بالتلاوة ويختتمون ليلاً بالتلاوة ، وكان أبناء الإسلام يضعون المصاحف في جيوبهم وعلى صدورهم ، وكانت خفقات قلوبهم تستمد حركتها من كلمات القرآن المجيد ، فأصبح القرآن نسباً منسياً عند شباب الإسلام اليوم ، ومن أقبل على القرآن وصفه الآخرون بأنه رجعي متأخر لا يليق بعصر المدينة والنور . وأخيراً ماذا بقي لنا من الجهاد في سبيل الله ! غزينا في عقر دارنا ، وحقت علينا شقوتنا ، وثقلت علينا نكبتنا . ولم يبق لنا إلا اجترار الألفاظ واستحياء الخبال .

لأنها خمس صفات فيها جماع الخير : « لزوم الجماعة » والجماعة هي الحزب : حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون . « اتباع السنة » والسنة هي المنهج والتخطيط « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وعمارة المساجد . والمسجد بيت الله في الأرض ، وهو الدار التي تسمع وتجمع بلا غرض ولا مرض : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ، « وتلاوة القرآن » والقرآن هو الدستور ، وهو القانون ، وهو الأساس : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » والجهاد في سبيل الله « والجهاد

هو الدرع الواقية والحارس الأمين وسبيل المتقين «والذين جاهدوا فينا
لنهديهم سبيلنا وان الله لمع المحسنين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن هاتفاً من ضمير الغيب يصرخ
فينا : أين أنتم ؟ وفيم أنتم ؟ إلى أين أنتم ؟. أما من سميع مجيب أم أن الأمر قد
بلغ قول القائل :

لقد سمعت لونا ديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الدين والشيعية

الحمد لله عز وجل ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، والمؤاخذ لكل يد بما اجترحت « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » : أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولي النعمة ومصدر التوفيق : « من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كاشف الغمة وهادى الأمة إلى أقوم طريق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأوفياء وأصحابه الأتقياء وأتباعه الأمناء « الذين يحشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الأمة القوية الصالحة للبقاء والخلود هي الأمة التي تواصل العمل والكفاح ، فتخرج من ميدان إلى ميدان ، وتنتقل من امتحان إلى امتحان ، لأن هذه المعارك العملية النضالية هي التي تقوى سواعدها وتشحذ عزائمها وتجعل أبناءها أشبالاً عاملين وجنوداً مرابطين ؛ والأمة التي لا تتعرض للاختبار الطويل والتمحيص المتكرر تضعف ثم تزول ، والأمة الإسلامية تتعرض منذ أقدم العصور لصنوف من الأحداث وألوان من البلايا ، وقد لاقى الإسلام ما لاقى من المحن والإحزن ، ومع ذلك بقي وخلد ، ولو كان من صنع غير الله لما ثبت أمام كل هذه النكبات ، بل يعد من باب المعجزة أن يبقى الإسلام ويدوم مع ما أصابه في مختلف القرون مما يحطم الجبال ويهد الرواسي الشاخات ؛ ولقد ابتلينا نحن أبناء الأمة المؤمنة في مراحل نضالنا القرية بثلاثة أنواع من الاستعمار الغربي ، والاستعمار الصهيوني ، والاستعمار

(١) القيت بمسجد الامام الرفاعي في يوم الجمعة ١٦ من شوال سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢٤ من أبريل سنة ١٩٥٩ م

الشيوعي ؛ ولقد قاومنا الاستعمار الغربي الذي استبد بنا قرابة قرن من الزمان حتى اندحر وانكسرت شوكته في أكثر ميادينه ، واستطاع الاستعمار الصهيوني - في حين غفلة منا وفرقة - أن يضع في جسم أمتنا العربية المسلمة خنجرأ خبيثاً مسموماً هو تلك الدولة الدخيلة العليلة المصطنعة «إسرائيل» ، وإذا كان هذا الخنجر قد بعثنا بشروره وفجوره من رقادنا فانطلقنا نتنادى ونتجمع ونتكتل ، فإن واجبنا أن لا نسكت عليه أو نرضى به ، بل يجب أن لا يهدأ لنا بال أو يقر قرار حتى نسترد أرض الإسراء والمراح فلسطين لأهلها ، ولن يكفيننا أبداً أن نحاور أو نداور فنطالب مثلاً بما يسمونه «حقوق عرب فلسطين» أو «عودة اللاجئين» ، بل الواجب الأساسي هو أن تعود فلسطين عربية إسلامية كما كانت ، لأنه لن تسلم العروبة ولن يعز الإسلام وفي صميم كياننا هذا الخنجر الخبيث المسموم ، ولا بد أن يوماً آتياً يتلاقى فيه أبناء العروبة والإسلام على صعيد الانتصاف الحق والثأر العادل ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء . . ثم ابتلينا أخيراً ببده صراعنا مع الاستعمار الشيوعي ، أو الإلحاد المادى الذى يقول : إن الكون والحياة والإنسان مادة ، وإن الله جل جلاله غير موجود وإن الدين خرافة ، وإنه أفيون الشعوب ومخدر الجماهير ، إلى آخر ما يقولون من مبادئ تعصف بالدين والروح والأخلاق وكرامة الإنسان . . . ولو دققنا النظر لوجدنا أن الاستعمار الشيوعي أخطر من الاستعمار الغربي ، لأن الاستعمار العربى احتلال يراد منه سلب خيرات وامتصاص دماء ، وأما الاستعمار الشيوعي ففيه سيئات الاستعمار الغربى وفيه بعد ذلك مقوضات للعقائد ، ومعاول للأديان ، ومخطمات للأخلاق والقيم الروحية . . . وقد شاء الله الذى لا راد لقضائه أن نخدعنا الشيوعية ببريقها ولعائنها فترة من الزمن ، وغمرتنا صحفها ومجلاتا وأفلامها ووفودها ، وخنيل لكثير من الناس أن الذئب

قد صار حملاً ، وأن الثائر الأحمر قد أصبح ملاكاً ، وأن الذى استبد بملايين كثيرة من المسلمين فاحتل ديارهم وسامهم الخسف والهوان قد أعطى هؤلاء حرياتهم وجعلهم يتقبلون فى جنات وفراديس ، ثم شاءت عناية الله ودقيق صنعه لدينه وعباده أن تلقى الشيوعية قناعها وتبدأ مع العروبة والإسلام صراعها فإذا الاحتلال الشيوعى يبدأ زحفه ، وإذا الإلحاد المادى يكشف عن حقيقته وإذا القرآن والدين والعلماء والأخلاق والحريات تتعرض لما تتعرض له على أيدي الشيوعية ودعاتها والمخدوعين بها ، وهنا أدركت الأمة أنه لا بد لها من التكتل ضد هذا الخطر القديم الجديد ؛ واستبان للناس أن هذا الخطر لا يقاومه ولا يقضى عليه سوى الدين والإيمان بالله والاعتصام بالعقيدة التى تصل أسباب الإنسان بقيوم السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . . .

ومن عجيب صنع الله لدينه وقرآنه أنه قد صرح بضرورة الرجوع إلى الدين الذين كانوا يؤمنون به والذين كانوا يعرضون عنه أو يسخرون منه ، ورأينا الجميع – إما بطريق الإيمان أو بطريق المتابعة والمداهنة ، أو بطريق الخوف والرهبة – ينادون بالرجوع إلى الله ، والاعتصام بالدين ، والمسارعة إلى التعبئة الروحية لتقف فى وجه هذا الطوفان الشيوعى الإلحادى المادى ، وأقيمت لذلك مؤتمرات وندوات وهذا رجل يذيع عنه الناس أنه معروف بجرأته على الدين ومناهضته لرجالها ، يقف بين الجموع فيمجد الدين ويطالب بالرجوع إليه ، ويرفع شأن العقيدة ، ويظهر ألمه البليغ من التناول على القرآن ، ويقرر على مسمع من الناس أن الدين هو المقوم الأكبر للقومية ، وأن الإيمان بالله واليوم الآخر هو عماد الأمة وسنادها ، حتى عجب الكثيرون عندما سمعوه ، وقال البعض : إن كان هذا عن إيمان ويقين فلعلها رجعة أقبلت أو توبة جاءت ، وإن كان يصانع ويداور فيالقسوة الحكم على الإنسان إذا الريح مالت مال حيث تميل ! . .

ومع قول الجميع الآن بوجوب الرجوع إلى الدين لحماية الدولة من الخطر الشيوعي نجد أن كثيرين لا يزالون يخافون من ذكر كلمة « الدين » صريحة واضحة في كتاباتهم وتصريحاتهم ، و نراهم يلفون حولها ويدورون ، فتارة يقولون المقدسات وتارة يقولون المعتقدات ، وتارة يقولون التربية الروحية والتهديب الأخلاقي ... لا تخافوا أيها الناس أو لاتداوروا ، وقولوها صريحة واضحة وضوح شمس الصيف عند الظهيرة قولوها مجلجلة عادلة : نحن في حاجة إلى الدين العاصم من الانحراف والاعتساف ، ونحن في حاجة إلى الإسلام الذى يدعو إلى دار السلام ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . . . فإن قيل لكم إن هناك فى الأمة غير المسلمين ولهم دين غير دين الإسلام فقولوا : لا ضير من ذلك ولا تعارض ، فنحن نريد للأكثرية الغالبة المسلمة أن تعرف دينها وتمسك به وتطبق تعاليمه ، ولا نمنع المتدينين بدين غير الإسلام أن يتمسك بدينه ويعمل به ، ولأن غير المسلم متديناً بدين سماوى خير وأفضل من أن يكون زنديقاً ملحداً متحللاً ، والإسلام لا يريد لأبنائه حينما يعملون به أن يظلموا غيرهم ، أو يهضموا حقوق سواهم من مواطنيهم أهل الأديان السماوية ، بل لهم مالنا وعليهم ما علينا ، والله رب الجميع .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان عجيب صنع الله لعباده ودينه أن يريهم رأى العين أن حصنهم الحصين هو الدين ، وأن وقايتهم المنية فى الإيمان به والاعتصام بجملة ، ونحن نرجو أن تكون العودة إلى دين الله عودة صادقة موصولة ، تزول عن طريقها المآثم والسيئات ، وتتحقق فى ظلها الخيرات والثرات ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الدين وقيمة العمل

الحمد لله عز وجل ، زان الحياة بالأمل ، وقواها بالعمل : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعباده ربه أحداً » أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولي العاملين ونصير المناضلين : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، آمن فأيقن ، وعمل فأتقن ، وجاهد فأحسن ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نعق ناعق فقال بحماقة وشفافة « إن التدين يؤدي إلى الركود والكسل ، ويوجد السلبية والانزالية » ؛ وهذا ضلال من القول وزور ، فنحن حينما نرجع إلى مبادئنا الدينية وتعاليمنا الإسلامية نجد أن الدين يؤكد أن العمل هو القيمة الأساسية للإنسان ، فليس للإنسان من قيمة ولا مكانة في نظر الدين إلا بعمله ، وبمقدار ما يحققه من ثمرة بهذا العمل ، ولذلك قال القرآن الكريم : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . ويأتي الحديث النبوي فيزيد هذه الحقيقة الدينية تأكيداً وتوطيداً ، فيرينا أن الإنسان لا يقام له ميزان على أساس لونه أو جنسه أو نسبه وطبقته ، بل يقام له هذا الميزان على أساس عمله وقيمة هذا العمل ، فيقول الرسول : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ، ثم يقول الإمام علي : « قيمة كل

(١) المقيت يوم الجمعة ٧ من شوال سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٢٨ من

(م ٢٠ - خطب ج ١)

يناير سنة ١٩٦٦ م

امرى ما يحسنه . فالعمل إذن هو أساس التفاضل والتميز ، وبهذا أهدر الإسلام الافتخار والاعتزاز . بالطبقة أو العنصر أو اللون ، ونادى سيد البشرية محمد على هذا الإهدار بأعلى صوته حين قال لآله : « لا يأتيني الناس بالأعمال ، وتأتوني بالأنساب » .

وإذا كنا نقول إن العمل حياة ؛ فمعى هذا أن الإنسان يستحق وصف الكائن الحى بصدق وجدارة إذا كان له فى الحياة عمل ، ولم يكن عاطلاً بالوراثة ، أو الحماقة ، وهذا يذكرنا بالكلمة البليغة التى قالها عمر بن الخطاب وهى : « إنى أرى الرجل فيعجبني شكله ، فإذا سألت عنه فقل لى : لا عمل له ، سقط من عيني » ! ، وكان هذا الإنسان فى نظر عمر يفقد قيمته واعتباره أو كيانه وحياته ، إذا لم يكن له عمل يؤديه ، فهو يهبط حينئذ من نظر عمر ، ويسقط عن مستوى عينه التى تريد أن ترى رجلاً ، فإذا هى تجد أمامها حيواناً فى شكل إنسان . . وهذه الكلمة العمرية تذكرنا بأخت لها قالها عبد الله بن مسعود وهى : « إنى أكره أن أرى الرجل فارغاً : لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة » . ولذلك تعرض بعض المفسرين لقوله تعالى : « فإذا فرغت فانصب » قال إن المعنى هو : إذا انتهيت وفرغت من واجب ، فلا تركز إلى الكسل أو النوم ، بل أشرع فى واجب آخر ، وانصب له واتعب فيه ، فما تكاد تفرغ من واجب ، وتأخذ راحة ميسورة بعده حتى تشرع فى واجب يليه ، وهكذا دواليك ، وإن استطعت أن تلقى ربك وأنت فى حركة دائمة من عمك وسعيك ، فلا تقبل لنفسك أن تلقاه مجرداً من سمة الحياة الأصيلة وهى الحركة والعمل :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنعص القادرين على التمسام !

ولقد حث الإسلام الحث القوي على العمل ، وجعله في مكانة رفيعة حين أخبرنا نبينا عليه الصلاة والسلام أن العمل شيء يحببه الله تبارك وتعالى ، فقال : « إن الله يحب العبد المحترف » . وقال عن اليد العاملة : « هذه يد يحبها الله ورسوله » . وقال : « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة (أى الحرفة) ليستغنى بها عن الناس » ولعله عبر هنا عن العمل بكلمة « المهنة » ليشير إلى أن العمل أحسن من التبطل ، حتى ولو كانت الحرفة في نظر بعض الناس مهينة وقال أيضاً : « من أمسى كالا (أى متعباً) من عمل يده أمسى مغفوراً له » . ويقول الأثر الإسلامى : « لو علم عباد الله رضى الله في إحياء أرضه لم يبق على وجه الأرض خراب » ، وهذا حث قوى على التعمير حتى لا يبقى جزء من الأرض دون إصلاح أو استعمال أو استغلال ؛ ومن المعلوم بداهة أن التعمير لا يتم إلا بالعمل على اختلاف أشكاله وألوانه . وإذا كنا نؤمن بأن العمل واجب فهذا الإيمان مستلهم ومستمد من ديننا الذى يقول رسوله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . ويقول فاروقه عمر : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم أرزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » . كما يقول : « تعلموا المهنة فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنته » . وكان هذا توجيه للذين يستغنون في حاضرهم عن العمل ليسرهم أو اقتدارهم المالى ، فهو يطالبهم بأن يتعودوا عملا من الأعمال - مهما كان كان هذا العمل - لأنهم سيحتاجون عما قريب إلى هذا العمل ، ولأن يمارسوه ممارسة الخبراء عند الاحتياج إليه ، خير من أن يجردوا أنفسهم مضطرين إلى ممارسته بلا خبرة ولا تدريب ، وممارستهم للعمل حينئذ - مهما كانت قيمته - خير من تعرضهم للاستجداء ، ولذلك يقول عمر : « مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس » ، وكان هذا القول مقتبس

من قول إمام الأنبياء : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

وإذا كنا نؤمن بأن العمل شرف فهذا استهداء أو استحياء من نور خالقنا وهدي بارتنا ، لأن الدين يؤكد أن العمل الطيب النافع شرف لصاحبه وأي شرف ، ولقد رأى الصحابة شاباً بكر ساعياً إلى عمله الدنيوى ، فتمنوا أن يكون نشاطه في سبيل الله ، فأنكر عليهم النبي قولهم ، وقال لهم : لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان قد خرج يسعى على نفسه ليحفها ويكفها عن السؤال فهو في سبيل الله ، ، وإن كان قد خرج يسعى على أبيوين ضعيفين أو ذرية ضعاف فهو في سبيل الله ، ، وإن كان قد خرج يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان ، وأي شرف للعمل وراء أن يجعله الرسول كالجهد في سبيل الله ؟ . وفي ضوء هذا قد نلاحظ في جمع القرن الكريم بين العمل الدنيوى والجهد المشروع في مجال واحد ، حيث عطف أحدهما على الآخر فقال : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله » . ثم لا ننس أن الإسلام قد شرف العمل هذا التشریف في بيّنة كانت جاهلة ، تحتقر الحرف ، وتستخف بالعمل ، وبخاصة العمل اليدوى ، وتسخر بالعمال ، فكانت قبيلة « تميم » مثلاً تعير قبيلة « الأزدي » لأنها تشتغل بالملاحة في عمان ، وكان مشركو مكة يحتقرون أهل المدينة لأنهم زراع ، وكما لقي أبو جهل مصرعه في غزوة بدر غاظة أن يكون قاتله زارعاً ، وكانوا يسمون الزارع باسم « الأكار » فقال أبو جهل : « لو غير أكار قتلتى » ؟ . وكان أهل الجاهلية يسمون الحرفة « مهنة » كأنهم يلاحظون منها معنى المهانة والابتدال ، ومع هذا الفساد كله ، وبعد هذا الضلال كله جاء الإسلام فحرر وطهر وعمر وثمر ، وأعاد إلى العمل قيمته وشرفه ، حتى رأينا رجلاً على عهد عمر يترك حرفته التي يرتزق منها ليخرج إلى ميدان الجهاد بلا ضرورة ،

فقال له عمر : « ارجع إلى عملك ، فإن عملاً بالحق جهاد حسن » ، ولم يقتصر الإسلام على التنويه بعمل الرجل بل نوه بعمل المرأة أيضاً فقالت السيدة عائشة : المغزل في يد المرأة كالرمح في يد المجاهد . أفيقال بعد هذا من أئيم أو لئيم إن النزعة الدينية تولد في صاحبها الميل إلى البطالة والكسل ؟ . كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . ديننا مظلوم مهضوم . وأكبر الظالمين له الهاضمين حقه هم الذين يشوهون جماله بقبح تصرفاتهم ، فيحكم الجهلاء على هذا الدين من خلال هذه التصرفات ، فلنبذل جهلنا في تصحيح إيماننا وتصديقه بكريم أعمالنا ، نكن من المفلحين ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

الدين والدولة

الحمد لله عز وجل ، ضلت الطرق إلا طريقه ، واعوجت السبل إلا سبيله : « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، وعد بنصر من لجأ إليه ، وضمن إعزازه لمن اعتمد عليه : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قاد بدينه ، وساد بيقينه : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز » فصلوات الله وسلامه عليه وعلى أغصان دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يوجد بين الأمة الإسلامية بعض الأفراد المسوخين المصنوعين من ثقافة الخارج ، فهم لا يؤمنون بالدليل أو البرهان إلا إذا جاءهم من وراء البحار أو أناهم وقد طبع عليه كلمة « صنع في أوروبا » أو « صنع في أمريكا » وبرغم ما في هذا التفكير من حماقة وسخف ، فنحن نلقمهم اليوم حجراً ، ونتدرج معهم في الحديث ، ونأتيهم بالدليل من هناك ، وفيه ما فيه من برهان على كلمة الله : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

إن هؤلاء ظلوا رديحاً طويلاً من الزمن يحاولون فصل الدين عن الدولة ، ويقولون إنه لا علاقة للإسلام بالنظام الاجتماعى ، لأن وظيفة الدين مقصورة على التهذيب الأخلاقى والتطهير الروحى ، ويحتجون بأن الغرب قد فصل الدين عن الدولة ، مع أن الغرب قد فعل هذا فى الظاهر ليتخلص من السلطان

الذى اكتسبته الكنيسة لنفسها ، وادعت أنه سلطان إلهي ، وبدأت تتحكم عن طريقه خلال الأجيال السابقة في عقائد الأفراد وصلاتهم بربهم وبالناس وتدخل تدخل شخصياً في شئون الحكم والحكام ، ومع هذا بقي الغرب يستعين بالدين كلما احتاج إليه ، ويستغله كلما وجد نفسه في ضائقة ، وما الحروب الصليبية بسر عميق ؛ وبالأمس^(١) نشرت الصحف أن وزير خارجية أمريكا قد اشترك في المؤتمر القومي الديني للكنائس ، ووقف يخطب في مكان انعقاد المؤتمر وهو كنيسة لا ناد ولا جمعية ، وقد طلب السياسي الوزير من رجال دينه أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء لينقذ العالم ، ويبعد شبح الحرب عن الدنيا ، وينشر نور السلام بين الناس ، ثم تحدث حديثاً طويلاً داخل الكنيسة وبين رهبانها عن السياسة والشئون الدولية المختلفة ، إن هذا الخبر يجب أن يكون موضع تأمل منا وتفكير ، لأنه طعنة جديدة في وجوه الذين يزعمون أن لا علاقة للدين بالدولة ، فهذه أمريكا التي تشتري ذم الدول بالدولار ، والذهب الرنان ، والمعونات الخبيثة ، والأسلحة الظنينة ، والمساعدات المشروطة ، لم تستطع أن تشتري لنفسها سلاماً أو اطمئناناً ، فلدجأت إلى رحاب الكنيسة تستجلى من رجال دينها عوناً وتأييداً ، وكأنها لم تكثف بقوتها المادية الجبارة فأرادت التقوى والتحصن بسلطان الدين .

وهذا صحفي مصري معروف يزور الآن أمريكا ، ويكتب لجريدته يومياً من هناك بعنوانه « نحو النور » ، وهو يقول أول أمس^(٢) عن مشاهداته في بعض المدن هناك : « والناس هنا متدينون ، أكثرهم يذهب إلى الكنائس ،

(١) انظر جريدة القاهرة يوم الأربعاء ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .
والوزير هو مستر جون فوستر دالاس .

(٢) انظر جريدة الأخبار يوم الأربعاء ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٥٨ م
والكاتب هو الأستاذ محمد زكي عبد القادر .

وينتمى إلى فرع ، منها ، ويؤدى واجباته لها ، وهذه ظاهرة تلمسها في كل مكان . وفي كل اجتماع يعقد يقف الحاضرون قبل بداية الاجتماع ويؤدون صلاة قصيرة « ! ! ! . . . »

ومعنى هذا أن القوم في أمريكا المادية المتمدنة المتحضرة متدينون يتمسكون بدين ينتسبون إليه ، وإن كنا نحن لا نعتقده ولا نؤمن به بعد مادخله من تحريف وتحويل ؛ فهم قد تقدموا مادياً في كل ناحية ، واستعانوا بالسيارات والطائرات والثلاجات والماقد والمغاسل وأسباب الحياة الناعمة المترفة ، ومع ذلك لم يشبعوا ولم يقنعوا ، بل أحسوا بالحاجة إلى الدين كما أحس الذين حرروا بلادهم من قبل بمثل هذه الحاجة ، وهو وهذا الصحنى المذكور ينقل لنا أن نشرات دينية توزع في أمريكا وفيها يقول رجال كنيسة أحس الذين حرروا بلادهم من قبل بمثل هذه الحاجة ، وهذا هو الصحنى المذكور ينقل لنا أن نشرات دينية توزع في أمريكا وفيها يقول رجال كنيسة المسيح في فيلادلفيا بأمريكا : « وإن الذين أعلنوا استقلال أمريكا في القرن الثامن عشر كانوا يؤدون الصلاة في الكنيسة ، وإن اثنين منهم دفنا في فنائها ، وإنهم كانوا يستوحون الدين في كل ما قدموه للوطن ، وهم يعرفون أن الله هو المصدر الأكبر للحرية والمساواة ، وأنه خلق الناس متساوين أحراراً » . ثم يحدثنا الكاتب بأن الكنيسة هناك لا تقصر رسالتها على الواجبات الدفنية ، بل تشارك في التشريع ودراسة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية ، ويدعى رجالها في كثير من الأحيان أمام لجان الكونجرس الأمريكى لسماع وجهة نظرهم في بعض الشؤون ! ! ! . . . »

هذا بعض الحديث عن الاتصال بين الدين والدولة في أمة يقال عنها إنها لا تقيم للدين وزناً ، ولا تعترف في نصوصها الدستورية بالصبغة الدينية لها ، فلماذا يعاب أيها الناس على رجال الإسلام إذا طالبوا أبناء الإسلام بأن يهتدوا

في دولهم ومجتمعاتهم وسياساتهم يهدى الإسلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ لماذا توصف الدعوة للمعرض على الإسلام بأنها رجعية وجود ؟ ... ولماذا لم يوصف هذا السياسي الأمريكي الخطير بمثل هذا حين اشترك في مؤتمر كنائسي ، وخطب في كنيسة ، وتحدث داخل معبد عن شئون الحكم وسياسة العالم ؟ ولماذا لم يوصف الغرب الظلوم بالرجعية حين صنع هذه الدولة المفتراة علينا وهي « إسرائيل » فجعلوا عنوانها إسماً دينياً . وأقاموا العلاقة بين أفرادها على اليهودية وحدها ، وحرضوها على أن تحكم أحلاماً دينية جشعة فهي تعمل ليل نهار بدولار أميركا ومعونة فرنسا وإغضاء روسيا على تحقيق مملكتها اليهودية الصهيونية التي تزعم أنها تمتد من النيل إلى الفرات ؟ ولماذا لم توصف بالرجعية مدارس التبشير الأجنبية المبتوثة في دول الإسلام وهي تفتتح دروسها كل يوم بصلاة دينية ، وتفتتح طعام التلاميذ بتراتيل دينية ؟ . .

أحرام على بلايلة الروح حلال للطير من كل جنس؟!!

لألا أيها الناس . . . إن أبناء القرآن قد رضوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، وهذا الرضى يقتضيه أن يؤمنوا بدينهم ، وأن يعتزوا بعقيدتهم ، وأن يعملوا بها ولها ، وأن يسودوا معها ويقودوا عن طريق حكمتها ورحمتها ، ولا يخافون بعد ذلك لومة لائم ، ولا اتهام متهم : « أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » والله جل جلاله يقول لرسوله صلوات الله عليه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفييناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » .

إن هيمنة الإسلام على المجتمع لا تسبب له ضرراً ، بل تحقق له خيراً ، فلإن الإسلام هو نور الله المبين ، وصراطه المستقيم ، وهو الدين الذي جاء

خاتماً لرسالة السماء ، وناسخاً لما قبله من شرائع موقوتة ، ومتمماً لما سبقه من دين الله ، ومهيماً على الدين كله ، وهو الدين الصالح لكل زمان ، وليس في الإسلام سلطة لرجل الدين كسلطة الكنيسة أو كسلطة رجالها ، فلسنا نعرف في الإسلام عالماً من علماء الدين له حق السيطرة على عقائد الناس ، أو حق حرمانهم من الثواب ، أو حق الحكم عليهم بالعذاب ، أو إعطائهم صكوك غفران ، أو توسط روحى بينهم وبين خالقهم ، بل الكل عباد الله ، والكل أمام الله سواء ، والكل يقزعون بابه ، يرجون رحمته ويخشون عذابه ، فلا خوف إذن من قيادة الإسلام لدول الإسلام ؛ وما يخوفنا الغربيون والمسوخون بيننا إلا لأن أعداءنا يخافون من سيادة الدين فينا ، فإنه سيعلمنا الحرية والعزة وعدم الخضوع إلا لله ، ومثل هذه الحياة القوية الكريمة لا يمكن معها لأجنبي أن يحتل أو يستغل أو يمتص الخيرات من بلاد الإسلام .

إن الإسلام يريد منا أن نذكر الله في كل شيء ، وأن نتوجه إليه في كل أمر ، ولذلك شرع لنا الله أن نكرر في صلواتنا وتلاوتنا قوله في سورة الفاتحة إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم .

والرسول صلوات الله عليه يعلم معاذ بن جبل الاستعانة بما لله في كل حين فيقول له : « يا معاذ » ، والله إني لأحبك » فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . والصلوة تنكرر عدة مرات كل يوم ، ومعنى هذا أن الدعاء النبوي المذكور يتكرر عدة مرات كل يوم ، فلا ينسى الإنسان ذكر ربه .

إن أبناء الإسلام يفرحون ويبتهجون كلما شاهدوا اتجاهاً من الرعاية في دول الإسلام نحو هدى الله وكتاب الله وشريعة الله ، فهم قد فرحوا يوم شاهدوا أندونيسيا مثلاً تنشى برلمانها وتستن سنة حميدة وهي أن تفتتح جلساته

بقراءة آيات من القرآن الكريم ، وهم قد فرحوا حين قرأوا أخيراً أن القادة الحاكمين في جنوب الوادي بالسودان قد أقسموا بيمين الولاء أمام مفتي السودان^(١) ، لأن المفتي هنا رمز يمثل كلمة الإسلام ، فكأنهم أرادوا تقوية القسم وتزكيته عن طريق ربطه بسبب من الدين ومن هدى الله الذي يؤيد من أخلص الاستعانة به : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فن الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . والأمة قد ترى راعيها الآخذ بزمامها في مختلف المناسبات ، ولكن أروع مشهد تراه فيه هو مشهد سعيه إلى بيت من بيوت الله ، يخضع لخالقه ، ويستمع لتوجيه دينه ، ويستمد من عونه وفضله الهداية والرشاد ، وإذا خضع حاكم الأرض لبارئه فقد رحم جبار الأرض والسماوات : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الذين رضوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، يؤمنون كل الإيمان بأن الإسلام دين ودولة ، وعبادة وقيادة وتبئل وفروسية ، ومسجد وثكنة ، ومدرسة ومصنع ، وإصلاح للفرد وتنظيم للمجتمع ؛ وهو كما يحض على مكارم الأخلاق ويعمل لتطهير القلب والنفس ، يشرع للأمة ، ويقود بالحكمة ، وينظم سائر العلاقات والمعاملات ، « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

(١) انظر الصحف المصرية الصادرة يوم الخميس ٢٠ نوفمبر

بين الرئيس والمرعوس

لله الحمد ، هو وحده المنزه عن الخطأ والسيان ، وهو « الذى خلق الإنسان علمه البيان » ، سبحانه ألف بين قلوب المسلمين فأصبحوا بنعمته إخواناً ، ونزع ما فى قلوبهم من غل فكانوا أحبة وخلاناً ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، جعلت الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، وسويت بينهم فلا عبيد ولا أرباب « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من اصطنع الرجال وأبرز الأبطال ، وأصدق من حارب الاستبداد وآخى بين العباد ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى أغصان دوحته الناضرة ، وفرسان صحابته أولى العزمات الباهرة ، والثابتين على نصرته شريعته الزاهرة ، « والذين جاهلوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

من عيوبنا الشنيعة الفظيعة ، التى تهدم البنيان وتحطم الكيان ، أن أكثر المترسبين فى نواحي الحياة المختلفة ، يعتبرون الرياسة مغنماً يفيض بالرغبات ، وسلماً يؤدى إلى التجبر والإعانت ، فما يكاد الواحد منهم يتسلم مقاليد السلطة ، ولو فى دائرة محدودة أو عمل ضيق ، حتى يستنسر وقد كان بالأمس بغائماً ضعيفاً ، وحتى يستأسد وكان من قبل ثعلباً هزيباً ، فلا هم له إلا أن يظهر سلطانه ويبدى عنفوانه ، تارة يطغى ويتجبر ، وتارة يتحكم ويتسيطر ، وتارة يصيح فيمن حوله ليسمعوا ويسمع الجيران وجيران الجيران إن استطاع ، فيقول : أنا الأمر هنا فلا تأخر أو عصيان ، وأنا الناهى فلا مخالفة

(١) ألقىت فى ٧ من رجب سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٣ من أبريل

أو نكران . . . ويحاول بكل ما أوتى من وسائل مشروعة أو ممنوعة أن يركز السلطة كلها في يده ، فلا معقب عليه في حكمه ، ولا شريك له في أمره ، وكأنه يشعر « بمركب النقص » في نفسه فهو يستره ، أو يحاول خداع الناس عنه بالاغترار والاستكبار . . .

وإنك لتتظر إلى المرعوس الذي توقعه حظوظه السود تحت رياسة هؤلاء ، فتراه أمامهم آلة صماء ، ليس لها من الأمر شيء ، وليس لها عند التصرف حساب أو ميزان ، بل عليها أن تدور وتعمل حينما يطلب منها ذلك ، وعليها أن تقف بسرعة وتصمت صمت الجماد أو صمت القبور حينما يطلب منها ذلك ، فالمسكين لا يختار ولا يتصرف ، ولا يستعمل عقله أو مواهبه ، ولا يعمل عملاً إلا بإذن من الرئيس السيد المهاب ، فهو ينهض بإذن ، ويجلس بإذن ، ويوقع بإذن ويضع الورقة العادية في « الملف » المألوف بإذن ، وهو أيضاً يذهب إلى دورة المياه بإذن ؛ وهكذا . . . ولا يحسبن ظان أن في القول مبالغة أو ادعاء ، فإن كثيراً من الأرجاء في حياتنا تضم الرؤساء المهازيل أو المعاليل الذين يريدون دائماً أن يكونوا جبابرة تطاع أو امرهم مهما كان سخفها أو ضعفها بلا مناقشة أو جدال ، ومن حدثته نفسه بأن يراجع أو يلاحظ فهو المصاب المنكوب بلا رحمة أو إبقاء ، وكثيراً ما يتلقى المرعوس من رئيسه أمراً والمرعوس يعلم أنه فساد أو ضلال ، ولكنه يوافق ويؤيد ويسارع إلى التنفيذ ، وربما أمر الرئيس بعد ذلك بتقيض ما سبق فلا يرى المرء وس بأساً في أن يساير تطور رئيسه فيوافق أيضاً ويسارع . . . وقد تمر على المرعوس حالة تحتاج التصرف فيها ، فيلجأ إلى رئيسه المهاب مستفتياً ومتلقياً منه الوحي والإلهام ، فيأمره الرئيس بما يرى ، ويفتبه بما يجب أن يكون ، وبعد ذلك تمر نفس الحالة ، فإن حدثت المرعوس نفسه بأن يطبق عليها ما تلقاه من قاعدة سابقة ، غضب الرئيس وثار ، وصرخ : يا أيها

الناس ، إلى هنا الرئيس فكيف لا استشار ؟ . . وإذن فلا بد من الإذن في الصغير والكبير ، والجديد والقديم ، كأن طلب الإذن من الرئيس أمر تعبدى لا يسأل عن علته ولا عن حكمته ؛ وإذا ضعفت النفوس وضاعت الأحلام فقل على المجتمع السلام ! ! . .

ما هكذا الإسلام يا بنى آدم ، وما ذلك بطريق الرجال أيها الأقزام ، لقد خلقكم الله أحراراً ، غير مستعبدين ، لا في الديار ولا في الأفكار ، وجعلكم كلكم من أب واحد وأم واحدة ، ولم يفرق في الحقوق الإنسانية بين خادم ومخدوم ، ولا بين رئيس ومرعوس ، وجعل سيد القوم خادهم ، وعبر عن وحدة الأصل مع وجوب اللجوء إلى الله سبحانه باتقائه وحده ، وخشيته وحده ، والخوف منه وحده ، فقال القرآن : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » وأمر نبيه المختار المعصوم صلوات الله عليه ألا يستبد بالأمر فقال له : « وشاورهم فى الأمر » . . . ومعنى هذا أن يجعل الرسول لكل فرد حقه فى إبداء الرأى وإحالة النظر ، حتى يشعر كل مسلم بأنه فى أمة تحترم وجوده وتعتبر رأيه وتشركه فى تدبير الأمور ؛ ولقد حرص محمد عليه صلوات الله على أن يجعل صحابته وأتباعه أشخاصاً أحياء ، يفكرون ويستفسرون ويعترضون ويتحركون ، ولم يتخذهم فى يده آلات صماء ، أو أسلحة له خرساء ، فكان أولاً يعرض الأمور عليهم ، ويشاورهم فيها ، ويجعل نفسه كأحدهم فيبدى رأيه فيما لا تشريع من السماء فيه كما يبدى أى فرد منهم ، وأحياناً كثيرة يختار رأيهم ويترك رأيه ؛ ولقد رأينا كيف بارك بتقديره جهود الشباب من صحابته فاستمع منهم واستجاب لهم ، ووكّل لهم من جلائل الأعمال وعظام الأمور ما يدلنا على أنه كان لا يريد الاستئثار بأمر لنفسه ، ولا يريد السلطة لذاته ، ولا يريد أن يتباهى برياسته أو يتجبر

في قيادته ، بل كان يريد أن يجعل كلا منهم صالحاً للقيادة والرياسة ، إذا انفرد بأمر نهض به نهوض الكلمة من الرجال ؛ وكأنما أشار إلى ذلك في قوله الوجيز البليغ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . . .

ولقد أثمرت تلك التربية الاستقلالية أينع ثمارها ، وأفرجت أبعى أزهارها ، أخرجت لنا أبناء المدرسة المحمدية الأولى الذين يرتفعون حتى يمسوا الثريا علاء ومجداً ، ثم توضع في أيديهم مقاليد الأمور فلا يستبدون فيها ولا يستأثرون بها ، ولا يرونها تشريفاً بل يعدونها تكليفاً ، ويؤمنون بأنهم محاسبون أمام الله وأمام الناس على الفتيل والقطمير ، وأنهم لا يطاعون الطاعة العمياء ، بل يطاعون عن إيمان وضيء ، وفيما هو حق ومشروع لأن قانون محمد يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ولذلك كانوا لا يضيعون بمناقشة أو معارضة ، ولا يفرون من حساب أو مراجعة ، ولا يدعون لأنفسهم كل شيء ، بل لو تصرف أحد الرعية تصرفاً جميلاً ولو بغير إذن منهم حمدوه وغفروا له ، وسألوا الله أن يؤيده ويعضده ؛ وهذا على سبيل المثال سعد بن أبي وقاص أول مريق لدم الكفر في الإسلام ، وأول رام بسهم في سبيل الله ، وفارس الإسلام المحجاب الدعوات ، وخال الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذي قال فيه الرسول : اللهم استجب لسعد إذا دعاك . وقال : اللهم سدد سهمه وأجب دعوته . . هذا سعد كان زعيماً في فتح القادسية ، وكان القائد الأعلى للجيش الإسلامي المظفر ، ولما تهباً للبدء في الغزو وتسرع القعقاع بن عمرو منشوقاً إلى الحرب فزحف بغير إذن من سعد القائد ، فلما علم بذلك سعد أبان أنه لا يبغى تجيراً أو تكبراً ، وأنه أخلص نفسه وعماه لله والإسلام ، فقال : اللهم اغفرها له وانصره ، فقد أذنت له وإن لم يستأذن . . . وكذلك تعجلت قبيلة بجيلة في الزحف دون إذن ، فلم

يثر سعد ولم يغضب ، ولم يعتبر أن رياسته قد جرحت ، أو أن كرامته قد أهينت ، بل قال : اللهم أغفرها لهم وأنصرهم ! . . . وهذا عمر الفاروق يثق برعيته فتثق به رعيته ، ويأتمن جنوده على كنوز الأرض وخيرات الفتوح فلا يخونونه في قليل أو كثير ، ويرسلهم باسم الله فاتحين ، لهم حريرتهم ولهم تصرفهم ، فيفتحون ويغنمون ولا يغتالون ، ويحملون إليه مثلاً ذخائر كسرى وكنوزه وجواهره وهي هائلة مدهشة ، فيقول عمر معجباً : إن الذين أدوا هذا لأمناء . . . ولكن علينا البصير يشرح السبب في ذلك فيقول : يا أمير المؤمنين ، إن القوم رأوك عفتت فعفوا ، ولو رعت لرتعوا ! . . . وهكذا كانت الرياسات بين المسلمين مفرماً لا مغنماً ، وتعباً ونصباً ، لا زهواً ورتباً ، وتعاوناً واستناداً ، لا تجبراً واستبداداً ، وبذلك عزت الأفراد وأدت واجبها ، فعزت وسادت ، ولم تخضع جباهها إلا لله الواحد القهار . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . . ألا لعنة الله على من يريد أن يدعى لنفسه ما ليس له ، أو من يحاول اتخاذ الناس عبيداً وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ولعنة الله على من يخفض رأسه أمام الباطل ليناله رشاش من قذارته ، ولعنة الله على أمة لا تمكن كل فرد فيها من أن يكون له كيانه ووجدانه وحرية وشخصيته . . . نريد تعاوناً بين كل رئيس ومرعوس ، ونريد من الرئيس ألا يفرض أو يرغم ، ونريد من المرعوس ألا يتقهقر أو يحجم ، ونريد من الفرد أن لا يقول (أوافق) إلا بعد أن يؤمن ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

المال للانفاق

الحمد لله ، يؤتى كل نفس برهان هدايتها وطرق إيمانها ، ويهب النعمة ثم يرشد إلى سبيل شكرانها ، « والله يقول الحق وهو يهdy السبيل » نشهد أن لا إله إلا أنت ، الغنى ونحن الفقراء ، القادر المقتدر ونحن الأذلة الضعفاء ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمد آ عبدك ورسولك ، ملك نفسه فلم تذلها شهوة ، وأخلص لله وجهه فلم تسيطر عليه هفوة ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وعترته ، وأنصاره وصحابته ، وأتباعه وأمته ، « أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

يصاب المجتمع الفاسد غالباً بطائفة لثيمة خبيثة ، يستبد بها سعار الطمع ، ويستولى عليها جنون الجشع ، فلا تعرف فى الحياة غاية ولا هدفاً إذ أن تلم وتجمع ، وتمتلى وتشتيع ، وتتخذها من الذهب عجولا تعبدها وتقدها ، ثم تصم آذانها عن كل نداء أو رجاء إلا رنين هذه القناطير المنقطرة من الذهب والفضة ، ومثل هؤلاء أشبه بالعلق الذى يمتص الدماء ويمتلىء بإفناء سواه ، ولن تقوم للمجتمع الصحيح السليم قائمة ما دام هؤلاء الفراعين الملاعين يبنون صروحهم من أشلاء ضحاياهم ، وجماع المصروعين ببغيمهم وبلاياهم ، وكيف يتهبأ لصغار الأسماك الهزيلة الضئيلة أن تحيا أو تسعى ، ومن حولها حيتان الطغيان تفرغ أفواهها ، لتلتقم بها كل ما يصادفها دون تبصرة أو تمييز ؟ ! . . .

(م ٢١ — خطب ج ١)

نعم إن المال شيء جميل جذاب ، حتى في تأثيره وتحذيره إنه اللحن الموسيقى الساحر الذى يرقص حوله العالم ، وإنه متم الأعمال ومحقق الآمال ومنقذ الرجال ، وقد وضع الله في نفس الإنسان حبه للمال : « وتحبون المال حباً جماً » ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » « وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً » . ولكن الأجل من المال إنفاقه في مواطنه ، والتمتع به في أوانه ، لأنه يفقد قيمته عند عدم استخدامه ، وما نفع المال إذا لم يخرج من الخزائن والأغلال ؟ . ولذلك نرى الإسلام الخفيف البصير بطبائع النفوس وحنايا الضلوع ، يأمر أهله بكسب المال من حله ، ويعده نعمة كبرى ساقها الله إلى عباده ، ولكنه في الوقت نفسه يحذرهم أن يكونوا له عبيداً أرقاء ، وإلا صار المال إلهاً يعبد من دون الله ، وما من إله إلا إله واحد ؛ ويدعوهم إلى إنفاقه في سبيل الله وسبيل الله كل واحد من أودية الخير يكسب بها المرء نفعاً طيباً لنفسه أو لأهله أو لبني جنسه ؛ ويعدهم على ذلك المضاعفة وحسن العوض ، ؛ ولذلك يقول القرآن : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » ويقول الحديث : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . ويتوعد القرآن أولئك الفجرة المجرمين الذين يمتصون ولا يفرزون ، ويجمعون ولا يقسمون ، وينتفخون ، فيقول : « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخله ، كلا لينبذن في الحطمة » . ويقول : « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكثرون » .

وبالأمس البعيد كان الكرام الأماجد من أبناء الإسلام ينطلقون في جنبات الحياة وأرجاء الكون عاملين غانمين ، فيكسبون ويربحون ، ويجمعون الكثير

الطيب الذى يسر ويعجب ، أو يدهش ويذهل ، فيعفون منه أنفسهم ،
ويفيضون ينابيعه على أهلهم وتابعهم ، ثم يذكرون مع هذا أو بعد هذا
أنهم من الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، فيستجيبون لصرخة
الملهوف ، وينعطفون لأنه المكروب، ويبدلون فى المكارم والعظام والخطوب
مؤمنين أن المال غاد ورائع ، وأن الرجال بالأعمال والأخلاق لا بالسبائك
والأوراق ، وأن المنفقين لهم من الله حسن الخلف ، وأن الأشحاء لهم منه
سوء التلف ، « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » ، وأن
طريق السعادة فى الحياة لا ينتظم مع امتلاء الأشحاء ، وأن طريق الجنة
لا يستقيم إلا إذا أظلته أشجار من صنائع الإنفاق والسخاء . . .

هذا عبد الرحمن بن عوف كان من فضلاء الصحابة وأتقيائهم ، وكان
موفقاً فى التجارة والكسب حتى قال : لقد رأيتنى وما أرفع حجراً إلا ظننت
أنى سأجد تحته ذهباً أو فضة . . . ولقد نظر إليه الرسول يوماً وقال له :
يا ابن عوف ؛ إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً ، فأقرض
الله يطلق قدميك . . قال عبد الرحمن : وما الذى أقرض يا رسول الله ؟ . .
قال : تبدأ بما أمسيت فيه . قال : أبكله أجمع يا رسول الله ؟ قال : نعم .
فمخرج عبد الرحمن لينفذ ذلك ، فأرسل إليه الرسول بعد قليل يقول : إن
جبريل قال : مر ابن عوف فليضف الضيف وليطعم المسكين وليعط السائل ،
فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه . . . رأيت كيف أشفق الرسول على
ابن عوف من تكتل الثروة ، وصورها له كأنها أثقال وأغلال تقيد قدميه ،
وتعوقه عن السبق إلى الفردوس ، وكيف نصحه أولاً بالخروج عن ماله كله ،
ثم يخفف عليه الامتحان بوحى السماء فينصحه بالإنفاق المعتدل فى الوجوه
المشروعة اللازمة ؟ . . بهذه الاشتراكية الإسلامية العالية ساد الأولون ! . .

ولقد حدث بعد وفاة الرسول أن قدمت عبر لعبد الرحمن كبيرة طويلة لها ضجة ، فسألت عائشة عنها فقالوا : هذه عبر عبد الرحمن بن عوف قد قدمت . فقالت : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كأنى بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم أخرى حتى يفلت ولم يكده ! . . . وبلغ الكلام ابن عوف فقال : هى وما تحمله صدقة ! . وكانت خمسمائة راحلة تحمل نفائس التجارة من الشام ، فتبرع بها عبد الرحمن للأمة المسلمة ، لأنه خاف وعيد الحسيب الرقيب ، وأراد أن يتخفف من أثقاله وكنوزه ليستقيم سيره على الصراط ! . . .

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن كان مبشراً بالجنة قال لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها : « يا أماه ، أخشى أن تهلكنى كثرة مالى ، فإنى أكثر قریش مالا » . فقالت له : يا بنى ، تصدق فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن من أصحابى من لا يرانى بعد أن أفارقه . فأخذ رضى الله عنه ينفق ما استطاع ، وكان فضل الله عليه عظيماً فكلماً توسع فى الإنفاق وسع الله عليه فى الرزق والله خير الشاكرين .

ولقد أصابت المسلمين شدة على عهد عمر ، فكتب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص يغلظ له القول فى طلب المعونة منه قائلاً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاصى ؛ سلام عليك ، أما بعد ، أفترانى هالكاً ومن قبلى ، وتعيش أنت ومن قبلك ؛ فياغوثاه ! يا غوثاه ! . . . » . فأسرع عمرو بالنجدة وكتب يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاك الغوث ، فليث ليث ، لأبعثن إليك بعير أو لها عندك وآخرها عندى » . . .

أفي آذان أغنيائنا وأصحاب الملايين منا صمم فهم لا يسمعون ، أم في أعينهم عمى فهم لا يقرأون ، أم على قلوبهم حجب وأقفال فهم لا يشعرون ، ولذلك لا ينفقون إلا لحزبية مشتتة ، أو غنيمة مقبلة ، أو دعارة فاجرة ، أو شهوة آثمة ؛ والحى يعج بملايين الضحايا التي أتى عليها الحرمان والطغيان ؟ .

يا أتباع محمد عليه السلام . . . إنه لا يجوز في شرعة إنسان عاقل فضلا شرعة السماء الطاهرة أن يمتلىء أشخاص معدودون حتى يموتوا من التخممة ، وأن يحرم بجوارهم آلاف حتى يموتوا من الجوع ؛ ولو أعطى المتخمون للمحرومين ما زاد عن حد الاعتدال لأستقامت الحال وطاب المآل ، وعندها يصبح المؤمنون إخوة أعزاء ؛ فبشروا بهذا وأعملوا له تكونوا من المجاهدين ؛ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون . . .

الاسلام والمرأة

لك الحمد يا صاحب الحمد في الأولى والآخرة ، وواهب اليقين للنفوس
الداكرة ، أنت الذى خلقها فسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، وكتب
النجاح والفلاح لمن زكاها ، وبشر بالخيبة والندامة من دساها ، وما ظلمهم
الله ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، نطقت
بفضلك الآيات ، ودلت عليك العلامات : « سزيرهم آياتنا فى الآفاق وفى
أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء
شهود » ؟ . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، اصطفيته لرسالتك
ونصرتة بجندك وعنايتك ، « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . فصلواتك
اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحفاده ، وصحابته وأجناده ، الذين
استقاموا وما استناموا ، فحق لهم وعد الجليل فى محكم التنزيل : « نحن أولياؤكم
فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها
ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لا يزال بيننا مع الأسف طائفة من المسلمين الشكليين ، الذين انحرفت
تربيتهم وثقافتهم ، ففسدت عن الإسلام الحنيف فكرتهم وعقيدتهم ؛
نشأوا فى بيئات لا هى شرقية ولا هى غربية ، فدرسوا من العلوم والفنون
ما درسوا ، ولكنهم لم يصلوا أسبابهم بالثقافة الإسلامية ، فظلوا بها من
الجاهلين ؛ وتم حكموا على الإسلام أحكاماً خاطئة ، ونسبوا تهماً كاذبة ،
والناس بالطبع أعداء لما يجهلون . .

لقبني رجل من هؤلاء الذين تربوا تربية غربية أوربية ، وآمنوا بالإيمان الأعمى بكل ما يأتيهم من الخارج ، فسألني مستثيراً : هل يبيح الإسلام حقاً أن يضرب الرجل امرأته ؟ .. فأجبتة : نعم يجيز الإسلام ذلك في بعض الأحوال وبشروط كثيرة هي . . . وأردت أن أورد له هذه الشروط فقطعني قائلاً : لا لا . . . لا داعي لتطويل الحديث ؛ ويكفي قولك « يبيحه الإسلام » فذلك كاف في الدلالة على الوحشية والقسوة ، وأن قانون الصحراء كان له دخل كبير في وجود ذلك الاستبداد ! . . وجاهدت نفسي جهاداً كبيراً لأغالب ثورتي وغيظي ، وأردت أن أكون داعية لا مؤدباً ، فحاولت أن أبين له وجه الحق الناصع المشرق في تشريع الإسلام ، فأبى واستكبر ، وأصر على الإعراض ، وولى عنى مدبراً وهو يتمم : حقاً إنها لوحشية وفظاظة أن يجوز للرجل ضرب امرأته مهما كانت الأسباب ، فأين ذلك التوحش من حضارة أوربا وقوانينها الحديثة ، وتقاليدها الراقية ، وحرصها على المساواة بين الرجال والنساء ! . . . وعاودت كتبان غيظي ، وسألت الله أن يشفي الصدور المريضة ، وأن يفتح للحق الآذان العريضة ، ومرت أيام ، وإذا بي أتناول صحيفة فأقرأ فيها هذا العنوان الكبير : « ضرب الزوجة مباح في إنجلترا » ! . . . وطلعت تحت العنوان ما ملخصه أن سيده إنجليزية لها مكانة اجتماعية ملحوظة ، قد رفعت قضية على زوجها ، وهو محام كبير ، تطلب الطلاق منه لأنه تعود أن يضربها بقسوة ، فإذا ما احتجت عليه قال لها : « ارفعي الأمر إلى القضاء فإن القانون بجانبي يحميني ، إذ فيه نص صريح بأن ضرب المرأة مباح » . . ثم ذكر كاتب المقال أن القانون الإنجليزي لا يحرم ضرب الزوجة ، بل يبيحه صراحة ، ولو أنه وضع للضرب حدوداً بحيث لا يؤدي إلى تشويه الزوجة أو كسر عضو من أعضائها ، وأن عدداً كبيراً من الأزواج الإنجليز يستغلون هذا النص أسوأ استغلال ، فيضربون

زوجاتهم ضرباً مبرحاً ، بأدوات غير مشروعة للتأديب ، وأن القانون الإنجليزي يحكم في الغالب لمصلحة الأزواج ، ما لم تتخلف عن الضرب المبرح آثار ظاهرة ؛ حتى قالت رئيسة إحدى الجمعيات هناك : إن إباحة ضرب الزوجة في بريطانيا قد جعل من الزوجة « قطعة أثاث » ينظفها الزوج ويزيل التراب عنها بوساطة الضرب ! .. وذكر أن القانون الإنجليزي يحكم برد الهدايا والجواهر التي قدمها الزوج لزوجته ، إذا حدث بينهما طلاق ، ويعمل ذلك بأن الزوج إنما ملكها هذه الأشياء « لتظهر بها في المظهر اللائق أمام الأصدقاء » ! ..

قرأت هذا فهتفت : ذلك هو ما يقنع المفتون ، ويرشد المجنون ؛ وسارعت بالصحيفة باحثاً عنه حتى لقينته ، فرميت إليه بالصحيفة قائلاً : إليك الدليل الذي يعجبك ، والبرهان الذي يناسبك ، يا من لا يؤمن بالفكرة إلا إذا جاءت من الخارج ملفوفة في غطاء كتب عليه : قد صنع في أوروبا ! .. فطالع المقال واستخذى ، ثم أظهر الأسف وأبدى الاعتذار ..

وحاول الفرار فاستبقينته قائلاً : ما كان لك أن تفلت من سلطان الحساب حتى تعلم فوق هذا فضل الإسلام وسموه وتعالیه عما تعتقد فيه اعتقاداً مطلقاً من قوانين المدنية والحضارة . . . إن الإسلام يمتاز على ما تفتن به وتهم فيه بأنه يأمر المسلم إذا طلق امرأته ألا يأخذ مما أعطها شيئاً ، ولو كان قنطاراً من ذهب ، فذلك لا يليق بالرجولة ، ولا بسابق العشرة الطويلة ، فاستمع إلى القرآن إذ يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » ؟ : فأين يذهب قانون إنجلترا المتحضرة الذي يجيز استرداد ما أعطى الزوج لامرأته من هذا الأدب الإلهي الرفيع ؟ ! ..

وقانونك الإنجليزي الحديث يا هذا يبيح للرجل أن يضرب امرأته بإباحة فيها نوع من السعة ، والإسلام حقيقة يجيز للزوج أن يضرب زوجته بقدر محدود في حالة اليأس من الإصلاح بأى طريق أو أسلوب في قوله تعالى : « قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن وأهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا » ولكن الإسلام جعل ضرب الزوج لزوجته كسلاح أخير يلجأ إلى استعماله مضطراً بعد استنفاد جميع الوسائل التي يمكن أن تؤدي إلى الإصلاح ، وعند تمرد المرأة على الأخلاق والآداب ، أو تمسكها بالعصيان والطغيان ، وقد قدم الإسلام بين يدي الضرب من العوامل والحوائل ما يكفي لعدم استعماله إلا في أشد الحالات ، فالإسلام يأمر بأن يختار الرجل زوجته من منبت كريم : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ومن طاب منبتها طاب سلوكها فلا تحوج إلى ضرب أو تأديب ، والإسلام يأمر الرجل بحسن معاشرته لزوجته فيقول : « وعاشروهن بالمعروف » وأوضح أن المعروف ليس بكف الأذى عنها فقط ، بل باحتمال الأذى منها ، ولقد كان الرسول يحتمل من نساته مراجعتن له اليوم بأكمله ، وهو القائل : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم لنسائهم » . ولقد أسلم روحه الشريفة وهو يردد : « استوصوا بالنساء خيراً » . والإسلام يأمر الرجل بالإرشاد وحسن التوجيه والتعليم إذا أخطأت المرأة ، وأن يصبر على تقويمها لأنها خلقت من ضلع أعوج ، فإن استمر خطأها وعيبتها فعليه أن يعظها ، ثم يحذرها ، ثم يخوفها ، ثم يلجأ إلى الاستعانة بحكم من أهلها يردها إلى صوابها ثم يهجرها في الفراش فيولبها ظهره ، أو ينفرد بفراش آخر ، لعلها ترعى أو تفيق ، فإذا لم تجد هذه الوسائل كلها وأبت المرأة إلا نشوزاً واستكباراً

جاز له - ولم يجب عليه أو لم يستجب له - أن يضربها بقدر كعلاج أخير حسبما قال الفقهاء ضرباً خفيفاً يراد به التهذيب والتأديب لا التشنق والتعذيب ، ضرباً غير مبرح لا يسيل دماء ولا يقطع لحماً ، ولا يكسر عظماً ، ولا يشوه خلقة ، ولا ينال وجهاً ، ولا يخلف أثراً ، حتى لقد قال ابن عباس ترجمان القرآن : إن الضرب يكون بالسواك ونحوه ؛ ومع ذلك فعدم الضرب أحسن إلا إذا ترتبت مفسدة أكبر ، ولذلك قال الرسول : ولن يضرب خياركم . وقال : أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخر اليوم ؟ ! . فأين القانون الإنجليزي العصري القضاة من هذه الحدود الإسلامية التي حددها الرحمن ليحول بيننا وبين سوء الاستغلال ؟ !

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الحق أبلج ، والباطل لجلج ، وإن الشواهد كلها لتصيح بأن شرعة السماء هي العلاج والدواء ، وأن الناس يشرقون ويغربون ويعترون وينخدعون ثم تكون خاتمة المطاف إلى رحاب الإسلام ، يجدون لديه الحكمة والهدى والسلام ، وقد حملكم الله أمانته ، ووكل إليكم نصرته ، فأين أنتم من ميدان الدعوة إلى الله ، والدخول في حماه ؟ . . واتقوا الله أيها المؤمنون لعلمكم تفلحون .

عن معاوية القشيري قال : يا رسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ . قال : تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في المبيت . وقال عليه الصلاة والسلام : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي . . .

المرأة وثقافة الدين

الحمد لله عز وجل ، أنزل القرآن ضياءً للإنسان : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل الظلمات والنور ، وماز الهداية من الفجور : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لا يستون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اتخذ القرآن غذاءه ودواءه ونوره ودستوره : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الغر الميامين من آله والكملة السابقين من صحابته ورجاله ، والمقتفين لآثاره وأعماله : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً : »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا خبر قصير تنشره إحدى المجلات في زاوية من زواياها ، ولعل الكثيرين لم يلتفتوا إليه ، ولم يشغلوا أنفسهم به ، مع أنه مخجل مؤسف ، يعطى فكرة خطيرة عن ضياع الثقافة الدينية بصفة عامة ، وضياعها بين النساء بصفة خاصة ، فقد قالت المجلة إن إحدى سيدات المجتمع المشهورات وهي مرشحة في الانتخابات - سألت أحد السفراء العرب عن الشاعر الذي قال : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ^(٢) » !

(١) القيت في ١١ من المحرم سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ١٧ من يوليو

سنة ١٩٥٩ م .

(٢) مجلة روز اليوسف ، عدد ١٣ يوليو سنة ١٩٥٩ م

غفر الله لك يا سيدة المجتمع المشهورة ، وهداك إلى سواء السبيل ، وأزال عنك بسلطانه ظلمات الجهالة ، وأراك بقدرته نور العرفان ، حتى تدركي الفرق بين القرآن الإلهي المجيد وبين الشعر العربي المنظوم . . إن هذا يا سيدة المجتمع المشهورة جداً ليس بيتاً من الشعر ، ولكنه جزء كريم من آية كريمة في فاتحة سورة كريمة تسمى سورة الإسراء ، في مصحف كريم يضم كتاب ربنا الذي يسمى القرآن الكريم . . . ألم تستطع هذه المرأة - وهي سيدة مجتمع مشهورة كما يقولون - أن تحس الفرق الواضح الظاهر بين كلام الله العزيز وبين نظم الشعر المعروف ؟ وصدق الله : « وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون » « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » . . إن هذا الخبر الخجل يذكرنا بالجهل الفاضح الموجود عند كثير من النساء بالدين ومبادئه ، والإسلام وتعاليمه ، والسيرة الإسلامية وأحداثها الكبرى ، ولا عجب ، فأغلب هؤلاء قد نشأن في مدارس أجنبية أو كالأجنبية ، لا تقيم للدين وزناً ، ولا تحفظ للعقيدة حرمة ، ومن هنا خرجن إلى المجتمع دون أن يعرفن شيئاً عن القرآن أو الحديث أو السيرة أو تاريخ الإسلام ؛ وهذا الجهل الفاضح يحتاج اليوم أشد الاحتياج إلى علاج ، فقد أخذت المرأة تزاحم الرجل في كثير من الميادين ، وصرنا أمام تيار جارف لا يجدى معه النصيح بالتعقل أو التروي ، فلا أقل إذن من أن تتحصن المرأة بالعلم والثقافة ، وبالهدى والتقى ، إن كانت مصممة على سلوك هذا الطريق المحفوف بالمتاعب والأشواك ؛ ويزيد الطين هنا بلة أن السيدة المشار إليها مرشحة في الانتخابات ، وهذا يذكرنا بقول شوقي : « لا تبعثوا للبرلمان جهولا » ! . . .

قد يقال إن هذه حادثة فردية لا تعطى حكماً عاماً ؛ ولو لم يكن هناك سواها لصح هذا الدفاع ، ولكن المشاهد المر أن كثيرين من النساء اليوم جاهلات بالثقافة الدينية ، وكثير من الآنسات والسيدات اليوم يبرعن في

حفظ الأغاني الخليعة والقصص الماجنة وأسرار البيوت الفاضحة وأسعار الكماليات الفاحشة ، بينما يجهلن ما يجب أن يعرفنه عن العقيدة والقرآن وثقافة الدين . . . وهذه مثلاً قصة الإسراء والمعراج وهي موضوع الحادثة ، لقد قيلت وأعيدت وكررت مئات المرات في السابع والعشرين من رجب في كل عام ، وفي أغلب المناسبات التي يجرى فيها الحديث عن الشبيبة المضيفة « فلسطين » ، فهل لم تسمع سيدة المجتمع المشهورة شيئاً عن هذه القصة في حديث أو خطبة أو مقالة ؟ . . أين نحن من الدنيا أيها الناس ؟ . . والعجيب هنا أن كل كلمة من كلمات الآية الشريفة تشير إلى أنها قرآن ، وتباعد بينها وبين الشعر ، وكل كلمة فيها تذكر بمعنى ديني أو ناحية إسلامية ، مما لا يدع مجالاً للذهن ، ولو كان كليلاً أو عليلاً - لينصرف جهة التفكير في أن هذا كلام شعراء ، والأمر في بلاد الإسلام الذي يتعلم ولم يقرأ يستطيع أن يميز كلام الله من كلام البشر ، وأسلوب الإنسان . . .

إن الآية الكريمة تبدأ بكلمة « سبحان » وهذا تنزيه لله عن كل نقص ، وتعبير خاص بالله لا يليق بسواه ، ولقد قال طلحة بن عبد الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله ؟ فأجابه : تنزيه الله من كل سوء ! . ثم تقول الآية : « أسرى بعبده » فقال الله هنا بعبده ولم يقل برسوله أو نبيه أو حبيبه ، ليعلمنا أدب التواضع من جهة ، وليخبرنا أن العبودية لله هي أشرف المقامات ، فلو كان هناك وصف أشرف من هذا الوصف لنعنت الله رسوله في هذا المقام المشهود : مقام التكريم والاصطفاء . ويقول القشيري : « لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية ، وأرقاه فوق الكواكب العلوية ، ألزمه اسم العبودية ، تواضعاً للأمة » ! . والشاعر الإسلامي يقول :

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدت بإخصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك : يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبياً !

وأيهما أسمى وأشرف ؟ .. أذلك الذى يفاخر بعبودية لله مالك الملك ،
وقيوم السموات والأرض ، ورحمن الدنيا والآخرة ، أم ذلك الذى يفاخر
بعبوديته لمحبووبته فيقول :

لا تدعنى إلا ييا عبدها فإنه أشرف أسمائى !

ثم تذكر الآية « المسجد الحرام » فهل عجزت المرأة أن تفهم شيئاً عن
المسجد الحرام حتى تباعد بين حديثه وحديث الشعر ؟ ... إنه المسجد الذى
قال فيه القرآن : « إن أول بيت وضع للناس بيكة مباركاً وهدى للعالمين ،
فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً » .. ثم تذكر الآية
« المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » فهل فات المرأة أن تسمع فى حياتها
مرة عن هذا المسجد الأقصى الذى بفلسطين ، وقد قال فيه الرسول :
« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ،
والمسجد الأقصى » ، وقد بارك الله حوله بمجارى الأنهار وتعدد الثمار ومدافن
الأنبياء والصالحين وغير ذلك .

ثم قالوا بنا أيها الناس ، خبرونا عن المقياس الذى يقيسون به سيدات
المجتمع ؟ . أو بعبارة أخرى : ما المؤهلات التى تسوغ للمرأة اليوم أن تصبح
سيدة مجتمع ؟ . أهى أن تهجر بيتها ، وتنسى واجبها ورسالتها ، وتتقن
تبرجها وزينتها ، وتكثر من الاختلاط بالأوساط المتصعدة أو المتصدعة ؟ .
أهى أن تتقن كيف تشرب وترقص وتصادق وتلوى لسانها بكلمات فرنسية
مع أخرى إنجليزية ؟ .. فأين العلم والخلق والدين والثقافة والتهذيب ؟ .

إن كثيراً من المسميات بسيدات المجتمع هن في الحقيقة والواقع نساء فشلن في أن يكن زوجات مستقرات ، أو ربات بيوت ناجحات ، أو أمهات بانيات ، فلما أخفقن في هذه الميادين الكريمة حاولن ستر هذا الإخفاق بالإندفاع إلى الأوساط الاجتماعية الهائجة ، لكي يغمرن تيارها فيخفين ما الله مبيديه ، والله عليم بذات الصدور . . . ونحن في الواقع لا نحتاج إلى سيدات المجتمع هؤلاء ، وإنما نحتاج إلى نساء يسهمن في حياة الوطن بأخلاقهن وثقافتهن وجهودهن في ميادينهن وما أكثرها ، ونحتاج إلى زوجات صالحات قانتات ، ونحتاج إلى أمهات مخرجات للأبطال من الأبناء ، دافعات للرجال بأيديهن إلى قمم العزة والمجد ، ماسحات بأيدي الرحمة والحنان على الجراح والآلام . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . أذكركم بعد هذا بالقرآن المضيع بيننا أيها الناس . . . أفما آن لأهل البصر والبصيرة ، والقدرة والاستطاعة أن يتداركوا أمر تحفيظه ؟ . . . إننا نخشى أن يأتي اليوم الذي نفتش فيه بمصباح « ديوجين » عن حفاظ للقرآن فلا نجد . . . وبالأمس كانت فتيات المسلمين يحفظن القرآن وينافسن في ذلك الفتيان ، فهل هناك اليوم فتيات من بنات المسلمين يعكفن على القرآن ؟ وهلا تذكرتم واجبكم في هذا المجال ، فأخذتم أبناءكم وبناتكم بمعرفة القرآن والتثقف في الدين ! . . . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

المرأة والمركة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله عز وجل . وعد من يعمل ويحسن بالأجر العظيم والثواب الجزيل : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » .
 أشهد أن لا إله إلا الله ، هو القائل : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ذكر بالنعمة ، ووجه بالحكمة ، فكان إمام المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن التوفيق في الكلمة المسموعة أو المقروءة لون من ألوان الهداية الربانية للعباد ، ولذلك قال القرآن الكريم في شأن الأخيار من الناس : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » . وفي وسط الأسبوع الماضي نشرت إحدى صحفنا خبراً غير صحيح ولم تكن موفقة في نشره حيث قالت إن النساء الجزائريات قد اشتركن في الاشتباكات الحربية الأخيرة التي وقعت في منطقة السويس بين العصابات الإسرائيلية والقوات العربية ، وأن إصابات حدثت لهؤلاء الجزائريات بعد أن قمن بجهود نضالية عظيمة ، وفي اليوم التالي نشرت الصحيفة نفسها تكذيباً للخبر جاءها من المسئولين وطلبوا نشره فأطاعت وفوق أن الخبر لم يقع نحس أن نشره يوجد أثراً سيئاً في النفوس ، فما زال في الحمى رجاله وأبطاله ، وما زلنا نرتجى من أبنائنا وفلذات أكبادنا أن

يكونوا صقور المعركة ونسورها ، والجزائر العربية الإسلامية الشقيقة قد قدمت إلينا في المعركة الأخيرة مجموعة من زهرة شبابها ومجاهديها ، وقد قامت هذه المجموعة بأعمال بطولية قبل النكسة وبعدها ، وأفرادها هم الذين يستحقون التتويه والتجديد ، فكيف يترك هؤلاء ، ويدور الحديث المتطرف أو المتسخف عن فتيات غير موجودات ؟ والمصلحة من يصنع هذا الخبر المكذوب ثم يذاع على الناس ؟

إن الجهاد قسمان : جهاد مباشر في الميدان ، وجهاد غير مباشر خارجه ، والدين قد علمنا أن الجهاد المباشر يجب أولاً وبالذات على الرجال ، وإذا حدث الزحف العام ، أو وطىء العدو أرض الإسلام ، وجاء وقت التعبئة الشاملة ، كان الجهاد فرضاً عينياً محتوماً على الجميع ، حتى قال الفقهاء إن الزوجة تخرج إلى الجهاد دون إذن زوجها ، وتاريخ الإسلام يشهد أن المرأة أسهمت في الجهاد بتصويبها ، وتألفت جهودها بنوع خاص في مجال المعاونة على إنجاح المعارك بالجهاد غير المباشر ، فقد روى الإمام البخارى أن الربيع بنت معوذ الجليلية قالت : « كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . نسقى القوم ونخدمهم ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة » . وهذه أم عطية الصحابية الجليلية الانصارية تقول : « غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ، أخلفهم في رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على الزمنى » أى المرضى . وحينما احتاجت المعركة إلى نزول المرأة المسلمة في ميدانها لم تتخلف عن ذلك ، وهذه أم عمارة نسيبة بن كعب الصحابية الجليلية قد شاركت أولاً في غزوة أحد بسقى الماء وخدمة المجاهدين . وحينما اشتد الأمر على المسلمين باشرت القتال بالفعل . ودافعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة والسلام بالضرب بالسيف والرمي بالقوس . وأصابها جراح كثيرة بسبب اشتراكها في القتال ، وقال الرسول صلوات (م ٢٢ - خطب ج ١)

الله وسلامه عليه يمجدها : « ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأراها تقاتل دوني » .
ولقد علمنا الإسلام العظيم أن الجهاد مراحل ، وأن طريقة طويل ممتد ،
وأن الجهاد يسبق المعركة ويصاحبها ويعقبها ، فهناك جهاد قبل بدء المعركة
عن طريق الإعداد والاستعداد والتأهب ، بدليل قوله تعالى : « وخذوا
حذرکم » وقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وهذا لا يحقق الفائدة
إلا إذا سبق المعركة ، وهناك جهاد في وقت المعركة بالإقدام والثبات والاحتمال
بدليل قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان
مرصوص » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله
كثيراً لعلکم تفلحون » . وهناك جهاد بعد المعركة بالاستمرار في حياة العزة
والقوة ، وبدوام النفوس على رزانتها وسكبتها وتماسكها ، وتحصنها بالمشاعر
النبيلة والأحاسيس الطاهرة ، ويمثل ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو عائد من إحدى الغزوات ، حيث قال لأصحابه : « رجعنا من
الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله !
قال : جهاد النفس . والمرأة تستطيع أن تسهم بنصيبها المعلوم في هذه المراحل ،
فتؤدي واجبها الكبير حين الإعداد المادي والاعداد المعنوي . وتستطيع أن
تخدم المعركة الدائرة من قرب أو من بعد ، وتستطيع أن تؤدي واجبها بعد
المعركة على نطاق رحيب ، مع لزوم التنسيق والتنظيم ، حتى يؤدي كل فرد
واجبه المناسب في الوقت المناسب على الوجه المناسب .

إن المرأة المسلمة اليوم أمامها واجبات كثيرة نحو المعركة ، أمامها أن
تشارك في عملية الإعداد الكبيرة ، وأن تجيد الدفاع عن النفس والدفاع المدني .
وأن تجيد الإسعاف والتمريض والحراسة والصيانة ، وأن ترعى أسر المجاهدين
والشهداء ، متذكرة قول رسولها عليه الصلاة والسلام : « من خلف غازيا
في أهله بخير فقد غزا » ، وأن تكون خير معوان على إثارة عواطف النضال

والإقدام في نفوس المجاهدين ، متذكرة أختها السابقة التي قال لها ولدها وهو خارج إلى المعركة : إن سيني قصير يا أماء . فأجابته : تستطيع أن تجعله طويلاً بخطوات إقدامك يا بني . وأختها السابقة متى قصت شعرها . وجعلته ضفيرة وقدمتها لتكون لجاماً لأحد الخيول المجاهدة ، فأشعلت نار الحماس في صدور المجاهدين ، وأختها السابقة « الخنساء » التي دفعت بأولادها الأربعة إلى الميدان ، وأوصتهم بالحرص على الثبات وصدق الجهاد حتى الموت والاستشهاد ، وشاء الله أن يكتب لهم مصير الشرفاء فيكونوا جميعاً من الشهداء . وحينما علمت بذلك قالت : الحمد لله الذي أكرمني بموتهم في سبيله ، وأرجو أن يجمعني به في جنته ويستقر رحمته .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

لا شك أن هناك عدداً من نساتنا قد حاولن تأدية واجبهن قدر استطاعتهن ، ومنهن من تدربن على حمل السلاح وتفجير القنابل واختراق الحواجز والذهب ، والإسعاف والإطفاء والإنقاذ والحراسة ، ولكننا ما زلنا نرى أعداداً ضخمة من النساء كأنهن لم يشعرن بما نحن فيه ، فما زلن يسرن مائلات مميلات ، كاسيات عاريات ، مع أننا سمعنا أن النساء في بعض أقطارنا كالجزائر وليبيا يلبسن السواد شعوراً بالنكسة . وإثارة لحوافز غسل العار والأخذ بالنار وتحرير الديار ، ومن واجب القوامين على هؤلاء النساء أن يأخذوا بأيديهن إلى مجال الإسهام في المعركة . فما زالت الحرب قائمة ، وما زالت المعركة مستمرة ، والجهاد يتطلب عزائم الكل وجهود الجميع . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

تعدد الزوجات

الحمد لله عز وجل ، خلق الخلق وهو العليم بما يضرهم وما ينفعهم ،
 الخبير بما يشقيهم وما يسعدهم : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .
 أشهد أن لا إله إلا الله ، أقام الشواهد على ربوبيته ، وبث الدلائل على صدق
 دعوته : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم
 يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ،
 إمام المتقين ، وزعيم الموقنين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله
 وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم
 المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

في زحمة الشواغل الكبرى التي تشغلنا في هذه الأيام ، والتي أطلنا عنها
 الحديث من قبل ، نشرت الصحف خبر قضية يجب أن نقف أمامها وقفة
 الاعتبار والادكار ، لأنها تعطينا برهاناً جديداً على أن الإسلام هو الدين
 الجامع الخالد الصالح لكل زمان ومكان ، وموضوع هذه القضية أن رجلاً
 مسيحياً تزوج باثنتين ، فأرادت الزوجة الأولى حرمان الزوجة الثانية وأولادها من
 حقوقهم بدعوى أن الجمع بين الزوجتين محرم وباطل في الديانة المسيحية ؛
 وقد حكم القاضي في هذه القضية برفض ذلك ، وقرر أن هناك خطأ مشهوراً
 هو القول بأن الإسلام وحده هو الذي يبيح تعدد الزوجات ، مع أن هذا
 التعدد غير غريب على البيئة المصرية منذ عهد الفراعنة . وأنه كان النظام
 السائد في الديانة اليهودية ، وإنما حرمه مجمع يهودى عقد في القرن الحادى عشر

(١) القيت في ٢٥ من رجب سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ١٤ من فبراير
 سنة ١٩٥٨ م

للميلاد . ومع ذلك ظلت بعض الطوائف اليهودية تعدد الزوجات أسوة
بأنبياء بنى إسرائيل ، ولم يرد في الإنجيل نص صريح قاطع يحرم هذا التعدد ،
والتصوص التي يستند إليها القائلون بغير ذلك لا تستقيم دون الاعتساف في
تأويلها وتفسيرها ، وإنما الذي حرم التعدد في المسيحية هو مجمع « نيقية »
المعروف (١) .

هذه خلاصة أمينة لقرار القاضى في هذا الموضوع . وإنه لقرار عميق
الدلالة جليل الأثر . لأنه يعد صفة قوية على وجوه أوائل الذين يحاولون
من حين إلى حين أن يهدموا شريعة الله ، فيطالبوا بمنع تعدد الزوجات . نعماً
باتاً ، وبتسوية المرأة بالرجل في الميراث . إلى آخر ما يحاولونه من تحريف
وتبديل ، ويتفننون في اتخاذ الطرق الملتوية إلى ما يريدون . والله غالب على
أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون وقيمة هذا القرار ترجع إلى أنه من
قاص مدنى وليس من رجل دينى . وأنه يصحح أوهاماً رائجة بين كثير من
الناس ، وينصف الدين الإسلامى المظلوم عند الجاهلين به والحاقدين عليه .
فطالما افترى المفترون بأن تعدد الزوجات أمر معيب في كل صورة ويجب
أن يمنع بتاتاً ؛ مع أن هناك ظروفاً تقضى به وتلجىء إليه ؛ فحينما يزيد عدد
النساء على الرجال بسبب تعرض الرجال للمتاعب والشدائد والحروب لا بد
للعدد الزائد أن يجد الحياة الكريمة في ظل الأسرة ، وإلا عمد إلى التهرب
والفجور . وكل منهما يفضى إلى طائفة من الشرور .

وقد تصاب الزوجة الأولى بعقم ، والرجل يريد الذرية ، وإن طلق
الأولى ضاعت أو هانت . فهو يبقيا مكرومة ويضم إليها ثانية . وقد تصاب
المرأة بمرض مزمن يجعلها غير صالحة للفراش . ولا بد للرجل من إرضاء
غريزته ، فإن لم يفعل ذلك حلالا اندفع إليه في ظلال الإثم والفسوق .

(١) انظر جريدة الجمهورية ، يوم الأربعاء ٥ من فبراير سنة ١٩٥٨م

والواقع أن كلا من الإسلام والمدنية التي يتشددون بها وينتسبون إليها يبيح تعدد الزوجات ، ولكن الفرق بين الإسلام الخفيف ومدنيتهم الكاذبة في هذه الناحية هو أن الإسلام أباح تعدد الزوجات عند الضرورة إليه . تحت بصر التشريع وسمع المجتمع ، وفي صورة واضحة معترف بها من الفرد والجماعة ، مستلزمة لتبعات كثيرة أثناء الزوجية وبعدها ، وأما مدنيتهم فلإنها أباحت التعدد تحت ستار المخادنة والعلاقات الأثيمة الفاجرة بين الجنسين والاتصالات البهيمية بين الرجال والنساء ، بلا اعتراف نظيف من المجتمع ، ولا التزام صريح بحقوق الزواج ، « فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » ؟ ! ..

لسنا بهذا نعرض على تعدد الزوجات أو نشجع عليه ، فإنه كالدواء الذى يؤخذ عند الحاجة إليه فقط ، وما أكثر المحرمين الذين يسيئون استعمال هذا الدواء بلا حاجة فيجنون على أنفسهم وعلى غيرهم ، ولكن سوء الاستعمال لا يوجب منع الدواء إطلاقاً وإلا تعذر علاج الحالات التي يلزمها هذا الدواء ، والأصل أن يقتصر الإنسان على زوجة واحدة ، وتكاليف الحياة أصبحت اليوم شاقة عنيفة ، ومن العسير أن ينهض الفرد العادى بحقوق الزوجة كلها ، فكيف يضع ضعفاً على إباله ؟ .. والإسلام يعتبر الفقر والعجز عن نفقة الأسرة عذراً وسبباً في عدم التزوج بزوجة واحدة فهو من باب أولى لا يبيح للعاجز عن التبعات الزوجية أن يتزوج بأكثر من واحدة .

وخطتنا في هذا الباب هي أن تبصر الرجال بتبعات الزواج وبحقوق الزوجية ، وبأن البيت له تفقاته وتكاليفه ، وبأن زوجة واحدة تحتاج إلى كثير من العناية ومزيد من الرعاية . فلا يقدم على الزواج بأخرى إلا إذا كان محتاجاً احتياجاً صادقاً ملحقاً إلى هذه الزوجة الثانية ، وعرف أنه سيعدل

بين الزوجتين العدل المستطاع الذى يدخل فى طاقته : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، والرسول يقول : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط » ! .

ومما يتصل بهذا الموضوع أن إحدى المجلات المتحللة نشرت كلاماً عن تعدد زوجات الرسول صلوات الله عليه يفهم منه أن ذلك التعدد كان للشهوة الزائدة ، « ألا ساء ما يحكمون » وأية شهوة طاغية عند نبي صنعه الله على عينه ، واختاره لرسالته ، وكلفه من التعبات ما يزلزل الجبال الرواسي ؟ وأية شهوة هذه عند الرجل تزوج وهو فى الخامسة والعشرين من عمره سيدة فى الأربعين من عمرها ، وهى خديجة ، وقد تزوجت قبله مرتين . ومع ذلك عاش معها وحدها فى أطيب عيش أكثر من خمسة وعشرين عاماً . أى بعد أن تجاوز الخمسين من عمره ، وانقضى عهد الشباب والاشتهاء ؟ . . .

وإنما تزوج الرسول فى سنواته الأخيرة من تزوج من النساء ليجمع القلوب ويتألف القبائل ، ويحقق أغراضاً أنظف وأشرف مما يفكرون . . . فتزوج عائشة تكريماً لأبيها الصديق أبى بكر ، وتزوج حفصة لإرضاء لأبيها عمر ، ، وجبراً لخاطرها بعد زوجها الذى توفى مجروحاً فى غزوة بدر . وتزوج أم سلمة الطاعنة فى السن ليحفظها ويحفظ ذريتها بعد موت زوجها شهيداً فى سبيل الله . وتزوج زينب بنت جحش ليبطل زواجها بنظام التنبى الذى كان فاشياً بين العرب . . . وهكذا . . . أفيقال بعد هذا عن هـذا الرسول العظيم ما يقولونه من زور وإفك وبهتان ؟ ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن حياة النبي المجاهدة المناضلة لم يكن فيها مجال للاستمتاع أو الراحة : فقد نشر دعوة ، ووحّد أمة ، وجمع كلمة ، وأخرج الناس من الظلمات

إلى النور وشهد الغزوات والمعارك ، وأفسد المؤامرات ، وقضى على الشرك ، وكان يرى نفسه مسئولاً عن كل فرد في أمته ، فهل يجد في حياته متسعاً لهذه الشهوة أو لهذا الاستمتاع ؟ إن الرجل منا قد تشغله التجارة أو الكتابة أو العمل فينسى الخلق والنساء ومتاع الدنيا ، ولا يجد دوافع للمتعة أو الشهوة ، فكيف بمن تعب للجميع حتى أسعد الجميع عليه الصلاة والسلام ؟ . . فتعرفوا إلى دينكم ، واطالعوا سيرة نبيكم على وجهها ، وأدركوا أسرار شريعتكم ، وألقموا أعداءها بالحجة والبرهان ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الدين وتنظيم الأسرة

الحمد لله عز وجل ، هو الرحيم بخلقه ، اللطيف بعباده : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . أشهد أن لا إله إلا الله ، ، بمن بالنعمة ويهدى بالحكمة : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله القائل : « دعامة المؤمن عقله » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه . وأتباعه وأحبابه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

جعل الإسلام الأسرة قوام المجتمع ، وجعل الزواج بداية ، وجعل للزواج أهدافاً سامية ، منها إرضاء الناحية الحسية . وتحقيق المشاركة الوجدانية ، والتعاون على أهور الحياة ، وإنجاب الذرية ؛ والذرية نعمة إلهية عظيمة من جهة ، وتبعة خطيرة من جهة أخرى ، فهي أمانة تحتاج إلى الرعاية والصيانة ، فإذا أراد الإنسان أن يحظى بها كان واجباً عليه أن يكون صالحاً : في حسه ونفسه . طاقته وقدرته ، في إشرافه ورعايته ، حتى يكون أهلاً للنعمة ، جديراً ببقائها بين يديه ، ولو أنه تعرض لها وهو عاجز عن مسؤولياتها ، لكان مستخفاً بها مفرطاً فيها ، معرضاً نفسه للمدمة التقاصر عن استحقاق النعمة من جهة ، وإثم تضييع ذريته وإهمالها من جهة أخرى . ولذلك أوجب الإسلام على الوالد أن يرعى ولده حق رعايته ، فينهض بتبعات نقصه وإرضاعه

وإطعامه وإلباسه وإسكانه ، وتعليمه ما ينفعه دنيا وديناً ، ويدخر له في غده القريب أو البعيد ما يهيئ له أسباب الراحة والسعادة ، حتى قال سيد الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام : « لأن تدع ورتلك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » أى فقراء يسألون الناس .

وهناك كثير من الذين لم يتفقهوا في دين الله على بصيرة يظنون أن مجرد الاكثار من الذرية حتى ولو كانت عليلة هزيلة لون من الازدياد في النعمة ، وهذا فهم غير قويم فإنه إذا لم تتوافر مع الكثرة العددية القدرة المادية والمعنوية الكافية لصيانة هذه النعمة حتى صيانتها ، والنهوض المستقيم بتبعاتها ومسئولياتها فإن الكثرة حينئذ سيكون ما لها الضعف والهزال ، أو الانحراف والخيال ، وهذه الكثرة الهزيلة العليلة المضيفة لدينها لا تغنى ولا تفيد ، ولقد قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ . قال : بل أنتم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ . قال : حب الدنيا وكراهية الموت » . .

ولقد جاء في الفقه الإسلامى أن الإنسان لا يجوز له الاندفاع العاجل إلى الزواج نفسه إذا كان غير قادر على النهوض بتبعاته الأساسية وواجباته اللازمة بأن يكون عاجزاً عاجزاً مادياً أو جنسياً ، أو تأكد لديه أنه سيظلم زوجته أو سيهضمها حتى توقعها الضرورية ومطالبها المشروعة ، وفي هذا المقام نتذكر قول الله تبارك وتعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة (أى القدرة على تبعات الزواج) فليتزوج ، ومن لم

يستطع فعلية بالصوم فإنه له وجاء « أى وقاية . فإذا كان هذا معروفاً من فقه الإسلام في الزواج نفسه ، فإنه مما لا ينبغي للمسلم في ضوء هذا الفقه أن تستبد به شهوته أو غفلته ، ، فيأتى بذرية تتكاثر على مدى الأيام عدداً ، بينما هو يزداد معها عجزاً ولها تضييعاً ، مع أن سيد الأنبياء محمداً يقول : « جهد البلاء كثرة العيال مع قلة الشيء » . وقال حبر الأمة وعالمها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « كثرة العيال أحد الفقيرين ، وقلة العيال أحد اليسارين » ، وكأنه يريد بالفقرين قلة المال التي تسبب العجز والتقصير ، مع كثرة العيال التي ترهق صاحبها وتشق عليه ، فيعجز عن النهوض بتبعاتها ، ويقصر في أداء واجباتها ، ويريد باليسارين وفرة المال المعينة على تحقيق الآمال ، مع قلة الأولاد التي تمكن صاحبها من أداء الواجب والنهوض بالتبعة ولقد قال الإمام على بن أبى طالب في كتابه المشهور « نهج البلاغة » أيضاً : « قلة العيال أحد اليسارين » .

ومنذ مئات ومئات من السنين تحدث فريق من فقهاء المسلمين عن إباحة اللجوء إلى وسيلة مشروعة غير ضارة لإيجاد فترات متباعدة بين مرات الحمل عند الزوجة ، إذا كانت هناك ضرورة تدعو إلى ذلك ، وذكروا من مبيحات هذا أن يكون عند المرأة ضعف ، مع استعداد قوى لتتابع الحمل مما يعرضها للهبزال والمرض ، أو يكون هناك مرض خبيث معد في الزوجين أو أحدهما ينتقل إلى الذرية إذا جاءت ، أو أن يكون هناك ضعف اقتصادى واضح ، بحيث لا يكون لدى الزوج أى اقتدار مالى على النهوض بتبعات الذرية إذا كثرت ، وقد عبر عن هذا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي بقوله : الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد » .

ولقد وجهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بعض الوسائل المشروعة التي تتجنب بها هزال الذرية الناشيء عن متابعتها فقال : « لا تقتلوا أولادكم

سراً ، فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره من فوق فرسه « أى يصرعه ، والغيل هو أن تحمل الزوجة وهي ترضع ، وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد شبه الغيل بالقتل السرى للولد ، أو كأنه شبهه بالاغتياى الذى تذكرنا به مادة الغيل، وكان النبي ينهى الزوج عن معاشره زوجته معاشره جنسية تؤدى إلى الحمل فى أثناء ارضاعها لمولود لها عندها، حتى لا يتعرض المولود السابق للهزال ، وحتى لا يتعرض المولود القادم للضعف ، وحتى لا تتعرض الأم أيضاً للآلم والإجهاد ، بسبب حيرتها بين تحقيق مطالب الرضيع من جهة ، ومطالب الجنين من جهة أخرى . وتمام الرضاع سنتان بنص القرآن الذى يقول : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » والحمل سياتى بمقتضى هذا التوجيه بعد انتهاء مدة الرضاع ، والحمل فى العادة يقرب من سنة ، ومعنى هذا أنه سيكون هناك ما يقرب من ثلاث سنوات بين المولود الأول والمولود الذى يليه ، وفى هذا تباعد بين مرات الحمل ، وهو يؤدى إلى تنظيم الأسرة ، وبذلك يتحقق لون من التوازن أو التعادل بين طاقة الزوج الاقتصادية ، وحالة الزوجة الصحيحة ، ومطالب الذرية المتعددة .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن الله تعالى لم يخلق لنا الحياة لنشقى فيها ، بل لنسعد ، ولم يفتح لنا باب الذرية لنشقىها أو نهملها ، بل لتكون قره أعين لنا ، وإنما يتحقق هذا إذا عملنا على أن يكون لنا اقتدار ماضى نستطيع به تحقيق هذا المستوى الكريم الذى ينبغى أن يتحقق للفرد الصالح ، فى المجتمع الفاضل ، فى ظلال الوطن السعيد . ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الشباب أمل الحاضر وعدة المستقبل

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله عز وجل ، زان الحياة بالأمل ، وقواها بالعمل : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولي العاملين ونصير المناضلين : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، آمن فأيقن ، وعمل فأتقن ، وجاهد فأحسن . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن الشباب في كل أمة هم الذين يمثلون ربيع العمر ونضارة الحياة وقوة العزيمة - لأنهم بفتوتهم وهمتهم ، وطموحهم وحسن توجيههم - يستطيعون أن يواصلوا الخطوات على الطريق ثابتة راشدة . ولذلك يعد الشباب في الأمة معقد الأمل وموطن الرجاء ، وبسواعدهم وعلى أكتافهم تقوم النهضة وتتم الوثبات ، وتكمل جلائل الأعمال . وهم بقوتهم وإيمانهم يستطيعون بناء الأمة وحمايتها ، ولذلك كان من واجب الأمة أن تعنى أكبر عناية بالشباب فتحسن إعدادهم وتحكم توجيههم ، وتمكنهم من أداء رسالتهم وواجبهم ، حتى تقطف أطيب الثمرات من هذا الغرس الناضر النامي ، الذي ينبته ربه نباتاً حسناً ، فيؤتى أكله مباركاً ، ويكون عند ظن قومه به . فيعود عليهم بأنفع الحصاد وأكرم الثمار .

وللشباب في الإسلام مكانة ملحوظة يغبطون عليها . ولو راجعنا تاريخ الدعوة الإسلامية في أول أمرها لوجدناها نضالاً بين الشباب الذين تفتحت

قلوبهم وعقولهم لهدى الله ونور السماء ، وطائفة من كفره شاخوا على الباطل ، فأخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا عن الاستجابة للحق ، ووصفهم القرآن المحييد بقوله : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » . وقد استطاع هؤلاء الشباب ، الذى ربوا على الإيمان والخلق أن يهزموا الباطل ، ويرفعوا راية الحق ، ويؤسسوا دعائم الحجد ، وإذا راجعنا أسماء الطليعة التى حملت أشعة الإسلام إلى الناس نجد أكثر أفرادها قد دخلوا فى دين الله وهم فى طليعة الشيبية ، وحسبنا أن نتذكر بينهم على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وجعفر بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله وزيد بن حارثة ، ولم يقتصر الأمر فى هذا السبق على المذكور ، بل كان للفتيات فيه نصيب ، وحسبنا أن نتذكر من بينهن فاطمة بنت الخطاب وأسماء بنت عميس وفاطمة بنت صفوان ، ولذلك جاء فى أحد الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصيكم بالشباب فإنهم أرق أفئدة ، إن الله بعثنى بشيراً ونذيراً فحالفنى الشباب وخالفنى الشيوخ » ثم قرأ قوله تعالى : « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » .

وحسب الشباب المؤمنين مجداً وشرفاً أن تزدان قافلة الدعوة إلى الله فى أول أمرها ، بقيادة أكرم الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يشد من أزره شباب أسلدوا لله أنفسهم ، وطهروا من الدنا حواسهم ، واحتسبوا لربهم عزائمهم ، وأخلصوا لدينهم همهم ، فانطلقوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، يحقون الحق ويبطلون الباطل ، ويقاومون البغى والطغيان ، ويقومون مجتمع العدل والإحسان ، ولقد قص الله علينا نبأ شباب وقفوا فى وجه الكفر والظلم بعزائم مستمسكين بعقيدتهم ومبدأهم ، فقال فيهم : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا لذن شططا » ، وفى فيض التوفيق الذى هياه الله لشباب الإيمان وفتية

الرحمن حق لعبد الله بن عباس أن يقول : « الخير كله في الشباب » . كما حق للأثر الإسلامي أن يردد : « روح الجنة في الشباب » ، وحينما استعان المجاهد الناسك يحيى بن المختار بطائفة من الشباب في نضاله ، ولامه بعض الناس على ذلك استنكر لومهم ، وقال منوهاً بقيمة الشباب ومكانتهم : « أتعبرونني بأصحابي وتقولون إنهم شباب ؟ وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباباً ، شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيفة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم . . . حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله » .

ولقد أعطانا الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، درساً بليغاً في تكوين الشباب . وفي إسناد جلائل الأعمال إليهم ، وفي تمكينهم من مواقف مشهودة ، يسعون فيها خير السعي ، ويقطفون فيها أطيب الجنى ، فهاهوذا أبو بكر ينفذ خروج الجيش الإسلامي بقيادة البطل الشاب أسامة بن زيد ، وخرج أبو بكر يودع هذا الجيش ماشياً على قدميه ، وأسامة فوق صهوة جواده ، فلما رأى القائد خليفة رسول الله ماشياً قال له : يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن . فأجابه الخليفة : والله لا تنزل ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة . ومضى الجيش المؤمن إلى غايته يقوده بطل قوى فتى تتمثل فيه نضارة الشباب وعزيمة الفتيان ، وحقق المجاهدون ما أسند إليهم وعادوا ظافرين ، وهكذا يقيم شباب الإسلام الذين اهتموا بهدى الله عز وجل الدليل بعد الدليل على أنهم يستطيعون بفضل الله وتوفيقه أن يحققوا الكثير من الآمال .

وإذا كنا الآن على أبواب عام دراسي جديد ، ينهل فيه الشباب من حياض العلم ما يؤهلهم لحمل الأمانة في هذه الأمة ، فلن واجبنا أن نرعى هؤلاء الشباب في دور العلم وخارجها رعاية دينية أخلاقية اجتماعية ، حتى يكونوا اللبنة القوية في بنيان أمتنا ، ونحن أحوج ما نكون إلى عزم الشباب المسلح بالدين والإيمان والعلم ، حتى نقيم أمجادنا ، ونزيل آثار العدوان عن ديارنا ، ونحقق الخير الذي تصبو إليه نفوسنا ، وعلى الشباب أن يدركوا الواجب عليهم نحو ربهم ووطنهم ، وأن يعلموا أنهم مسئولون عن هذه الفترة من أعمارهم ، فلن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن شبابنا هم زهرات حاضرنا ، وأمل مستقبلنا ، ومن أوجب الواجبات علينا أن نلتفت إلى هؤلاء الشباب بأبصارنا وبصائرنا ، ورعايتنا وعنايتنا ، فنحرض على تربيتهم دينياً وخلقياً وعلمياً وقومياً ، ونصلهم دائماً بالقيم الربانية الرفيعة ، والمبادئ الإلهية السامية ، لأننا نرتجيم لمستقبل نريدهم فيه أن يكونوا حماة الديار وحراس المجد ، فيؤدوا واجبهم نحو الله والوطن في استقامة وكرامة وإخلاص ، والله ولي المجاهدين المؤمنين وهو وحده مصدر الهداية والتوفيق . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

تميع الشباب

الحمد لله عز وجل ، دعا إلى القوة وحذر من الضعف : « والله العزة
ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . أشهد أن لا إله إلا الله ،
أراد لعباده النصر والغلبة والسيادة : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله
لقوى عزيز » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من جمع بين قوة
الحس وطهارة النفس ، فكان إمام المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ،
وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه القانتين ، وأتباعه المجاهدين : « رضى الله
عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لا يمكن لأمة أن تحيا حياة كريمة عالية ، دون أخلاق فاضلة سامية ،
ومكارم الأخلاق هي عماد الأفراد والشعوب ، ولذلك كان من الأهداف
الأساسية للنبوات والرسالات دعم هذه الأخلاق ، حتى قال محمد سيد الخلق :
«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وفي ظلال الأخلاق الفاضلة تندفع الأفراد
والجماعات إلى حياة شريفة متماسكة ، فيها صحة أبدان وقوة عقول وعلو
همم ، وفيها اعتزاز بالفضيلة وحرص عليها ، وحملة على الرذيلة ونفور منها ؛
وقد ابتلانا الحظ الأسود بمجموعة من الشباب كأن الشيطان الرجيم قد استرقهم
حساً ونفساً ، فهو ييئسهم بين الناس كى يحققوا ما يبغي لهم من خسار وبوار ؛
هذه المجموعة تتمثل في أولئك الرقعاء المائعين أشباه الرجال الذين يتحللون
في أخلاقهم ، ويعبرون عن هذا التحلل بالمظاهر التي لا تليق بالرجال ، فهم
يلبسون الثياب الماونة والسراويل الضيقة ، ويضعون السلاسل الذهبية حول
(م ٢٣ — خطب ج ١)

أعناقهم ، والأساور في أيديهم ، ويتسكعون في الشوارع ، يعبثون ويفجرون ويعتدون على النساء والفتيات ويرددون أقذر الألفاظ ، ويمشون مترنحين كأنهم خارجون سكارى من ماخور أو حانة خمور . . .

ومن المضحك المبكى أن هؤلاء الشبان يصفون الدين ينصحوهم أو يدعونهم إلى الرجولية والحياة المتأسكة . بأنهم من أنصار القديم . . . ورحمة الله ورضوانه على كثير مما فقدنا من هذا القديم ، فأين عفة هذا القديم وأين جهاد القديم ؟ وأين تماسك الأسرة في القديم ؟ وأين صيانة الأعراس في القديم ؟ وأين نشأة التدين والإيمان والقوة التي كانت في القديم ؟ . . . سلاماً سلاماً على كثير من ذلك القديم ، وسبحان من يحيى العظام وهي رميم . . . الحق أننا خسرنا الكثير حين أعلننا الحرب على هذا القديم دون أن نفرق فيه بين فاسد وسليم ، وبين ما يصح أن يترك وما يجب أن يصبأ ، وفي حربنا للقديم تركنا ذخائر نفائس . . . تركنا الفضيلة لأنها شيء قديم ، واستهنا بالعرض لأنه شيء قديم ، ونسينا معنى الشرف لأنه شيء قديم ، وهزئنا بالقيم الفاضلة ، والمبادئ الأخلاقية لأنها شيء قديم ، وأصبحت الفضولية والوصولية والإباحية من القيم الجديدة في العالم الجديد . . . وهذا مثل من أمثلة هذه القيم ، وهو مثل مخجل — إن كان قد بقي في الدنيا من يخجل — فقد سئل أحد هؤلاء الشباب المائمين حين تعرض لبعض الفتيات بما لا يليق أترضى أن يرتكب شاب مثل هذه الوقاحة مع أختك ؟ فأجاب أختي حرة تفعل ما تشاء ! . . . وهذا مبلغ الغيرة على الحرمات والأعراض إن كان قد بقي مكان للغيرة بين أشباه الرجال . . .

ومن الواجب هنا أن ننص على أمر له أهميته وقيمه ، وهو أن هؤلاء الشبان المتتميعين قد اشترك في إفسادهم أمران : سوء تربيتهم وإعدادهم من جهة وانتشار التبرج الفاجر بين النساء من جهة أخرى ، وليس من السهل

على الشاب أن يرى أمامه لحوم النساء عارية فاتنة صارخة ، ثم يستمسك بعفته وفضيلته ، فإذا كنا نريد الاستقامة في الإصلاح ، فلنؤدب الشباب هؤلاء أولاً ، ولنعلم العفة والوقار للنساء والبنات ثانياً ، وإلا فلا فائدة من البكاء والعويل على الأخلاق والفضيلة ، وهؤلاء الرقعاء يقولون : إننا نعاكس الفتاة التي تكشف عن مفاتن جسمها ، لأن الكشف عن هذه المفاتن دعوة صريحة ونداء سافر ... وعلى الرغم مما في هذا من مغالطة أو احتيال للتسوية يجب على من يريدون الإصلاح أن يعلموا أن انحراف الشبان ذو صلة وثيقة بانحراف النساء ، ورحم الله الرافعي إذ يقول انه لو عرضت عليه قضية امرأة متبرجة عاكسها شاب في الطريق لعاقب هذه المرأة عقوبتين : « إحداهما بأنها اعتدت على عفة الشاب ، والثانية بأنها خرقت كسفت اللحم للهه . . .

إن هؤلاء الشبان لم يتربوا في البيت تربية صالحة ، ولم يجلدوا في المدرسة التوجيه الروحي الصادق ، ولم يجدوا المرأة في الشارع على ما ينبغى من التصون أو الوقار ، ووجدوا في المسارح والسينات والشواطئ والنوادي والمجتمعات الأخرى عوامل الفتنة وجواذب الشر ، فسقطوا وحلوا ورتعوا ، وكونوا لنا هذا الجيش من المائعين والمتحللين الذين لا يكتفون بفساد نفوسهم بل ينشرون الفساد بن غيرهم كما ينتشر الوباء الخبيث ؛ فما نفع هؤلاء لأمتهم وما جدواها منهم ، وهي معرضة لوقوفها موقف الزحف العام في بعض الأحيان ، كى تدفع عدواناً ، أو تسترد أوطاناً ، ماذا يكون موقف المائعين الخائعين الذين يبتون الضعف والهوان ؟ . . . هل يثبتون في معركة ، أو يجيدون حمل سلاح . . . إنهم سيكونون معاول الهدم ودعاة الهزيمة بن العصبية النافرة للجهاد والنضال ، فيما أن نحسن تربيتهم ، وإما أن نعدهم عن

مجموعة الأمة التي نرجيها ليوم نغسل فيه العار لنعيش عيشة الأحرار . . .
 إننا نريد مثلاً أن نخرج اليهود من فلسطين لنردّها على أهلها الشرعيين ،
 وأن نحرر بقية أوطاننا من أعدائنا ، فهل تتحرر أرض فلسطين وغيرها
 بالأجسام الرخوة والملابس الحريرية والسلاسل الذهبية والمشية المتخاذلة
 والأخلاق المنحلة والحياة المتحللة ؟ . . إن فتيات اليهود قد حملن السلاح في
 معركة اغتصاب فلسطين ، وحاربن وتعرضن لمتاعب ومشاق ، فهل عجز
 شبابنا عن أن يكونوا مثل فتيات اليهود في الشعور بالتبعية والنهوض بالواجب ؟ .
 لقد ذل من بالت عليه الثعالب ! .

من واجبتنا أن ننقل الشباب جميعاً إلى حياة القوة والفروسية التي يريدونها
 لهم الإسلام . فإن القرآن الكريم يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »
 والرسول يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .
 وقد حث الإسلام أبناءه على ألوان الرياضة والفروسية والفتوة حتى يكونوا
 فرساناً في مختلف الميادين ، وإن كانوا رهباناً لرهبهم في المحارب ، وحتى
 يحققوا الصورة الرائعة للأمة التي يذكرها القرآن بقوله : « محمد رسول الله
 والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلاً
 من الله ورضواناً » . ورضوان الله على الإمام على يوم طالب ابنه بأن يكون
 في الميدان صورة للشاب المسلم القوى الفتى فقال له : يابني تزول الجبال
 ولا تنزل ، عض على ناجذك ، أمر الله جمجمتك ، تد (ثبت) في الأرض
 قدمك . ارم ببصرك أقصى القوم وعض ببصرك ، واعلم أن النصر من عند
 الله سبحانه . وهل يطبق ذلك إلا فتى تربي تربية مؤمنة تجعله علياً بالفروسية ،
 خبيراً بالفتوة ، صبوراً عند اللقاء ، مقداماً في حومة الهيجاء ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن أولادكم أمانات من الله في أيديكم ، فاحسنوا صيانة هذه الأمانات ورعايتها، وبدلاً من أن تجعلوهم يتخذون قلوبهم من مخانيث الغرب وممثلي المسرح والسينما ، اجعلوا قلوبهم من أمثال عمرو وعلي وأبو عبيدة وخالد وأسامة والمثنى وطارق وعمر بن عبد العزيز فأولئك أعلام الإسلام الذين زانوا الدنيا وسمو لقيمة الحياة ، وإنما يصلح أمر هذه الأمة بما صلح به أولها من الإيمان بالله والاعتزاز بهذه ، والتطهر في هذه الحياة ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .
واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

واجب الآباء نحو الأبناء

الحمد لله ، يهب النعم الجزيلة فضلاً وإحساناً ، ويجعل ثمنها من العباد طاعة وشكراناً : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، مبدع الحياة ، وواهب الجاه ، ومالك الجباه ؛ [تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير] . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، أعطيته الكوثر والميراث الأكبر ، وجعلت شأنه هو الأكبر ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى ذريته العاطرة النفحات ، وصحابه الخالدين بماثرهم الباقيات ، وأتباعه الثابتين في الأزمات والمسرات ، « أولئك يجزون العرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً » . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

بين الآباء والأبناء معركة من الخلاف والشقاق حامية الوطيس عالية الأوار ، لا تخبو نارها ولا ينقطع شرارها ؛ وما حاول أحد الفريقين أن أن يكون منصفاً ، فيدعو الطرف الثاني إلى مائدة مستديرة ، يعلوها الحق ويسودها الصديق ؛ بل الآباء غاضبون حائقون ، يصفون أبناءهم بالعقوق والمروق ، ويصبون عليهم اللعنات تلو اللعنات ، والأبناء ثائرون ماثرون ، يصفون الآباء بالرجعية والجمود ، ويطلقون بهم السخرية والاستهزاء ، وبين غضب هؤلاء وحق هؤلاء تضيع حقوق كان يجب أن ترعى بين الآباء والأبناء . . . ومع أن اختلاف العصور والنشأة له أثره البين في النزاع بين

الطائفتين ، حتى قال الفاروق عمر رضى الله عنه : « الناس بزمانهم أشبه منهم
بآبائهم » فإن أغلب التبعة فى الواقع يبوء بها الآباء ، لأنهم هم السابقون ، وهم
المستولون ، وهم الذين وضعت بين أيديهم العجائن اللينة ليصوغوها كما
يشاءون ، فأهملوها أو أساءوا فى تشكيلها ، فجنوا ثمرة ذلك عقوقاً وتمرداً ،
والمرء لا يجنى من الشوك العنب ! . .

إن الدرية بلا شك عزيزة غالية ، فهى قطع الأكياد وثمار القلوب ،
وعمداد الظهور وقررة العيون وزينة الحياة ؛ ثم هى بعد ذلك أمانة من الله سامية
يضعها بين أيدي العباد ، ليرعوها حق رعايتها ، ويصونوها حق صيانتها ،
ولكن الآباء فى العهود الأخيرة أهملوا أبناءهم إهمالاً شنيعاً ، لا نقول أهملوهم
فى الطعام والثياب والفراش ، فلذلك قدر من العيش ميسور للناس مع اختلاف
فى الأحوال والأشكال ، ولكنهم أهملوهم فيما هو أهم وأعظم ، وأخطر وأكبر ،
أهملوهم فى تقويم نفوسهم وتطهير أرواحهم وتدعيم أخلاقهم فى تنشئتهم
على الدين والعبادة ، وفى ضرب القدوة الصالحة لهم ، وفى تحديد الطريق
المستقيم أمامهم ؛ ومن هنا خرج الأولاد إلى الحياة بلا هدف وبلا إيمان ،
وبلا رصيد من عزيمة أو أخلاق ، فتفرقت بهم السبل ، وتوزعتهم الأهواء ،
وتقسمتهم الأخطاء ، وعاشوا فى دنياهم بأفئدة هواء ! . .

ومن أسف أن بعض الآباء يضلون ضلالاً بعيداً فى تربية الأولاد ،
فيسرفون فى تدليلهم والاستجابة لرغباتهم ، حتى يخرجوا كالأعواد الهينة
الفضة اللدنة التى لا تحتل مرور الرياح فتتكسر وتتقصف ، ويشبوا وفيهم
روح الخور والمهانة ، فلا عزيمة ولا ثبات ، وما هى إلا سنوات يقضيها
الولد فى حمى الوالدين لأنه ضعيف عاجز محتاج إليهما كل الاحتياج ، ثم
ثم ينطلق على وجهه ضلالاً مضلاً غير مستجيب لندائهما الحزين ، وعلى نفسها
جنت براقش ، فلو أحسن الوالدان التربية والتقويم والتعليم ، لخرج الولد

وفيه نزعة الولاء وعاطفة الحياء ؛ وإذن لاستجاب الآباء لدعوة الحق تبارك وتعالى حين يقول لهم : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » والولد من الأهل ، ووقاية الأهل من النار إنما تكون بالهداية إلى طريق الله رب العالمين ، والتحذير من مزالق الشيطان المضل المبين ، فإذا فعل المرء ذلك حفظ أهله وولده في الدين والدنيا ، وفي العاجلة والآجلة ، ثم كان له فوق ذلك ثواب جزيل عند الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » . وعلى العكس من ذلك يتحمل الوالدان تبعه الإثم إذا أهملوا تربية الولد ، أو انحرفا به عن الطريق المستقيم ، أو لم يمكنا له الصلة بالدين القويم ، لأنه ألقى إليهما خلواً من المؤثرات ، مطبوعاً على الفطرة ، وهما اللذان حولاه إلى هنا أو هناك ، وإلى هذا يشير الحديث الشريف : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . . .

وبعض الآباء يسرفون على أبنائهم بشدة المعاملة وقسوة الحرمان وغلاظة الكبت فيفزع الولد من أبيه ، ويرهبه ويتقيه ، وإذا ما انفلت الولد من رقبتهم انطلق كالمجنون يعرض ما فاته بسبب هذه القسوة وهذا الحرمان . . . والآباء مطالبون بالحكمة والرشاد والاعتدال في معاملة الأولاد ، فلا يدللونهم حتى يجعلوهم أغصاناً ضعيفة تنكسر ، ولا يقسون عليهم حتى يجعلوهم كالدواب المسخرة ، والإسلام كما يصب اللعنة على الآباء المفسدين لأبنائهم بالتدليل والتفريط ، يصبها أيضاً على الآباء المفسدين لأبنائهم بالإفراط في القسوة والشدّة ؛ ولقد سمع النبي صلوات الله عليه الأقرع بن حابس يقول : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً . فنظر إليه النبي وقال : من لا يرحم

لا يرحم ! . . وجاء اعرابي إلى النبي فقال : أتقبلون الصبيان فما نقبلهم ؟ .
فقال النبي : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ ! . . وفي الحديث :
« ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن . أى ما أهدي والد إلى
ولده هدية أفضل من تأديبه بمكارم الأخلاق ! ! . . »

ولقد كان الأئمة سلفوا يحفظون الله في أبنائهم ، ويحسنون تربيتهم وطبعهم
على الدين والخلق الكريم ، فتخرج الذرية طيبة طاهرة ، ترعى حقوق الأبوة
والأمومة ، ولا تكفر بماضيها المجيد ، ومن هنا طابت العلاقات بين الآباء
والأبناء ، فلم تتقطع بين الفريقين الأسباب كما نرى الآن ، وكذلك ضرب
الأوائل للأولاد أكرم الأمثال في الهداية والإرشاد ، فهذا مثلاً سهل بن عبد الله
التستري كان يقوم بالليل وهو طفل فينظر إلى صلاة خاله الزاهد العابد
محمد بن سوار ، فقال له خاله : ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ . . فقال سهل :
وكيف أذكره ؟ . . فقال ابن سوار : قل بقلبك عند قلبك فى ثيابك ثلاث
مرات دون أن تحرك لسانك : الله معى ، الله ناظر لى ، الله شاهدى ! . . .
فكرر ذلك أياماً ، ثم ضاعف العدد وهو يشعر له بحلاوة ولذة ، فلما انتهت
السنة قال ابن سوار لسهل : احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر
فإنه ينفعلك فى الدنيا والآخرة . . . ثم قال له بعد حين : يا سهل ، من كان
الله معه وناظر إليه وشاهده أبعصيه ؟ إياك والمعصية ! . . وما هى إلا سنوات
حتى كان سهل التستري قد ملأ الدنيا وشغل الناس بعلمه وبقينه وزهده
وعبادته . . . وهذا عبد الله بن عمر يصور ما وصل إليه ابنه سالم من الهداية
والتوفيق فيقول : « إن ابني سالما يحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه » إلى غير
ذلك من الشواهد والبراهين . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن أولادكم أمانات في أيديكم ، فإن شكوتهم خسارها أو بوارها فذلك منكم وعليكم ؛ أهملت رعايتهم في أول الطريق فساءت أخلاقهم في نهايته ، وماذا كنتم تنتظرون غير هذا وقد تركتم لأولادكم الحبل على الغارب ، فلا دين ولا خلق ، ولا دقة في الحساب ، بل تدلل وتميع وإطلاق للشهوات ؛ فإن شتمت تقويم المعوج فخذوا أبناءكم بشرعة الله المثل ، واحفظوهم من قرناء السوء وموطن الخبث ، وعودوهم الخشونة والرجولة والعزة ، واضربوا لهم من أعمالكم وأقوالكم خير القدوة ، ويومها تضمنون لأنفسكم ذرية صالحة ، تتجدد بها حياتكم ، وتمتد آجالكم ؛ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم . . .

صلاة في ملعب الكرة

الحمد لله عز وجل ، زان عباده بالخضوع لعظمته ، وكملهم بالخشوع لعزته : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، وعد بالثواب من أطاعه واستجاب له ، وتوعد بالعذاب من كفر به وأعرض عنه : « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتخزي كل نفس بما تسعى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من وحد ربه وتعبد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وشيعته ، ومن سار على طريقتة : « ومن يتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

نالت إنجلترا كأس العالم في مباريات كرة القدم بعد أن كانت محرومة من الحصول عليه مدة طويلة ، وما أذكر هذا لأعلمكم به أو لأحدثكم عنه ، فإن أجهزة الإعلام - وأهمها الصحافة - قد تكفلت بذلك على نطاق واسع ، بسبب الحمى الجديدة التي أصيب بها المجتمع ، وهي حمى تفضيل الاهتمام بأخبار الرياضة على كل شيء ، حتى ولو كان ذلك الشيء متصلاً بالعقيدة أو القومية أو المصالح الحقيقية للناس . ولعلكم لم تنسوا بعد أن أحد اللاعبين قيل عنه إنه يريد الانتقال من ناد إلى آخر ، فإذا الصحف تقوم على قدم وساق ، وتشغل القراء بهذا القيل ، وتظل بعضها نحو أسبوع وهي تقدم عنه كل يوم صفحة واسعة ، كأن الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب ، أو كأن

(١) القيت في ١٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٨٦ هـ الموافق ٥ من أغسطس سنة ١٩٦٦ م

انتقال هذا اللاعب من هنا إلى هناك يشبه عودة فلسطين من أيدي أهلها ،
أو كأن هؤلاء يريدون أن يرغمونا على أن نصدق قول الشاعر الذي قال :
وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم : هي أمة تلو وشعب يلعب !

لم أرد - معاذ الله - أن أحدثكم عن انتصار إنجلترا أو خيبتها - خيبتها
الله ، وخبث مثيلاتها من دول البغي والاحتلال والضللال ولكن هنالك
شيئاً يتعلق بهذه المباريات في الكرة ، مر عليه الكثيرون مروراً بلا توقف
أو تفكير ، وهو أن إحدى الصحف^(١) نشرت صورة للاعب الكرة
الانجليزي « جاكي شارلتون » وهو يصلي على أرض ملعب « ويمبلي » في
لندن ، قبيل المباراة النهائية على كأس العالم في كرة القدم ، ومع أن الصحيفة
اكتفت بنشر الصورة ، وتحتها سطر ونصف ، ولم تعلق على معناها أو مغزاها
ولم تستوح منها درساً للرياضيين أو غير الرياضيين ، فقد تطلعت إلى الصورة
بإمعان ، فإذا صاحبها قد برك على ساقيه ، وثنى إلى الأمام رأسه وكتفيه ،
ورفع يديه بين وجهه وركبتيه ، وانخرط في صلاة حسب دينه وعقيدته ؛ فقلت
في نفسي : يالها من صورة تثير عبرة ، وتحرك فكرة ، والحكمة ضالة المؤمن
يأخذها من أي وعاء خرجت ، وأنى وجدها فهو أحق بها كما قال الصادق
المصدوق رسول الله عليه الصلاة والسلام .

لو أن شخصاً متديناً منا فعل مثل هذا فقام وصلى فريضة الوقت في
وسط من أبناء الطبقة التي تصف نفسها كذباً راقية أو مثقفة لسخروا منه
وتندروا عليه ، وأخرجوه بين معارفه وغير معارفه ، ولكننا نجد هذا يحدث
في إنجلترا ، وفي عاصمتها لندن ، وفي ملعب عالمي واسع ، وعلى مشهد من

(١) جريدة الأخبار يوم الخميس ٤ من أغسطس سنة ١٩٦٦ م

الألوف المؤلفة ، ولا يثير سخرية ولا استخفافاً ، بل يعد يقيناً وإيماناً ، مع أننا نؤمن بأن ديننا خير من دين الإنجليز ، وأن تعاليم إسلامنا المحفوظ بعناية الله أفضل مائة مرة من تعاليم مسيحياتهم المحرفة ، أفلا يليق بنا أمام هذا أن نراجع أنفسنا ، لنصفياً من رواسب الماضي العفنة ، وفضلات الشعور بالنقص المعيب ، وأقدار السموم التي قذفها في عقولنا وقلوبنا أعداؤنا خلال سيطرتهم علينا واستعبادهم لنا ، ، وتمييعهم لشخصيتنا وعقيدتنا ؟ . أفلا يجب علينا أن نصصح إيماننا ، ونثبت قيمنا ، ونعزز بعبادتنا وعاداتنا الطيبة وتقاليدينا الكريمة المستمدة من تراث ديننا الكريم : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ، اعلموا أن الله يحيي الأَرْضَ بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

إن الصلاة في الإسلام هي الركن الأول بعد عقيدة التوحيد ، وهي دون غيرها من الواجبات الدينية - الفريضة اليومية المتكررة التي أراد الدين لها أن تغادى المسلم وتراوحه : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » ، « وأقم الصلاة لذلولك الشمس^(١) إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن كان مشهوداً » . وقد كرر القرآن الكريم الأمر بها في عشرات من الآيات ، وحذر من تضييعها فقال : « حافظوا على الصلوات » ، وجعل لكل مرحلة من اليوم صلاة مرتبطة بوقتها فقال : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ، وطالب بأدائها حيثما كان الإنسان ، ولم يقصر الإسلام أداء الصلاة على مسجد أو مكان معين ، بل قال سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض

(١) أى بعد زوالها . وغسق الليل : ظلمته أو شدة ظلمته .

مسجداً وترابها طهوراً » ، ومعنى هذا أن أبواب الصلاة مفتحة في المنزل والعمل ، في المكتب والملعب ، وأنها تهيئ للإنسان كل يوم مرات يقف فيها بين يدي خالقه طاهر القلب ، طاهر الحس ، طاهر النفس ، طاهر المكان ، يلاقيه ويناجيه ، ويدعوه ويرجوه ، ويفتتح وقفاته تلك بأعذب الكلمات وأرق الدعوات ، فما يكاد الإنسان يلفظ تكبيرة الإحرام في الصلاة حتى ينطلق لسانه يقول : « الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خنيهاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . .

أذكر أنني في سنة ١٩٥٩ قلت في كتاب « وسائل تقدم المسلمين » أننا نريد بجوار كل ملعب مسجداً ، وبجوار كل مسجد ملعباً (١) ، وبذلك نركي الرياضة ونعليها ، ونعمم العبادة ونقويها ، دون أن نفرط في حقوق الله أو حقوق بيوته التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ويسبح فيها بالغدو والآصال ، ولكن الذي حدث هو أن الملاعب كثرت وتعددت هنا وهناك ، ولم تعقد الرابطة المرجوة بين المسجد والملعب ، فلا سكان أحياء المساجد الكثيرة نالوا حظهم القويم من الملاعب والرياضة ، ولا أهل الرياضة والملاعب الحديثة وأزانونا كما ينبغي بين رياضة البدن ورياضة الدين ، وما زلنا نشكو مر الشكوى من أن كثيرين يعطون أجسامهم من العناية والرعاية ما يعطون بعضه لقلوبهم وأخلاقهم ، وإذا امتدت الأجسام وغلظت قويت ، ولم

(١) وكنت قد قلت هذا في خطاب لي في المؤتمر الرياضى بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م وانظر ص ١٣٩ من الكتاب المذكور .

يكن من ورأئها أخلاق تحرسها وتصونها ، فإنما هي هياكل جهيمية لا تعصم من ضلال ولا تصون من فساد .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

هل جاءكم أو علمتم أن مدارس الأجانب تبدأ دروسها بالصلاة وتختتمها بالصلاة ، وإذا قدمت إلى أبنائها طعاماً لم يمسه إلا بعد صلاة ؟ إذا كنتم قد علمتم ذلك ما ازدادوا به علماً ، وإن لم تكونوا علمتموه فاعلموه ، ثم لنساءل أنفسنا جميعاً عن مدى استمساك الجيل الجديد من أبنائنا بالصلاة ، ولنصدق في جواب السؤال ، لنعني بعد ذلك بعلاج الحال حتى لا يستشري الضلال والانحلال ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الكلمة الطيبة

أخذ الله تبارك وتعالى ، هو الجميل الذى يحب الجمال ، والطيب الذى لا يقبل إلا طيباً ، وهو الذى يعلم مستودعات الضمائر ومكونات السرائر ، وهو العليم الخبير ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، طاب قوله كما حسن عمله ، فكان للعالمين سراجاً منيراً ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الخالصين المخلصين ، وأصحابه السادة الغر الميامين ، وأتباعه المهتدين بنوره المبين : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اللسان ترجمان الإنسان ، وعنوان صاحبه ، ونصف كيانه ، لأن المرء يتكون فى جوهره من شطرين جليلين : أحدهما حساس مدبر وهو الفؤاد ، وثانيهما مصور معبر وهو اللسان ، ولذلك قال القائل :

لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

فإذا حلا هذا اللسان فى تعبيره ، وسما فى تصويره ، دل على سمو الفؤاد فى شعوره وتدبيره ، لأن اللسان هو الترجمان ، وهو آلة البيان ، وكان ذلك نعمة من الله على عبده تستحق التقدير والشكر ؛ وأما إذا كان الإنسان صاحب لسان قذر فإن ذلك يكون بلاء له ونكبة عليه وعلى غيره من الناس ولذلك قال العلماء إن أعظم ما يراعى استقامته بعد القلب هو اللسان ، لأنه ترجمان القلب

والمعبر عنه : ولما ذكر الحديث استقامة القلب وربطها باستقامة اللسان ، فذلك حيث يقول : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » . وروى الترمذى - مرفوعاً وموقوفاً - : إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تفكر اللسان فتقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا ! ؛ ونحن ما زلنا نسمع العامة تقول : إن حلاوة اللسان زينة الله للإنسان ؛ وهذا يزكيه ما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أنه قال لعنه العباس : يعجبني جمالك . فقال العباس : وما جمال الرجل يا رسول الله ؟ . قال : لسانه (١) ! . ولذلك اعتبر القرآن الكريم طيب الكلام مظهر من مظاهر التوفيق والاهتداء ، فقال يصف عباد الله المؤمنين : « وهلوا إلى الطيب من القول ، وهلوا إلى صراط الحميد » .

والمسلم أحق الناس بحلاوة اللسان وعدوبة البيان ، لأنه ابن الإسلام ، والإسلام عقيدة صفاء ووثام ، ودعوة محبة وسلام ، وإنما يسود السلام بين البشر إذا تخاطبوا بالحسنى ، وتلاينوا في الحوار ، وقالوا قولاً سديداً ، لأن الكلمة الطيبة الرشيدة فيها قوة ولها تأثير ، وهي لون من ألوان العمل الصالح ، ونوع من أنواع القربات التي يثيب عليها رب الجزاء . . . أليس الرسول هو الذى يقول : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

فتأمل قوله عن الكلمتين « ثقيلتان في الميزان » ! . . . إن الكلمتين لهما ثقل ووزن وأجر وثواب ! . . .

وفى حديث رسول الله عليه صلوات الله : « الطهور شرط الإيمان ،
والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين
السماء والأرض . . . »

فتأمل قوله : « تملأ الميزان » وقوله : « تملآن ما بين السماء والأرض . . . » ١ .

« وقد قيل : إنه ضرب مثل ، ، وأن المعنى : لو كان الحمد جسماً
لملأ الميزان ، وقيل : بل الله عز وجل يمثل أعمال بني آدم وأقوالهم صوراً
ترى يوم القيامة وتوزن ، كمال قال النبي صلى الله عليه وسلم : يأتي القرآن
يوم القيامة تقدمه البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان
من طير صواف » (١) . . .

وربما أثمرت الكلمة الحكيمة الموفقة ما لا تثمره الأعمال الكثيرة
المتلاحقة ، ومن هنا اعتمد الرسل صلوات الله عليهم وسلامه على بلاغة
القول وحسن البيان قبل اعتمادهم على الجيوش أو حد السنان ، وقد صور
القرآن المجيد الآثار الكريمة المترتبة على الكلمة الطيبة ذلك التصوير البارع
الرائع ، وقارن بين آثار الكلمة الطيبة وأضرار الكلمة الخبيثة ، فقال : « ألم
تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في
السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم
يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها
من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .
ويضل الله الظالمين . ويفعل الله ما يشاء » .

والله عز وجل يصف عباده الصالحين المصلحين بأنهم الذين يبتعدون عن
فاحش القول ومرذول الكلام ، ويتجنبون مشاركة السفهاء أو الجهلاء في

حديثهم الباطل أو لغوهم الهزيل ، لأن هؤلاء العباد كرام أهل سلام ، فيقول : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » ثم يعود فيقول عنهم : « والذين لا يشهدون الزور (أى لا يشهدون فى باطل الحديث وكذبه) وإذا مروا باللغو مروا كراماً » ، وذلك لأن المسلم يعبد الله ، والله هو الحق ، ويؤمن بالإسلام ، والإسلام دعوة الحق ، ويلتزم العدل ، والعدل هو صراط الحق ، ومن هنا لا يتحرك المسلم الصادق فى جسمه أو لسانه إلا للحق وإلى الحق ، ولذلك روى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال : « رحم الله من قال خيراً فغنم ، أو سكت (أى سكت عن باطل) فسلم » ، وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو الصمت » ؛ واستمد الحكيم الإسلامى هذا من المنهل النبوى الصافى فقال : « اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها ، أو نعمة تذكرها » .

بل إن الإسلام يفضل الكلمة الحلوة الطيبة ، التى يعرفها قلب السامع وتألفها نفسه وترتضيها ، على عمل الخير المصحوب بالأذى ... أليس الله تبارك وتعالى يقول : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حلیم » . أى : كلام جميل تقبله النفوس ولا تنكره ، ترد به السائل من غير عطاء ، خير من صدقة تتبعها بأذى من سوء المقابلة أو سوء الكلام ؛ وصلوات الله وسلامه على رسوله حين جعل الكلمة الطيبة تلقى بها أخاك صدقة ، وحين جعل كلمة السوء من موجبات العذاب ، وذلك حيث يقول : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوى فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

ولننظر إلى تأديب الله عز وجل لرسله فى باب الدعوة ومخاطبة المتجبرين بين الناس . . . لننظر إلى تعليمه لموسى وهارون حينما أرسلهما إلى فرعون

جبار الأرض وطاغية البشر الذى زاد فى البغى على كل متكبر فقال : أنا ربكم الأعلى . . . ماذا قال الله لموسى وهارون ؟ . . . لقد قال لهما : « اذها إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالوا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال : لا تخافا إني معكما أسمع وأرى . »

وذها إلى فرعون ، وحرصاً على لين الخطاب معه كما أمرها الله ، فقالا له مثلاً : « إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعدبهم . قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى » . . . وهذا الخطاب اللين الهادى مع من ؟ . . . إنه مع فرعون وكفى ! . . .

والكلمة الحلوة الطيبة قد يجعلها الله ثمناً للمتاب والغفران . . . فهذا آدم أبو البشر قد عصى ربه ، وأكل من الشجرة وأخرجه الله من الجنة ، ثم كانت الكلمات الطيبات طريق الرحمة له والتوبة عليه : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم » . وقد روى أن هذه الكلمات هى قوله : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . . . وروى أنها قوله يخاطب ربه : ألم تخلقنى بيدك ؟ : ألم تسكنى جنتك ؟ ألم تسجد لى ملائكتك ؟ ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ أ رأيت إن تبت أكنت معيلى إلى الجنة ؟ قال : نعم ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

عودوا ألسنتكم الكلمة الحلوة الطيبة . لتكونوا فى هذه الحياة كالعافية التى يحن إليها الناس ويرغبون فيها ، فإن المرء يخلو حديثه ويطيب كلامه يكون كالربيع المورق الناضر ، وإن المرء يسوء حديثه وتخبث ألفاظه حتى يكون كالكلب العقور يضيق الناس به ويفرون منه ولا عجب فعبد الله

بن عباس يصور الكلام الخبيث بصورة الحدث المستقذر فيقول لمن يسوء حديثه : الحدث حدثان : حدث من فيك ، وحدث من فرجك^(١) .
 والمسلم كما يقول الرسول إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ؛
 وليس معنى هذا أن تنافقوا ، أو تتملقوا ، أو تكتموا الحق ، أو تبدلوه ؛
 معاذ الله ، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، وأفضل الجهاد كلمة حق
 عند إمام جائر ؛ ولكن المسلم يستطيع أن يقول ما يريد في عفة لفظ وطيب
 حديث ، ولنذكر جميعاً أن الحق تبارك وتعالى يقول : « من كان يريد العزة
 فله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين
 يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » . واتقوا الله
 الذي أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

(١) عيون الاخبار ج ٢ ص ٢٥

القومية والعقيدة

أحمد الله تبارك وتعالى ، الفضل منه وإليه ، والاعتزاز به والاعتماد عليه ،
« يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » ؛ وأشهد أن لا إله إلا هو
يرفع أقواماً ويخفض آخرين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أكرمه
ربه فجعله خاتم النبيين وإمام الهداة المتقين ، فصلوات الله وسلامه عليه
وعلى آله المسارعين في الخيرات ، وأصحابه المستمسكين بالمكرمات ،
وأتباعه الثابتين في الأزمان : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن
الله لمع المحسنين » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كان نتيجة كفاح العرب في سبيل حريتهم واستقلالهم أن استيقظت فيهم
القومية العربية ، وانتشرت دعوتها بينهم بصورة قوية واضحة حتى نص
الكثيرون منهم عليها في مناهجهم الأساسية وقواعدهم السياسية العامة ؛ ونحن
في فورة الحماس لهذه القومية ، وفي ثورة الجهاد لتحقيقها وتكريمها ، نكاد
ننسى الصلة الوثيقة التي يجب أن تزداد على الدوام توثقاً بين القومية العربية
والعقيدة الدينية الإسلامية ، لأن يد الله العلى الأعلى قد أوجدت هذه الصلة
بين العروبة والإسلام منذ انبثق نور هذا الدين الخاتم العام ، وما عقدته يد الله
الحكيمة القوية لا يجوز أن تحله يد الإنسان أو يد الشيطان ؛ وقد أراد الله
العلم الخبير أن تكون العروبة وعاء الإسلام ، وأراد في الوقت نفسه أن
يكون الإسلام هو روح تلك العروبة ، والعامل الأول في تحريرها وتكريمها
وتعظيمها وتخليدها على الأيام . . . فقد أراد الله - ولا راد لما أراد - أن

القيت في ١٢ من المحرم سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٩ من أغسطس
سنة ١٩٥٧ م

يكون نبي هذا الدين رجلاً عربياً من صميم العرب وأصدقهم في العرب نسباً ، وجعل الله مبعث هذا النبي ومبدأ دعوته في أرض عربية وواد عربي أشبه بمركز الدائرة بين بلاد العروبة ، وأنزل الله دستور هذا الدين وهو القرآن المحيّد المحفوظ « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » أنزله بلسان عربي مبين ، وفصله بياناً عربياً غير ذي عوج ، وجعل تفسير هذا الدستور الإلهي الخالد تفسيراً عربياً في لغته وبيانه ، وهذا التفسير هو الحديث النبوي الشريف ، وجعل المسارعين إلى هذا الدين وحملته الأوائل الموصوفين في كل جيل بالسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ، والموصوفين بالسابقين المحسنين ، جعلهم قوماً عرباً من صميم العرب في دارهم وجنسهم ولغتهم وخصائصهم ، وجعل القبلة التي تتجه إليها المسلمون كل يوم عدة مرات بأبصارهم ، وأشباحهم وأرواحهم ، بذية في أرض عربية عريقة العروبة ، وهي الكعبة الحرام في مكة المكرمة . . . الكعبة التي يقول فيها القرآن المحيّد : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » . . . ومكة المشرفة التي يشير القرآن إليها وينوه بها ويقرر أن الكعبة فيها هي أول بيت وضع للناس ، فيقول سبحانه : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة . . . إلخ .

وكم يكتف الإسلام بهذا التكريم للعرب والعروبة ، حين جعل العروبة وعاء للإسلام وبناء له في مكانه ولغته وكتابه وقبلته ورسوله وحملته الأوائل ؛ بل أقبل بنى الإسلام عليه الصلاة والسلام يزيد في تكريم هذه العروبة وهؤلاء العرب الأماجد من آبائنا وأجدادنا فيقول : « إذا ذلت العرب ذل الإسلام » ، ويقول : « أحب العرب من قلبك » ويقول : « أحب العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي » ، ويقول : « بغض العرب نفاق » . . .

وإذا كان الإسلام قد رفع من شأن العروبة بهذا القدر ، فإن العرب
الأولين الذين حملوا رسالة هذا الدين قد أدركوا فضل هذا الصنيع من الإسلام
فألغوا شخصياتهم أمام عظمتهم ، وخضعوا لسلطانه الخضوع العجيب ،
واعتزوا به الاعتزاز البليغ ، ونسوا في سبيله ومن أجله أنسابهم وعنجهياتهم
وعصبياتهم ، وباعوا له ولمنزله جل جلاله أرواحهم وأشباحهم ، وأموالهم
وأعمالهم ، وحسروا عزهم وفخارهم في الانتساب إلى هذا الدين والارتباط
به ، حتى صار قائلهم يهتف :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

أو يهتف قائلهم :

أبي الإسلام . لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم !

ولا شك أن هذا تقدير منهم للجميل . وعرفان للفضل الجليل الذي وهبهم
إياه الإسلام ورب الإسلام ، فقد أخرجهم الله بدينه من الظلمات إلى النور ،
وأعطاهم عز العاجلة وعز الآجلة ، ورفع ذكركم بين الناس ، وأعز شأن نبيهم
على سائر العالمين . وإذا كان الله قد قال لنبيه صلوات الله عليه : « ورفعنا
لك ذكرك » فإنما رفع ذكره بنبوة الإسلام ورسالة القرآن وجلال هذا
الدين ، لا بالمال أو الجاه أو السلطان أو الجبروت ؛ ولذلك رفع الله ذكر
قومه بالإسلام ؛ أليس الله تبارك وتعالى يقول لنبيه : « وكذلك أوحينا إليك
روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه
نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط
الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » .
وحسبهم أنه قد نقلهم من رعاية الإبل والغنم إلى قيادة الشعوب والأمم : « ذلك
الفضل من الله . وكفى بالله عليماً » . . .

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد للعروبة من الإسلام ، ولا عز للعروبة إلا بالإسلام ، ومن أوجب الواجبات أن يكون لهذه القومية العربية دين يحميها من الضلال ، ويهديها إلى الكمال ، ويضمن لها الخلود والبقاء ، ويجعلها قومية مؤمنة معتقدة متدينة ، لا تصل أسبابها بمنافع ذاتية أو مصالح مادية فحسب ، بل تربط قيادها بأسباب الملائ الأعلى ، وتستهدى في دنياها بنور الدين وهدى الخلاق العظيم ؛ وليست الدعوة إلى تدين القومية وإيمانها دعوة إلى عصبية أو طائفية ، فإن كثرة العرب الغالبة مسلمون والمسلم لا بد له من دين ، وإذا كانت هناك من العرب قلة من أهل الكتاب غير المسلمين ، فلا أن يكون هؤلاء متدينين أفضل من أن يكونوا غير متدينين ، ولهذا فإن الدعوة إلى أن تكون القومية مؤمنة لا تتعارض مع وجود غير المسلمين ، وواجب المسلمين أن يحفظوا حقوق غيرهم من الناس مهما كانوا فكيف بهم مع شركائهم في الوطن ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا جيداً ودائماً أن العروبة بغير دين لا تغنى ولا تفيد ، واذكروا أن ربكم حين يتحدث عن العرب غير المؤمنين يشتد عليهم في الحكم ، كأن يقول عز شأنه وجل سلطانه : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم » ، وأما حين يسلمون له ويؤمنون به فإنه يجعلهم عباده الوارثين ، وجنوده المنتصرين ، الذين لا يذلون ولا يحزنون : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » « وإن جنودنا لهم الغالبون » . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر

بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . وهذا هو صوت المسلم المترجم عن اعتزازه بالإسلام يقول مخاطباً ربه تبارك وتعالى :

ومما زادني شرفاً ونياً وكدت بإخصى أطأ الثريا
دخولي تحت قولك : يا عبادي» وأن صيرت .«أحمد» لى نبياً !

فإذا تحدثنا عن القومية العربية مرة فيجب أن نتحدث عن الإسلام مرات ، وإذا اعتزنا بالقومية العربية كثيراً ، فيجب أن نعتز بالإسلام أكثر وأكثر ، وإذا تذكرنا أن العروبة هي وعاء الإسلام وإنناؤه فيجب أن نتذكر دائماً أن الإسلام هو روح هذه العروبة ، وهو باعها من رقادها ، وهو مجدها ورفعها ، وإن كنا نقول إننا أمة عربية فيجب ألا ننسى أن دين هذه الأمة هو الإسلام ، فإذا طالبتنا العروبة بأن نعمل لها في ميدان فإن الإسلام يطالبنا بأن نعمل له في ميادين ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

في طريق الوحدة

الحمد لله عز وجل ، هو الواحد في ذاته ، المتفرد في صفاته ، « ليس كمثل شئء وهو السميع البصير » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد المؤمنين بقوته ، ويكبت المارقين بنقمته : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كشف الغمة ، وجمع الأمة ، ووحّد الكلمة ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المجاهدين ، وأصحابه المحسنين ، وأتباعه الموقنين « أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هناك أمور لا يعاب أن يمتد فيها الحديث ، لخطورتها وتشعب نواحيها ، ومن هذه الأمور التي تستحوذ على اهتمامنا الآن موضوع الوحدة التي نسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه ، وأن يبارك مسعاها حتى تم على الوجه الذي يرضاه خالقنا ، ويسعد به نبينا صلوات الله وسلامه عليه ، إذ لا شك أن وحدة الأمة الإسلامية في عقيدتها وطريقتها وديناها وأخراها كانت أعظم أمل حققه محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وقد بقيت الأمة المؤمنة متحدة متماسكة قوية ما بقي الإسلام سيداً ومسيطرأ ومتمكناً من القلوب والعقول ، ولما ضعفت العقيدة وتحكم الهوى ضاعت هذه الوحدة ، وهان المسلمون بعد عز ، وضعفوا بعد قوة ؛ وظل الأبخار من بناء هذه الأمة يتطلعون إلى استعادة هذه الوحدة ، ويجاهلون في سبيلها ، ومن أجل هذه الوحدة جاهد جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبي وشكيب أرسلان ومحمد عبده

القيت في ١٨ من رجب سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٧ من فبراير

سنة ١٩٥٨ م .

وأضرابهم من رجالات الإسلام ، كل بقدر طاقته وبقدر توفيقه ؛ فإذا شاهدنا اليوم جزأين من أجزاء الأمة يتحدان كان من واجبنا أن نلتفت إلى هذا الأمر وأن نطيل التفكير فيه ، لأنه يعد مرحلة من مراحل الوحدة العامة التي نتمناها ونرتجىها حتى يصير أبناء الإسلام كما أراد لهم ربهم أمة واحدة كالجسد الواحد ، أو كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، ولا شك أننا الآن في بداية الطريق ، وما زالت هناك مراحل نرجو أن يتابع المسلمون فيها الخطوات ، حتى تتحقق الوحدة بين الجميع ، وما زالت هناك جهود جبارة كبيرة لا بد من بذلها في إخلاص وإيمان ويقين ، لأن عهد الاحتلال والاستعباد قد خلفت في جسم هذه الأمة كثيراً من الآفات والعيوب ، فقد خرجت هذه الأمة من ظلمات الهوان والمذلة مقطعة الأوصال ممزقة الأشلاء ؛ تقسمت إلى دول ، وكل دولة تقسمت إلى دويلات ، وقام في كل ناحية أمير أو سلطان ، وانفرد والطغاة الدخلاء بهذه الدويلات ، يستدلونها قطعة بعد قطعة ، ويضربون بعضها ببعض ، ويخدعون كبارها بالمناصب والمراتب والألقاب ، وهذا داء عصبية قديم فشا في المسلمين شرقاً وغرباً خلال العصور البئيسة المظلمة فهدمهم وحطمهم حتى ضجج من بعض صورته شاعر فقال :

مما يزهدي في أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتصد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالمهر يحكي انتفاحا صورة الأسد

وقد تحلقت في هذه الدويلات - بسبب هذه الظلمات - أحقاد وأضغان ، وشهوات وأهواء ، حتى اختلفت أبناء القبلة الواحدة والدين الواحد ، وامتشق بعضهم السلاح في وجه البعض الآخر في كثير من الأحيان ، وعجب الناس كثيراً لطائفة من أبناء الإسلام تحارب طائفة أخرى من أبناء الإسلام مع قول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » وقول رسوله : « وكونوا

عباد الله إخواناً « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . ولا بد للوصول إلى الوحدة الكاملة من إزالة هذه الأحقاد والأضغان ، وتحرير سائر الأوطان ، والرجوع إلى شرعة اليقين والإيمان ، والاعتصام بحبل الله وإخلاص العمل له ، والتلاقى الشامل على العقيدة الواحدة والخطة الموحدة والمنهج الواضح ، وحينما تبقى أجزاء من الوطن الأكبر خارجة على هذه الوحدة أو معارضة لها يتيسر كسب الخيرات المأمولة من وراء الوحدة الشاملة ، وقد يستغل أعداؤنا وأعداء الإسلام ذلك فيضربون ، ويجعلون بأسنا بيننا شديداً كما كانوا يفعلون ، وكما لا يزالون يحاولون ، فعلينا أن نحذر ونحن نسير ، وأن نثبت أقدامنا أثناء خطوها ، وأن نفتتح عيوننا جيداً لما حولنا ، وأن نتذكر الأعداء الذين يتربصون بنا الدوائر عن يمين وشمال ، والذين سيحاولون طعننا من خلف أو من أمام ، وقد يحاولون ذلك بسهام من قريب ، وأن نتذكر أماننا خطوات واسعة وتبعات جسيمة ، وأول مقتضيات الوحدة أن يعاد بنا هذه الأمة الكبرى بناء سليماً قوياً يتفق مع عقائدنا وأخلاقنا وموارثنا الأدبية والروحية وتاريخنا الطويل العريض ولوازم الحياة الجادة المتطورة السعيدة . . .

ويجب علينا أن نؤمن بأن الوحدة ليست عصبية أو جنسية أو تأليفاً على الشر أو اعتزاماً للبطش والعدوان ، بل هي الوحدة المؤمنة العادلة التي يلزمها أن تقوم بالحق وبالقسط ، وإذا كان للقومية حقها ومكانتها ، فللدين قبل ذلك سلطانه وحقه المفضل المفضل ، والدين هو أقوى وتر حساس في نفوس المؤمنين ، وموارث المسلمين الدينية والعقلية والتاريخية لا تزال هي المحرك الأقوى الأكبر لعواطف هذه الملايين التي تعد بالآلاف من أبناء الإسلام هنا وهناك ، ولعل هذا الإقدام على تحقيق الوحدة هي أحسن فرصة ننتهزها لكي نضع لأمتنا الكبرى نظاماً وقوانين مستمدة من وحي عقيدتنا وهدى ربنا

وسنة نبينا ، ومستمدة من تعاليم قرآنا الذى أنزله خالقنا ليكون هدى ونوراً
وضياء نستضيء به فى هذه الحياة : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة
ونحن له عابدون » . ونحن لا ننسى هنا أن فى هذه الأمة الكبرى أقلية غير
مسلمة ، وليس هؤلاء المواطنين أن يفزعوا من هذا الاتجاه ، فإن الإسلام قد
ضمن حقوقهم خير ضمان ، وصان لهم حياتهم وحريرتهم على وضع كريم
نبيل ، وجعلهم على قدم المساواة فى الحقوق العامة مع المسلمين ، « لهم ما لنا
وعليهم ما علينا » وحرم الإسلام الاعتداء على غير المسلمين من الذميين وأهل
الكتاب ولو بكلمة سوء أو غيبة أو أى نوع من أنواع الإيذاء ، ومن فعل
ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمة دين
الإسلام ، والرسول يقول : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا
خصمه يوم القيامة » بل أمرنا الله بالإحسان إليهم حتى فى الحديث والحوار
والجدال فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن » .

يقول شهاب الدين القرافي فى كتاب الفروق :

« إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا ، لأنهم فى جوارنا وفى خفارتنا
وذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام ، فمن اعتدى
عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم . أو أى نوع من أنواع
الأذى ، أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله
عليه وسلم وذمة دين الإسلام » .

وقال ابن حزم فى مراتب الاجتماع :

« إن من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه ، ووجب
علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ، ونموت دون ذلك صوتاً لمن هو فى

ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة .

ولقد كره الإمام علي أن يفضله الفاروق عمر بن الخطاب على خصم له غير مسلم حتى في طهجة الخطاب ، وذلك من شدة حرصه على الحق والعدل ، ولا عجب في ذلك فالإسلام هو الذى يأمرنا بأن لكل إنسان أمانته وحقه ، وأن نقوم بالعدل بين الناس جميعاً مهما تعددت الألوان والأجناس أو الأديان « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الوحدة شعار الإسلام ، فإذا اتحدنا فلا بد لاتحادنا من عقيدة ، وخير العقائد ما ارتضاه لنا بديع السموات والأرض ، والإسلام ليس عصبية أو طائفية أو عدواناً على غير المسلمين ، بل هو إيمان بخالق هذا الوجود ، واهتداء نسبة سيد الوجود ، وعدالة بين الناس كلهم ، وشورى في الحكم ، ومساواة بين الأفراد ، وإعزاز للفضيلة ومحاربة للرذيلة ، ومنع للفاحشة وعمل للدنيا مع عمل للآخرة .

والدين يسر ، والخلافة بيعسة والأمر شورى ، والحقوق قضاء !

فلنعد إلى الإسلام نجد فيه الدواء والغذاء والضياء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

أساس الوحدة في الإسلام

الحمد لله ، كتب على نفسه الرحمة ، وأزال عن الناس بدينه الغمة ، وكنى بالله ولياً وكنى بالله نصيراً ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ؛ ضلت الطرق كلها إلا طريقك ، وفسدت المشارب كلها إلا رحيقك ؛ « ومن يهد الله فما له من مضل ، أليس الله بعزيز ذى انتقام » ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبداً ورسولك ، ما أمر حتى أقنع ، وما بنى حتى جمع ، فكان سيد الحكماء وخيرة المصلين ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى ذريته وأحبابه ، وصحابته وخلصائه ، وأتباعه وأوليائه : « أولئك سوف يؤتيم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

طالما هتف الهاتفون منا ، وتغنى متغنون فينا ، بأنه يجب أن تكون هناك وحدة قوية راسخة بين أبناء الأمة جميعاً ، حتى تكون هذه الوحدة صخرة تتحطم أمامها أمواج الضعف وتتخاذل ؛ ولا شك أن حديث الوحدة حديث عذب النغمات بالغ التأثير ، وليس هناك من العقلاء أو الأوفياء من يعارضه أو يمارى فيه ، ولكن السؤال الذى يجب أن يشغلنا جوابه هو : كيف نبني هذه الوحدة ؛ وعلى أى أساس يجب أن تنهض وتقوم ؟ . . .

أنقيمها على الجنس ؟ . . إن الجنس وحده لا يكفي ليكون أساساً للوحدة لأن الاعتزاز بالجنس غالباً عصبية وتفاجر كاذب ومصرع مستور ، وهؤلاء هم العرب فى جاهليتهم قبل الإسلام ، اعتزوا بعروبيتهم وأسرفوا فى هذا

(١) ألقىت فى ١٤ من ذى القعدة سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٧ من أغسطس سنة ١٩٥١ م

الاعتزاز ، وشمخوا بأنوفهم على غيرهم من العالمين ، فلم يزدحم تعصبهم لجنسهم إلا فقراً ونكراً وشتاتاً ؛ ولما تولدت في الأميين نزوة العصبية العربية ومحاربة ما ليس بعربي ومن ليس بعربي ، كان ذلك نكبة على المجتمع الإسلامي ، إذ تولدت « الشعبوية » فجاءت ببلاياها التي انبسطت في عصور بني العباس فأطاحت بدولة الإسلام الزاهرة . وهذه ألمانيا في المهود الأخيرة لا يعيها منصف في عظمتها وقوة شعبها وكثرة مآثرها ، ولكن عصبيتها وجنونها بما سمته الدم الجرمانى كان سبباً في تقويض مجدها وسلطانها ؛ والإسلام بعد هذا كله لا يقيم للجنس في تقديره ميزاناً ، فالتناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ! ! . .

أنقيم وحدتنا على اللغة ؟ . . إن اللغة وحدها لا تكفي ، فكم من شعوب تتكلم لغة واحدة ، ثم لا يجمعها على رباط الوحدة جامع ، فهذه هي الهند تتكلم الإنجليزية كما تتكلمها بريطانيا ، وبين الدولتين عداً لا يحتاج إلى إفصاح ، وهذه هي أمريكا تشارك إنجلترا في لغتها ، ومع ذلك نرى بين الدولتين من الصراع والتنافس والحقد الدفين ما تسير به الأنبياء ، وهما لا يتفقان — إن اتفقنا — إلا ظاهراً ، فالهدنة بينهما دائماً تكون على دخن ، وصدائتهما المفتعلة إنما تبدو لأغراض أو أمراض ثم تنطوى في أودية الفناء ؛ وإن الإمريكى ليلقى الإنجليزي فيسمعه يرطن بلهجته ، ويردد عبارة كعبارته ، ولكنه لا يأنس به ولا يميل إليه ولا ينسجم معه ، لأن توافق اللسان لا يؤدي دائماً إلى توافق الجنان ، ومردد الشفاه كلاماً لا تصور ما تنطوى عليه الحنايا والصدور . . .

أنقيم الوحدة على أساس الاتحاد في الوطن والاتصال في الوادى ؟ . . قد يغرنا هذا الأساس في ظاهره بيريقه ولعانه ، ولكنه أيضاً يكنى وحده ، (م ٢٥ — خطب ج ١)

فكم من أناس يتجاورون في المسكن وبين قلوبهم من الفرقة ما بين المشرق والمغرب ، وبين عقولهم من الاختلاف ما بين الأضداد ، وبين أهوائهم من الشتات ما يبعث الحسرات ؛ وحسبكم أن تنذكروا الأمة العربية في جاهليتها ، فقد كانوا متجاورين متحدين في الوطن ، فما أغناهم ذلك فتيلًا ، ولا أوجد بينهم من الوحدة أو الانسجام كثيرًا أو قليلًا ، بل تهارشوا تهارش الكلاب ، وتناحروا تناحرو الذئاب ! . . .

أنقيم الوحدة على أساس الاتحاد في الآلام والآمال ؟ . وكيف والآلام غير ثابتة ؛ فما تشكو منه اليوم قد يزول غدا والعلّة المسيطرة الآن قد نتخلص منها بعد قليل أو طويل ؛ وكيف والآمال متغيرة متقلبة ، فأمال الإنسان في وقت الشدة غير آماله في وقت الرخاء ، حتى قال الباحثون إن الأمل شيء لا ضابط له ، وتيار لا يقف عند حد ، ولا يعرف له اتجاه ، ولذلك قرر الأخلاقيون أن المثل الأعلى للطموح لا ينتهى ! . . .

إذن كيف السبيل ، وما هو الأساس الذي يكنى ويشفى ؟ .. لا بد ، أيها السادة من أساس يجمع الأرواح كما يجمع الأشباح ، ويقنع العقول كما يسيطر على القلوب ، ويؤلف بين الرغبات والأهواء كما يؤلف بين النبات والماء ، وتمتد جذوره في طبقات الغبراء ثم تعلق فروعها حتى تبلغ السماء ؛ وهذا الأساس هو عقيدة الإيمان المستكنة في الخواطر والصدور ، وملة الإسلام التي تظل أبناءها جميعاً بلواء العلي الغفور : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . وهذا الأساس في الوحدة هو الذي أمر به ربكم ، ودعا إليه نبيكم ، وردده كتابكم ، ونجح به أسلافكم ، : « إنما المؤمنون إخوة » ، « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » ، « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين

قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .

وليس بعد هذه العقيدة الإلهية قوة في الأرض تحرك الإنسان نحو التضحية والجهاد ؛ فقد تحدث المرء عن الافتخار بالجنس فيزهأ بهذه العونة الحمقاء ، وقد تحدث عن سمو لغته فيرد عليك بأن اللغات كلها سواء ، وقد تحدث عن رقعة الأرض فيقول : وهل بقيت في العالم حدود أو سلود ، ولكنك لو حدثته عن ربه الذي خلقه ، ونبه الذي أرشده ، ودينه الذي مجده ، وعقيدته التي يحيا لها ويموت عليها لاستجاب لداعى الكفاح ونداء الإقدام فكيف بنا لو لا حفظنا بعد هذا أن الإسلام قد شمل ما سبق من أركان وقواعد للوحدة بعد أن طهرها وصفها ، وقومها وأعلاها ، وفيه الجنسية السامية لأنه يعتبر أتباعه « أمة الله » ، وقد مجد اللغة العربية فأنزل بها كتابه الميسد ليضمن لها الخلود والبقاء ، وفيه وحدة الوطن وسلامة المسكن : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ؛ وفي اتحاد الآمال والآلام : « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ثم إن اتخاذا الإسلام أساساً للوحدة يبارك هذه الوحدة ، ويعلى شأنها ؛ إذ سيجعل قضية الوادى جزءاً من العقيدة ، فحب الوطن من الإيمان ، وللنيل شأن أى شأن في نظر القرآن ، وما دامت وحدتنا الوطنية قائمة على القاعدة الدينية فقد أصبح بناؤها شامخاً ، لأن أصلها ثابت وفرعها في السماء .

يا أتباع محمد عليه السلام . .

ليس هناك شبهة تعترض الوحدة القائمة على أساس العقيدة والإيمان إلا ما يردده الجاهلون أو المفرضون من أن السلطة الدينية قد تهضم حقوق

الأقليات من غير الموافقين في الدين ، وذلك بهتان قد يلتصق بكل دين إلا دين الإسلام ، فهو الدين الذي يقيم العدالة بين الجميع لا فرق بين مسلم وغيره ، وهو الذي يجعل لأهل الكتاب ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وهو الذي يحفظ الحرية لكل مستحق لها حتى يقول : « لا إكراه في الدين » فإن دعاكم الداعون يوماً إلى الوحدة والبذل في سبيلها ؛ مالا كان المبتول أو عملاً ، فقولوا لهم مصممين حازمين : إننا لا نريدها قومية ولا وطنية ، فحسب ولكننا نريدها إسلامية ربانية ؛ ويومئذ يستجيب لكم العصى ، ويتجلى أمامكم الخفي ، ويدنو منكم القصى ، لأن الله سيكون يومها معكم ، « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ؛ ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ؛ واتقوا الله الذي أنتم له مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

عام في تاريخ الوحدة

الحمد لله عز وجل ، كتب الفوز للمؤمنين ، وجعل العاقبة للصابرين :
والذين جاهلوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين . « أشهد أن لا إله
إلا الله ، وحده لعباده دينهم وديانهم : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا
ربكم فاتقون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الأمة ووحده الكلمة ،
حتى ترك الناس على المحجة البيضاء ليلها نهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ،
فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المجاهدين فيه ، وأصحابه الواثقين به ،
وأتباعه المحبتين إليه : « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الذكرى تنفع المؤمنين ، وإن في الأيام خبراً ، وفي أحداث التاريخ
عبراً ، ولقد مضى عام منذ أعلنت الوحدة في بلادنا ، وقامت الجمهورية
العربية المتحدة لتكون كما نتمنى مرحلة الوحدة القومية الشاملة ، ومقتاحاً
للأخوة الإسلامية الجامعة ؛ والعام في تاريخ الأمة كاليوم في تاريخ الفرد ،
ومع هذا نرى من واجبنا أن نقف على قمة هذا العام مراجعين ما قدمنا ،
متبصرين ما نعمل ، محددين ما سنفعل ، لنصنح حساب الأمس ، ونتقن
عمل اليوم ، ونحسن الاستعداد لواجب الغد ، فمن ديدن المسلمين الأصحاء
أن يراجعوا صفحات أيامهم ومجموعات أعمالهم كلما مضت فترة من الزمن ،
أو مرت مرحلة من التاريخ ؛ ولا شك أننا قد استفدنا من الوحدة أننا أنقذنا
أنقذنا جزءاً غالباً في وطننا الكبير من أنياب عدو فاجر يترصد بنا الدوائر ،
وأننا عززنا جوانب جزء آخر بالقوة المادية والمعنوية ، واستفدنا أننا أخذنا

(١) أقيمت في ١٢ من شعبان سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢٠ من فبراير

نزداد تعارفاً وتآلفاً وإدراكاً لحقائق قضايانا ، وتبصرآ لطبائعنا وخصائصنا ، واستفدنا أننا خطونا خطوات نحو التجمع والتكامل مما نرجو أن يؤدي إلى أمة الجماعة التي أشار إليها محمد صلوات الله عليه حين قال : « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار » .

حينما أعلنت الوحدة خيل لطائفة الناس أن الإعلان وحده كاف لتحقيق المطالب والرقاب ، وتمهيد الطرق والشباب ، وتهيئة كل الأسباب للحياة الموحدة الماجدة ، ولكن تحقيق معنى الكلمة المتضمنة للأمل الكبير يتطلب الكثير من الجهود ، والراسخ من العزائم ، والجميل من الصبر ، ولقسد يرغب الإنسان في إصلاح أمر من الأمور ، ويقرر ذلك ويردده ويؤكدده ، ثم لا يكفيه هذا ، بل يحتاج إلى صبر ودأب وتعب ، فطريق الصعود إلى الأجداد وقم العزة ليس ممدد المراحل ولا مفروشا بالورود الرياحين ، بل هو طريق متعب عنيف شاق ، وأما طريق التخريب والتدمير والانحراف فسهل ميسور ، ومن هنا قال معلم الإنسانية محمد : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » . ومعنى هذا أن الذين يتعرضون لجلال الأعمال يجب أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المتاعب حتى يحققوا ما يريدون ما داموا مؤمنين به واثقين منه موقنين أنه طريق الخير والصواب ، إلى هذا يشير القرآن حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ولقد عاهد قوم ربهم على أن يداؤوا في أداء واجب من الواجبات آمنوا به ، ولكنهم لم يفوا بعهدهم ، ولم يصبروا في ميدانهم ، فعابهم ربهم على ذلك لأن من التزم شيئاً لزمه شرعاً ، ووجب عليه الوفاء به ما دام خيراً ، فقال لهم ربهم : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . ثم أرشد الله عقب ذلك إلى طريق النجاح

والفلاح ، وهو الثبات على اليقين ، والصبر في مجال الحق ، والاجتماع على محض الإيمان ، فقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » أى البنيان المتناسك المتلاحق كأنه قطعة واحدة ، فكل من في الصف يثبت ويلزم مكانه كثبوت البناء ، ولذلك كان عبد الله بن رواحة يقول بعدها : « لا أزال حبيساً في سبيل الله حتى أقتل ! »

وفي سبيل كلمة « لا إله إلا الله » ظل محمد عليه صلوات الله ثلاثة وثلاثين عاماً لا يعرف فيها معنى الراحة ولا طعم الهدوء حتى جعل مدلول هذه الكلمة الجليلة العظيمة حقاً واقعاً وأجرأ صادقاً ، ولقد أقبل دهاقين الشرك على رسول الله يفاوضون ويساومون ويطلبون إليه المهادنة والملاينة في أمر الدين ، ويعرضون عليه العروض السخية ليتلاقى معهم في منتصف الطريق ، فيستلم بعض أضنامهم حيناً في مقابل أن يصدقوه ويتبعوه ، ولو كان محمد يريد عرضاً قريباً أو متاعاً عاجلاً لفعل ، ولكنه كان يرقب يوماً يؤدي فيه الأمانة كاملة ، ويحقق فيه الرسالة تامة ، وهي أن يكون الناس عبيداً لله وحده ، ولذلك جاءه التنزيل الإلهي آمراً بالإصرار على الحق والثبات في موطن الصدق : « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » . وما كان ذلك إلا لأن الحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه ، ولأن الباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه ! .

ولقد جعل محمد على وحدة قومه ، ومهد لذلك بتحقيق الأخوة فيهم ، فقال لهم في صدر دعوته : « وكوا عباد الله إخواناً » ولكنهم لم يصيروا إخواناً حقيقة في يوم وليلة بمجرد هذا القول ، بل تمرد عليه متمردون ، وتآمر به متآمرون ، وكاد له كائنون ، واستلزم ذلك من التعب والنصب ،

والصبر والمرابطة ، ما طال وامتد ، وجاءت يد الله العلى الأعلى تبارك هذه الجهود ، وتبلغ بها غايتها لتثمر ثمرتها ، فكان التوحيد ، وكانت الوحدة ، بفضل الله وقدرته : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم لأنه عزيز حكيم » .

ولقد أردنا الوحدة وتطلعنا إليها وعملنا لها ، وخطونا نحوها خطوة عملية فوجدنا جزأين من أجزاء وطننا الكبير المؤمن ، ولكن نبئت لنا على الطريق مشقات وعقبات ، اصطنعها الاستعمار حيناً ، وايتدعها الذين يخشون على مطامعهم من الوحدة حيناً ، وأظهرها الفرق بين الفكرة والتطبيق حيناً آخر . ليس هذا بضائرنا ولا بعائقنا ما دمنا مؤمنين بقضيتنا ، متبصرين لطريقنا ، محددين لهدفنا ، فإن انتقال أمة من وضع إلى وضع يصحبه تبدل وتحول وقد يحدث أثناء ذلك اختبار وابتلاء ، وهذا شبيه بنفض الغبار عن كيان يراد انتفاضه واهتزازه لبعثة وتجديده ؛ ولعل من أدهى المكائد للوحدة أن يقال إن نصر العروبة عصبية لا تلتقى مع نصر الإسلام ، وهذا باطل من القول وافتراء ، لأن الرسول صلوات الله عليه يقول : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » ولقد ورد أن حب الوطن من الإيمان ، وسئل الرسول عن العصبية فأجاب : « أن تعين قومك على الظلم » . وليس من الظلم فى شيء أن نطلب لأنفسنا كمجموعة من عباد الله فى الأرض حرية وكرامة وقوة وسيادة ، ولقد قلنا وسنظل نقول : « إن العروبة وعاء الإسلام ، والإسلام هو روح هذه العروبة ، وإذا كان الإسلام قد كرم العروبة فاتخذ منها نبياً ولغة وداراً وحملة أوائل نقلوه إلى الناس فى المشارق والمغارب ، فإن العروبة قد وجدت فى الإسلام مجدها الأعلى وعزها الأكبر : « وإنه للذكر - أى شرف - لك ولقومك وسوف تسألون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . في يوم كهذا اليوم ، وفي هذا المكان منذ عام ، اجتمعت حشود من أبناء هذا الوطن ليعلنوا باسم الله وفي بيت من بيوت الله قيام هذه الوحدة ، ومن فوق هذا المنبر في ذلك اليوم دعوت الله أن يبارك هذه الوحدة بتأييده ومعونته ، وأن يجعلها على الدوام مستظلة بلواء الإسلام ، مهتدية بالهدى الكريم العظيم الذي جاء به رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، ونحن اليوم نعيد هذا الدعاء ، ونكرر هذا الرجاء ، ونرجو أن نشهد اليوم الذي تتحقق فيه آمال الأوطان مع مبادئ الإيمان ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ..

الوحدة طريق النصر

الحمد لله عز وجل ، جعل الإئتلاف طريق القوة والسلامة ، وجعل الاختلاف نذير الخيبة والندامة ، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد بنصره من استجابوا لدعوته ، واجتمعوا على كلمته ، فكانوا من المفلحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قاوم الفرقة ، ووحّد الأمة ، فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

كأننا لا نريد أن نتعظ بدروس الأيام ، ولا أن نستفيد من عبر الأحداث فنذ عشرين عاماً ذقنا مرارة النكبة التي كانت فاتحة النكبات ، يوم أضعنا فلسطين من أيدينا في سنة ١٩٤٨ ، بل يوم أعطيناها لليهود والصهاينة الذين اجتمعوا من كل حذب وصوب ، ووجدوا صفوفهم وأهدافهم ، ووجدوا خطتهم وقيادتهم ، عل الرغم من أنهم قدموا أقطار مختلفة ودول شتى ؛ ولقد سأل سائل بعد نكبة ١٩٤٨ فقال : كيف انهزم العرب أمام القلة الصهيونية وللعرب يومئذ في فلسطين سبعة جيوش ؟ . فكان الجواب هو : إنما انهزم العرب لأنهم كانت لهم سبعة جيوش ، ولم يكن لهم جيش واحد ؛ ومع أن هذا الجواب كان عظة بالغة ولطمة رادعة ، فقد مضى عشرون عاماً ، لم تصر الجيوش السبعة جيشاً واحداً ، بل تعداها حتى بلغت ضعف السبعة ، وكان مر الأحداث و توالى العظائم لا يزيدنا إلا إصراراً على التفرق والتمزق ،

(١) أُلقيت في ١٨ من ربيع الأول سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ١٤ من مايو

والتعدد لا التوحيد ، مع أن اشعار ديننا الذى نؤمن به وندين الله عليه هو :
 كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، فقد جاء الإسلام بوحدة الإله : الله لا إله
 إلا هو الحى القيوم « ووحدة الرسول : « محمد رسول الله » ، ووحدة
 الدين : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » ووحدة الكتاب « إن
 هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم » ووحدة القبلة : « فول وجهك شطر المسجد
 الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ووحدة القيادة حتى قال الحديث :
 « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم
 فاقبلوه » ووحدة الأمة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وكتاب الله العلى الأعلى يقول لنا : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله
 صفأ كأنهم بنيان مرصوص » وهذا توجيه إلهى حكيم إلى وحدة
 الجيش ووحدة القيادة إذ لا يمكن للمؤمنين بحال من الأحوال أن يجاهدوا فى
 سبيل ربهم صفأ واحداً يصيروا كالبنيان المرصوص المتلاحم المتعاون إلا إذا
 كانوا جيشاً واحداً له قيادة واحدة وخطة واحدة ، وتدريب واحد ،
 وهدف واحد ، هو البطش بالمجرمين المعتدين ، وتحقيق العزة والحرية
 للمؤمنين : « والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .
 ويحذرنا القرآن الكريم من تعدد الاتجاهات والقيادات لأن ذلك يؤدى إلى
 ضياع الجهود وكثرة الثغرات التى ينفذ منها الأعداء ، فيقول : « وأطيعوا
 الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع
 الصابرين » والتنازع كما يكون على إمارة أو حكم أو مغنم قد يكون أيضاً
 على قيادة أو زعامة . وقد يكون على جاه أو شهرة ، ولو صفت الثبات ،
 وأخلصت القلوب ، وعرفنا معنى الجنديّة المجهولة ، وذقنا لذة العمل لوجه
 الله ومصلحة الوطن . لما وجد أى كبير فى الأمة المؤمنة أية غضاضة فى أن
 أن يكون مجاهداً تحت لواء الإسلام ، مهما كان الحامل لهذا اللواء ، متى

ارتضته الأمة قائداً لها ، ورسول الله عليه الصلاة والسلام هو الذى قال :
 أطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » وهدى الإسلام هو
 الذى ينادينا على اللوام قائلاً : « لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا
 فهلكوا » ، والحديث الشريف يقول لنا : « سوا صفوفكم ولا تختلفوا
 فتختلف قلوبكم » وعلمنا رائد الإنسانية ومعلم البشرية محمد صلوات الله
 وسلامه عليه أن مفتاح عزة الأمة وسيادتها هو أن تكون كلها على قلب
 رجل واحد ، يقودهم نحو الخير ، ويوجههم إلى البر ، ويستمد من عون الله
 وتوفيقه ما يجعله يسخر هذه الطاقات الكبرى لما فيه صلاح أصحابها ورشادهم ؛
 ورضوان الله على الإمام على يوم قال : « لم يجتمع قوم قط على أمر واحد
 إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدهم .

والتطبيق الإسلامى لمبادئ الجهاد فى صدر الإسلام يعطينا صوراً حيية
 كريمة لاجتماع الأمة المؤمنة على قيادة موحدة ، دون خضوع للأهواء
 الذاتية أو الرغبات الشخصية أو المطامع النفعية ، فهذا رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يولى أسامة بن زيد قيادة الجيش ، ويجمع خلف إمارته وهو الشاب
 الفتى - فطاحل الصحابة وكبار المسلمين من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان
 وعلى ، بل ويسير الخليفة أبو بكر على قدمه فى ركاب هذا القائد الشاب وهو
 فوق صهوة جواده ، حينما يقول القائد الفتى للرجل الأول فى الدولة :
 يا خليفة رسول الله ، إما أن تركب وإما أن تنزل ، يجيب الخليفة قائلاً :
 والله لا أركب ولا تنزل ، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، بل
 ضرب قادة الإسلام الأوائل أروع الأمثلة فى الاستجابة لنداء الواجب ، وفى
 الحرص على إنكار الذات ، وفى الإخلاص للقيادة الموحدة ، ومن بين
 هذه الأمثلة أنه حينما تولى أبو بكر الخلافة كان أبو عبيدة يقود جيش المسلمين
 لتحرير أرض الشام ، فأرسل أبو بكر خالد بن الوليد ليكون قائداً لهذا الجيش
 وكتب إلى أبى عبيدة يقول له : « قد وليت خالد قتال الروم بالشام ، فلا

تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإنى وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . وكتب خالد يخبر أبا عبيدة بذلك بلطف وأدب ، ويقول له فيما يقول : « والله ما طلبت ذلك ولا أردته ، ولا كتبت إلى الخليفة فيه ، وأنت رحمك الله على حالك التي كنت عليها ، ولا يعصى أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ، فإنك سيد من سادات المسلمين . . » ويعود أبو عبيدة القائد بالأمس إلى صفوف الجنود يجاهد صادقاً مخلصاً تحت قيادة خالد . وتمر الأيام ، ويلحق أبو بكر بربه ، ويحجى إلى الخلافة عمر ، فيرى الناس يكادون يفتنون بخالد ، فيعفيه من القيادة ، ويولى مكانه أبا عبيدة ، ويكتب إليه يقول : « قد وليتك على جند خالد ، فاقبض الجيش منه » وكانت المعركة دائرة ، فكتم أبو عبيدة الخطاب حتى تمت المعركة ، وتحقق النصر على يد خالد ، ثم أخبره بعد ذلك ، وأكد له أن هذا التغيير يتناول الشكل وحده ولا يتناول الجوهر ، وأنه لن يستغنى عن بطولته ومهارته ، وعاد خالد القائد بالأمس إلى صفوف الجنود يجاهد صادقاً مخلصاً تحت قيادة أبي عبيدة وهكذا لم يتردد قادة الإسلام المخلصون في أن يعمل الواحد منهم جندياً تارة وقائداً تارة أخرى ، والمهم هو أنهم حرصوا على وحدة قيادتهم ، وعلى الإخلاص في جهادهم ، وبذلك نصرهم ربهم ووقفهم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

في ظل الجماعة والوحدة حققنا الكثير مما ينفع ويفيد . وفي ظلمات التفرق والفرقة أضعنا الكثير من الثرات والجهود ، أفما آن لنا بعد كل ما تقدم من عبر وعظات أن نعود إلى قيادتنا الموحدة الجامعة للشمل المنظمة للكل ، وأن نحقق وحدة الصف مع وحدة الهدف ؟ لقد جبرت بنا الأحداث فلنجد . وأحاطت بنا النذر فلنستعد ، والله ولي المجاهدين المخلصين ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

يد الله مع الجماعة

الحمد لله عز وجل ، رسم طريق الرشاد ، وأوضح أسباب الهداية للعباد « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » .
 نشهد أن لا إله إلا الله ، جعل الفلاح كل الفلاح في الالتجاء إليه والاعتماد عليه ، وجعل الخسار كل الخسار في الإعراض عنه والانقطاع منه : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أحب فيه وخاصم له ، فكان أطهر الطاهرين وأفضل المخلصين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله المعتزين بذل الرجاء والضراعة ، وأصحابه ذوى الوحدة والجماعة ، وأتباعه المستوجبين بقراباتهم نعمة الشفاعة : « أولئك لهم عقبى الدار » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لاشك أن طبائع الناس مختلفة ، وعقولهم متفاوتة ، ولذلك نراهم أشتاتاً في الآراء ، متباينين في الميول والأهواء ؛ ومن حق كل امرئ كرم أن يأخذ قسطه من حرية الرأي واستقلال الذات ، حتى يشعر بقيمة البشرية ومنزلته الإنسانية ، وحتى يميز الله الخبيث من الطيب عن طريق التفاوت والاختلاف ، ولكن المجتمع تمر به أحياناً أزمات مزلزلة وخطوات مبلبله ، فتبرز قرون الفتنة ، وتبدو بوادر المحنة ، وهنا يجب تناسي الأشخاص والذوات ، وسمق الأهواء والعصبيات ، والتلاقى على شرعة الوحدة والإنحاء التي تتعالى عن الأحقاد والأضغان والمطامع ، ولذلك حض الإسلام بأسلوب مؤثر على الاتحاد والاجتماع ، فقال القرآن الكريم : « واعتصموا بحبل الله

جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . ويقول : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » . ويقول الرسول : « من فارق الجماعة قيد شبر خلع ربة الإسلام من عنقه » ويقول : « عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد مجبوحة الجنة فيلزم الجماعة » .

ولو رجعنا إلى تاريخ الإسلام لوجدنا المسلمين الأوائل قد فقهوا هذا المعنى الكريم خير الفقه ، وطبقوه أجزل التطبيق ، فإذا نزلت بهم نازلة ، أو ألت بديارهم ملمة ، نسوا أنفسهم وحقوقهم ، وذكروا أن دعوتهم في خطر ، وأن بلادهم في محنة ، وأن الجهود كلها يجب أن تتصافر لتكون قوة تهزأ بالصعاب وتحقق الرغاب ؛ وما نستطيع في مجال محدود كهذا المجال أن نفيض في ضرب الأمثال ، ولكن حسبنا أن نذكر مثلاً واحداً يظهر فيه روح التسامى عن الشقاق ، والتعالى عن الخصومات في مواطن الأزمات . . . ذلكم هو على ابن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه ، وكرم الله وجهه وطيب مثواه ، كان يرى لنفسه بعد موت الرسول حقاً في خلافته ، لأنه ربيبه وتلميذه الأول ، ولأنه السباق في مواطن اللقاء والكفاح ، ولأنه زوج ابنته ، وأسرة الرسول يومذاك تمثل التقوى والهدى ، والقرب من الملائكة الأعلى ، ولا تمثل العصبية أو الهوى ؛ ولكن الناس بايعوا أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، فهل يتنمر على أو يعارض ؟ وكيف والخلاف هنا تفريق لكلمة المسلمين ، وتشتيت لقوى المؤمنين ، ومعونة لأعداء الدين ؛ وكذلك ما كادت الشواغل التي شغلت علياً عن المبادرة إلى المبايعة تنتهى ، حتى ذهب إلى الخليفة الأول وبايعه متناسياً حقه الذى يعتقده في الخلافة قائلاً له : « ما نفسنا عليك

ما ساقه الله إليك من فضل وخير ، ولكننا نرى أن لنا في هذا الأمر شيئاً ، فاستبددت به دوننا ، وما ننكر فضلك .

وحفظ على عهده لأبي بكر ، لا يخون ولا يمين ، ولا يتقاعس أو يتباطأ ، بل أخلص للخليفة الإخلاص كله ، وحسبنا دليلاً على ذلك أن أبا بكر لما أسرع إلى الخروج بنفسه لقتال المرتدين أدركه على وأخذ بزمام ناقته ورده قائلاً : «إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ لا تفجعنا في نفسك ، فوالله لو أصبنا بك لا يكون للإسلام نظام » . وفي هذه النصيحة الخالصة الصادقة ما فيها من كرم ونبل الطبع وطهارة القواد . . . لقد قابل أبو بكر الوفاء بوفاء مثله ، فكان يحفظ لعلى قدره ، ويعلى بين القوم ذكره ، ويبادلته ثقة وعرفاناً بعرفان . . .

وذهب الخليفة الأول إلى ربه راضياً مرضياً ، أوصى لعمر بالخلافة من بعده ، فتجددت أشجان على ، ورأى مرة أخرى أن حقه كما يؤمن به قد أخذ منه ، ولكن الناس رضوا عنه عمر فليرض بها على طواعية واختيار ، وليصدق في هذا الرضى مهما كان رأيه الشخصى وعقيدته الذاتية ، حتى إن عمر يسأل علياً بنته أم كلثوم ليتزوجها ، فيعتذر إليه على بأنها صغيرة ، فيقول بعض الناس لعمر إنه يتخلص منك فيعيد الطلب فيقول له على : أبعث بها إليك فإن رضيت فهي امرأتك » . ويرسلها على وهي ذات الخدر والحجاب ، فيرضاها عمر لنفسه فيتزوجها ، وتلد له ولدين من أبنائه ؛ ويرعى عمر لعلى حقه الرفيع السامى ، فلا تمر عليه معضلة إلا ويرجع فيها إلى على أبي الحسن ، ولا يغيب أبو الحسن عن عمر إلا ويظهر عمر أنه لا يستطيع تصريف الأمور وحل المشكلات دونه ! . . .

ويسقط عمر شهيداً ، ويعهد إلى بضعة نفر من الصحابة ، ليختار الناس أحدهم خليفة ، وينتهي الأمر باختيار عثمان ، ويعتقد على أن الأمر اشتمل على مكيدة ، وأن حقه قد أعطى لسواه أيضاً ، ولكنه لا يخرج على الجماعة ولا يشق عصا الطاعة ، بل يبقى لعثمان كما وفى لصاحبه من قبل ، وحينئذٍ تثار التائرون على عثمان رضى الله عنه لم ترض نفس على له أن يشترك معهم أو يستغل حركتهم ، بل اعتزل الفتنة وبعدها ، وبعث بابنيه الحسن والحسين ليدودوا عن الخليفة الشهيد ويجولا دون مصرعه ، ولكن الفتنة كانت أكبر من ذلك فقتل عثمان ، وغضب على لقتله غضباً شديداً ، وعنف ابنيه تعنيفاً أليماً . . .

وأخيراً بايع الناس علياً ، وجاءه حقه الذى يؤمن به بعد طول انتظار ، فهل يسرف أو يتحيف أو ينحرف ؟ . . لا لا ، بل عدل وإنصاف ، ورحمة بلا اعتساف ، ولكنه لا ينتظر طويلاً حتى يخرج عليه الخوارج ؛ ويستحلوا دمه . فلا يبغى عليهم وهو القادر ، ولا يحكم فيهم هوى نفس أو نزعة شيطان أو شهوة ذات . بل ينصفهم من نفسه ، وينسى إساءتهم إلى شخصه ، فيقول لهم : « إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتونا ، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم النىء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا » وليس وراء ذلك شيء فى ضمان الحريات للمخالفين . . . والأعجب من هذا أن أحدهم يدفعه الشيطان فيطعن الإمام ليغتاله . فيجمع أولاده ويوصيهم بأن يطيبوا طعام قاتله . ويلينوا فراشه . فإن يعيش فهو ولى دمه . عفو أو قصاص . وإن يميت أحقوه به ليخاصمه عند ربه يوم القيامة . ونهاجم أن يعتدوا عليه أو يمثلوا به . . . وهذه غاية فى نسيان الذات وإزهاق الحوى وكبت الغضب . والترفع عن الأحقاد والأضغان . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ما المراد من هذا كله ؟ . . . المراد هو أن يكون لنا عقول تفهم وقلوب
تشعر ، فتعتبر بمواقف السالفين ، فنذكر أن الواجب علينا دائماً هو أن يبسط
كل منا يده لأخيه نقيمة طاهرة ، ليتلاقى الجميع في ساحة الأخوة الصادقة
والتعاون الصحيح ، لا فرق بين كبار وصغار ، فالكل في حق الحياة والجهاد
سواء وحين نخلص لله هذه الوحدة ، ونصدق في صف الصفوف وإعداد
العدة ، تنزل علينا ألوية النصر من واهبه ، ويأتينا صادق العون من صاحبه ،
لأننا سنكون يومئذ أولياءه وأحباءه : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله
صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . واتقوا الله الذي أنتم به مومنون ، إن الله مع
الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

وقاحة التفرقة

الحمد لله عز وجل ، أعلى كرامة بنى الإنسان ، وجعلهم خلفاءه في الأرض : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، وروقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أبداع الكون بقدرته ، وملك الخلق بربوبيته : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله ، ناشر دعوة المساواة والعدالة بين الناس ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تقف البشرية اليوم موقف الخزي الموجه من نفسها ، وتحس بالخجل البليغ من ذاتها ، لأنها تتطلع فتجد في جنوب أفريقيا طائفة من الأوربيين المحتلين الدخلاء . يتحكمون تحكم الطغاة الجبارة في الوطنيين الأفريقيين هناك . ويعيدون مخازي التفرقة العنصرية بين السود والبيض . فهم يجرمون السود أبناء البلاد الأصليين الشرعيين من ممارسة حقوقهم الطبيعية ، ويحولون بينهم وبين التمتع بخيرات بلادهم وميزاتها ؛ وأفحش ألوان الظلم في الحياة أن يحتل اللص الغريب الدار . ثم يتحكم فوق هذا في أهلها ومالكها ، فيسومهم سوء العذاب . ويفوز دونهم بما في الدار من خيرات وثمار . . . وهؤلاء القراصنة في جنوب أفريقيا يقومون الآن بحصاد دوى بشع . فالمدابح قائمة على قدم وساق . وحمامات الدم تجرى عن يمين وشمال : ويظن

(١) ألقيت في ١٣ من شوال سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٨ من ابريل سنة ١٩٦٠ م

هؤلاء الطغاة أن هذا القهر يؤدي إلى إذلال أبناء أفريقيا وإرغامهم ، وهو في الواقع يؤدي إلى ثورتهم وانفجارهم ، وسيرحل هؤلاء الطائفتون الغرباء عن أفريقيا القارة السمراء العذراء ، سيرحلون راغبين قبل أن يصيروا جزءاً من الرماح تحت أقدام العمالقة الأفريقيين الذين استيقظوا من نومهم ، وانبعثت من أفواههم صيحات الوعي والتحرر ، وهم بالغون بإذن الله ما يريدون ، إن لم يكن اليوم ففي غد قريب .

ومن الإسراف في التبجح أن الذين يرتكبون وقاحة هذه التفرقة بين البيض والسود هم الذين يدعون أنهم أبناء المدينة والحضارة ، إنهم أصحاب المواثيق العالمية لحقوق الإنسان والمساواة بين البشرية ؛ فإن هذا الضلال والتناقض من سمو الإسلام وتكريمه لبنى الإنسان وتسويته الحققة بين الناس . . . أجمعين ؟ . . . أين هذا من هدى الإسلام الذي أعلن تساوى الناس في الخلق من ماء وطين . وأنهم صنعوا بيد خالق واحد يريدهم متحابين متعارفين ، لا متعصبين متناكرين : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ولقد أجاز الإسلام للعبد الأسود المملوك أن يتزوج الحرة النسيبة الغنية ، ما دام عفيفاً مسلماً ، ولقد زوج النبي زينب بنت جحش الحرة العربية القرشية من زيد بن حارثة الذي كان عبداً مملوكاً ، وزوج فاطمة بنت قيس الحرة الفهرية من أسامة بن زيد الذي كان عبداً مملوكاً ، وتزوج بلال بن رباح العبد الحبشي الأسود من الحرة النجيبة أخت عبد الرحمن بن عوف ، قال الرسول : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه (أى زوجته) إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

ولقد حدث أن صحابياً جليلاً مقرباً من رسول الله عليه صلوات الله اختلف مع صحابي آخر فتمخاضا ، فقال الأول للآخر يعيره بسواد أمه :

يا ابن السوداء . . . فغضب الرسول من ذلك غضباً شديداً ، وقال مستنكراً :
 طف الصاع ، أعيرته بأمه ؟ إنك إمروء فيك جاهلية ، كلكم بنو آدم . ليس
 ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح ! . .
 ولقد رأى أبو هريرة رجلاً راكباً على دابته ، ووراءه خادم له أسود يمشى
 على رجليه : فقال أبو هريرة للرجل : أحمله خلفك يا عبد الله ، فإنما هو
 أخوك ، وروحه مثل روحك « وكان أبا هريرة يريد بقوله للرجل :
 « يا عبد الله » أن يذكره بالعبودية لله المشتركة بين الناس أجمعين ، ولعل
 هذا هو السر في أن الإمام على قال : « إنى لأخجل من نفسى إن استعبدت
 رجلاً يقول : ربى الله » ! . . ولم يعرف الإسلام في الوظائف أو المناصب
 أو المراتب تفريقاً بين الأبيض والأسود ، وهذا وفد المسلمين إلى المقوقس
 سلطان مصر يرأسه رجل أسود هو عبادة الصامت ، ولقد قال المقوقس
 للوفد : « نحوا عنى هذا الرجل الأسود ، وقد موا غيره ليكلمنى » ، فقالوا
 جميعاً : « إن هذا أفضلنا رأياً وعلماً ، وإنما نرجع جميعاً إلى رأيه وقوله »
 فأرغموا المقوقس بذلك على أن يفاوض هذا الأسود مفاوضة الند للند ، والله
 يرفع درجات من يشاء ! ! . .

ومتى شرع الإسلام هذه المساواة بين الطبقات والألوان ؟ لقد شرعها في
 الوقت الذى كانت فيه بعض القوانين توجب على المرأة الحرة التى تتزوج
 بعدها أو معتوقها أن تحرق معه بالنار وهما على قيد الحياة . وفى العصر المظلم
 الذى كان الناس يتحاضرون فيه إلى شرعة الغاب . ويتعاملون بأسلوب الأسمك
 فى المحيط . فالختيان تأتى على صغار السمك بلا إبقاء . . . وأين نفذ الإسلام
 هذه المساواة لأول أمرها ؟ . . لقد نفذها بين قوم كانوا غلاظ الأكباد
 قساة القلوب . أصحاب عنجهية وحمية جاهلية وعصبية قوية . وتفاخر

بالأنساب والأحساب ، فنسوا كل هذه ولم يذكروا غير رابطة الأخوة
وصلة الإسلام ، فكل منهم يردد :

أبي الإسلام ، لا أب لى سواه إذا افتخروا بقبس أو تمسيم !

وكيف طبق الإسلام هذه المساواة ؟ لقد طبقها تطبيق اليقين والإخلاص ،
فأصبح أتباعه بنعمة الله إخواناً ، وارتبطوا بعواطف الأخوة والمحبة أكثر
من ارتباطهم بعواطف النسب والقرابة ، وامتدت رحاب هذه المساواة
الصحيحة فى التاريخ أجيالا عدة وقروناً متتابعة وشعار الأمة هو تلك الصورة
الرائعة التى صور بها رسول الله أمة الإسلام فقال : ترى المؤمنين فى توادمهم
وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له
سائر الجسد بالسهر والحمى .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الاستعمار الغربى الخسيس يلفظ أنفاسه فى كل مكان تحت وطأة
الضربات المتوالية التى يتلقاها من أيدي المجاهدين الأحرار هنا وهناك ، وهذا
الاستعمار اللئيم الخبيث يداور ويكابر ، ويحاول بكل ما أوتى من حيلة ووسيلة
أن يستبقى حياته . فترة أخرى . وهو ينجح إليه أن سهول أفريقيا هى أنسب
الأماكن له ، ولذلك يتجمع فيها ويتبجح ، ولكنه مهما فعل ومهما استبد
سيزول ويؤول للإلدامار والفناء ، لأن الذين يريدون حياة الحرية لن يرضوا
عن بقائه بينهم بحال من الأحوال ، وأمام هذه المآسى الذرة التى يرتكبها
الاستعمار اليوم فى جنوب أفريقيا ، ويشير بها الروائح المنتنة للترفة العنصرية
بين السود والبيض . يجب أن يقف الذين أصيبوا بنكباته فى الماضى أو الحاضر
صفاً واحداً ليجهزوا عليه ويتخلصوا منه . حتى يستجيبوا لهدى ربهم الذى
يقول : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . والعاقبة للمتقين » .
واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

جريمة الاعتراف بإسرائيل

الحمد لله عز وجل ، أدخر للطائعين رحمته ونعمته ، وأعد للمجرمين عذابه ونقمته : « نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يعز من يشاء بحبله المتين . ويذل من تمرد على أمره ودينه : « وأملى لى إن كيدى متين » . . . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الكلمة ووحّد الأمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وعترته ، وأصحابه وجماعته : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

في أثناء الفرحة بأعياد الثورة ، ومحاولة توثيق العلاقات الأخوية بين الشمال والجنوب في وادى النيل ، فاجأنا شاه إيران بذلك التصرف الأثيم وهو الاعتراف بإسرائيل وتبادل التمثيل السياسى معها ، فكان لهذا النبأ الأليم وقع مؤسف في نفوس العرب والمسلمين أجمعين ، وذلك لأن أهل إيران ينتسبون إلى الإسلام ، والاعتراف بالدولة الدخيلة المصطنعة المسماة « إسرائيل » يتضمن الرضى بما فعله اليهود الملاحين في فلسطين ، وهو أمر لا يرضاه الله ولا يقبله الإسلام ، ومن يفعل ذلك مجاهراً به مستحلاً له ، فقد باء بغضب الله . وعداوة الإسلام . ووصمة التاريخ . ومن العجيب أن إيران ليست على حدود إسرائيل حتى تخشى عدوانها أو الاحتكاك بها ، وليست بينهما مصالح مشتركة تضطر إيران إلى هذا التصرف الأثيم ، وليست إيران بالدولة الفقيرة التى تحتاج إلى أن تمد يدها لإسرائيل تستعينها وتستجديها ، وعند إيران

(١) القيت في ٥ من صفر سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ٢٩ من يوليو سنة ١٩٦٠ م

من البترول ما ليس لدى إسرائيل ، وإسرائيل لقيطة استعمارية ما زالت تعيش
عالة على معونات إنجلترا وأمريكا وغيرها ، ولو أن هذه الدول الباغية
منعت يد المعونة عن إسرائيل حيناً من الزمان لأصبحت في خسر كان ،
فما الذي يدعو إيران إذن إلى أن تفعل ما فعلت متنكرة للإسلام والجوار والروابط
المشتركة بينها وبين الغرب والمسلمين خلال عصور التاريخ .

إنها الملكية المستبدة التي لا يعنىها شيء سوى تحقيق مآربها ومطالبها ،
فقد قبل الشاه أن تكون بلاده مطية لأمريكا وإنجلترا في مناصرة إسرائيل ،
مقابل ثمن تافه وعرض زائل هو مجموعة من الدولارات يستعين بها على
ملذاته وشهواته ، وأما الإسلام والشرف ومبادئ العدالة والحق ، ورابطة
الدين والشرق والجوار ، فذلك كله يضرب به عرض الحائط في استبداد
وطغيان .

إن هؤلاء الذين ارتكبوا جريمتهم فاعترفوا بإسرائيل ينسون أو يتناسون
المأساة الكبرى التي أسود منها وجه البشرية ، وهي مأساة اغتصاب الصهيونية
لفلسطين ، وتشريد أهلها من النساء والرجال ، والشيوخ والأطفال ،
ولو كانت أمهات هؤلاء المعترفين بإسرائيل في إيران أو زوجاتهم أو إخواتهم
أو بناتهم هن اللواتي تشردن ولقين ألوان الذل والإيذاء ، لعرفوا مقدار
النكبة . ولطالبوا إخوتهم في الإسلام بأن يفضيوا من أجلهم ويعاونوهم
بما استطاعوا . . . ولو عرف هؤلاء حكم الله وحكم الإسلام فيما فعلوا .
إواتعظوا بهذا الحكم ونزلوا على أمره ، لما فكروا يوماً من الأيام في مثل
هذا العمل الأثيم فضلاً عن أن يرتكبوه وينفذوه ، ويحملوا وزره أمام الله
وأمام الناس .

إن الله تبارك وتعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى
وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا

اليهود والنصارى أولياء» ويخبرنا القرآن بأن اليهود والمشركين هم ألد الأعداء للمسلمين : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » ويقول : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » . وقد روى أن هذه الآية نزلت في عبادته بن الصامت الأنصارى ، وكان بدرياً تقياً ، وكان له حلف من اليهود ، يساعدهونه ويعاونونه ، فلما جاء يوم الأحزاب العصيب ، واشتد الأمر على المسلمين ، أراد عبادة أن يسخر هؤلاء اليهود في خدمة المسلمين ، فقال للنبي : « يا نبي الله ، إن معي خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم على العدو » فنزل قوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » وقد جاء هذا الرفض الصريح الصارم في وقت شديد عصيب كان المسلمون فيه محتاجين أشد الاحتياج إلى أى معونة ، فكيف بالذى يوالى اليهود المغتصبين لأرض المسلمين ، ويواليهم ليكونوا شوكة في جنب المسلمين ، وليزدادوا قوة ومنعة في معاداة المسلمين ؟ .. ألا ساء ما يفعلون ! .. وأين إذن ذلك التعاون الإسلامى ، وذلك التناصر الواجب بين الأمة المؤمنة التى يصفها رسولها بقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ؟ ! .. أين أخوة الدين ورحم الإسلام ووشيجة الإيمان يا أهل إيران ؟ !

ولكن لا عجب ، فللشاه سلف كان منذ سبعين عاماً ، وارتكب من الجرائم ما أغضب الشعب الإيراني ، وكان من جرائمه أنه أعطى احتكار الاتجار فى التبناك « - وهو مورد الثروة الضخم فى إيران - لبعض الأجانب لمدة خمسين عاماً ، فنار جمال الدين الأفغانى لذلك - وكان منفياً من إيران - وأوعز إلى شيخ الإسلام هناك بأن يصدر فتوى بتحريم التبناك حتى يبوره ، واستجاب الشيخ ، وامتنع الشعب عن التبناك فلم يبق له أثر ، حتى إن الشاه

نفسه أراد أن يدخن النار حيلة ، فقال له الخدم : لقد صدرت فتوى شيخ الإسلام بتحريم الدخان فكسرنا النار حيلة . فقال الشاه غاضباً : وهل استأذنت مولايك السلطان في ذلك ؟ . فقال رئيس الخدم : إذا أمر الشرع يا مولاي فلا حاجه بنا إلى استئذان السلطان ! ! . .

وبعد زمن قصير اضطر الشاه إلى إلغاء احتكار التبناك وانتصر الشعب ، ولكن الشاه عاد إلى ارتكاب مخازيه ، وظل جمال الدين يندد به ويحمل عليه ، وحاول أحد رجال الشاه أن يتوسط بينه وبين جمال الدين على أن يضمن له عيشاً رغيداً ، فثار عليه جمال الدين وقال : « والله لن أرضى إلا أن يقتل الشاه ، وتبقر بطنه ، ويوارى في القبر » . وكأنما كان جمال الدين يتحدث عن الغيب ، فبعد مدة قصيرة هجم أحد تلاميذ جمال الدين على الشاه وطعنه طعنة قاتلة وهو يقول له : « خذها طعنة من يد جمال الدين » وحينما سمع جمال الدين بمصرع الشاه حمد الله وقال : « إن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ، ويفتك بالطاغى على رأسها ، لا تكون قد فقدت عناصر الحياة » ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن اعتراف إيران بإسرائيل كان طعنة أصابت قلب كل عربي وقلب كل مسلم ، فن واجب كل عربي وكل مسلم أينما كان وكيفما كان أن تقاوم هذا الاعتراف ، وأن يقف في وجهه ، وإن أحق الناس بمقاومة هذا البهتان أولئك الذين يؤمنون بربهم الأحد ، —وأمتهم الواحدة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون . . .

الآزمات تكشف معادن الشعوب

الحمد لله عز وجل ، هو باعث الأمل في نفوس المؤمنين ، وموطد الرجاء في صدور المناضلين : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا وانقوا الله لعلكم تفلحون » . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من دعا وجاهد ، وأفضل من وجه وأرشد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن الذهب بين المعادن هو أغلاها قيمة وأعلاها مكانة ، وهذا المعدن الأصيل النفيس ، لا يتم صفاؤه ولا يتجلى نقاؤه، ولا يكمل تماسكه واستحكامه إلا بالعرض على النار لصهره وتمحصه ، وتزيل عنه الأخلاط والشوائب ، وكذلك الأمم القوية والشعوب المحيطة ، لا بد لكل منها في مراحل حياتها المختلفة من التعرض لعوامل الاختبار والانصهار حتى يتحقق لها النقاء والظهارة من جهة . ويتأكد فيها التماسك والاحتمال والثبات من جهة أخرى ؛ ويتمثل هذا الاختبار في تجارب تمر بها ، أو مصاعب تتعرض لها ، أو آزمات تعجز أعوادها وتمتحن عزائمها وتشد أزرها ، ولذلك كانت الشدائد من أقوى الأسباب الموصلة إلى الكشف من معادن الأمم وجواهر الشعوب ، والأمم التي لا تتعرض للتجارب أو المصاعب ، التي تمتحن إرادتها ، وتشد من عزائمها ، تكتب على نفسها دواعي فناؤها وهلاكها .

والله تبارك وتعالى يدعو عباده المؤمنين إلى حياة القوة والمقاومة والمغالبة والاحتمال، ويذكرهم بأنه جل جلاله يسوق إليهم في بعض الأحوال من ألوان التجربة والامتحان، ومن التعرض للتبعات والأزمات في بعض الأحوال، ما يجعله تصفية لنفوسهم وحواسهم، وتجلية لمعادنهم الكريمة وجواهرهم الأصيلة، وتحمية لنضالهم في سبيل ربهم وعقائدهم ومبادئهم، وحريةهم ومقدساتهم، ولذلك يقول القرآن الكريم: «وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين». ويقول: «وليبتل الله في صدوركم، ويمحص ما في قلوبكم». ويقول عن فريق من عباده الأخيار: «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم» كما يدعو جميع عباده إلى الاحتمال والتماسك، والصبر والاعتصام بالتقوى – والتقوى وقاية وقوة في وقت واحد – فيقول: «وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور». ويخبرنا كتاب ربنا تبارك وتعالى أن الصبر على أداء الواجب المقرون بتحمل تبعات، والثبات أمام الأزمات. هو مفتاح النصر والفوز، بل هو المعوان على تيسير العسير وتقريب البعيد، فيقول: «فاصبر صبراً جميلاً إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً، بل يحدثنا القرآن أن الفوز بالنعيم المقيم له ثمنه، وهو الصبر على التمهيص والابتلاء، فيقول: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين نخلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب».

إن الشعوب القوية المؤمنة تستطيع أن تصون عزتها وكرامتها، بقدر ما تتحمله من تبعات، وتقدمه من توضيحات، وفي فترات المصاعب والأزمات بوجه خاص، والصراع أمر معروف مألوف بين أهل الحق وأهل الباطل، وهذا الصراع يشتد ضراوة وشراسة إذا وقع بين فريق قوى غادر فاجر، يملك من الطاقات والإمكانات الضخمة ما يزيد في بغيه إلى حين،

وفريق محدود الطاقة والقدرة ؛ ولكن أصحاب المبادئ والدعوات يظلون بحقهم متمسكين ، وعلى مبادئهم ثابتين ، حتى يبلغوا غايتهم ، ويحققوا إرادتهم ، فإذا الطغاة الفجرة يصيرون إلى خيبة وضلال ، وإذا المؤمنون المستضعفون يعتزون بعزة الله ، ويجاهدون بكل وسيلة يهيتها الله ، ويصبرون ويصابرون كما أمرهم الله ، فتذل كلمة البغي والطغيان ، وتسموا كلمة الحق والإيمان : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » ، « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

ولقد تعرض المؤمنون الأولون لمواقف الصراع والنضال ، وتألبت ضدهم القوى الكافرة والجموع الباغية ، فما ضعفوا وما استكانوا ، بل كافحوا وقاموا ، ورددوا شعارهم العظيم : « ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . ولقد نشط هؤلاء الكافرون المشركون في معارضة المؤمنين واضطهادهم وتعذيبهم ، ليذلوهم أو يخضعوهم ، فما قدروا ، ولا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ثم عرضوا ألوان الإغراء على الرسول ، وفي طليعتها الرشوة بالمسال أو المنصب لينضم إليهم ، أو يترك عقيدته ودعوته ، فأبى واستعصم بالله وحده ، ومضى على طريق الحق والعدل ، لا يرضى بالنصر الكامل بديلاً ، ثم أخذ الكافرون في المقاطعة الاقتصادية للمسلمين ، فأجمعوا أمرهم ألا يبيعوا المسلمين شيئاً . ولا يشتروا منهم شيئاً ، ولا يقدموا إليهم أى معونة ، ولا يكون بينهم وبينهم أية صلة اجتماعية . وتعاون الكفر والبغي والطغيان عند هؤلاء ، فحاضروا الجماعة المؤمنة داخل شعب أبي طالب . وهو مكان بين جبلين بجوار مكة ، وظل هذا الحصار ثلاث سنوات ، احتملها المؤمنون بصبر وثبات ، وكشفوا عن أظهر الأصول وأكرم المعادن في نفوسهم ، حتى تداعت أركان الكفران ، وتقوضت صروح الطغيان . وعزت كلمة الإيمان ، وخرج المسلمون من

محنة الحصار والابتلاء أقوى عزماً ، وأرسخ همة ، فعاودوا المسير على طريق
الجهاد ، حتى من عليهم ربهم ، فجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة
الله هي العليا ، والله عزيز حكيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن أمتنا يجب عليها أن تعقد العزم على أن تبني عزتها ومجدها ، بعرقها
ودماؤها . وتصون حرمتها وكرامتها ، باحتماها للشدائد وصبرها على التضحيات
ويجب أن تتوهج في نفوسنا المعاني الكريمة للتماسك والاحتمال ، وأن تتألق
في حياتنا أعمال البطولة ودروس المصابرة والمرابطة ، حتى نسعى من حاضرنا
إلى غد قريب مشرق يتحدث عنه التاريخ فيقول : إن هؤلاء قد استطاعوا
بإيمانهم ويقينهم أن يجتازوا شدة عرضت لهم ، فاستحقوا نصر ربهم وخلود
ذكرهم ، والله ولي العاملين الصابرين ، واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون ،
إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الإسلام وحقوق الإنسان

الحمد لله عز وجل ، هو نصير المؤمنين العادلين ، وخاذل الفاسقين
الظالمين : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام
للعبيد » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون ،
وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله ، ناشر الإيمان ومحرر الإنسان ، فصلوات
الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه : « ومن يعتم بالله فقد
هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاه والسلام

كان من نتائج التقارب الحسى والمادى بين أرجاء الأرض - بسبب
سرعة الاتصال أو الانتقال - أن أدرك العقلاء من الناس أن العالم لا بد له
من أن يتجاوب أفراده بروح المودة والاحترام ، وعاطفة التعاون والوثام ؛
وهذا لا يتحقق على وجهه إلا إذا راعى كل منهم حقوق غيره ، كما يرعى
حقوق نفسه ، ولذلك قال الأثر الحكيم : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك
به » . ولقد زاد إحساس الشعوب بهذه الحقيقة عقب تكرر الحرب العالمية
التي أذاقت الدنيا ما أذاقت من الويلات والنكبات ، حتى اضطرت ساسة العالم
حينئذ إلى مساندة هذا الإحساس البشرى الجارف ، فكتبوا « وثيقة حقوق
الإنسان » وصدروها بقولهم : إن الناس يولدون أحراراً متساوين فى الكرامة
والحقوق ، ويجب أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الأخوة ، دون تفرقة بسبب
السلالة أو اللون أو الجنس ، ولا شك أن هذا مبدأ إنسانى كريم ، فرح
العالم بإصداره ، لأنه يؤمن الجميع ، فلا يجوز أن يكون هناك اضطهاد

لسبب من الأسباب ، ولا أن يكون هناك اعتداء من قوى على ضعيف ، بل ينبغي أن يكون الجميع إخوة في الإنسانية ، يعيشون متحابين ؛ وإن غاية ما تتطلع إليه البشرية هي أن يسود أرضها السلام ، وتترف عليها ألوية العدالة والمساواة ، وحينئذ يتجه كل فرد إلى البناء والتعمير ، وتبعد أشباح الحروب التي تدمر ولا تعمر ، وتخرب ولا تبني ، وإننا نحكي هذه الذكري وننوه بمبادئها ، ونحكي كفاح الإنسان الشريف في كل أرض من أجل حق الإنسانية وحق الحياة ، ونؤمن - كما قرر ديننا - بأن الناس في أصلهم سواسية كأسنان المشط في الاستواء ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا للأسود على أبيض إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإذا كانت هذه المبادئ لم توضع موضع التطبيق في بعض جهات الأرض ، فليس ذلك لقصور فيها ، وإنما هو نتيجة لتجاهلها وعدم تطبيقها ، فنحن نرى من لم يخلص لهذه الحقوق ، أو لم يصدق وعده معها ، وأوضح شاهد على ذلك ما اقترفه الصهاينة في فلسطين المغتصبة بالتواطؤ مع الاستعمار ، فإن ما صنعوه بهذه الأرض العربية العزيزة صورة صارخة من صور التفرقة العنصرية الأثيمة التي تاباها وثيقة الإنسان ، فقد ترك أبناء فلسطين ضحايا للجوع والفقر والمرض والشقاء ، بعد أن حرّموا أعز شيء في الحياة ، وهو موطنهم العزيز فلسطين : أولى القبليتين ، وثالث الحرمين ، وغاية إسراء الرسول محمد في الأرض ، ومفتتح معرجه في السماء ؛ كما يشاهد العالم الآن صورة أخرى كريهة من صور التنكر لحقوق الإنسان ، وهي ما حدث في روديسيا من سيطرة جنس بعينه على أصحاب البلاد الحقيقيين ؛ وإننا لنستنهض ضمائر العالم أجمع لكي يعمل بحق وصدق على تطبيق هذه الوثيقة ، في كل أرجاء الأرض ، لتعم الحرية ، وينتشر الأمن والسلام ، ويطمئن كل إنسان إلى أنه يعيش حراً كريماً ، يتساوى مع سائر الناس في الحقوق والواجبات .

ونحن المسلمين علينا في هذه المناسبة أن نتذكر هدى الله السمح ، الذي تنزلت آياته تنزل الغيث العميم المبارك ، فأحيت موات الأرض ، وجددت معاني الحياة ، وبعثت القوة الرشيدة في مواكب الأحياء ، وعلمت الدنيا كيف تصان حقوق الإنسان ، وكيف تحفظ كرامة الإنسان ، فهذا هو الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، يضع قواعد الحقوق الإنسانية وطيدة متينة باقية ، فيقرر وحدة النوع الإنساني ، وتساوى الجنس البشري في أصله ومنبته ، فيقول القرآن الكريم : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . » ثم ينص على كرامة الإنسان وتفضيله وأهليته للمكرمات الربانية ، فيقول : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً . » ثم يؤكد أن اختلاف الشعوب والأمم في المكان أو الألوان لا يصح أن يكون سبباً في التفرق أو التمزق ، أو التعادى أو التماذى في التفاخر أو التكاثر ، وإنما أساس التقديم والتفضيل هو استقامة السلوك ، وحسن العمل ، وصدق الإيمان ، والتمسك بالعدل ، والتجنب للانحراف ، فيقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير . » ويأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيحارب النزعة العنصرية واللونية المؤدية إلى التفرقة بين الإنسان فيقول : « كلكم لآدم الناس سواسية كأسنان المشط في الاستواء . » ويقول : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح . »

ثم يدعو الإسلام البشر جميعاً إلى شرعة السلام والأمان والموادعة بين أبناء الأصقاع والبقاع ، فيقول القرآن : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ثم يأمر الناس بالعدل والوفاء وصيانة الحقوق والأمانات ، ومراعاة المساواة المنصفة بين الخلائق ، فيقول : « إن الله

(م ٢٧ — خطب ج ١)

يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . » ويقول : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » . وينهاهم عن الظلم للناس ، لأن الظلم مرتعه وخيم ، فيقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » . ويدعو الإسلام أتباعه إلى محاربة الأمة والأنازية واختصاص الذات بما ليس للآخرين ، فيقول الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . ويعد الإسلام هضم حقوق الناس ، والإفساد في الأرض بالعدوات أو الطغيان أو التخريب أو الفسوق ، من المنكرات التي يرتضيها الحق جل جلاله ، فيقول القرآن : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » .

هذا جانب من حديث الإسلام عن حقوق الإنسان التي صورها كتاب الله أعدل العادلين وأحكم الحاكمين ، وقد سعدت الدنيا وأزهرت وأثمرت أجيالا وأجيالا بتطبيقها هذه المبادئ ، وذلك حينما حرص المؤمنون على العدالة الإنسانية والمساواة البشرية ، وما على الله بعزير ولا بمستحيل على الإنسان - إذا تدثر باليقين والإيمان أن يعاود حمل مشاعل الحق والخير والعدل ليحضي قدماً في طريق الصيانة لحقوق الإنسان ، والمحافظة على أمن الإنسانية وسلام العالم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إننا بعقائدنا وقيمنا ومبادئنا - نخلص التعاون مع كل جهد إنساني عالمي مخلص تبذله الدنيا من أجل حقوق الإنسان وكرامة الإنسان ، وإننا بفيض من إيماننا ويقيننا نرجو ونأمل أن تبلغ البشرية يوماً يسودها فيه السلام القائم على العدل ، والأخوة الناهضة على تبادل الثقة والاحترام ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الإسلام والتفرقة العنصرية

الحمد لله عز وجل ، أوضح الحق وحث عليه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » أشهد أن لا إله إلا الله ، يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الضلال والهدى : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ثبت دعائم اليقين والإيمان ، وأقام دعوة العدالة والإنصاف ، فعليه صلوات ربه وسلامه ، وعلى آله القائمين بالحق ، وأصحابه الناطقين بالصدق ، وأتباعه الهادين للخلق : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » .

من الأمور الواضحة أن مبادئ الإسلام بحاجة إلى نشر بين أهله وغير أهله ، بينما تنتشر في أرجاء العالم دعايات كثيرة مختلفة تجند لها الجنود ، وتحشد من أجلها الحشود ؛ وهناك الآن فرصة مواتية للاعلان عن عظمة الإسلام ، وهي فرصة ما نسمعه ونطالعه من أخبار عن الحوادث الدامية المخجلة التي تقع في أمريكا وأوروبا ومستعمراتها بسبب التفرقة العنصرية بين البيض والسود ، ففي القارتين الكبيرتين اللتين طال منهما الحديث عن الحرية والإنحاء والمساواة ، واللتين امتد منهما الادعاء بأنهما حاميتان للعدالة والإنسانية والحقوق البشرية والأخوة العالمية ، تقع أحداث مخزية ، لا محرك لها سوى أن الرجل الأبيض الذي يدعى أنه مؤدب ومهذب ومثقف ، يضيق بلون الرجل الأسود ، مهما كانت درجة ثقافته ، فهو من أجل هذا يريد القضاء على مئة وخمسين مليوناً من السود في الأرض ، لا لعب فيهم ، ولا لذنب جنوه ، سوى أن الباريء المقتدر خلقهم بلون أسمر لا بلون أبيض .

فالبيض في الغرب يطردون السود من الجامعات والفنادق والمطاعم . ويركلونهم في الشوارع بالأقدام ، ويطعنونهم بالمدى والخناجر ، ويحرمونهم حقوقهم الطبيعية الأساسية التي جعلها الخالق العظيم حقاً مشاعاً لكل إنسان ، وهم يضطهدونهم حتى في العبادة ، فالسود محرومون من الدخول إلى كنائس البيض ، كأن للبيض رباً وديناً عندهم ، وللسود رباً وديناً فأين هذا من هدى الإسلام العظيم الذي يقرر أن الرب واحد ، وأن الرسول واحد ، والكتاب واحد ، والمسجد واحد ، والخدام الفقير يقف بجوار أكبر فرد في الأمة أثناء الصلاة ، ويسير إلى جواره كتفاً بكتف أثناء الطواف حول الكعبة ، أثناء السعي بين الصفا والمروة ، وفي غير ذلك من العبادات .

وتصل بهؤلاء شناعة التفرقة العنصرية إلى التمييز بين البيض والسود حتى في القانون والعقاب ، فهذا رجل أسود يسرق دولارين فيحكم عليه البيض بالإعدام جزاء لهذه السرقة ، ونحن لسنا من أنصار السلب والنهب ، ولكننا من أنصار العدالة والحياء ، وهذا الحكم لا عدالة فيه ، لأن قانونهم العام نفسه لا يقضى به ، وليس فيه رائحة حياء ، لأنه يوجد في الغرب مئات آلاف سرقوا الملايين ولم يلاقوا الجزاء ، ونهبوا الأمم وأزهقوا أرواح الشعوب وما زالوا طلقاء ، ولقد دخل الرجل الأبيض أفريقيا فحمل إليها الذل والهوان ، ونشر فيها تجارة الرقيق ، ونهب من خيراتها ما نهب ، وسلب من أجلها ما سلب ، ثم بقي سالماً ، وزاد فتبيجح وزعم أنه حمل إلى أفريقيا المدينة والنور .

إنها نكبة يتطلب أهلها النجدة ، وإنه سرطان خبيث يتفشى ويحتاج إلى الدواء والعلاج ، وإنه بلاء يصيب الإنسانية في صميمها ، فتتطلع ذات ايعين وذات الشمال باحثة عن يعيد إليها إيمانها بنفسها ، وثقتها بديناها ، واستقامتها على طريق ينقدها من هذا البلاء . . . وهنا تهباً الفرصة لأبناء

الإسلام كى يبشروا به ، ويدلوا الناس عليه ، لينعموا بما شرعه من حرية وعدالة وإنصاف . ولن تكون فائدة هذا الخير مقصورة على المجال الدينى وحده ، بل سيفيدنا أعظم الفوائد فى المجالات القومية والوطنية ، لأن الإسلام نبث مبادئه له تاريخه الطويل العاطر بمفاخر أجدادنا ، فكأننا سننشر جوانب من مآثرنا وصفحات من ماضينا ، ولأن الإسلام قارورة دواء ومضخة إطفاء ، فن اهتمدى إليه على أيدينا من الحائرين فى الغرب سيعتبرنا مرشدين له هادين إياه إلى صراط المستقيم والنور المبين .

إن الإسلام حينما يعرفه أولئك الملونون الأشقياء باضطهاد البيض ويعرفون مايدعو إليه من أخوة وتسامح ومساواة بين الناس سيكون أقوى جاذب لهم إلى رحابه وكتابه ، فإن القرآن الحبيد يضع قاعدة الأخوة الإنسانية الراضخة حين يهتف بالبشر جميعاً فيقول لهم : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . كما يضع القاعدة الصريحة فى التفضيل بين الناس ، فلا يجعلها قائمة على اللون أو المال أو النسب ، بل يجعلها قائمة على الاستقامة والعمل الصالح فيقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ويقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » . ولقد قال أحد الذين يدعون الانتساب إلى الأشراف لرجل آخر : لعلك تتزوج بشريفة . فقال الرجل : قد فعلت . قال المدعى للشرف : ممن ؟ قال : من الذين قال الله فيهم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » .

وهذا أبو لب القرشى الغنى المقتدر بين أهله يأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أرسله ربه للناس جميعاً ، وجعله رحمة للعالمين ، يأتيه أبو لب مزهواً بحسبه وجنسه وماله ومكانته فيقول : ماذا أعطى إن آمنت بك يا محمد ؟ فيجيب الرسول فى هدوء : كما يعطى المسلدون . فيقول أبو لب مستنكراً هذه المساواة : أمانى عليهم فضل ؟ فيجيبه : وأى شىء تبغى ؟

فضاق أبو هب بهذا الدين السمح الكريم ، الذى يسوى بين الحر والعبد ، والأبيض والأسود ، والغنى والفقير ، وعبر أبو هب عن صنيعه وفجوره بقوله الأثيم : تبا لهذا من دين أن أكون أنا وهؤلاء سواء ، فكان الرد على ذلك التبجح أن نزل القرآن يقول : « تبت يدا أبي هب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نار ذات هب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » ولم يفد أباهب شىء ، لم يفده قومه ولا حسبه ولا ماله ، لأن الأسباب أمام الإسلام تتقطع ، والأحساب تضيع ، ولا يبقى إلا سبب الإيمان وحسب اليقين .

ولقد سمع نبي الإسلام رجلا يقول يا ابن السوداء . فغضب محمد غضبته وقال : طف الصاع (أى طفح الكيل) أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح . فهل يسمع هذا الذين وقعوا وثيقة حقوق الانسان من سنوات ؟ .

وهذا تاريخ الإسلام يزدان بسير الأقطاب الأعلام الذين كان لونهم أسود ولكنهم بأخوة الإسلام مع كفاحهم العظيم بلغوا أرفع الدرجات بين الناس وهذا مثلا عطاء بن أبي رباح سيد التابعين علما وعملا ، وفقهه مكة والحرم ، وخليفة بن عباس فى الإفتاء والذى كان يقال لأهل مكة عنه : كيف كان عطاء بن أبي رباح فيكم ! فيجيبون : كان مثل العافية التى لا يعرف فضلها حتى تفقد . وكان عطاء هذا أسود أعور أفتس أشل أعرج ، ثم كف بصره ، وكانت أمه سوداء تسمى « بركة » ! .

وهذا عمر بن عبد العزيز يعرف أخوة الإسلام ويطبقها ، فيأذن لزياد ابن أبي زياد العبد الأسود الصالح ، يأذن له والأمويون ببابه ينتظرون الدخول عليه ، حتى يضحج من ذلك هشام بن عبد الملك ، فيقول غاضباً : أما رضى

ابن عبد العزيز أن يصنع ما يصنع ، حتى أذن لعبد ابن عباس أن يتخطى رقابنا ؟ . وكان عمر يطلب من هذا الأسود أن يعظه وينصحه ، وذات مرة نصحه زياد فقال له فيما قال وهو يذكره بتبعة الأمة في عنقه : والله يا أمير المؤمنين ما هناك أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك أمام الله تعالى . . فبكى عمر بكاء شديداً ، حتى تمنى أنه لم يكن قال له ذلك .

هذا هو الإسلام ، وهذا تاريخ أبنائه ، فإذا أردنا عز الدنيا ونعيم العقبى فلنستمسك بالعروة الوثقى : عروة الله ، ولنعدع إليها عباد الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم . احمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى الهداية والتوفيق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله . هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين . اللهم أغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يارب العالمين ، اللهم إنا نسألك أن تعز الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى كلمة الحق والدين ، وأن تثبت عزائم المؤمنين ، وأن تتوب على العصاة المخطئين ، اللهم وفق ولاة المسلمين للعمل بكتابك وسنة نبيك الكريم . عباد الله ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . الخ .

ثمرات المعنة

لك الحمد أيها الغالب في قضائك ، الحكيم العليم في ابتلائك ، الرحيم الكريم في عطائك ، المداوم المواصل لنعمائك ، « أنت ولي في الدنيا والآخرة توفى مسلماً وألحقني بالصالحين » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، ترى وتسمع ، وتفرق وتجمع ، وترفع وتضع ، وأنت العلي الكبير ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، إمام الصابرين وقادة المحتسبين ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الذين كانوا معادن لا يسلبها التراب إن نار يوماً ما فيها من أصالة ونقاء ، وأصحابه الذين كانوا جواهر تزداد بالانصهار صفاء فوق صفاء ، وأتباعه المقيمين بأجسامهم فوق الأرض ، الهائمين بأرواحهم في أجواز السماء ، أولئك لهم عند ربهم الدرجات العلى « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

حينما يتبختر الإنسان في أثواب النعمة ، ويرتع من أكواب الفضل والرحمة ، لا يعنى في الغالب بتقدير ما هو فيه من كرم إلهي سايب ، لأن نشوة النعمة تخدع فتغر ، وتنسى فتضر ، ولذلك كانت الصحة تاجاً لا يشعر بحماله الأصحاء ، وكان المال متلفة في أيدي الجاهلين من الأغنياء ، وكانت الحرية شيئاً تافه القيمة في نظر الأغنياء .

أما حين تضيق النعمة فيمرض الإنسان بعد صحة ، أو يفتقر بعد ثروة ، أو يلتقي في ظلمات الأسر والاستعباد ، بعد حرية وانطلاق ، فإن الفكرة تعقب السكره ، ويضج المرء نادياً ما كان في يديه ، متضجراً مما سبق إليه ،

(١) القيت في ١٧ من ذي القعدة سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ١٠ من
سبتمبر سنة ١٩٤٩ م

وخاصة إذا كانت المحنة شديدة مركبة كمحنة العزلة وسلب الحرية ، يأتيه مفاجأة بلا جريرة أو مثلبة .

ولكن الحقيقة الأزلية تناديننا بأنه لو دققنا النظر ورجعنا البصر ، لوجدنا المحنة نفسها تضم بعض العطايا والمنح التي قد تساوى ما في النعمة أو تزيد عنها ، ورحم الله ذلك الصوفي الذي قال : لو دقت النظر لوجدت المحنة عين المنحة ، ورأيت الحرمان هو عين العطاء . . . وإن لله عباداً فطنا تبدو لهم من خلال الظلمات أضواء ساطعات يثبت قلوبهم بها بارئ النسمات ومدبر الكائنات سبحانه ! ! . .

في مقدمة ثمرات المحنة أنها تذكرك في صدق وعمق ويقين بالله ، وتدفعك في قوة ورفق إلى حسن الظن به وكريم التوكل عليه وبلغ السؤال منه ، ولا عجب فقد انقطعت منك علائق الناس وأسباب البشر ، ولم يبق لك إلا من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وهذا موطن يؤمن فيه الكافر ويعتبر الجاحد ويتذكر الغافل ، فكيف بالمؤمن الشاكر الذاكر ؟ . . .

سأل رجل الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه عن (الله) فقال له : ألم تتركب البحر ؟ . قال : بلى لقد ركبته . قال الإمام : فهل هاجت بكم الريح عاصفة ؟ فأجاب الرجل : نعم . قال : وانقطع أملك حينئذ من الملاحين ووسائل النجاة ؟ . قال : نعم . قال : فهل خطر ببالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء ؟ . فأجاب الرجل : نعم . قال الإمام : فذلك هو الله رب العالمين ! . . .

ومن ثمرات المحنة معرفة الناس ، والتمييز بين الأظهار والأنجاس ، والترفقة بين الثعالب الماكزين والخلص الثابتين ؛ والناس في هذا المجال أصناف ؛ منهم الوفي المجاهر بوفائه ومعوته قدر استطاعته وهذا قليل نادر ، وفيهم

الحب الضعيف الذى يكتم فيض ولائه فيعتصم بالصمت ليسلم وينجو ، وهذا أزيد قليلا من الأول ومنهم الخائن الذى يجاهر بحقارته ووضاعته وهذا أغلب وأكثر .

وينتج عن هذا أن تعلم علم التجربة واليقين أن الناس يتابعون الغالب دائماً مهما كان طاغياً أو مخطئاً ، إن لم يصفقوا له تابعوه مستسلمين ، وأنهم ضد المغلوب المقهور ولو كان محقاً ، إن لم يطعنوه فى جهر خذلوه مستترين ، وتلك مع الأسى العميق طبيعة البشر من قديم ، لو أردت إزالتها لطلبت المحال :

ويح لى ، قد طلبت عند طباع الناس ما عز عندهم مطلوباً
خلق الناس للقوى المزايا وتجنوا على الضعيف الذنوبا
احتفوا فى الحياة والموت بالغا لب ، فانظر ، هل عظموا مغلوباً
شيعوا الشاة جيفة بمداهم واتقوا وهو فى الزمام الدنيا !

ولم تأت المحنة إلى صاحبها ؟ . . إن مجيئها لا يخلو من فائدة على أى تقدير ، فهى إما تكفير وتطهير من خطايا وزلات سترت ومرت بلا عقاب ، وإما امتحان وإعداد لدور من الكفاح مرتقب ، وإما تمحيص وابتلاء من الله لعبيده كى يزيده بين الناس علواً ، أو يزيده من حماه القدسى دنواً ، ولذلك كانت المحن والبلايا ديدن الرسل والأنبياء ، وما هوذا شيخ الممتحنين المبتلين محمد صلوات الله عليه الذى ضرب وجرح وعذب وطورد على أيدي اللثام المحرمين ، والحسرة الفاسقين يقول : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حب دينه فإن كان فى دينه صلماً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » ويقول : « إنا معشر الأنبياء يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر » بل لقد ورد فى الحديث ما يفيد أن هناك

منازل من الكرامة لا يبلغها بعلمه ولا تقواه ، ولكن ينالها بالبلاء ، حتى قال الرسول : « المصيبة تبيض وجه صاحبها يوم تسود الوجوه » . فهي إذن ، مزية للذنوب ، مطهرة من العيوب ، مفرجة للكروب ! .

ومن ثمرات المحنة أن الإنسان ينفرد فيها بنفسه ، ويتعد في صومعتها عن غيره من المضالمين أو المعوقين ، فيأخذ في مراجعة الماضي مراجعة دقيقة متمهلة ، فيها تدبر وإنصاف وقسطاس في الحكم على الأشياء والأحياء ، فتلوح له خلال الاسترجاع بعض الأخطاء التي كانت تخفيها أو تزورها له زحمة الحياة وضجة المجتمع ؛ وهنا يستفيد أكبر فائدة من هذه الدراسة والذكرى ، فيعاهد نفسه أن يتجنب أخطاء أمسه ، ثم يأخذ في رسم خطة حكيمة للمستقبل يتحاشى فيها زلات الماضي بعد أن يكون قد ازداد إيماناً بمبادئه الثابتة ، ويقيناً بعقائده القويمية ، من تكرار التجارب طول الاختبار .

ومن ثمرات المحنة إذا كانت أسراً وعزلة أن تستريح أعصابك من صخب الحياة وضوضاء البشر ، وأن تستجم نشاطك بالراحة وخفة العمل وقلة المهوم المبدلعة من لهب المطامع والشهوات ، وأن تنمي مداركك وأفكارك بالقراءة الهادئة الموصولة أو التأمل الطويل العميق في ملكوت السموات والأرض ، وأن تزداد من الله قرباً واتصالاً ، بأنهما كك في العبادة والقنوت ، فيكون ذلك كتعويض لما فاتك في أيام اللهو وفترات الانغمار في التيار الجارف ، وذخيرة تبقى لك عند من لا يضيع أجر من أحسن عملاً إلى غير ذلك من الفوائد والثمرات التي تنبئها أيام الحن والأزمات . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لست بهذا أدعوكم إلى تمنى البلاء أو الحرص عليه ، فليس من هدى الإسلام أن يتمنى المرء لقاء المصيبة ، ولكني أريد أن أذكركم بأن الله في خلقه

شئوننا لا ندرىها ، وأن له في أفعاله حكماً وأسراراً لا نحيط بها ، ومن الواجب علينا أن نلقى النعمة شاكرين لنزداد منها بفضل الرحمن ووعد الرحيم ، وأن نصبر على المحنة ليكون لنا أجر الصابرين المحتسين الذين يوفون أجرهم بغير حساب كما يقول القرآن ؛ وربما كان توقع المحنة والخوف منها أهول وأرهب منها ذاتها ، وربما نزل البلاء بمن نستخف به أو نتهم احتماله ، فيهبه الله من عوامل الاطمئنان ومفاتيح الرضا والأمان ما يهون به كل شديد ، ، ويذل له كل جبار عنيد ، وما أعجب شأن المؤمن لأنه لخير كله ، إن أصابته سراء شكرها فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، فلنكن من المؤمنين الشاكرين الصابرين « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

قال عليه الصلاة والسلام : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أعطى فشكر ، وابتلى فصبر ، ووظلم فغفر ، ووظلم فاستغفر فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

هذا نذير

الحمد لله عز وجل ، هو ولي الرعاية ومصدر الهداية : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يبشر ويحذر ، ويطمع ويخوف : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » : وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، شكر النعمة ، وبشر بالحكمة ، فكان رحمة الله للناس أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله القائمين بالحق ، أصحابه الناطقين بالصدق ، وأتباعه الهادين للخلق : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لعلكم قرأتم أو سمعتم عن تلك القنبلة الذرية التي سقطت خطأ من طائرة أمريكية منذ يومين بالقرب من مدينة « فلورنسا » ، وقد تلطفت الرحمن الرحيم هذه المرة ، فلم تنفجر انفجاراً ذرياً ، ومع ذلك أصابت عدة أشخاص كما أصابت كنيسة ودمرت عدة أبنية ، ولا تزال النتائج والأخطار المترتبة على سقوط هذه القنبلة التي لم تنفجر موضع الإحصاء والتقدير . . .

كأن هذا الحادث إنذار خفيف من رب الناس للناس ، وتخويف يسير من مالك العباد لنفوس العباد ؛ والعامية تقول في أمثالها « ما كل مرة تسلم الجرة » ، ولو انفجرت هذه القنبلة انفجاراً ذرياً كاملاً لكانت المصيبة جامعهم واسعة ، ولتجلت نقمة العزيز القهار صارمة جبارة ، ولوقع الحافر فيما حفر ، واكتوى موقد النار بما أوقد وسعر ، ولكنه لا يزال في حلم الله وإمهاله سعة : « وما تؤخره إلا لأجل معدود » ؛ فما هذا الإمهال والتأجيل إلا من

(١) أقيمت في ٢٣ من شعبان سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ١٤ من مارس سنة ١٩٥٨ م

باب التحذير والإنذار لعلمهم يتذكرون فيرتدعون : « إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » .

كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يتذكر هؤلاء الباغون في الأرض بعلمهم وعملهم ، المزهوون بسلاحهم وعتادهم ، أن الطريق الذى يسلكونه ليس بالطريق المؤدى إلى الخير أو الإسعاد ، بل هو الطريق المؤدى إلى الشقاء والفساد ، ولو استمرت الإنسانية هكذا تتسابق فى إعداد أسلحة التدمير الماحق ووسائل الإفتاء الساحق ، لكان ذلك نكسة خبيثة لها ، وعودة رعناء منها إلى العهود السود التى كانت تصيب الإنسانية بالويلات والنكبات . يوم لم يكن لها دين ولا خلق ولا عدالة بين الناس ، ومعنى هذا أن تضييع سدئ كل تلك الجهود الهائلة التى يبذلها المرسلون والمصلحون والمجاهدون خلال الأجيال والقرون للارتفاع بهذه الإنسانية وتركية هذه النفوس البشرية ، وكيف لا وهؤلاء هم طواغيت الأرض اليوم يحملون أهلها بالإكراه والإعنات على أن ينفقوا فى كل عام آلاف الملايين من الجنهيات للإعداد الشيطانى من الأسلحة ، والتخزين الجهنى من العتاد، ولو أن هذه الملايين أنفقت فى عدالة وإخلاص على الضعفاء والفقراء والمحتاجين لسعد الناس جميعاً وساد السلام فى العالم ، ولم يبق هناك من يموت بسبب الطغيان فى التخمة ، ولا من يموت بسبب الحرمان والجوع ! . . .

نعم إنه إنذار إلهى خفيف لا ندرى ما وراءه فى هذه المرة قد سقطت قنبلة واحدة خطأ ولم تنفجر انفجاراً ذرياً - أو جهنمياً بتعبير أدق - فإذا يكون فى المرة القادمة يا ترى ؟ . . . « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » . . ليس والله ببعيد إذا دامت الحال على ما هو عليه أن تسقط قنابل لا قنبلة واحدة ، وأن تنفجر انفجاراً كاملاً ، وأن تقع الكارثة فوق رعوس الذين أرادوا أن يكونوا

في هذه الدنيا جابرة وطواغيت : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » ، « فإن أعرضوا فقل أندر تكم صاعقة مثل صاعقة عاد وتمود » .

« وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباسى الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .
« وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » .

لقد نقلت الأنباء أن سقوط هذه القبيلة الخاطئة التي انفجرت انفجاراً غير ذرى قد أصابت أسرة رقيقة الحال يشتغل رجلها عاملاً في السكة الحديدية ودمرت أبنية ، وأصابت كنيسة وطفلة صغيرة ، ونسفت أشجاراً ضخمة ، ونشرت الذعر بين الآمنين ؛ وكل هذا رمز صغير ضئيل لما سيكون لو أن الله كتب على الإنسان شقاءها فأصيبت بتفجير قبيلة أو قنابل من هذا النوع الشيطاني الفظيع ، أو لو أن البشرية جن جنونها فاندفعت إلى بلوى الحروب النووية وما أشبهها أوفاقها ، فيؤمئذ لن يبقى الدمار أو الخراب على شيء
سيأخذ في طريقه الفقراء الوادعين ، والأطفال الناشئين ، والشيوخ العاجزين ، وسيكتسح المنازل والمعابد ، وسيأتى على الأخضر واليابس ، وسيهون ذلك دليلاً رهيباً على أن مدينة الحديد والنار ، وحضارة الذئب والكلاب ، وقوة الذين يغترون بالحياة ولا يعترفون بالله ، لا بقاء لها ولا غناء فيها ، وأن من طغى وبغى دارت عليه الدوائر ، « يا أيها الناس ، إنما بغىكم على أنفسكم » ، ولن تتخلف سنة العزيز الحكيم « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

ومن عجب أيها الناس أن هؤلاء الطغاة البغاة الذين يعملون لإيقاد حريق عالمي عام يعصف بالحياة والأحياء إذا تحدثوا عن الإسلام قالوا إنه دين حرب وإكراه ، وإن حروبه فيها عدوان وطمغيان ، مع أن القرآن الكريم يحسد

بجال النضال بحدود الدفاع وحفظ الحياة فيقول : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . ويقول : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . . . وهؤلاء الطغاة اليوم حينما يحاربون ينشرون نيران الحرب ويبشون لهيها في الميادين وغير الميادين . وبين المقاتلين وغير المقاتلين ، والقرآن يحدثنا بأن الله لا يريد إشعال نيران الحروب بين الناس « والله يدعو إلى دار السلام » كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » . ويقول النبي « لا يعذب بالنار إلا رب النار » ، بل حدثنا الرسول أن نبياً من الأنبياء قرصته نملة فأمر بإحراق بيت النمل ، فلامه الله على ذلك قائلاً : « أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح » ؟ ! . فكيف بالذين يحرقون مدنناً بأكملها وشعوباً بأسرها ؟ .

ولقد نهى الإسلام في الحرب عن قتل النساء والصبيان والشيوخ والعجزة والمكفوفين ومن لا يشارك في المعركة ، فأين هذا الهدى الإلهي الكريم من حروب اليوم ؟ . . . إن حروب المدنية المعاصرة لا تنصب بلاياها ونيرانها إلا فوق الضعفاء والمساكين الذين لا يشتركون في الحروب ولا يريدونها ، ولقد صار ضحايا الحروب من الآمنين والوادعين غير المحاربين أضعاف أضعاف القتلى من الجنود المحاربين ، فأين إذن رعاية حقوق الضعفاء وصيانة حياة الذين لا ذنب لهم في العدوان ولا جريرة ، مع أن الرسول يقول : « الضعيف أمير الركب » ويقول : « إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » ، ولكننا صرنا في عالم يتحكم بشرعة الأسماك في البحر ، فالكبير منها يبتلع الصغير بلا حساب ولا ارعواء .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

في معمران الحياة الصاخبة اللاعبة التي تشغلنا بطعامها ووقودها . وسلاحها
وعتادها ، وماديتها وأرضيتها وشهواتها وملذاتها ، يجب علينا أن نرفع وجوهنا
إلى السماء بين الحين والحين ، لتتذكر أنه يوجد فوق الجبابرة جبار ، وأنه
يعلو على الطواغيت قهار ، وأن لحظة من لحظات الغضب الإلهي كافية للقلب
الأوضاع وخسف البقاع ، فلنعرف أمام هذا العلي الكبير أقدار نفوسنا ،
ولنتطلب رضاه ورحمته ، ولنتذكر أنه أقوى الأقوياء وولي الأولياء ، واتقوا
الله الذي أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولي
هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

(م ٢٨ — خطب ج ١)

تجارة باسم الدين

الحمد لله عز وجل ، يؤيد الحق وجماعته ، ويخذل الباطل وشيعته ، « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » أشهد ألا إله إلا الله ، يحكم بالعدل ويقضى بالحق : « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله القائل « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

في شهر رمضان : شهر القرآن والإيمان ، شهر المراقبة والمحاسبة شهر إحياء الضمير والخشية من الله العلي الكبير ، في هذا الشهر الجليل يأبى الشيطان اللئيم الزنيم إلا أن يدفع ببعض أتباعه إلى الخيانة والاحتيال ، والكذب والافتراء ، فيعمد هذا البعض إلى الاتصال تليفونياً بمن يتوسم فيهم الرغبة في عمل الخير ، وينتحل اسم من يتحدث إليكم الآن ، ويطلب منهم إعانات أو تبرعات لحمعية خيرية يربطها باسم الإسلام ، وقد أشرت إلى ذلك البهتان الأثيم من قبل ، ولكنني بالأمس - والأمس فقط - سمعت من السيد نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف أن هذا الاحتيال قد جنني على صهره أيضاً ، وعلى الرغم من إشارة الصحف إلى هذا الإجرام فإن الموضوع يستحق أن نعود إليه من زاوية موضوعية عامة بما لعله يكون عبرة وعظة وتذكرة لقوم يعقلون ، فإن هناك أناساً من هذا الطراز في جمعيات شبه

(١) أقيمت في ١٦ من رمضان سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٧ من يناير

صورية يزعمون أنهم يقيمون مآذب لمئات من الفقراء والمساكين ، ولو تبينا الحقيقة لما وجدنا من هذه المئات إلا عشر ما قالوا ، ولقد يزعمون أنهم ينفقون الكثير من المال على هذه المآذب ، والحقيقة أن أغلب هذا المزعم — أو المعلوم — قد وصل بطونهم وبتون أهلهم فلاًها صاباً وعلقماً ، أو وصل جيوبهم فنفضها سحتاً وحراماً ، ومثل هذا يقال فيما يفترون ويزعمونه من أنهم كسوا مئات من العراة ، أو ما أشبه ذلك من أعمال متخيلة أو صوروا فيها الحبة قبة ، والتمال جمالا ، والرمال جبالا ، وهم بهذا يعيدون سيرة « ناظر الوقف » الذي كان يتفنن في مخادعه المحاسين والمراقبين والمراجعين ، لكي يواصل « الخطف واللهف والسف » ، ويتلعب ما يتلعب من أموال الوقف فيما يسميه « الشيء » ولزوم الشيء و« الشيء لزوم الشيء » : « إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

وهؤلاء الأفاقون يخادعون الناس في مجال هو أحق المجالات بالنتزه عن الاقتراء ، وهو مجال عمل الخير وتقديم الإحسان ، وبذلك يحملون الخيرين على أن يكرهوا الخير ، والمحسنين على أن يكرهوا الإحسان ، والمستعدين للمعاونة على أن يكرهوا المعاونة ، وهؤلاء الأفاكون يسيئون إلى أنفسهم بما يتلعب من سحت ، وهم يسيئون إلى هؤلاء الخيرين بتكريبهم في عمل الخير إلى الفقراء أنفسهم ، لأنهم يجمعون باسمهم مالا ينال الفقراء ، ويحسب أهل البر والخير أن هؤلاء الفقراء قد وصلهم المال ، والواقع أن المحترفين للاحتيال باسم الدين ، والاتجار باسم الإحسان ، هم الذين زادوا سحتنا على سحتهم ، وجرماً على جرمهم ، والله من ورأهم محيط ، وكأنهم لم يعلدوا أن هذا العمل ينطوى على عدة كبائر . فهو أولاً كذب ، والسيدة عائشة تقول : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب » . ويقول سيد الخلق محمد : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق ،

وأنت له به كاذب » ويقول : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من
تتم ما جاء به » .

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جباناً ؟ .
قال : نعم . قيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ . قال : نعم . قيل له : أيكون
المؤمن كذاباً ؟ . قال : لا . وهو ثانياً غش ، وإمام الأنبياء يقول : « من
غش أمي فليس مني » وفي رواية : « من غشنا فليس منا » . وهو ثالثاً عمل
من أعمال المنافقين المخادعين ، فسيد المرسلين يقول : « آية المنافق ثلاث :
إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان » ، وهو رابعاً
إضرار بالمؤمنين يستدعى اللعنة من رب العالمين لأن نبي الرحمة يقول :
« ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به » .

إن الدولة قد بذلت ما بذلت من جهود ، ووضعت ما وضعت من
حدود وقيود ، لضبط أعمال التبرع والإحسان ، حتى تقطع الطريق على
المحتالين والأفاكين ، ولكن أتباع الشيطان لهم حيل تذهل الإنسان ، ومهما
كانت صرامة القوانين دون ضمائر جية وقلوب مؤمنة ، فلن يزول
الإجرام والاحتيال في هذا المجال ؛ وليس من المستطاع أن يكون هناك
شرطي أو رقيب بجانب كل أئيم يتعخفي أو يتستر أو يتفنن في وسائل البلوغ
إلى مآربه الخسيسة في ميدان الاحتيال والافتراء ولهذا يلزم كل عاقل أن
يكون في هذا المقام واعياً بصيراً ، فيحذر ويحتاط ، ويبحث ويتبين : حتى
لا يقع فريسة هينة لأمثال هؤلاء ، وليس المهم هو أن يحسن الإنسان كيفما
اتفق ، ولكن الأهم من ذلك هو أن يضع الإنسان إحسانه المادى حيث يجب
أن يوضع ، وأن يحرص هذا في الإحسان على أن يحقق الثمرة المرجوة منه ،
وليتبرع القادر بما استطاع ، ولكن يجب عليه أن يعرف أين يتبرع ، ولين
يتبرع ، وكيف يتبرع ، وأمامه مجالات البر المأمونة واسعة ، بعد أن يدرس

وينخر ويأمن بجانب الاحتيال والإضلال ، فهناك جيرانه ، وهو أعلم بهم ، وأبصر بأحوالهم وأخبارهم ، وهناك أقاربه ، وفيهم محتاجون ، والأقربون أولى بالمعروف ، وهناك بعد هذا جهات بر واضحة محددة المعالم ، على الإنسان أن يعرفها ويدرسها ويضمن إليها ، ويطلع على جهودها ، حتى يكون واثقاً من أن المال الذي تطوع به قد وضع حيث ينبغي له أن يوضع ، وصلوات الله وسلامه على رسوله الذي قال : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » .

ومما ينبغي لنا أن نتذكره ولا ننساه أن هناك أفراداً وجماعات ينسبون أنفسهم إلى الدين ، ويزعمون أنهم يخدمونه أو يضحون من أجله ، وهم في الواقع يتخذون من هذا الانتساب وسيلة للتجارة أو حيلة للاستغلال ، ومن هؤلاء من إذا سعيت إليهم لتعلمهم الدين حاولوا أن يعلموك قلة الدين ، ومن هؤلاء من يتظاهر في توقع وتبجح بغير ما يطول عليه صدره وقلبه ، وبمثل هؤلاء طال بلاء الإسلام وشقاء المسلمين ، وهؤلاء الآثمون قد جنوا أكبر الجنایات على المؤمنين المخلصين الذين يريدون أن يخدموا في مجال الإصلاح الديني بنزاهة وإخلاص ، وبذلك طغى ظلام المستغلين على ضوء المخلصين ، وشتان ما بين الفريقين : « قل لا يستوى الخبيث والطيب . ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

اذكروا أن رائدكم الأعظم محمداً صلى الله عليه وسلم قد قال : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الخوض في الباطل

الحمد لله عز وجل ، هو الحق ، وله دعوة الحق ، وهو الذى يحق الحق بكلماته وآياته ، ويقطع دبر المجرمين ، أحمدته سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى كان شعاره « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » فصولات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

من عيوبنا الواضحة الفاضحة كثرة الخوض في الباطل دون حياء أو أرعواء ، والخوض فيه معنى الخلط والجهل والتحمم في الغمرات والمزلات والخوض في الكلام هو الحديث على غير هدى وبلا ضابط من حق أو صدق فهذا شخص يتناول على الأعراض والظعن في الحرمات ، كأنه كلب يلعق كل إناء . وهذا ثان يمزح فيسرف في المزاح السفهية الوقح الذى يتناول عورات الناس . وينجح كرامات الآباء والأمهات ، وهذا ثالث يفترى على غيره وينسب إليه من الأباطيل والترهات ما الله به عليم ، وهذا رابع يزعم لنفسه العلم ببواطن الأمور وحقائق الأشياء . فهو يتحدثك عن الماضى كأنه مطلع على كل الخبايا ، ويحدثك عن المستقبل . كأنه حديث من رأى ومن سمع ، وهذا خامس يتهمج - وهو أى جاهل أو عتل غافل - على أدق المسائل الدينية أو الشؤون العلمية . فيهرق فيها بما لا يعرف ، ويتظاهر بأنه بكل شيء عليم ، وهكذا . . .

(١) القيت في ٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٤ هـ الموافق ٢٤ من

مايو سنة ١٩٧٤ م

ولعل أشد المعاول هدماً وحطماً للأفراد والجماعات والمجتمعات هو الخوض في الباطل حيث لا تبقى كرامة للعرض ، والالتزام بالغرض ، ولا حرمة للعلم ، ولا صيانة للوقت ، ويصير لسان الخائض كالمقراض ، يقطع هنا ، ويجرح هناك . ويشوه هنالك ، وقد يكون أشد الناس احتياطاً إلى التأديب والتهديب ، والقائل الحكيم يردد قوله : « رَبِّ قَارِضٍ لِلْأَعْرَاضِ ، وَعَرَضُهُ بَيْنَ شَتَى الْمَقْرَاضِ » وليته تذكر قول رسول الله عليه الصلاة والسلام « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » وقوله : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يرى بها بأساً ، فيهوى بها في جهنم سبعين خريفاً » .

ولقد تحدث القرآن المجيد عن هذه الآفة الوبيبة ، وأشعرنا أنها كالوباء المنتشر بين سفلة الناس في مختلف العصور ، وأن مآلها الخسران والوبال ، فقال : « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فاستمتعوا بخلائقهم فاستمتعتم بخلائقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلائقهم ، وحضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون » . ولقد يعتذر هؤلاء المجرمون بأنهم في خوضهم الباطل وحديثهم الأثيم ، لا يريدون الجلد وإنما هم يهزلون ويلعبون : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » . وقد روى في التفسير أن هذه الآية نزلت في غزوة تبوك حيث قال بعض المنافقين المجرمين عن النبي صلوات الله وسلامه عليه : أظن هذا أنه يفتح قصور الروم وحصونها ، هيئات هيئات ، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال : على هؤلاء الثغر ، فقال لهم : قلتم كذا وكذا . فحلفوا كاذبين وقالوا بخادعين : ما كنا إلا نخوض ونلعب . فجاءهم التفريع والتبكيك الوجيع : قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ .

وهذا هو القرآن ينقل إلينا حديث المجرمين من أصحاب النار ، واعترفهم باستحقاقهم عذاب الجحيم ، فإذا هم يقررون أن من أسباب ذلك الخوض في الباطل وعدم الإيمان بالبعث : « وكنا نخوض مع الخائفين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين » ، ولذلك حذر الله جل جلاله عباده المؤمنين أن يسلكوا مسالك هؤلاء أو يختلطوا بهم ، أو يرضوا عنهم ، فقال : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » أى أتركهم يخوضوا في باطلهم ، ويلعبوا في دنياهم ، واشتغل أنت بما أمرت به من عبادة وطاعة وعمل صالح مثمر . فإن لهم يوماً عصيباً يلقونه ويصيبهم فيه العقاب والعقاب ، وعاد القرآن إلى حث المؤمن على ترك هؤلاء مع الإقبال على الله سبحانه ، فإنه ولي الهداية والتوفيق ، فقال القرآن الكريم « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » أى دعهم في ضلالهم وباطلهم فهم يخوضون ويلعبون ، حتى يأتيهم اليقين من الله جل جلاله وسوف يعلمون أنهم العاقبة أم لعباد الله المتقين .

ويأمر القرآن عباد الله المؤمنين بأن يتجنبوا هؤلاء الخائضين في الباطل ، فلا يصادقوهم ولا يشاركوهم في باطلهم ، ولا يجلسوا في مجالسهم ، حتى لا يكونوا مثلهم ، وحتى لا يصيبهم من العذاب ما يصيبهم ، فيقول : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بهم ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » . وهذا يدل على أن الإنسان إذا حضر مجلس الباطل وسمع الإثم من القول ، وبقى مع أهله . كان شريكاً لهم بدليل قوله تعالى : « إنكم إذن مثلهم . ولو فرضنا ونسى الإنسان وجلس مجلساً هؤلاء ، وبدأ لغوهم وباطلهم فعليه أن يترك هذا المجلس ، حتى لا يتحمل تبعية ، أو يشارك أهله في الإثم : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا

فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » .

الخوض في الباطل ، التطاول على الحرمات ، الجرأة في الافتراء والادعاء المزاج المؤدى إلى الإثارة والإنداء ، التهجم على القول بلا علم أو فهم ، إضاعة الأوقات فيما لا ينفع ولا يفيد ، إطلاق اللسان في القول بسفه وحماسة . . . هذه هي المعاول التي تهدم الأفراد والجماعات والمجتمعات ، فليت كل إنسان منا يراجع نفسه ، ويحاسب ذاته ، ويذكر قول ربه عن عبادة الأخيار : « وهادوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » وقول رسوله الكريم : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إذا كان الساكت عن النطق بكلمة الحق شيطاناً أخرس ، كما روت السنة المطهرة ، فإن الخائض في الباطل شيطان ناطق ، ولعنة الله على كل الشياطين ، أينما كانوا وحينما حلوا ، بلا استثناء . وإذا تقاصر الإنسان عن الجهر فلا أقل من الاجتناب لكلمة الباطل ، وإذا لم يستطع الإنسان أن يكون مصلحاً فلا أقل من أن يصون نفسه عن أن يكون مفسداً هداماً . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين .

بين العقيدة والهوى

الحمد لله عز وجل ، هو خير الشاكرين ، وأفضل الزاجرين ، يهذب قبل أن يؤدب ، ويحذر قبل أن يعذب « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، سعد من اعترى بك وانتصر لك ، وخسر من انقطع منك أو ابتعد عنك : « فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين . . . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، ما غضب إلا من أجلك ، ولا تعلق إلا بجاهك ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله . وحزبه ورجاله الذين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الحياة عقيدة وجهاد ؛ يتبصر المرء ما حوله ، فيدرك لنفسه كياناً ، ولوجوده غاية ، ولحياته رسالة ، فيؤمن بها ، ويتعرف إلى دقائقها ، ويتلمس أسباب الكفاح من أجلها ، ومنافذ الوصول إلى تحقيقها ؛ ولا يفلح مسعاه ولا ينجح في مبتغاه ، إلا إذا أقبل على دعوته ، يخدمها ويؤيدها ، واتجه لعقيدته يعتز بها ويمجدها ، مستهيناً في سبيل ذلك بالمال يأتي ويزول ، وبالجاه يقبل ثم يحول ، وبالهوى يوسوس للنفس ليصرفها عن طهرها واستقامتها . . .
والداء الويل في ميادين الدعوات والمبادئ أن كثيراً من الناس يخلطون بين الفكرة والأشخاص ، وبين العقائد والأهواء ، فيجاهدون لنواتهم وهم يتظاهرون بأنهم يحترقون في سبيل فكرتهم ، ويغضبون لحقوقهم أضعاف

ما يغضبون لحقوق ربهم ودعوتهم ؛ وقد يرى الواحد منهم الحرمات تنتهك ،
والواجبات تضيع ، والمقدسات تهان ، فلا تثور ثائرتة ، ولا تشتعل حميته ،
وربما تجاهل أو داور أو تصنع مسaire الظروف أو تأول في الملاينة ،
ولو وقع بعض هذا الاعتداء على شخصه ، أو على حقه الذاتي لثار وقاتل
واستأتم ، وظهر منه القوى والقدر ؛ وقاتل الله حب الذات ، كم سخر
الملايين من الرجال ومن الأموال لخدمة الحسين من المطالب والذئء من
المآرب : « لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبراً » .

والإسلام المجيد الخالد يعلم أتباعه أن يطثوا شهوات أنفسهم بخطوات
الإقبال على ربهم ، واستحضار جلاله في كل أمر ، والخوف من حسابه في
كل موقف ، حتى يفوزوا برحمته ورضوانه « ذلك لمن خاف مقامى وخاف
وعيد » ، « إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قظريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم
ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » .

وهذا رسول البشرية وسيد الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه ،
ما رأيناه يوماً يسعى لغاية في نفسه ، أو يغضب مرة لشخصه ، بل همه أولاً
وأخيراً دعوته ، يبشر بها ، ويتناسى كل تعب في سبيلها ؛ ولقد وصل
الكفار إليه مثلاً في غزوة أحد ، وقذفوه بالحجارة ، حتى وقع على جانبه ،
وكسرت رباعيته ، وجرحت شفته ، وشج وجهه ، ودخلت حلقتان من
المغفر في وجنته ، وجعل الدم يسيل من جسمه ، فعجب من ذلك ، وغلبته
نزعة التقرير لحقيقة مؤلمة فقال : « كيف يفلح قوم خضوا وجه نبيهم وهو
يدعوهم إلى ربهم » ؟ . . . وكأنما استدرك فعاد يمسح الدم عن وجهه ويقول :
اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . . . ونزل القرآن الكريم مذكياً لاستدراكه
فقال : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

وحينا يشتد إنداء قومه له ، أو إعراضهم عنه ، أو تهكهم عليه ، وهو يدعوهم إلى طريق الهدى والرشاد ، كان يحزن على ضلالهم ، ويتمنى بأى ثمن اهتداءهم ، حتى ليصوّر القرآن المجيد ذلك بقوله : « فلعلك باخع نفسك على آثارك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقوله : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . ويحاول بعض صحابته أن يغيره بلغتهم أو سبهم جزاء تطاولهم على شخصه ، فيأبى ويقول : أنا رحمة مهداة » أو يقول : « إني لم أبعث لعناً ، ولكنني بعثت داعياً ورحمة » . ولما تكرر تكذيب المشركين له ، وكان هذا إهانة لشخصه ، جاءه جبريل يخبره بأنه يستطيع أن يطبق عليهم جبال مكة إنصافاً للرسول منهم ، فلم يستجب الرسول لذلك ، بل قال : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » . . . وهكذا يظل صاحب الدعوة فانياً في دعوته ، لا يرى لنفسه وجوداً إلا بها ، ولا لشخصه كياناً إلا فيها ؛ أما أهواء البشر وشهوات التراب فهي هناك بعيدة في غور سحيق . . .

على أن هذا اللين الرحيم ينقلب في صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام إعصاراً عاصفاً إذا مست الدعوة بسوء ، فهو يصادق بها ويعادى بها ، ولا يقيم بجوارها اعتباراً لصلة النسب أو المودة أو المنفعة وإذا كان لم يغضب لشخصه المهان أو حقه المضيع فهو يغضب لأقل تضييع لجانب من جوانب شريعته ؛ لقد ظل الكفار يحاربون محمداً الرحيم الوديع في غزوة الخندق حتى شغلوه عن صلاة العصر ، فغضب الرسول للفريضة الضائعة والشعيرة المعطلة ، وقال عنهم : « شغلونا عن صلاة العصر ، ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً » وسارع فأمر بلالا فأذن وأقام وقضيت الصلاة الفائتة . . . وحينا جاءه حبيبه وصفيه أسامة بن زيد يشغع في الخزومية ، نسي المصطفى الأمين صاحب الدعوة حب أسامة ومنزلته الشخصية عنده ، ولم يتمثل إلا حق ربه

ودينه ، فثار في وجه أسامة قائلاً : « أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ! ! . .

ومن هنا قالت عائشة : ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه وقالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل » . ومن هنا قال فيه القرآن المجيد : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا ربكم قبل أن تذكروا مآربكم ، وانصروا عقيدتكم قبل أن تنصروا شهواتكم ، فما من دعوة تقوم إلا برجال يخلصون لها ، ويضحون في سبيلها بالرغبات والأهواء « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

أين نحن من العظة

لله الحمد ، يحق الحق بكلماته ، ويمحق الباطل بآياته ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، قولك الفصل وحكمك العدل ، وإليك تصير الأمور ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبداً ورسولك ، لم يخش فيك لومة لائم ، ولم يرهب في سبيل الدعوة إليك طغيان غاشم ، وكيف وأنت القائل له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وأجناده ، والناهلين من رحيق أمداده ، أولئك لهم عند ربهم ما تشتهى أنفسهم وما يدعون ، نزلاً من غفور رحيم .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

كانت عظة الواعظ - يوم ساد الإسلام وصح المسلمون - تطهيراً للنفوس وتعميراً للصدور ، وكانت صرخة مجلجلة مزلزلة تصادف الآذان المفتوحة والقلوب المشروحة ؛ وكان المسلم يأتي المسجد مثلاً ليسمع العظة وقد أعد نفسه لحساب عسير عما سلف منه ، ولتلقى أوامر دينية جديدة تلتق إليه ، فهو يسمع إذ يسمع بجسد راجف وفؤاد واجف خشية العقاب أو العتاب ، ويعزم جديد وحزم جليل رغبة في مواصلة الاستجابة والتنفيذ ، ومن هنا كان قليل الكلام يجدى . ويسير العظة يفيد ، فكثرت الأعمال يومئذ وقلت الأقوال . . .

أما اليوم فقد صارت العظمت لونا من التسلية ونوعاً من قطع الفراغ ، يتباهى بها الناطق ويتنادر السامع ، فيعجب بفصاحة هذا وينقد أسلوب ذلك ، ويرضى عن تلك العظة لأنها وافقت هواه ، ويفضبه من تلك لأنها خالفت مشتهاه ، وهكذا بعد عن الجادة القائل والسامع ، إلا قليلا من رحم الله ؛ وما أشبه الأمر هنا بما صارت إليه تلاوة القرآن في مجالسنا ومحافلنا من ضلال وانحراف ، فلقد كان القرآن يتلى على أهليه بالأمس فكأنما على رؤوسهم الطير من الهيبة والإجلال ، والاستعراض في التدبر والتفكير ، تراهم وقد خشعت قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ؛ ولذلك أثمر فيهم القرآن المحيّد ثمرة ، وطبقوا فيما بينهم رسالته ؛ أما اليوم فانظروا كيف يتلى القرآن ، وكيف يسمع ، إنه يتلى بمط وتطريب ، وتلحين وترجيح ، وغناء كغناء الرهبان أو النائمات ، وخلط منكر بين القراءات واللهجات ، وتقطيع لحروف الكلمات حتى تخفى معاني الآيات ويزول جلال الكلمات ؛ وإنه يسمع لا بخشوع ووقار ليزداد السامع إيمانا ، بل بصراخ كصراخ السكارى ، وصيحات استحسان لاتغنى واستعادة لغمة التلاوة كصيحات المشعوذين أو الخبولين ، وضجيج بالثناء على القارىء لا على ما يقرأ ، وبتفضيله على سواه ، كضجيج السامر يلهو فيه اللاهى أو تعزف المعازف ؛ وليت هذا كله يصحبه اتعاض أو إدراك للمعنى أو استشعار لجلال المقام ، إذن لخف المصاب ؛ ولكن الجهل بالمتلو سائد الإعجاب بصوت القارىء زائد ، والقارىء أشبه بالتاجر ، يحاول بما خفى أو بدا من الوسائل أن يزداد من حوله الأنصار والمعجبون ؛ حتى إنك لتفتح المذياع حين إحدى الحفلات التى يتلى فيها القرآن فيخيل إليك من التغنى والتصايح والسخف فى التعليق على طريقة القارىء وفتنة صوته

ما يشعرك بأنك تستمع إلى ضجة سوق لا إلى كلام الله رب العالمين يتلى في مسجد ؛ ومن هنا يذاع القرآن في الصباح وفي المساء ، وتنقله جميع المحطات حتى ما كان منها مسيحياً أو يهودياً ، ويتبارى في تلاوته عشرات المتجرين بإذاعته ، ثم لا تجد قلباً يخشع ، أو نفساً تخضع ، أو استجابة لهدى القرآن تكون ، وبكيف يستقيم الظل والعود أعوج أيها الناس ؟ ! . .

وكذلك جنت غفلتنا وإعراضنا عن ربنا وديننا على صلاة الجمعة وخطبتها ، فصارت كحفلة أسبوعية تقليدية ، يحضرها البعض بحسب العادة ، والبعض لحب الاستطلاع والمقارنة بين الخطباء ، والحكم لأحدهم بالسبق على الآخر ، والبعض للتجسس أو التلصص أو تسقط الزلات أو عد الهفوات ، أو غير ذلك من خسيس النوايا وتوافه الأغراض التي لا تليق بصالحى الرجال ، فأين ما كان للجمعة في تاريخ الإسلام من عظمة وجلال ؟ أين ما كانت تعود به على المسلمين من نقد العيوب وتطهير القلوب ومحو الذنوب والاستعداد للغيوب ، وتأليف الأرواح بعد تدانى الأشباح ، وتجديد العزائم والتواصي بالمكارم ، وأين ما كان في الخطب من صيحات حق وكلمات صدق ودعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ؟ وأين الذين كانوا يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ لكأنهم والله قد رحلوا إلى غير مأب .

والعجيب الغريب المبكى في أمر أكثر الناس اليوم أنهم لا يعجبهم العجب ولا يرضون عن الواعظ مهما بذل وأخلص . . . وتراهم يسلقونه على الدوام بألسنة حداد ؛ وقد يلقونه مرثين أو مخادعين بكلمات المديح والإطراء ، فإذا انصرفوا عنه أو انصرف عنهم صرف الشيطان ألسنتهم القنطرة إلى الفحش والافتراء . . . إن غضب الواعظ للحرمان المهتوكة والحقوق المضیعة قالوا : متطرف لا يحسن التصرف ، وهو يستحق العقاب والجزاء ، فإن لان في النصيحة ورق في القول وتلطف في إرشاد الآئمين قالوا : جبان به هوان

يخاف أهل البطش والسلطان . . . وإن دعاهم الواعظ أن يأخذوا نصيبهم من الحياة ويتمتعوا بطبيعتها ، ولا يحرموا أنفسهم من مناعها ما دامت لم تحرم قالوا : متساهل يريد أن يصرف الناس عن العبادة . فإن لامهم على استهتارهم وتبرج نسأهم وفسق شبانهم قالوا : متأخر جامد لا يجارى ركب الحياة العجلان ! . .

فإذا تريدون من الواعظ إذن يا هؤلاء ؟ . . تريدون أن يكون عصا في أيديكم تلعبون بها كما تشاءون ، فإن نفرت منكم أو تمردت عليكم كسرتموها وحطمتموها . . تريدون أن يكون مغنياً يمشى حسب هواكم ، فيغنى لكم ما تشاؤون من الألحان ، فإن أعجبكم طربتم واستزدتموه ، وإن لم يعجبكم قلم له : إيت بلحن غير هذا أو بدله ! . . تريدونه بوقاً يردد لكم كل أسبوع ما عرفنا وعرفتم من نصوص دينية أصبحت من طول تكرارها مع قطعها عن الحياة كأنها آثار ! . . وكيف يؤدي الواعظ إذن واجبه وأنتم تريدون أن تخضعوه لهواكم ورغباتكم ، مع أن الواجب يقضى بأن تخضعوا أنتم لصوته الصريح الذى لا يهاب ، لأنه لا يأتي بكلامه من بيته ولا من بيت أبيه ، ولكنهم يذكركم بكلمة السماء ، وهو يردد : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » . . وما الواعظ إلا رجل يريد أن يطبق شرعة الله على الحياة فيجب أن تكونوا معه ، لا أن تكونوا عليه ؛ وما هو إلا كالطبيب قد يعطيك الدواء وهو مر ، وقد يجرى لك « العملية » وفيها تشريح وتقطيع ، وقد يمنعك مما تحب من مطعوم أو مأكول ، فإن أبيت نصيحتته وطاعته خسرت ، وإن عاوتته وسرت معه كان الفوز للجميع .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ألا إن قليل الكلام يغنى عن كثيره ، والحلال بين والحرام بين ،
وما كثر كلام أمة وقل عملها إلا ذلت وضاعت ، وقد نخلت فينا المثالات
والمآسى لطول ما عرقنا في اللذة والكسل والنفاق ، ولم يبق إلا أن نجرب
دواء السماء من جديد ، لا على سبيل اللهو والتسلية بل على سبيل الجهد والعزم
والإخلاص ، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين .

فماذا يصنع الواعظ

لك الحمد يا من جل ثناؤك ، وتباركت أسماؤك ، وتضاعفت آلاؤك ، أنت أعلم بمن ضل عن سبيلك ، وأنت أعلم بالمهتدين ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، جعلت العزة في طاعتك ، وقرنت الذلة بمعصيتك « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، سيد الناطقين بكلمة الحق ، وإمام الصاعدين بقوله الصدق ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى الصفوة المختارة من آله وأحبابه ، والخلص الأكرمين من جنده وأصحابه . « الذين آمنوا ولم يلبسوا لإيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ذلت والله أمة تكفني من حياتها ، بأن تعيش على تاريخها وذكرياتها ، فما كان التاريخ يوماً من الأيام إلا محرضاً على حسن الاقتداء ، وشعاعاً يدعو إلى الاهتداء ، وإن نفس المسلم لتتقطع وتتوزع ، حين يقارن بين الغابر والحاضر ، فيرى الفرق واسعاً والبون شائعاً ، ويدرك أن أمر الأمة كان بالأمس جميعاً منيعاً ، فصار اليوم شتيتاً ذليلاً ، بسبب الجهل الطافح والهوى الجامح ، والجدل العقيم والتوكل الذميمة ، وإذا أراد الله بقوم نكالا ووبالا ، لفت أبصارهم عن التطبيق والعمل ، وشغل أفكارهم بالشقاق والجدل ! . .

هذه عظة المسجد يوم الجمعة مثلا ، كانت عند السلف — كما أرادها الإسلام على الدوام — تذكيرا للنفوس الغافلة ، وتطهيراً للقلوب المريضة ،

(١) في ٢٩ من ذى الحجة سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ٢١ من أكتوبر

وتعميراً للصلور الخاوية ، وقطعة من صميم الواقع وحاضر الحوادث ؛ وكانت خطبة الجمعة عند السلف صرخة مدوية تتجدد كل أسبوع ، فتصادف الآذان المفتوحة والصدور المشروحة ؛ وكان المسلم يسعى إلى المسجد يوم الجمعة خائفاً يترقب ، وفؤاده يرجف قلقاً وتطلعاً إلى ما سيقوله الواعظ فوق المنبر ، فإن بشر الخطيب بنحير فرح المسلم ، وتفتح عزمه لمضاعفة الجهود وتخطى الخلود ، وإن حذر من شر ، وندد بباطل ، راجع المسلم نفسه ، وأصلح عوجه ، وآثر فضيلة الرجوع إلى صراط الحق بعد الضلال . . .

أما اليوم — فوأسفاه — لقد صارت خطبة الجمعة عند الكثيرين — إلا من عصم الله — نوعاً من المتعة الفكرية والتسلية الأدبية ، يكتفى القوم بالتعليق عليها والتندد بها ، فيعجبون بفصاحة هذا الخطيب ، ويعيرون أسلوب تلك الخطبة ، ويسرون من إنجاز هذه ، ويفضون من إسهاب تلك ، ولا شيء وراء هذا من استجابة أو إنابة ، حتى لقد أصبحت صلاة الجمعة وخطبتها كلقاء أسبوعي تقليدي معتاد ، يحضره البعض بحسب العادة ، والبعض لحب الاستطلاع ، والبعض رغبة في تسقط الزلات واختلاق الهفوات ، والبعض للمقارنة بين الخطباء المختلفين ، والحكم لأحدهم بالسبق على الآخرين ؛ أو غير ذلك من توافه الأغراض التي لا تليق برجال يهتف بهم قرآنهم قائلًا : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . وقائلًا : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، وقائلًا : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

والأمر من ذلك والأدهى أن بين المسلمين اليوم طائفة كبيرة من الناس لا ندري كيف ينطبق عليها وصف الإسلام ، وهم أناس لا يرضون عن شيء

ثم لا يقومون بشيء ، قد طالت ألسنتهم ووقحت عبارتهم ، وكثرت طعناتهم في غيرهم ، ثم قصرت أيديهم وتبلدت عزائمهم ، وهؤلاء يريدون أن يتخذوا ممن يرشدهم ويعظهم عصا في أيديهم يلعبون بها كما يشاءون ، فإن نفرت أو تابت عليهم كسروها وحطموها ؛ أو كأنهم يريدون أن يكون الواعظ معهم مغنياً يمشى حسب هواهم وأمزجتهم ، فيغني لهم ما يشاءون من الأغاني ، فإن أعجبهم اللحن طربوا واستزادوا ، وإن لم يعجبهم قاطعوه وقالوا له : إيت بلحن غير هذا أو بدله . . . وما كان للواعظ أن يغير أو يبدل حسب الأمزجة والأهواء والرغبات ، وإلا خان الأمانة ونقض الميثاق ، وإنما هو رجل كتب الله له شرف التبليغ عنه ، وعن رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، فهو يصدع بما يلهمه الله إياه ، وما يلوح له من القرآن والسنة مناسباً للوقائع والأحداث ؛ دون اعتبار لرضا المخلوق أو غضبه ، فحسبه أن ينال رضا الخالق العظيم . وقد قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : من التمس رضا الناس بغضب الله وكله الله إلى الناس ، ومن التمس رضا الله بغضب الناس أغناه الله عن الناس ! . . ولكن هؤلاء قوم لا يفقهون ! . .

تراهم إن غضب الواعظ للحرمان المضيق والمنكرات الشائعة ، والكرامات المداسة والحريات المصادرة ، قالوا متطرف لا يحسن التصرف ، ومتجاريء يستحق أن يلقي الجزاء ! . . وإن لان الواعظ في القول ، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والتمس إلى أفئدة الأقوياء القادرين بابا يخاطبهم منه في رزانه ووقار ، قالوا : جبان ذو هوان يخاف أهل الجبروت والسلطان ! . . وإن دعاهم الواعظ إلى أن يأخذوا نصيبهم من الحياة ، ويتمتعوا بطبيعتها التي التي أحلها الله ، ولا يجرموا على أنفسهم شيئاً من مناعها ما لم يرد دليل على تحريمه قالوا : ياله من متساهل يريد أن يصرف الناس عن الزهد والعبادة ! . . فإن لامهم بعد ذلك على ترفهم الزائد وجشعهم المريع ، واستهتارهم بقواعد

الأخلاق والآداب ، وخروجهم المتبجح على كريم العادات والتقاليد ، قالوا :
يا له من متأخر جامد لا يساير ركب الحياة العجلان ، بل يريد أن يرجع بنا
المهقري إلى قرون الظلمات الأولى ! .. وهكذا ! ..

فإذا يفعل الواعظ مع هؤلاء ، صانكم الله جميعاً أن تكونوا من هؤلاء؟ !
وما الذى يستفيدة الإسلام أو المسلمون من أمثال أولئك المعوقين يكتفون
بالتقذ والتجريح ، وإبداء الرغبات والكيوف ، ثم تفرع أسماعهم العظاظ
القوية الجهييرة فلا تحرك فيهم ساكناً ، ولا تغير منهم خلقاً ، ولا تصلح
لهم حالا ، مع أن الواعظ فى وضعه الصحيح طيب بيده مشروط وآلات
جراحة وأدوات تضميد وزجاجات دواء ، وقد يعطيك الطيب الدواء
هو مر علقم ، ولكنه الجالب للعافية والشفاء ، وقد يجرى فى جسمك جراحة
فيها تشريح وتقطيع ، وما يريد بذلك الضر ، ولكنه يريد الإصلاح ، وقد
يمنعك مما تحب من مطعم أو مشروب ، فإن أبيت وأعرضت ، لأن ذلك
يخالف هواك ومشتهاك ومزاجك ، خسرت وندمت ، وإن جاهدت وغالبت
وأطعت ، نجحت وأفلحت ، وصدق رسول الإسلام عليه السلام حين قال :
حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ! ..

ليس الواعظ بوقاً يردد فى كل مناسبة ما عرفناه من نصوص وعظاظ ،
أصبحت من إبعادها عن شئون الحياة العامة والخاصة كقديم الآثار فى عيون
الأغرار ؛ وإنما هو رجل أهم عنصر فى وظيفته أن يعلو صوته بحكم الله فيما
جل وقل من أمور الفرد والجماعة ، ولا شك أن هذا الحكم سيكون مخالفاً
لهوى النفس ، لأنها أمارة بالسوء ، والله لا يأمر بالسوء أو الفحشاء ، فن
واجبكم إذن أن تخضعوا لهذا الحكم وتطيعوه ، لأنه ليس حكماً من قائله
بينكم ، ولكنه حكم من منزله على نبيكم صلوات الله عليه من فوق سبع

سموات ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ومن واجبكم أن تنسوا أهواءكم وشهوة
الجدال والاقتراح فيكم ، وتسارعوا إلى وضع أيديكم في أيدي الذين
يوجهونكم إلى ربكم ، ويريدون تحطيم الأغلال الضالة الباغية عنكم ، وحسب
الذين يذكرون بكلمة الله في الأرض ما لاقوا ويلاقون من محنة وابتلاء ؛
فلنستمع القوه ، ولننتبع أحسنه ، كما أمرنا الرحمن ، فكن من الفائزين ؛
واتقوا الله الذين أنتم مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال عليه الصلاة والسلام : لن يشيع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون
منتهاه الجنة .

وقال عليه الصلاة والسلام : الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو
أحق بها .

النسيان

الحمد لله عز وجل ، « يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، « لا يعرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان رحمة الله للعالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمقتدين بأعماله وأقواله : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

(في صلاة الجمعة الماضية نسيت آية في فاتحة الكتاب ، ولم أشعر بذلك إلا بعد الانتهاء من الصلاة بفترة ، نبهني إليه أحد الفضلاء ، ومع أن الصلاة لم تبطل لعدم التعمد من جهة ، وعدم الانتباه إلى ذلك في أثناء الصلاة من جهة ثانية ، فقد أخذت أفكر في النسيان كالطبيعة للانسان ، حتى قيل إن الإنسان لم يسم إنساناً إلا لأنه ينسى ، والنسيان هو ترك الإنسان ضبط ما أودع في ذاكرته ، إما لضعفها ، وإما لكثرة الشواغل ، وإما للغفلة ، وإما عن إهمال أو تقصير ، فإن كان النسيان عن قصد أو تعمد ، فذلك قريب من مواطن عفو الله ومغفرته ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . وقد علم الله تعالى أتباعه الأخيار - كما حدثنا القرآن الكريم - أن يسألوه الصفح والعفو عن النسيان والخطأ ، فقال على لسانهم : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا

(١) في ١٩ من شوال سنة ١٣٨٢ هـ الموافق ١٥ من مارس سنة ١٩٦٣ م

ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا وأغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .
وأما إذا كان النسيان عن قصد وتعمد وإهمال فإن الله تعالى يحاسب عبده عليه حتى لا يفرط أو يقصر ، وما ربك بظلام للعبيد .

ولو رجعنا إلى حديث القرآن الكريم عن النسيان لوجدنا فيه أكثر من عظة وعبرة ، فالنسيان كأنه حظ مقسوم للبشر ، لا يستعصى عليه كبير أو جليل ، فأدم أبو البشر وأول الأنبياء قد ناله نصيبه من النسيان على وجهه المعلوم ، فيقول القرآن : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » . وموسى عليه السلام مع فتاه قد نسيا الحوت في رحلتها المشهورة : « فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً »^(١) ، ويعود موسى عليه السلام إلى نسيان التزامه بالمعاهدة التي عقدها مع العبد الصالح « الخضر » ، حتى يقول له موسى : « لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً » . ورسولنا الأعظم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قد نسى ذات مرة كما تحدثنا سيرته ، والقرآن الكريم يخاطبه بما يشعر بأن النسيان جائز منه غير مستحيل في حقه ، فيقول : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشداً » .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينسى فيما يتعلق بالدين أو الدعوة أو الحق أو التنزيل ، ولذلك يقول القرآن الكريم مخاطباً الرسول العظيم : سنقرئك فلا تنسى « وإن كان الله تعالى قد أحسن الأدب لرسوله حتى في هذا المقام ، فقال عقب الآية السابقة « إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى » .

(١) أى مسلوكاً ومنفرداً .

فالرسول قد اختار له ربه شيئاً مما أوحى إليه ، ولكن الله تعالى مع هذا قادر على أن يجعله ينسى ، وإن كانت مشيئته لم تتعلق بنسيان شيء مما أوحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهناك نسيان يحاسب عليه صاحبه ويعاقب من أجله ، وهو نسيان الترك والإهمال والإعراض والتقصير ، فمن أهمل الواجب فكأنه أغفله ونسيه ومن قصر في الحقوق فكأنه ، صنيعها فصارت نسياً منسياً ، ولذلك يقول الله تعالى :

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » . أى تركت آياتي ، وأعرضت عن بيناتي ، ولم تؤمن بدعوتي ، فكذلك اليوم نهملك ونسائك ، فتركك معذباً في لب الجحيم . ومثل هذا النسيان اللئيم يؤدي بالإنسان إلى الخسار والبوار ، فإذا نسى المرء حقوق ربه وواجبات دينه أصبح كالحیوان الضال ، ورتعت نفسه في الموبقات والآثام ، فصارت ضائعة مضیعة ، ومن أجل ذلك يقول الله تعالى محذراً عباده : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » وما أقسى العقاب الذى توعد الله به الذين ينسون واجبه ويبنسون ربهم ، ويهملون حقوق الدين والعباد ، يقول رب العزة جل جلاله لأمثال هؤلاء : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » وهذا العقاب من الله للناسين قد يسميه القرآن الكريم نسياناً ، فكما أهمل العبد واجبه فإن الله تعالى يهمله ، وكما نسى العبد وظيفته ودعوته فإن الله ينساه فلا يذكره بخير ، يقول الله تعالى : « فاليوم نساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » .

ولكن النسيان بمعنى الغفلة عن الشيء لا يجوز أبداً في حق الله تعالى ، فإنه العليم بكل شيء ، والمحيط بكل أمر ، والمطلع على كل دقيق وجليل : « قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى ، فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » ، « وما كان ربك نسياً » .

ومما يتصل بموضوع النسيان أن الإمام الشافعى يشير إلى أن الاستقامة مع الطاعة مع التباعد عن الآثام هى الوسيلة للتذكر وعدم النسيان ، فيقول إلى نصيحة أستاذه وكيع بن الجراح له :

شكوت إلى وكيع سوء حظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأفهمنى بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصى

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إذا كانت هناك واجبات لا يجوز أن ننساها ، فهناك أمور من الخير أن ننساها ، فمن الخير أن ننسى الأحقاد والضغائن ، حتى نبيت بقلوب صافية ونفوس طاهرة لا يأكلها الحقد ولا يحرقها البغض ، ومن الخير أن ننسى هموم الحياة ما استطعنا ، لأن اختزان الهم واجتراره فى كل مناسبة يؤدى إلى ضعف الهمم وخور العزائم ، ومن واجبتنا أن ننسى وساوس الشيطان حتى لا تزيع بنا عن سواء السبيل ، أو تضلنا عن طريق الله الرحمن الرحيم ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

مع المرابطين على الحدود

الحمد لله عز وجل ، هو القوى الذى يجب الأقباء ، العزيز الذى بكرم الأجزاء : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ناصر المؤمنين ، وخاذل الكافرين : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام الصابرين وسيد المجاهدين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أعود إليكم بعد أن قضينا أكثر من أسبوع فى ندوات اجتماعية وقومية ودينية أقيمت فى غزة والعريش والإسماعيلية وفايد والقاهرة ، بدعوة من إدارة الشؤون العامة بالقوات المسلحة ، وقد نظمت الإدارة هذه الندوات بمناسبة ذكرى العدوان الثلاثى الغاشم ، ولتقوية الروح المعنوية فى صفوف الجنود المرابطين على الثغور والحدود والخطوات الأمامية ؛ بل ولعل أهم ما لاحظناه هو أن هؤلاء المرابطين من أبناء الأمة المؤمنة يتطلعون فى حرس وشوق إلى معرفة هدى وحكم الإسلام فى شئون الحياة الفردية والعامة وبخاصة ما يتعلق منها بالشئون الاقتصادية ، كالاشرافية وتحديد الملكية والتأميم وغيره وهذا يدلنا على أن النزعة الدينية ما زالت مستكنة فى صدور هؤلاء الجنود ، وأنها تؤثر أثرها وتؤتى ثمرها فى التفكير والتوجيه ، ومن الواجب أن يواصل

المختصون تقوية هذه النزعة وتجليتها وتوجيهها إلى ما ينفع الفرد والمجموع ، وما يحسن الربط بين واجب الله وواجب الحياة والجميع بين تبعات الإيمان وحقوق الأوطان ، والتنسيق بين مطالب الدنيا والآخرة ، اهتداء بقول الحق جل جلاله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

ولعل الجندي عند خطوط الدفاع وعلى ثغور المرابطة هو أشد الناس حاجة إلى تعمير الصدر بالإيمان وتحصين القلب باليقين ، وتثبيت النفس بالعقيدة التي تعلم صاحبها أن الله هو خير الناصرين ، وأنه يؤيد عباده الصالحين : « بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » ، « وإن جندنا لهم الغالبون » ، « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

ولقد سمعنا نشيد « الله أكبر » يتردد أكثر من مرة ، فتذكرنا أنه حينما أقبلت ساعة الهول ودقت طبول الخطر ، وتعرضت الأمة كلها للغزو الأثيم والعدوان الظلوم ، انطلقت صيحة الإيمان من فم أحد الشعراء ، فإذا القسدر الغلاب يدفعه إلى افتتاح نشيده بشعار الإسلام وهتاف الإيمان : « الله أكبر » فينطقه بقوله :

الله أكبر فوق كيد المعتدى والله للمظلوم خير مؤيد

أنا بالسلاح وباليقين سأفتدى بلدى ونور الحق يسطع فى يدي

وتذكرنا هذا النشيد الدينى الوطنى المدار قد انتشر وسار ، وتردد على اللهوات والألسنة فاشعر من يعرفون ومن لا يعرفون أن الإيمان بالله هو الملجأ والمعتصم . وهو شاطئ النجاة والأمان حينما تثور الأعاصير وتتمرد الرياح وتلتمظ الأخطار هنا وهناك ، وصدق القرآن الكريم : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » .

ومما لاحظناه أيضاً أن إخوتنا في قطاع غزة وأشقاءنا اللاجئيين الذين أخرجوا من ديارهم في فلسطين العربية بغير حق ، يحسون الآن بلاذع الألم وعميق الحزن لما حدث من انفصال بين مصر وسورية ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن الوحدة بين هذين الجزئين من أجزاء الوطن العربي الكبير بداية لامتداد « كماشة » عربية تدور وتلتف حول الجزء المقتصب من أرض العرب ، والمسمى زوراً وبهتاناً بإسرائيل ، وكانوا يرون أن يوم العودة إلى فلسطين قد أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ولكن الحركة الانفصالية في سورية جاءت فخيبت الآمال ، وأبعدت يوم الخلاص ، لأنها فصمت « الكماشة » العربية من وسطها ؛ وكنا نقول لهؤلاء الأشقاء : نحن معكم في أن حركة الانفصال قد خيبت الآمال ، وباعدت بيننا وبين يوم التحرير ، ولكننا مع هذا لا نياس ولا نقنط : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ، « ولا تياسوا من روح الله إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

والمسمى زوراً وبهتاناً بإسرائيل ، لتسترده هذه « الكماشة » من غاصبيه ، وتعيده إلى أهله ومستحقه ، عن طريق التطويق والهجوم لتحرير المغصوب واسترداد المنهوب ، وكانوا يريدون أن يوم العودة إلى فلسطين قد أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ولكن الحركة الانفصالية في سورية جاءت فخيبت الآمال ، وأبعدت يوم الخلاص ، لأنها فصمت « الكماشة » العربية من وسطها وكنا نقول لهؤلاء الأشقاء : نحن معكم في أن حركة الانفصال قد خيبت الآمال ، وباعدت بيننا وبين يوم التحرير ، ولكننا مع هذا لا نياس ولا نقنط « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » . « ولا تياسوا من روح الله إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ولاحظنا كذلك أن حالة الجنود قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس ، فبالأمس كانت الجنديّة أمراً بغيضاً مكروهاً عند العامة ، كان ، إذا طلب

واحد لأداء واجب الجندي هلع وفزع وودعه أهله بالصراخ والعيول ؛ وكان الجندي يعامل معاملة سيئة وقاسية ، فهو يسمع من الشتائم أقدرها ، ويجد من المعاملة أسوأها ، وكان يحس بأنه خادم لقائده يسخره في أهوائه وشهواته فقط ، وأما اليوم فقد صارت الجندي للجميع ، وصار بين الجنود مدرسون ومحامون ومهندسون وأطباء وطلاب جامعات ، وصار بينهم مثقفون وأدباء ، وصارت الجندي في نظرهم أمراً شريفاً يفخر به صاحبه ، حتى لقد قيل في إحدى الندوات هي « واجب ضريبة الدم » فاعترض أحد الجنود على هذا وعلق بقوله إن الجندي « حق المواطن » بمعنى أن الفرد يطالده بتمكنه منها ، لأنها حقه الذي يجب أن يناله ، فمن حق الإنسان أن يدافع عن نفسه ووطنه وأبيه وأمه وإخوته وأسرته ، فأعجبنا هذه الروح الدالة على الحماس والوعي « لقد كتب علينا الجهاد » وتغيرت معاملة القادة للجنود فصار هناك تفاهم وتراحم ، وطاعة من الصغير وعادلة من الكبير ، حتى تذكرنا قول الرسول : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ولم يرحم صغيرنا » .

ومررنا بالجنود وهم يرابطون داخل خنادقهم في الخطوط الأمامية والمواقع العسكرية ، ورأينا كيف يقف الجندي في الخندق بملابس الميدان ومدفعه بيده ، وبصره يحدق أمامه ، ويظل هكذا ثماني ساعات في اليوم ، ثم يخلفه في مكانه أحد زملائه ، فزكينا فيهم هذا الجهد ، ورددنا عليهم قول الحق تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وقول الرسول : « رباط يوم في سبيل الله أفضل من صيام شهر وقيامه » وقوله : « كل ميت يحتم على عمله إلا المربط فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة » وقوله أيضاً : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

ولعل الحديث الذى كان له وقع السحر فى آذان هؤلاء الجنود هو حديثنا
إليهم عن الشهادة فى سبيل الله والوطن ، أو صناعة الموت فى سبيل الحق
والواجب فقد تواترت أفئدتهم خماسة وشجاعة حينما تبينوا كيف كانت
صناعة الموت هذه عادة آبائهم وأجدادهم منذ القدم ، فمن آبائهم الشجاع
الذى قال :

بكرت تخوفى الختوف كأننى أصبحت عن غرض الختوف بمعزل..

ومن آبائهم من الذى قال يخاطب نفسه مثبتاً لها فى مواطن الهول :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى

يراجع ديوان الحماسة .

واهتزت نفوس الجنود بكريم الشاعر وهم يسمعون كيف علم محمد
أتباعه صناعة الموت فى سبيل الله عريضة واسعة ، فهى سبيل الحق والعدل
والإيمان والحرية وعزة الأوطان وكرامة الإنسان ، حتى قال سيد البشرية :
« والذى نفسى بيده لو ددت أن أقتل فى سبيل الله فأحيا ، ثم أقتل فأحيا ،
ثم أقتل فأحيا ، ثم أقتل » . وقال : « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته » .
وقوله : « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة »
وكيف كان القرآن إماماً لهذا النبي وقومه فى تعليمهم الشهادة : ، فهو الذى
يقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .
ويقول : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم
يرزقون » .

ولقد اطمأنت نفوس الجنود إلى التزكية الدينية للمبادئ الاشتراكية
السمحية العادلة التى جاء بها الإسلام حينما سمعوا قول القرآن :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد كان آخر ما أسمعته الجنود في تلك الندوات قول المجاهد العربي المقدم :

سأحل روحى على راحتى وأمضى بها فى سبيل الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يسوء العدى

ولأن أفراد الأمة المجاهدة خملوا أرواحهم فى أيديهم ، وانطلقوا فى ميدان جهادهم ، مستعدين لبذل هذه الأرواح فى سبيل عقائدهم ومبادئهم وحررياتهم وحقوق حياتهم لنصرهم وآزرهم ، وأعز جانبهم وكلمتهم ، فليتنا نهتدى بهدى الله ، ونستضىء بسنة رسول الله ، ونتقن الجهاد فى سبيل الله ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . .

الأخلاق والوازع الدينى

الحمد لله عز وجل ، هو العليم بالسرائر ، المطلع على الضمائر :
« وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق
وهو اللطيف الخبير ؟ أشهد أن لا إله إلا الله ، أحاط بكل شىء علماً ،
وهو على كل شىء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من
دعا إلى الإيمان واليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه . وعلى آله وصحبه ،
وجنوده وحربه . « ومن يعتصم بالله قد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

الأخلاق عماد الأمم وقوام الشعوب . هذه حقيقة مسلمة ، لا ينزاع
فيها إلا مريض أو مغرض . والله تبارك وتعالى حينما بعث رسنه إلى خلقه
جعل تمكين الأخلاق الفاضلة في النفوس البشرية من أصول رسالاتهم
وأسس دعواتهم . وشيخ الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه
هو القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وقال : « ليس شىء في
الميزان أثقل من حسن الخلق » وقال : « خياركم أحاسنكم أخلاقاً » . ولقد
سعدت الأمة المؤمنة في تاريخها المزهري بنماذج كريمة من الرجال الأبطال
الذين تمسكوا بمكارم الأخلاق وتحلوا بفضائل الشيم ، فضرَبوا للناس أروع
الأمثال في مآثر الأعمال ، حتى لو قيل إن الطابع الذي كان غالباً على شخصية
الأمة المحمدية . هو طابع الحرص على الأخلاق الفاضلة لما كان هذا القول
بعيداً عن الحقيقة والواقع . ولا شك أن الأخلاق قد تدهورت في نفوس
الكثيرين اليوم . ولا شك أن تدهورها أسباباً كثيرة . منها كما هو مادي
اقتصادي ، ومنها ما يتصل بسوء القدوة وفساد التقليد . ومنها ما يتصل بخلل

القيت في يوم الجمعة ٢٥ شوال سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٢٦ فبراير
سنة ١٩٦٥ م

التربية والتوجيه ، ومنها ما يتصل بسيطرة الأهواء وانتشار التحال والتميع في الصلات بين الرجل والمرأة ، إلى غير ذلك من الأسباب .

ولعل من أقوى الأسباب لتدهور الأخلاق - إن لم يكن أقواها جميعاً - هو ضعف الوازع الديني ، وهو ذلك الزاجر الناهي الذي ينبعث من أعماق النفس البشرية ، فيمتلك عنانها ، ويسيطر عليها ، ويتحكم فيها ، ويسير بها على خطة معلومة وطريق مرسوم ، وهو الذي يوجد في الإنسان المراقبة والحاسبة والخوف والخشية والحياء : لأن الإنسان إنما يفعل الخير ، ويتمسك بخصال البر ، ويتصرف التصرف النبيل ، ويتحلى بالخلق الجميل ، لفائدة عاجلة يرجوها ، أو لثواب آجل ينتظره ، أو لضرر يريد دفعه ، أو لإعجاب بالخلق الجميل في حد ذاته ، دون نظر إلى ثواب أو عقاب ، والوازع الديني الصادق يحقق لصاحبه كل هذه المعاني ، فهو الذي يحدث صاحبه دائماً بأن الدين خلق ومعاملة ، وأن هذا الخلق المستقيم يجلب لصاحبه السعادة في الدنيا ، والنعيم في الآخرة ، ويصد عنه غضب الله وغضب الناس ، ويحقق في نفسه الإحساس بالنبيل والشعور بالجمال ، وينيله رضا الله عنه كما يرضيه عن الله عز وجل : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم » .

وكثير من الناس يظنون أن الأخلاق يمكن أن تغرس في نفوس أصحابها بالعقوبة والردع وسلطان القانون ، ولا شك أن كثيرين يمنعون أنفسهم من أمور محرمة خوفاً من العقاب وخشية من رهبة القانون ، ولكن أيهما أقوى في هذا الباب : قانون البشر القاصر المحدود ، أم قانون الله الأخلاقي الشامل لدوائر الباطن والظاهر ، ومناطق السر والعان ؟ . ثم إن اتقانون البشرى قد

يفضى عن أشياء كثيرة تسمى إلى الأخلاق ، أو لا تلتئم مع مثلها العليا ، إذ يراها من الحرية أو من ظواهر الحياة الاجتماعية أو غير ذلك ، ولكن القانون الأخلاقي الذى يكونه الوازع الدينى يرسم طريقاً مستقيماً يتقيد به المرء عن طواعية وإيمان فى الصغيرة والكبيرة ، والحركة واللفتة ، بل والخطرة والفكرة ، لأن موجد هذا الوازع سبحانه يقول : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وثمة فرق آخر ، وهو أن قانون الأرض يتهددك بالعقاب إذا أخطأت أو أجمرت ، ولا يعذك بمثوبة إذا التزمت حدود الأخلاق الفاضلة ، أو تحليت بالمكارم والحامد ، ولكن قانون الأخلاق الدينى يلقاك بالعقاب المهذب العادل إذا أذنبت ، ويعذك بالثواب إذا هممت بالسيسة ثم صددت نفسك عنها ، ويعذك بالثواب الجزيل المضاعف إذا تحليت بالحسنات : « من جاء بالحسنة فاه عشر أمثالها » . ومعنى هذا أن قانون الناس يفرض عليك الأخلاق بالرهبة والعقوبة فقط ، وأما قانون الدين فيحمل إليك هذه الأخلاق محوطة بثوابين من الترغيب والترهيب ، أو الإنذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، ومن هنا قال القرآن الكريم فى أسرة أحد الأنبياء : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين » وجعل من دعاء المؤمنين قولهم : « إنا إلى الله راغبون » .

ولا يراد بالوازع الدينى مجرد الخوف ، بل يراد به الإحساس العميق الموقن بجلال الله وجماله وكماله ، وأنه متصف بكل حمد ، متزه عن كل نقص فإن الإحساس بجلال الله وعظمته يوجد فى نفس الإنسان الخشوع والإجلال والتعظيم لله ، مما يصدده عن الكثير من خصال الشر والسوء ، والإحساس بالجمال الإلهى المطلق يوجد فى نفس الإنسان التحنث والتعبد والمناجاة وحب

الجمال والرغبة في التصرف الجميل ، وليس الجمال هنا هو جمال الحس ، بل المراد به حسن الأفعال وسمو الصفات ، والإحساس بالكمال الإلهي المطلق يوجد في نفس الإنسان الشعور بالتساقى ، والنفور الشديد من النقص ، والرغبة القوية في التنزه والصعود نحو الكمال . وإذا ما وجد الإنسان أمام فكره وبصره وقواده قوة لا مثيل لها ولا شريك ، يتم فيها الجلال الرائع والجمال الجامع والكمال المطلق ، لم يسلك ذلك الإنسان طريق الانحراف في حياته أو أخلاقه ، لأن هذه القوة ستفجر عنده ينباع الوازع الديني الذي يرى بعينه آثار الله في الطبيعة ويعرف وجوده وألوهيته عن طريق العقل ، ويشاهد نوره عن طريق القلب ، فينهض الوازع الديني حينئذ على دعائم الاقتناع والمحبة واليقين ، وأسمى مراتب الوازع الديني هي مرتبة المحبة لله التي يتولد منها محبة كل عمل جميل ، وكل تصرف نبيل ، كما يتولد عنها بطبيعة الحال كراهية كل تصرف ذميم أو خلق لئيم ، وهنا نتذكر كلمة ذى النون المصري الصوفي المشهور حيث يقول : « لله عباد تركوا الذنب استحياء من كرمه بعد أن تركوه خوفاً من عقوبته ، ولو قال الله لك (أعمل ما شئت فلست آخذك بذنب) لكان يذبحي أن يزيدك كرامة استحياء منسه وتركا لمعصيته ، إن كنت حراً كريماً ، وعبد أشكوراً ، فكيف وقد حذرک ؟ » .

إن الوازع الديني هو الذي يجعل المؤمن الموقن يمضي في الحياة على استقامة وإنابة . يصارع أهواءه فيصرعها . وكلما همت نفسه الأمانة بالسوء أن تأتي إنما تذكر ربه وحسابه ، وتذكر دينه وخلقه . وتذكر اطلاع الله عليه ، وإحاطته به ، فلا تستطيع يده أن تتحرك . ولا رجله أن تبطش ويقف عن الإثم الذي هم به وقد قيده قيود كثيرة وإن لم يشاهدها . لأنه يعتصم حينئذ بقوة « الإحسان » التي صورها سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه

عليه بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن هاتفاً من أعماق الأزل يهتف قائلاً : إذا أردتم للفرد صلاحاً ، وللجماعة إصلاحاً ، وللعالم خيراً ، فاغرسوا الوازع الديني السليم في نفوس الناس ، بإعادتهم إلى ربهم ، وربطهم بدينهم وأخذهم بهدي رسولهم ، وبذلك تصلح شؤونهم ويستقيمون على الصراط ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

آداب الاستئذان

أحمد الله تبارك وتعالى ، هو الجميل الذى يحب الجمال ، والطيب الذى لا يقبل إلا طيباً : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أدب عباده بالحسنى ، وهذبهم بالطريقة المثلى : « صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى فروع دوحته ، ونجوم صحبته ، وأتباع ملته : « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » . .

يا أنبياء محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يفاخروا أبناء المدنية المعاصرة بأنهم وضعوا طائفة من قواعد المعاملة والاختلاط وآداب المعاشرة والمقابلة والزيارة والحديث : ومع أن جانباً من هذه القواعد يحتاج إلى نظر أو تعديل ، نجد أن الإسلام الخفيف قد سبق هؤلاء منذ عهد طويل في تعليم الناس الآداب الاجتماعية والعادات الكريمة المتعلقة بمعاملة الناس والاتصال بهم : وقد عنى الإسلام عناية خاصة بالآداب المتصلة بالأسر والبيوت ، والحرقات والعورات والأسرار والأمور الخاصة وحسبنا أن الله قد جعل أغلب سورة « النور » دائراً حول هذه الآداب ، فوق ما في غير هذه السورة من إشارات تتصل بهذه الآداب . وأحب أن أحدثكم عن أدب من هذه الآداب قد يراه البعض هيناً وهو عند الله وعند الفضلاء عظيم . وأعنى به « أدب الاستئذان » ! . .

هناك عدد من الناس فيهم حقارة وسماجة . يجادلون لذتهم الدينية في التجسس على أسرار الناس أشياءهم . والتهمج على خصائصهم وحاجياتهم

القيت في يوم الجمعة ٢٥ صفر سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٠ سبتمبر
سنة ١٩٥٧ م

والتقحم على دخالهم وعوراتهم ، ناسين أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أخبر بأن من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في بيته ! . . ترى هؤلاء يتهجمون على الأحياء وعلى الأشياء ، بلا حق ولا استئذان ولا حياء ، فبعضهم يدخل عليك بيتك ، أو يقتحم خلوتك ، أو يفرض عليك زيارته بلا استئذان ، وبعضهم يأخذ كتبك أو صحيفتك أو أدواتك بلا استئذان ، وبعضهم يتدخل في حديثك الخاص مع صديقك أو رفيقك ، أو يتسمع إليه بلا استئذان ، وبعضهم يفتح حقيبتك أو ملف أوراقك بلا استئذان ، وبعضهم يقرأ خطاباتك أو ينطلق إلى محتوياتها بلا استئذان ، إلى غير ذلك من ألوان العدوان .

وقد أدب القرآن الكريم أبنائه بأدب الاستئذان حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أذكى لكم ، والله بما تعملون عليم » . والاستئناس هنا هو الاستئذان بما جرى به العرف العام ، كقرع الباب ، أو دق الجرس ، أو التنحنح أو التصفيق أو التسبيح أو التكبير أو التحميد أو غير ذلك : وعلمتنا السنة المطهرة أن يقف المرء عند باب البيت ويستأذن ويقول : السلام عليكم ، أأدخل ؟ . فإن أذنوا له دخل وإن لم يأذنوا له أو لم يجد أحداً رجع ، لأن الإسلام يقيم للبيوت الخاصة حرمة وأية حرمة : ولقد يفخر فآخرون بأن المدينة الحديثة قد نصبت في قوانينها على حرمة المنازل وصيانة البيوت إلا في حالة الأخطار العارضة الواضحة ، ولكن الإسلام الحنيف دعا إلى هذه الصيانة وأكد هذه الحرمة منذ أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، حتى قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لو أن رجلاً أطلع عليك بغير إذن فحلفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح » .

ولقد أطلع رجل على رسول الله وهو في داخل بيته ، وكان في يد الرسول حديدة ، فقال له النبي : لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها في عينك ! . كما روى عن رسول الله تبارك وتعالى لم يحل للمسلمين أن يدخلوا بيوت أهل الكتاب (وهم اليهود والنصارى) إلا بإذن .

ونظم الإسلام أدب الاستئذان حتى بين الأصدقاء والأقارب والمقيمين في المنزل الواحد ، لأن كل شخص منا له حالة انفراد يجب أن يكون فيها كما يهوى ، أو كما يتيسر له ويرتاح معه ، فلا يبالي حينئذ بالقيود المتعارف عليها في ملبسه أو جلسته أو هيأته ، وهو لا يجب أن يراه أحد وهو في هذه الحالة ، لا من الأقارب ولا من الأبعد ، ولو فاجأه أحد بالدخول عليه دون إشعار أو استئذان ، لكرهه واستثقل ظله واستقبح فعله ، ولذلك نفر الإسلام من هذا . ولقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمي ؟ قال النبي : نعم . قال : إني أخدمها . قال : استأذن عليها . فعاوده فقال له النبي : أتحب أن تراها عريانة ؟ . قال : لا . قال : فاستأذن عليها ! .. ودعا الإسلام إلى أن يستأذن الزوج على زوجته ، والزوجة على زوجها ، والأولاد على الآباء ، والآباء على كبار الأبناء ، فلا يفجأ شخص شخصاً في وحدته أو خلوته دون استئذان روى المفسرون أن امرأة من الأنصار قالت للنبي : يا رسول الله ، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتي الأب فيدخل على ، وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلي وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزلت آيات الاستئذان : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . . . » الخ .

كما أمر الإسلام الخدم والصبيان الأبناء بأن يستأذنوا الذين يقيمون معهم

وبخاصة في ثلاثة أوقات اعتاد الناس فيها الراحة وحرية التصرف وطرح الاحتشام ، وهذه الأوقات هي قبل صلاة الفجر ، وقت القيلولة والراحة في الظهر ، وبعد صلاة العشاء . يقول الله تبارك وتعالى في سورة النور : يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم ، بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم .

وبعض النساء يعتقدون أن الاستئذان خاص بالرجال . مع أنه عام للرجال والنساء ، يستأذن الرجال على الرجال ، ويستأذن الرجال على النساء ، ويستأذن النساء على النساء ، ويستأذن النساء على الرجال ، فلا يجوز للمرأة مثلا أن تهجم على امرأة في بيتها أو خلوتها قبل استئذائها بحجة أنها امرأة مثلها ، فلكل امرأة أسرارها وخصائصها وداخليات أمورها . .

والإسلام يعلم أبناءه أن يتجملوا بالأدب والحياء وهم يسعون إلى البيوت يلتمسون الإذن من أهلها لدخولها وزيارة من فيها ، فاللائق بهم ألا يتعللوا بالتماس الإذن أو الزيارة للاطلاع على دخائل الناس أو أسرار البيوت ، فهناك مع الأسف كثير من الناس يدهزون فرصة انفتاح الأبواب أثناء الاستئذان فيقفون أمامها ، يحدفون داخل البيوت بنظرات جريئة وقحة فاحصة ، تشمل كل ما يرونه : وهم يحاولون بذلك أن يعرفوا ما في بيوت الناس من حاجات ، أو ما استتر فيها من محارم وحرمان ، وهذا تصرف ذميم ، ولقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو المعصوم الأمين - إذا جاء باب قوم ليستأذن عليهم لم يستقبل

الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر . بحيث يستأذن وهو لا يرى ما بداخل البيت من أشياء ، أو من بداخله من الأحياء . . . وكذلك يجب على المسلم أن يكون صريحاً واضحاً في تعريف نفسه حين الاستئذان إذا سئل عن ذلك ، فلا يقول من وراء الباب : « أنا » أو « صديق » أو « ضيف » ، أو « واحد » ، أو ما شابه ذلك من ألفاظ مبهمه ، بل يذكر اسمه الصريح ، فقد كره النبي مثل هذا الإبهام عن جابر رضي الله عنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي ، فلدقت الباب ، فقال : من ذا ؟ فقلت : أنا . فقال : أنا ! أنا ! كأنه كرهها ! . . . وذلك لأنها لم تبين من بالباب ، والمطلوب بيانه بذكر الاسم . وقال علي بن عاصم الواسطي قدمت البصرة ، فأتيت منزل « شعبة » ، فلدقت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ . قلت : أنا . فقال : يا هذا ، ليس لي صديق يقال له أنا ! ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . تذكروا دائماً أدب الاستئذان ، فلا تدخلوا بيوت غيركم إلا بإذن ، ولا تمدوا أعينكم إلى كتب غيركم إلا بإذن ولا تستعملوا شيئاً لغيركم إلا بإذن ، ولا تتدخلوا في شأن من شأنه إلا بإذن ، ولا تنقلوا عنه حديثاً أو سرّاً إلا بإذن . . . الاستئذان . . . لا تنسوه يا أبناء الإسلام ! . . . أدب الاستئذان لا تضيعوه يا أبناء القرآن . . . عودوا أنفسكم الاستئذان في كل موطن يحتاج إلى الاستئذان ، وطالبوا المهملين بالمحافظة على هذا الاستئذان ، ونشئوا أبناءكم على أدب هذا الاستئذان ، « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ، ولعلكم تشكرون » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

طريق الرضى

الحمد لله عز وجل ، منه المبدأ وإليه المنتهى : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، رب الخلائق والكائنات وبديع الأرض والسموات : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، زان بالإيمان قلبه ، وأرضى باليقين ربه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، والآخذين بهديه وأسبابه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا نتطلع يميناً وشمالاً فى جوانب الحياة ، وننتسح لهذا وذاك من الأحياء فنجد كثيراً من ألوان التعب والشقاء ، ونقف على كثير من أنواع الضيق والشكوى ، ولا نجد من أهل السعادة والغبطة إلا العدد القليل ، وأكبر السبب فى ذلك هو هذا الغول الهائل والسرطان الخبيث ، الذى يعصف بالأمان والاطمئنان ، وهو عدم اليقين والإيمان ، لأن من آمن عرف طريقه ، ومن عرف طريقه رضى به وسار عليه ، فبلغ ووصل ، وقد يجد أثناء ذلك تعباً أو نصباً ، فيتأقاه بعزم وصبر ، ويمضى فى سبيله لا يبالي بما قد يلقى ، لأن بصره وفكره معانقان بما هو أسنى وأتقى : وما هوذا الحق جل جلاله ينادى من آمن واطمأن فسعد وفاز ، بقوله : « يا أيها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . وقد رسم سيدنا وسيد الإنسانية كلها محمد صاوات الله وسلامه عليه طريق الإيمان والأمان حين قال : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ،

القيت فى يوم الجمعة ١١ من ذى القعدة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق
٣٠ مايو سنة ١٩٥٨ م

وَمُحَمَّدٌ رَسُولًا « وللايمان طعم يفوق الطعوم ، ومذاق يعلو على كل مذاق . ونشوة دونها كل نشوة ، لأن حلاوة الايمان حلاوة روحية نفسية قلبية ، تسرى سريان الماء في العود ، وتجري جريان الدماء في العروق ، وتشع على صاحبها إشعاع الأضواء خلال الدياجي ، فلا قلق ولا أرق ، ولا ضيق ولا تضييق ، بل سعة ورحمة ، ورضا ونعمة ، « ذلك الفضل من الله وكفى بالله علماً » .

وأول باب من أبواب الوصول إلى حلاوة الايمان هو أن يرضى الإنسان بالله رباً ، لأنه رب كل شيء ، ولأنه القائم على كل نفس بما كسبت ولأنه رحمن الدنيا والآخرة والرضا به يستلزم الرضا بعبادته ورجائه والخوف منه والتبتل إليه والنزول على أوامره وأحكامه والانتهاز عن محارمه ونواهيه ، سواء أدركنا الحكمة في الأمر والنهي أم لم ندرك ، لأن العبد الضعيف القاصر لا يسأل خالقه العليم ومولاه الخبير عن حكمة كل شيء ، بل يسلم وجهه إلى بارئه ، مؤمناً بعدالته وحكمته ، راجياً لرحمته خائفاً من نقمته ، وله في رسوله أعظم القدوة حين كان يدعو فيقول : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . وكان يدعو فيقول : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفذ وأسألك قرة عين لا تنقطع . وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت . وأسألك نذة النظر إلى وجهك الكريم ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضره . ولا فتنة مضلة : اللهم زينا بزينة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين » . كما أن له القدوة في الإعلام من سلف هذه الأمة

الذين جاهدوا أفضل الجهاد ، وعملوا خيرا العمل . ثم رضوا بالله كل الرضى ،
ورحبوا بتقديره كل الترحيب ، وهذا مثلا هو الحاكم العادل خامس الراشدين
عمر بن عبد العزيز كان يكثر من قوله : « اللهم رضنى بقضائك ، وبارك
لى فى قدرك ، حتى لا أحب تعجيل شىء آخرته ، ولا تأخير شىء عجلته »
وكان عمر بن عبدالعزيز يقول عن هذه العبادة : « لقد تركتني هؤلاء الدعوات
وما لى فى شىء من الأمور كلها أرب إلا فى مواقع قدر الله . » ويروى
أن عمر بن عبد العزيز كان يقول : « أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع
القدر » ويروى أنه كان يقول : « ما أصبح لى هوى فى شىء سوى ما قضى
الله عز وجل . »

وهذا هو عبد الله بن مسعود يترجم عن معنى الرضى وتسلمه عليه ،
فهو يرضى بما يساق إليه ، فيقول : « الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيهما
ركبت : إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه الئدل . » وقيل
ليحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى ؟ فقال : إذا أقام نفسه على
أربعة أصول فيما يعامل به ربه ، فيقول : إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى
رضيت ، وإن تركتني عبت ، وإن دعوتنى أجبت .

ولو صدق العبد فى رضاه بربه ، وإقباله عليه واستجابته له ، لتفجرت
ينابيع الخير والبهجة والبر والبهجة من حوله ، ولا نطلق لسانه يردد مع القائل
يخاطب ربه :

يا منتهى	الآمال	أنت	كفلتني	وحفظتني
وعدا	الزمان	على	كى يغتالى	فمنعتني
فانقباد	لى	متخشعاً	لما رآك	نصرتني
وكسوتني	نوب	الغنى	ومن	المسئلة
				صنتني

فإذا سكت بدأتني وإذا سألت أجبتني
وإذا شكرتك زدتنى فمنحتنى وبهرتنى !

وإذا رضى الإنسان بالله رباً فقد رضى عنه ربه ، وإذا رضى عنه ربه فقد أَرْضاه وكفاه ، وحفظه ورعاه ، وليس وراء رضى الله غاية لطالب ، ولذلك نجد القرآن يقول : « قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ويقول : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » . ويقول « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » ويقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

والباب الثانى من أبواب حلاوة الإيمان ولذة اليقين هو الرضا بالإسلام ديناً ، لأنه قارورة الدواء ومنبع الضياء ومصدر الاهتداء : « إن الدين عند الله الإسلام » ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين . « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وإذا كان هناك كثيرون يتنكرون لإسلامهم أو يعرضون عن دينهم أولاً يعنون بتوثيق روابطهم بعقيدتهم فقديماً كان المسلمون يضحون بكل شىء فى سبيل أن يبقى لهم إسلامهم صحيحاً ودينهم سليماً ، ولقد قال عمر ابن الخطاب لامرأته عاتكة وقد غضب عليها يوماً : والله لأسوأئك . فقالت له : أستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد إذ هدانى الله إليه ؟ . فقال : لا .

قالت : فأى شئ تسوءنى به إذن ؟ ! . . . فهى واثقة من أنها ستظل راضية النفس ناعمة ألبال ما دامت مسلمة مستمسكة بدينها حتى ولو صب عليها البلاء صباً ، وإنما يسوءها شئ واحد هو ترك الإسلام . وما كانت عاتكة وحدها هى التى تقول ذلك ، بل كل الأمة المؤمنة الموقنة كانت لا ترضى بالإسلام بديلاً ولا تقبل معه نظيراً أو مثيلاً ، وشعارها قول أحدهم :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

والباب الثالث إلى حلاوة الإيمان ولذة الرضوان هو أن نرضى بمحمد رسولا لأنه المبلغ عند ربه ، المبين لدينه ، المفسر لقرآنه المطبق لشريعته ، ولأن الله تعالى يقول : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . ويقول : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ، ولأن الصادق المصدوق صلوات الله عليه يقول : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين » . والرضى بالرسول يتضمن الاقتداء به ، والاهتداء بهديه ، والاستضاءة بسنته ، والتمثل بقوله وعمله ، فنتلقى تعاليم الدين من أحاديثه ، ونتطلع إلى تطبيق الإسلام فى سيرته ، ونرى صورة المسلم الكامل فى أفعاله وتصرفاته : وإذا كانت هناك فئة ضالة مضلة تهاجم السنة ، وتشكك فى أحاديث الرسول ، وتدعو إلى الاقتصار على الأخذ من القرآن وحده ، فإن هذه الفئة فى الواقع تريد أن تقضى على الإسلام ، ولو نجحت فى دعوتها الإلحادية الإجرامية بالإعراض عن السنة ، - وهيهات هيهات - لجاء الوقت الذى تدعو فيه إلى هجر القرآن ، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، يريدون ليطفثوا نور الله بأهواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . فلنتدبر الأمر جيداً نعرف

واجبنا وتستمعين الله جل جلاله في أدائه والقيام به . . . فإذا كان هناك كثيرون يعرضون عن الإسلام ويتحللون من واجباته ويستخفون بأحكامه ويقفون له بالمرصاد ، وإذا كان هناك فريق من الناس يؤمن بالله ويؤمن بدينه ، ولكنه يتوارى بيمينه ، أو لا يجاهر بما يؤمن به ، فإن من أوجب الواجبات أن تكون هناك أمة مؤمنة واثقة بربها ودينها ونفسها ، متمكنة من هديها ويقينها ، داعية إلى الصراط المستقيم في حكمة وقوة : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . فليست كل منا بربه في أن يكون واحداً من هذه الأمة المؤمنة الواثقة السابقة ، حتى يردد في سره وجهره ، من أعماق قلبه وحنايا نفسه : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا حتى يرضى عنا ربنا ويغفر لنا ذنوبنا فقد روى أن الرسول قال : « من قال حين يسمع النداء (يعني الأذان) رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، غفرت له ذنوبه » . وهو القائل أيضاً : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » .

وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون . . . ويهتف كما هتف الأول فقال :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

الامانة في الاسلام

حمد الله تبارك وتعالى ، هو سبحانه القائم على كل نفس بما كسبت ، المحاسب لها بما اجترحت « إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . أحده جل جلاله ، وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولي الأطهار ومؤيد الأخيار . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله . القائل له ربه : « وإنك لعلى خلق عظيم » وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين « فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطاهرين من آله ، والصادقين من صحابته ورجائه ، والمهتدين بأعماله وأقواله : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ومما ينبغي أن يعرفه كل مسلم أن الأمانة خلق من أخلاق الإسلام العظيم وفضيلة من فضائل القرآن الكريم ، وجانب من تراث الرسول عليه الصلاة والتسليم ، والأمانة كلمة جميلة جليلة فيها معنى الأمان والاطمئنان ، والأمانة كذلك شعور عميق بالتبعية والمسئولية ، واحتكام إلى الضمير اليقظ الحى ، ورعاية لكل ما فى عهدة الإنسان من شىء حى أو معنوى ، وكان الحديث النبى قد أشار إلى هذا حين قال : « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » . ولقد تحدث القرآن الكريم عن الأمانة فى أكثر من موطن وقال فيما قال : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن فيها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » . ولقد ذكر العلماء أقوالاً كثيرة فى المراد بالأمانة هنا ، ولكن الأقرب إلى القبول هو أنه

يراد بها مختلف التكاليف والحقوق والتبعات التي وكلها الله تعالى إلى عباده لرعايتها وصيانتها ، سواء أكانت متعلقة بالنفس أو بالأهل أو بالوطن أو بالناس ، وقد جعل القرآن المجيد الأمانة من صفات الملائكة الأطهار الذين هم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فقال الله تعالى في حق جبريل عليه السلام . « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . »

وكذلك جعل القرآن الأمانة صفة من صفات الأنبياء والمرسلين ، فهؤلاء هم رسل الله عليهم صلاة الله وسلامه يتوالون ويتتابعون إلى الناس ، يحملون رسالات ربهم ، وكلما جاء رسول عرض على قومه رسالة ربه وقال لهم « إني لكم رسول أمين » . وأشار القرآن إلى أمانة موسى عليه السلام منذ شبابه فقال عنه على لسان بنت شعيب : « قالت لإحدهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين » والقوة هنا تشمل كل أنواعها وألوانها ، والأمانة يتسع نطاقها وينفسح مداها ، حتى تتغلغل بعمق في حياة الأفراد والشعوب ، حتى كأنها الديدبان الإلهي الذي يضعه الخالق القدير شعلة مقدسه في صدر كل مسلم يخاف الله ويخشاه ، فهو معه في كل مكان : « وهو معكم أينما كنتم » . وكانت الصفة المعروفة المشهورة لنبينا محمد - حتى قبل الرسالة - هي صفة « الصادق الأمين » وكان يدعو ربه فيقول : « أعود بك من الخيانة ، فإنها ينس البطانة » . وكذلك جعل القرآن الأمانة صفة عباده المؤمنين ، فقال عنهم في سورتهم التي سماها باسمهم : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

ومن المؤسف أن الكثير من الناس يظنون أن الأمانة لا تتمثل إلا في حفظ الودائع « من مال أو حلى أو ما شاكل ذلك ، مع أن مفهوم الأمانة يشمل مظاهر عديدة من سلوك الإنسان وتصرفه في الحياة ، فإتقان القيام بالواجب أمانة ، وصيانة أرض الوطن وحماية ممتلكات المجتمع ، ورعاية حقوق الأمة

أمانة وحفظ الأسرار أمانة ، وصيانة الأعراض أمانة ، وإخلاص النصيحة أمانة ، وأمانة العبد مع ربه تتحقق بحفظ ما أمر الله بحفظه ، وبأداء واجباته ، والانتهاز عن منيآته ، وأمانة العلم تتحقق بشره وتفهمه للناس ، وأمانة الحكام مع المحكومين تكون بالعدل والمساواة بينهم ، وأمانة الإنسان مع نفسه تتحقق باختياره الأصلى له فى الدين والدنيا ، والأمانة فى المعاملة تكون بالصدق وترك الغش والخداع ، والأمانة فى الكيل والميزان تكون بالضبط وعدم التطفيف ، حتى لا تتعرض الناس لغضب الله وانتقامه : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

والقرآن الحكيم بعد أن مجد قدر الأمانة وسما بمكانتها رفع شأن الأمانة ، نراه قد حل حنة صارمة على الخيانة ، فقال « إن الله لا يهدى كيد الخائنين » . ويكنى رذيلة الخيانة شراً ومقتماً أنها كانت السبب فى أن ألقى الله إلى جهنم وبئس المصير — بامرأتين من نساء الأنبياء والرسل : وضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

وتلك هى السنة النبوية تحذر كل مسلم أن يهمل الأمانة أو يفرط فيها ، فقال رسول الله : « لا إيمان لمن لا أمانة له » . ولقد مر النبى صلوات الله وسلامه عليه برجل يبيع قحماً ، فوضع النبى يده داخل القمح فوجد فيه بللا ، فقال للرجل مستنكراً : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ فأجاب اصحابته السماء يا رسول الله (يعنى المطر) فقال له النبى : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا .

وقال رسول الله : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل : وكيف
 إضاعتها يا رسول الله ؟؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة .
 وفي هذا تحذير وتخويف من ضياع الأمانة ، وإشعار بأنها حين تضيع تكون
 سبباً في فساد الناس واختلال الحياة وضياع الحياة .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فليجعل كل منا نفسه فرداً صالحاً ، ومواطناً مصلحاً ، يستشعر روح
 الأمانة في صدره وكيانه ، ويبث فضيلة الأمانة في كل من حوله من أهل
 وأولاد وأقارب ومعارف ، حتى تصبح الأمانة شعاراً نبيلاً لهذه الأمة التي
 يهديها ربها بفضله إلى أقوم طريق .

دعوة الى الأمانة

الحمد لله عز وجل ، جعل الأمانة طريق الشرفاء ، وجعل الخيانة شعار الأخصياء : « إن الله لا يحب كل خوان كفور » . أحمدته سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، يرفع الأبرار إلى أعلى عليين ، ويهوى بالأشرار إلى أسفل سافلين ، والله قوي عزيز ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وجعله متممًا لمكارم الأخلاق ، وصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله بيته وأهل صحبته وأنصار دعوته ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

منذ أيام كنت أركب سيارة عامة وسط الزحام . فسمعت محصل الأجرة ينادى بصوت رتيب ويقول : « من يدفع فله نبي يشفع ، ومن لا يدفع فله نار تلسع » : ، وجعل الرجل يكررها كأنها لازمة « يحرص عليها ، فاستهوتني العبارة ، وذكرتي بما كنت ناسياً ، وقلت في نفسي : كأن هذه دعوة إلى الأمانة بين قوم نسي أكثرهم الأمانة في مختلف الأرجاء ، فإن الزحام في المواصلات قد هبأ أكثر من فرصة شيطانية لأهل سوء الخونة وأبناء الحرام السفلة ، فهذا ذئب يحاور المحصل ويداوره لكي يفر من دفع الأجرة ، وهو يتطلع عند الركوب ، فإن كان المحصل مشغولاً في مقدمة السيارة ركب هو من مؤخرتها ، وإن كان المحصل في مؤخرتها ركب هو من مقدمتها ، وهو ينتقل تنقل الثعلب الماكر من المقدمة إلى المؤخرة ، ومن المؤخرة إلى المقدمة حتى لا يدفع ، ويظن أن عمله هذا مهارة أو « شطارة » ولكنه في الواقع سفالة ونذالة . وهذا ثان ينتهز فرصة الزحام لكي « ينشل » نقود هذا أو ساعة ذاك أو قلم ذلك : لأنه « لص صانع عاطل » في مجتمع يحتاج إلى حدود الله

القيت في يوم الجمعة ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٩٣ الموافق ٢٢ يونيه
مسنة ١٩٧٣ م

لتردع وتمنع « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، ومن المؤسف أنه يشاع ويذاع ويقال إن المشولين عن منع هؤلاء المجرمين يعرفونهم جيداً ، ويستطيعون منعهم جيداً ، ولكنهم لأسباب أخرى لا يلتزمون واجبهم ، ولا يتقون الله في وطنهم ، بل تصل الإشاعة القوية المتحكمة إلى حد أن يقال : « يا عم ، لا فائدة ، حاميا حراميا » . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وهذا وضيع ثالث ينتهز فرصة الزحام لكي يعبث بجسم هذه المرأة أو تلك ، مستخفاً بكل قواعد الأدب والتربية ، ناسياً أن الحياة قصاص . . . وهذا وغيره وغيره يحدث وسط الزحام ، والحصل مشغول بعمله ، حريص على ترديد قوله : من يدفع فله نبي يشفع ، ومن لا يدفع فله نار تلسع « وكأن صوته أضيع من الأيتام في مأدبة الليام ، وكأنه غريب بين قومه كدعوة صالح في ثمودا ! . .

وبالأمس نشرت بعض الصحف أن سائقاً لسيارة أجرة وجد في سيارته خاتماً ذهبياً نسيته إحدى السيدات ، فلم يفرح بكسب حرام أو ربح خبيث ، بل سارع إلى الصحيفة لتعلن عن الخاتم ، حتى تأتي صاحبه لأخذه ، فهزنا هذا الخبر العجيب الغريب ، مع أن الأصل في أمة محمد أن يكون هذا أمراً عادياً لا يثير أى غرابة ، ولكن الأوضاع انقلبت ، فصارت الخيانة هي القاعدة والأصل ، وصارت الأمانة شيئاً أندر من الكبريت الأحمر ، ورحم الله الذى قال : « كان الناس ورعاً بلا شوك ، فأصبحوا شوكاً بلا ورق » . وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » ! وحين قال : « أعوذ بالله من الخيانة فإنها بشس البطانة » !

كأنها دعوة إلى الأمانة التي أجل شأنها كتاب الله عز وجل وطالب بها في الاعتقاد وفي كل شئون العباد والبلاد ، وجعلها أخطر مهمة يلتزم بها الإنسان فقال : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين

أن يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » والأمانة هنا تشمل كل التكاليف والواجبات والحقوق التي أمر الله بحفظها وأدائها حق الأداء . والأمانة هي التي جعلها الله صفة الملائكة الأطهار ، فقال في شأن جبريل عليه السلام : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » . والأمانة هي التي جعلها الله صفة الأنبياء والمرسلين ، فهؤلاء طائفة منهم ، وكلما جاء أحدهم إلى قومه قال لهم : « إني لكم رسول أمين » وهذا خاتمهم وإمامهم محمد يشتهر بين قومه بوصفه العظيم : « الصادق الأمين » . والأمانة هي التي أبان القرآن أن صاحبها هو صاحب المكنة العليا في نظر الرجال والنساء : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » . والأمانة هي التي ذكر القرآن الكريم أنها صفة أساسية من صفات المؤمنين المفلحين : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وإذا كنا نسمع أن القوم في بعض بلاد أوروبا يدفعون أجرة السيارة أو الترام بلا طلب ولا رقابة سوى الضمير . فقد كان أبناء الإسلام - يوم كان هناك في الدنيا أبناء للإسلام - أعلى من ذلك أخلاقاً ، وأقوى محاسبة للنفس ومراقبة الله سبحانه ، ونحن لم ننس بعد تلك الفتاة التي قالت عن عمر : « والله ما كنت لأطيعه في الملا ، وأعصيه في الخلا ، وإن كان عمر لا يرى قرب عمر يرى » وكان نساء الإسلام يقلن لأزواجهن عند الصباح : يا رجالنا إننا نصبر على الجوع ، ولكننا لا نصبر على النار ، فإياكم وكسب حرام . وكان العامة من آباءنا وأجدادنا يعتقدون أن دخول الشيء الحرام إلى البيت يشعل فيه النار ، ولذلك كانوا إذا رأوا شيئاً مسروقاً يدخل عليهم يدفعونه عن منازلهم دفعاً كأنه شحنة من الديناميت ستنفجر داخل البيت فتسببت له الخراب والدمار ، وكانوا يؤمنون بقول رسولهم صلوات الله وسلامه عليه « الأمانة غنى » ، ويستجيبيون لقوله : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن

من خانك » ويخافون حين يسمعون قوله : « لا إيمان لمن لا أمانة له »
وأما اليوم فكثير من الناس يعدون السرقة مهارة ، والاختلاس براعة ،
والخيانة فتوة ، والسفالة تقدماً وتطوراً مع أن الله جل جلاله يقول : « يعلم
خائنة الأعين وما تخفي الصدور » .

وعاد صوت المحصل يدوى في أذني بعبارته اللاذعة : « من يدفع فله
نبي يشفع ، ومن لا يدفع فله نار تلسع » فقلت في نفسي : لقد أصابتنا
قاصمة الظهر ومذلة الدهر ، ففقدنا الوطن ، وفقدنا عزة الحرية في الأرض ،
أفلا يمكن على أقل تقدير أن نحتفظ بجانب من آداب الدين وأخلاق القرآن ،
أم نصر على أن يكون أمرنا كله خراباً وفساداً ، وشوقى يقول :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً
ويقول :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خراباً
ويقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما زالت أذني تظن برنين المحصل وهو يردد : من يدفع فله نبي يشفع ،
ومن لا يدفع فله نار تلسع . وهو معنى يذكرنا بقول الرسول : « لا إيمان
لمن لا أمانة له » . فليسأل كل منا نفسه : أعنده أمانة ؟ وإذا لم تكن عنده
أمانة ، فهل عنده إيمان ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

أمانة المجاهد

الحمد لله عز وجل ، يزكى عباده الشرفاء بالكرامة ، ويركس اللثام
الأخساء في الخيبة والندامة ، وهو أعدل العادلين أشهد أن لا إله إلا الله هو
القاتل في الأخيار من عباده « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين
هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم
فيها خالدون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صان حقوق الله فصانته
الله ورعاه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه :
« أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما أحوجنا في هذه الفترة من حياتنا أن نرجع إلى سيرة رسولنا ومواقف
صحابته ، ونستمد منها الدروس والعبر التي تضيء أماننا ونظيرنا ، وتحدد لنا
معالم المنهج السليم ، فتفيدنا في دنيانا كما تفيدنا في ديننا ، وتوثق صلتنا بهدى
خالقنا العظيم ؛ وهذا درس من الدروس ، فقد حدث بعد هجرة الرسول
إلى المدينة أن انضم اليهود إلى المشركين ضد المسلمين ، وقال اليهود الخونة
ولعبدة الأصنام والأوثان : إن وثنيكم خير من دين محمد ومن دعوة الإسلام
وأخذ اليهود بمجمعون القبائل ويحرضون الأحزاب على التكتل لاستئصال
المسلمين ، وانتهز بنو قريظة الشدة العصبية التي أملت بالمسلمين في غزوة
الخنندق ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبين الرسول ، وانضموا إلى
المشركين ، وشاءت عناية الله أن تفشل حملة الأحزاب ، ويعود أهلها خائبين ،
ولما انتهت الشدة توجه النبي إلى الغدرة الفجيرة لإخوة القردة من بني قريظة .

القيت في يوم الجمعة ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٣
يونيو سنة ١٩٦٧ م

وحاصرهم في حصونهم ليجزيهم على غدرهم وخيانتهم ، وحينما طال الحصار على الفجرة بعثوا رسولا إلى النبي يطالبون منه أن يرسل إليهم الصحابي أبا لبابة . وكان حليفاً لهم في الجاهلية ، وكان له بينهم مال وعقار ، فحسبوا أنه سيكون سبب تخفيف عليهم ، ولما وصلهم أبو لبابة أخذوا يسألونه : أيتزلون على حكم محمد ؟ فقال نعم ، ثم بدرت منه بادرة غير مقصوده . فأشار بيده إلى حلقة إشارة يفهم منها أن مصيرهم هو القتل ، ولعله كان قد عرف ذلك من الرسول أو استنتجه ، وهو قصاص عادل من غير شك .

وما كاد أبو لبابة رضى الله عنه يأتي بهذه الإشارة ، حتى تنبه لنفسه في خوف وفزع ، وأحس كأنه خان الله ورسوله في هذه الإشارة ، لأنه كشف شيئاً كان يجب عليه - ولو في اعتقاده - أن يخفيه فعصره الألم والحزن ، وقال : « فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله » . وظهر الندم على وجهه ، فقال له بعض اليهود : مالك يا أبا لبابة ؟ فأجاب : لقد خنت الله ورسوله : وعاد مسرعاً إلى المدينة ، والدموع تسيل من عينيه ، وما زال مسرعاً في مشيه حتى دخل المسجد ، وربط نفسه في أحد أعمدته بسلسلة ثقيلة ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت ، أو يتوب الله علي مما صنعت « وأخذ على نفسه العهد الوثيق ألا يدخل أَرْضَ بني قريظة ما دام حياً ، مع أنه قد كان له مال وعقار .

وبلغت القصة مسامع النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : أما لو جاء لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه ؛ وجاء الوحى من عند الله عز وجل مؤدباً ومعلماً ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وظل أبو لبابة مربوطاً في عمود المسجد عشرين يوماً ، لا تفك قيوده إلا لأداء الصلاة ،

ثم يعود إلى القيد من جديد ، حتى نزلت مغفرة الله تعالى له على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل جبريل يخبر الحبيب المصطفى بأن الحق جل جلاله قد تاب على أبي لبابة بعد هذا الندم وبعد هذا التطهير ، وجاء التطهير ، وجاء قوله عز من قائل : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم » ، وانتهت البشرية إلى مسامح أبي لبابة ، فطار لها فرحاً ، وسعد بها كثيراً ، ولكنه ظل في قيده كما هو ، وأراد بعض الصحابة أن يفكوه من القيد فأبى ذلك ، وقال : والله لا يفكني من قيدي إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكأنه كان يريد بذلك أن يوثق توبته ، وأن يكون فك الرسول لقيده تأكيداً لغفران الله له وعفوه عنه . ومحيت الهفوة من سبيل أبي لبابة بفضل الله ورحمته ، وواصل حياته مؤمناً مجاهداً مستقيماً على الطريق ، وفيماً بعهدته لا يخون ولا يهون ، حتى صدق فيه وفي أمثاله من الأوفياء الشرفاء صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام : « ومن المؤمنين رجال صلتوا ما عاهدوا الله عليه ، فنههم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » .

فلنتظر معاً يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام إلى هذا الدرس العميق ولنتدبره لنتفجع به ، فهذا رجل يواصل جهاده في سبيل الله ، ويبدل من نفسه وماله في سبيل دينه وهداه ، ثم تفلت منه إشارة لم يتعمدها ولم يترصد لإتيانها ولم يصر عليها ، ومع ذلك ارتعدت فرائضه ، وارتجفت أوصاله ، وخيل إليه أن الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت ، وأيقن أنه لا ملجأ له من عذاب الله جل جلاله إلا عفو الله ورحمته ومغفرته ، فأخذ نفسه بذلك العقاب الصارم والتأديب الحازم ، حتى تنزلت عليه توبة الرحمن الرحيم من فوق سبع سموات ، وبعد أن ظل مقيداً في أغلاله عشرين يوماً يبكي ويستغفر ، مع أنه أحد صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام الذين قال فيهم سيد الخلق

« أصحابي كالنجوم ، بأنهم اقتديتم اهتديتم » . فكيف يكون عذاب الله الأليم لذن لمن يستبيح لنفسه أن يرتكب جريمة الخيانة لدينه أو وطنه ، بالتفريط والتخاذل ، أو بالتشبيط والتوهين ، أو بافتراء إشاعة كاذبة ، أو لإثارة لفتنة ضالة ؟ . إن مثل هذا المجرم الأثيم يكون قد خان الله ورسوله ، وأعلن الحرب عليهما ، وإن عاقبته وخيمته ، ومصيره مشوم ، وبئس المصير فليتنا جميعاً نتذكر دائماً قول ربنا : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً » وقوله في عباده الأخيار : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد تهيأ لي خلال الأسبوع الماضي أن أتقل في منطقة القناة ، وأن أزور الإسماعيلية والسويس وبور توفيق والشلوفة وفاید والقنطرة وبورسعيد وبور فؤاد ، وأن أتحدث باسم الدين في هذه المواطن مع المجاهدين ومع الشعب ، وأقسم لكم بالله الذي لا يقسم بسواه ، لقد شاهدت الروح المعنوية في الجنود قوية ، ولمست الثقة والعزيمة على مواصلة النضال حتى تزول آثار العدوان وتتحقق الحرية الكاملة للوطن وإذا كان الجنود يمثلون الجيش الأول فيجب أن نكون نحن الشعب الجيش الثاني من ورأهم ، نشد من أزرهم ، ونثبت من عزائمهم ، ونجمع كلمتنا على أن نعيش أعزة أو نموت كراماً ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

امانة تمثيل الأمة

الحمد لله عز وجل ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، والمؤاخذ لكل يد بما اجترحت « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولي النعمة والتوفيق : « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كاشف الغمة وهادى الأمة إلى أقوم طريق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

حينما تختار الأمة ممثلها والنائبين عنها ، بمحض إرادتها وخالص رغبتها ، تكون قد سلكت سبيلاً نحو التعبير عن رأيها ، والتثبيت لكيانها ، والتوطيد لبنيانها ، والإسلام العظيم قد هدى الناس إلى طريق الحق وصراط التوفيق حين دعا إلى الشورى في قول القرآن يصف المؤمنين : « وأمرهم شورى بينهم » وحين خاطب الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « وشاورهم في الأمر » . وقد استجاب السلف الصالح في صدر الإسلام لهذا التوجيه الرباني الحكيم ، فطبقوا مبادئ الديمقراطية والشورى في سلمهم وحرهم ، وفي مختلف شئونهم ، وفتحوا الباب في المشاورة لكل قادر عليها ، حتى رأينا الفاروق عمر ينزل ذات يوم على رأى قالته لإحدى المسلمات ، وجهر بكلمته الجليلة الباقية : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . . ورأينا عمر نفسه وهو خليفة يحرص على المراجعة والمواجهة والنطق بالحق ، فيقول للأمة

القيت في يوم الجمعة ١٣ من ذى القعدة سنة ١٢٨٣ هـ الموافق
٢٧ مارس سنة ١٩٦٤ م

من رأى منكم فى اعوجاجه فليقومه . فيجيبه أحدهم : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيفنا يا عمر ! .

والأفراد الذين تختارهم الأمة ليكونوا ممثلين لإرادتها ، مترجمين عن رغبتها ، يصبحون أمناء على حقوقها ، حراساً على مقوماتها وخيراتها . وهدى الإسلام القويم يعتبر كل من ينهض فى الأمة بتبعية أو مسؤولية أحد رعاتها وهدايتها ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » ، ويعد التبعة الملقاة على عاتقه أمانة بين يديه ، ويلزمه أن يرعاها حق رعايتها ، وأن يصونها حق صيانتها ، فإله تبارك وتعالى يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ويصف المؤمنين الأخيار بقوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أد الأمانة إلى من أئتمنتك » ويقول : « لا إيمان لمن لا أمانة له » . وقد حذر الإسلام أشد التحذير من تضييع الأمانة التى يحملها الإنسان . سواء أكانت مادية أم معنوية ، وخوف أشد التخويف من الانحراف معها أو الخيانة لها ، فقال التنزيل المحيىء : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وقال : « إن الله لا يحب الخائنين » وقال : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثماً » . ولقد كان رسول الله عليه صلوات الله يدعو ربه عز وجل فيقول فيما يقول : « وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة » . ولقد اهتدى بهدى سيد البشرية فى هذا المجال أعلام فخرت بهم الدنيا ، ووعى ذكرهم التاريخ ، فظلوا نماذج عليا ومثلاً رفيعة فى حفظ الأمانة ، وأداء الواجب ، وصيانة التبعات والجهاد من أجل العباد والبلاد .

وفى طليعة الواجبات التى تجب على من يمثل أمته ، أو يخدم جماعته ،

أن يكون ناطقاً بالحق ناصحاً بالصدق ، يقول ما يعتقد به ويؤمن به ، وينقد ما يوقن أنه خطأ وضرر ، ويدعو إلى الصواب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن : وما أجمل أن نتذكر هنا أن القرآن الكريم قد قال على لسان نبي الله هود عليه السلام : « أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين » . فذكر ثلاث صفات جليلة هي التبليغ والنصح والأمانة ، ولقد قال سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « الدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال لله عز وجل وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين وعامتهم » والنصح لله تعالى هو الإيمان به والخضوع له والإخلاص في عبادته ، والنصح لكتاب الله هو الإقبال عليه والاهتداء به ، والنصيحة للرسول هي الاستجابة له والافتداء بسنته في القول والعمل ، والنصيحة لأئمة المسلمين ولولايتهم هي حب الصلاح والتوفيق لهم ، ومعاونتهم بكلمة الحق والخير ، وتحذيرهم من الأخطاء والأخطار ، والنصيحة لعامة المسلمين هي إرشادهم إلى النافع ، والمباعدة بينهم وبين الضلال الفساد .

وهذا يستلزم أن تكون الأمة مؤمنة راشدة ، مجتمعة متحدة ، متبادلة فيما بينها المشاورة والمناصحة حتى تحقق ما ذكره الحديث النبوي الشريف : « إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » . ويستلزم أن يحس الفرد الممثل عن تبعة بأنه لبنة في بناء وجزء من كل ، وعضو من جسم ، وفرد في مجموع ، ولذلك يشعر بشعور الجماعة ويتجاوب معها ويعنى بأمورها ، لأنه منها وإليها وبها ، الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم : « من غشنا فليس منا » وفي رواية أخرى : « من غش أمتي فليس مني » ويقول : ما من راع يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » .

والإسلام دين الله العلى للأعلى يعلم أتباعه أن يكونوا جميعاً عاملين متعاونين متضامنين يضع كل منهم يده في يد أخيه بإخلاص وأمانة وشرف ، ويمضون في سبيل الحق والخير والبر والإصلاح ، بلا تقاعس وانعزال أو سلبية ، لأن الإسلام يحارب السلبية في كل مجال ، ويدعو إلى الإيجابية في كل موطن : يدعو إليها في مجال العمل الصالح فيقول القرآن : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ويدعو إليها في مجال القول فيحث على الجهر بالكلمة الطيبة والقول النافع فيقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ، ويدعو إليها في مجال التوجيه إلى الإصلاح والإرشاد إلى النافع فيقول الرسول : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » ، ويدعو إليها في التفكير ، فالقاعدة الإسلامية تقول : إن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد : والاجتهاد هو بذل الطاقة في سبيل الوصول إلى الحق ، وهذا هو معاذ بن جبل رضى الله عنه يعطينا مثلاً للإيجابية الصالحة في التفكير والاجتهاد حينما يبعثه الرسول إلى اليمن ، ويسأله كيف يقضى بين الناس ، فيجيبه بأنه سيتبع القرآن والحديث ، فإذا لم يجد الحكم منصوباً عليه فيهما فإنه سيجتهد برأيه ، فيفرح النبي بذلك ، ويقول : « الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يحبه رسول الله » . ولقد حارب النبي صلوات الله عليه المتابعة العمياء التى لا تدل على إيمان أو اقتناع أو شخصية فقال : « لا يكن أحدكم إمعة . يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم : إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الإسلام العظيم قد أرسى قواعد الشورى ودعائم الديمقراطية ، ومن واجبتنا أن ننعم بشمرات هذه المبادئ (م ٣٢ — خطب ج ١)

الجليلة التي دعا إليها وأمر بها ، حتى نسهم معاً في بناء مجتمعنا على أسس سليمة
متينة ، والله جل جلاله يبارك كل يد تعمل وتبني ، وكل لسان ينطق بخير
أو يدعو إلى هدى ، وكل عقل يستقيم منه تفكير وتديير ، وسبحانه من
لو شاء لهدى الناس أجمعين إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ،
إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

خلق المثابرة

الحمد لله عز وجل ، أبداع خالق الإنسان من طين ، وأحكم فيه الخلق والتكوين . أشهد أن لا إله إلا الله ، سوى الإنسان : وعدله ، وفي أى صورة ما شاء ركبه ، ووجهه من العلم والفهم وقدرة التصرف ما وهبه « فتبارك الله أحسن الخالقين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جدد واجتهد وكافح وناضل ، فكان للمؤمنين أسوة وللمناضلين قدوة ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن تمسك بسنته ، وثبت على طريقته : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من عيوبنا الظاهرة سرعة الملل وضعف المغالبة للأحداث والعوائق ، يرسب الطالب مثلاً فيقنط ويترك الدراسة ، وينتحر ويتشرد ، ويعقد التاجر صفقة فيخسرهما أو لا ينال فيها ما توقعه من ربح فيثور ويتمرد ، ويحاول الشخص محاولة فذا لم يفز فيها بكل ما تمنى ضجج بالشكوى والأنين ، وقد ينشأ الشخص وفيه نقص حمى محدود كعوج في ساق ، أو التواء في أصابع ، أو كف في بصر ، فيخيل إليه أنه قد خلق ليكون عالة على غيره من الناس عديم الفائدة ، ولا يفكر في أن يحتمل لعمل شئ حتى يعوض هذا النقص ، ويسير مع الناس في ركب الحياة ، مع أن المواهب والمميزات والطاقات المودعة في الإنسان كثيرة وفيرة ، منها القوى البادية ومنها القوى الخفية ، وقد ينقص الإنسان في جهة فتعوضه الأقدار في جهة أخرى ، بل إن العقبات التي تعترض طريق الإنسان الدائب المكافح تكون كالثقل التي تعجم عودة

القيت في يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٢٢ يناير
سنة ١٩٦٠ م

وتصهر معدنه وتفتق حيلته ، وتفجر فيه ما خفى عنه من طاقات وملكات ،
والنفس الإنسانية عميقة الأغوار بعيدة الحدود ، ولذلك يجرضنا الخالق
جل جلاله على التأمل لها والنظر فيها لاستخراج ما انطوت عليه من آيات
وخصائص . فيقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » فهو يستنكر على الناس
ألا ينظروا في نفوسهم وألا يدرسوا إمكانياتها ليستغلوها وينتفعوا بها مع أن
فيها آيات كثيرة ، حتى قيل إنه ليس في العالم شيء إلا وفي ذات الإنسان
له نظير ، ولذلك قال الشاعر يخاطب الإنسان :

وتزعم أنك كون صغير وفيك انطوى العالم الأكبر !

والتاريخ الحديث والقديم ملء بأخبار الذين قاوموا العقبات وتغلبوا على
المتاعب حتى انتصروا وفازوا ، فهذه فتاة أمريكية تدعى « هيلين كيلر »
فقدت وهي في الثانية من عمرها بصرها وسمعتها ونطقها ، ومع ذلك تحدث
العجز وقاومت هذه الوجوه الثلاثة من النقص ، فتعلمت وقرأت بالأصابع ،
وتكلمت بمركات الشفاه ، وفهمت كلام الناس بلمس شفاههم أو رقابهم
وهم يتكلمون ، وبلغت درجة ممتازة من الثقافة وألفت كتباً ونشرت مقالات
وأصبحت بكفاحها ونضالها إحدى النساء العبقريات ، وجعلت الناس في
المشارك والمغرب يتحدثون عنها كأعجوبة من أعاجيب العزيمة والمثابرة
والإلحاح للوصول لتحقيق ما يبغيه الإنسان لنفسه من مجد ورفعة ، فهي قد
فقدت نطقها وسمعتها وبصرها ، ومع ذلك لم تيأس ولم تقنط ، استغلت
أصابعها ، وصارت عن طريق اللمس تتعرف إلى مختلف الأشياء « ويد الضربير
وراءها عين ترى » كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقي .

وهذا عطاء بن أبي رباح الذي كان في صدر الإسلام . وكان أسود
اللون ، مغلغل الشعر أفضس الأنف أعرج الساق ، أشل الجسم ، أعور العين ،

ثم كف بصره ، ولم تمنعه كل هذه الآفات أن يتعلم ويتقدم ، وينافس ويسبق حتى صار أحد الأئمة الأعلام ، وانتهت إليه الفتوى في مكة ، وكان حجة بالإجماع ، وكان الحكام ينادون أثناء الحج : لا يفقى في الموسم إلا عطاء ابن أبي رباح ، وكان أهل مكة يقولون في عطاء هذا إذا سئلوا عن رأيهم فيه : إنه كالعافية ، إن جاءت الناس فرحوا بها ، وإن غابت عنهم حنوا إليها وربك يخلق ما يشاء ويختار (يراجع كتاب تهذيب الأسماء للنووي)

ولو تنقلنا من عالم الإنسان إلى عالم الأحياء الأخرى لوجدنا فيها أمثلة واعظة بالغة من المتابرة والمقاومة . فهذه هي الطيور الرقيقة الضعيفة تدأب على البكور كل يوم إلى مسارح رزقها ومطارح قوتها ، فتجتمع وتحصل ، ثم تعود مليئة هنيئة ، لا تبالى بما ينالها ، ولا يصددها ما يلحق بها ، حتى ضربها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثلاً للسعي والعمل فقال : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاصاً وتروح بطاناً » . وهذه هي النملة ، هذا المخلوق الصغير الضئيل ، الذي تسحقه الأقدام غالباً لأن العيون لا تراه . . هذه النملة ما أعجبها في دأبها ونصيبتها ، وكفاحها ونضالها ، إنما قد تحاول نقل حبة القمح من مكان إلى مكان ، والحبة أكبر منها وأثقل بكثير ، وتفشل النملة في محاولتها أول الأمر ، ولكنها تكرر المحاولة عشرات من المرات ، ثم تفلح وتنجح في نهاية الأمر : وكأنها تريد أن تقول نلانسان : ألا تعتبر بما بيني وبينك من فروق في الجسم والوزن والمواهب ؟ أليس عاراً من صميم العار ألا تكون مثلي في هذا الدأب وهذه المتابرة ؟ ! .

ولذلك يحثنا الإسلام حثاً قوياً بليغاً على الثبات في الأمر ، والعزيمة في الرشد ، والصبر في مجال الخير ، والتصميم على الاستقامة والمراعاة في مجال الشرف فيقول ، القرآن : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله نعلمكم تفلحون » والصبر هو الثبات على الطاعات ودوام الثبور من

السيئات والمصابرة هي مداومة العدل مع عدم اليأس ، والمرابطة هي ملازمة سبيل الله تعالى ، وهي مأخوذة من الربط على الشيء أى عقدة حتى لا ينحل فيعقد المسلم نفسه على نية الخير ، ويعقد جسمه على عمل الخير . . ويقول الله تعالى مخاطباً نبيه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » أى استمر في طريق الخير والإصلاح ، فإن إخوانك أصحاب العزيمة من الرسل قد جدوا واجتهدوا وجاهدوا ، ولم يصرفهم عن غايتهم السامية صارف ، ولم يعطفهم عن هدفهم الرفيع عاطف ، فاصبر على تبعات الدعوة وتكاليف الرسالة ومكابدة الشدائد والأهوال . . والرسول صلوات الله وسلامه عليه يعلمنا كيف نصبر ونصابر ، وكيف نستمر في الكفاح وندوام ، فيقول : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » ويقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل فإن لو تفتح باب الشيطان » وكأنه يريد أن يطرد عن الإنسان عوامل التردد والاضطراب ، ووساوس النفس الأمارة بالسوء ، ويدعوه إلى الإيمان بأن الله معه يعينه ويقويه فلا محل للعجز أو اليأس ، وكيف يتطرق اليأس والقنوط إلى صدر المسلم وصوت ربه يتردد في سمعه قائلاً له : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » وقائلاً : « ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان أسلافكم أمثلة عليا لدوام النضال ، والمثابرة على الكفاح في الحياة ، وكانت الشدائد أو الظلمات تحيط بهم فلا يعجزون ولا يفرون ، بل يرددون قولهم ﴿ الغمرات ثم ينجلينا ﴾ أى تأتي المصاعب فنثبت لها حتى

تزول : والحياة بتبعاتها محتاجة إلى عقل وجسم ، وصبر وعزم ، فلنتخلق
بخلق المثابرة ، ولنتحصن بروح العزيمة ، ولنقبل على الحياة صالحين فيها ،
مصلحين لها ، منتفعين منها ، نافعين بها « ولأن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم
الأمور وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله
الذى أنتم به مؤمنون . .

من آداب الاسلام

لك الحمد يا مصدر الكمال وواهب الجمال ، أنت الذى تقسم المعاش والعطايا بين عبادك ، فمنهم شقى وسعيد . وفيهم قريب وبعيد ، والآخرة عند ربك للمتقين . نشهد أن لا إله إلا أنت تحصي القليل والكثير ، وتحاسب على القتيل والقطمير « وكفى بنا حاسبين » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من تأدب وأدب وقوم وهذب ، فصدق فيه قولك الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » فصلواتك اللهم وتحياتك ورحماتك وبركاتك عليه وعلى آله وصحبه ، وجماعته وحزبه ، أولئك الذين أشرفت أرواحهم بنور ربهم ، فهدوا به فى أحلك الظلمات وأخرج الشبهات ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم .

يا أتباع محمد عليه السلام . .

سأتعهد اليوم أن أترك خلقى ما تعارفتم على أنه من جلائل الأمور ومشاغل الصدور ، فلن أتحدث عن هذه المشكلة ولا عن تلك المعضلة ، مما يقنق المضاجع وتهتم له الجامع ، ولكن سأتحدث إليكم عن أمر تحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، ذلكم هو استخفاف الكثير منا بالكرامة الإنسانية والحرمة البشرية حين يسخر من صاحب العاهة أو يهزأ بمن نالته آفة ، فيبدو فى صورة المعترض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ، وذلك داء يصيب الساخر فيجعله محطاً لنقمة العزيز الجبار ، مستحقاً للعنة وسوء القرار . وخذوا لذلك مثلاً من بين مثات الأمثال :

شاهدت رجلاً متعالياً على خلق الله يؤنب رجلاً مكفوف البصر على خطأ ارتكبه ، فسمعته يقول له ثائراً ساخرأ « لا لوم عليك فلأنك أعمى » ! وكأنما

جمع الرجل في كلمة « أعمى » هذه كل صفات الإهانة والتحقير فنزلت على كاهل الرجل المكفوف صخرة حاطمة . . وكثيراً ما نسمع من لا خلاق لهم من الآدميين يقولون لمثل هذا المكفوف ساخرين « حقيقة إن كل ذي عاهة جبار » إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاحتقار .

إن هذا أولاً سوء أدب مع الخالق والمخلوق فلو أراد الله سبحانه لجعل الساخر المبصر مكان المسخور منه الأعمى ، فكان الواجب حينئذ على المرء أن يتذكر نعمة الله عليه ومقدار عطائه له ، وأن يأسى ويأسف لحرمان المحروم مما تمتع به هو ، وأن يسأل له من فضل الله وعوضه ما يجزيه خير الجزاء عما أصيب به من نقص في جانب من جوانب خلقته ، بدل أن يهزأ به ويسخر منه ويتندر عليه فيستوجب بذلك لنفسه المقت والغضب ، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إن البلاء موكل بالمنطق ، ولو سخرت من كلب لخشيت أن أصير كلباً ! . وليس وراء هذا التحفظ والتحرز من عبد الله غاية لمتباعد عن رذيلة الاستهزاء !

ولست أدري والله لماذا يسخر الساخر مثلاً من الأعمى ؟ لئن كان الأعمى قد ولد مكفوف البصر فذلك سابق القضاء وحكم القدر ، والسخرية مما سبق في علم الله وجرى بحكمته وهداه محاربة له وتطاول عليه ، ومن يفعل ذلك فقد باء بسخط من الله وعذاب شديد ، وإن كان المكفوف قد فقد بصره في حادث أو جهاد أو كسب رزق أو تحصيل علم فذلك شرف له ، ومنزلة عليا تنتظره عند ربه ، ليسعد يوم لقائه برؤية جلاله ، والافتباس من نوره والذي أشرقت له الظلمات وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولذلك روى عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه عن جبريل رب العزة والجبروت ، قال : يا جبريل ، ما ثواب عبدى إذا أخذت كرميته (أى عينيه)

إلا النظر إلى وجهي والجوار في دارى ! . قال أنس : فلقد رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبكون حوله يريدون أن تذهب أبصارهم (وذلك اشتياقاً منهم إلى التمتع برؤية ربهم وهي نهاية النعيم في جنات الخلود) . . وحتى لو فقد المكفوف بصره في معصية لكان مستحقاً للرحمة والثناء بدل التطاول والاستهزاء . فرب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيراً من طاعة أورثت عزا واستكباراً ، ورأفتك بالمفرط المكسور عون له على أن ينجبر ويستقيم . وأما سخريته منه فتحريض له على العناد والابعاد في مهاوى الفساد ، لقد شرب رجل الخمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فضربوه حداً وتأديباً ، فقال له بعض الصحابة : أخزأك الله ! . فغضب النبي من ذلك وهتف : لا تقولوا هذا ، لا تعينوا الشيطان عليه ! .

قد يكون الرجل المكفوف البصر المزدري في أعين الناس كريماً عند الله رفيع المكانة لديه قريب المنزلة إليه لتفتح قلبه وإن ذهب نور عينيه ، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ، فهذا هو ذا الصحابي الجليل عبد الله ابن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد من قريش وهدايتهم إلى الله حتى يتابعهم سواهم ، فلا يجهد الرسول فرصة عاجلة لينفرد بها بهذا المكفوف الساعى ، فينزل الله تعالى سورة كتابه ، يعاتب بها نبيه على إهمال ذلك الكفيف ، فيقول عز من قائل معاتباً ومعرضاً وموريا : « عيس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكري ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك أن لا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى كلا إنها تذكرة » ولا يصف القرآن الكريم ابن أم مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » في صراحة وجهر ، كأنه يريد أن يقول إن هذا الوصف الذي قوبل صاحبه بالإهمال أو الإهمال كان هو نفسه جديراً بأن يقابل بالرفقة والرحمة والاحتفال ،

وصلوات الله وسلامه على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متممًا لمكارم الأخلاق ، وجعله على خلق عظيم ، ولذلك كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به وقال له : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، هل لك من حاجة ؟ وجعله خليفة ورائه على المدينة عدة مرات مع أنه كفيف لأن العبرة بجمال النفوس وطهارة القلوب وسعة العقول ، ولذلك كف بصر عبد الله بن عباس فكان يقول :

إن يأخذ الله من عيني نورهما فقي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي ، وعقلي غير ذي دخل وفي صام كالسيف مشهور

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان ، وبقائه في الحياة بين هؤلاء الأحياء بدون عيونه يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من المخازي ومشاهدة عديد من المآسي ، ويعف نفسه عن معاينة تلك المفسدات المكشوفة والمخارم المثوفة ، فقد أصبحنا في زمن وبيل عليل تترامى صورته وحوادثه أقداء في عيون الناظرين فغشيها وتلميها ، ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه فلا يرى فيها من أناسها من يستحق التأمل فيه أو الاعتماد عليه ، ولذلك جعل يقول :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم الله يعلم أني لم أقل فنسدا
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

فكيف لو تأخر الزمن بهذا الشاعر حتى أدرك زماناً تعيش فيه بأبصارنا ، ونحن نتمنى أن نفقدنا لنستريح من خزي ما نرى ونشاهد ؟ ماذا كان يقول لو أدركنا زماناً كذا الزمان أهون ما يوصف به أهلوه قول القائل :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنسكرون لكل فعل منكر
وبقيت في خلف يزكى بعضهم بعضاً ليدفع معور عن معور

وتاريخ المسلمين الطويل العريض يفيض بمفاخر العظماء الأبطال
المكفوفين الذين لم تحل هذه العاهة بينهم وبين أن يكونوا في طليعة الأئمة من
الفقهاء العلماء الأدباء الشعراء وما هو ذا شوقى يخاطب ملكاً مصرياً في شأن
من يضمهم الأزهر المعمور من مكفوفى الشيوخ والشباب فيقول له مشيداً
بهم مفاخرأ بشأنهم :

نظراً وإحساناً إلى عميائه وكن المسيح مداوياً ومجسراً
والله ما تدرى لعل كفيفهم يوماً يكون أبا العلاء المبعصراً
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد غنياً وجل المشتري والمشتري

وحتى لو قصر الكفيف أو تقاصر عما يسبق إليه غيره من أعمال ومهام ،
لما كان ذلك مجوزاً لنا أن نشط معه في الحساب ، أو نغلظ له في الخطاب ،
لأن الحق تبارك وتعالى قد جعل عاهته وما شابهها مسوغاً للمعذرة وسبباً لعدم
الخرج حينما يجب أن لا يعتذر غيرهم من الناس فقال القرآن الكريم : « ليس
على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج » . .
ومن هنا كان واجباً على ذى الخلق الشريف أن يحسن التصرف والخطاب
مع ذى الكفيف ، وأن يتجنب معه ما يثير في نفسه ألم الحسرة على فقدان
ما فقد من نعمة يتمتع بها سواه ، ولقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا
قصيدة يصف فيها صاحبها مدينة خربتها لإغارات الأعداء ، وكان فينا رجل
كفيف حساس ، وكان في وسط القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضرير » الخطا ينقل في كل بيت قدام

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده
فيها فلما انفردت به سألته عن سبب تخطيه له ، وأنا أريد أن أؤكد ظناً كريماً
جال بخاطري عن تصرفه . فقال لقد لحت كلمة « ضرير » في البيت قبل أن

أنطق به ، فخشيت أن تخرج إحساس « فلان » فتخطيته ! فشكرت له صنيعة ،
 وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق يسرى في صفوف الجميع ! .
 يا أتباع محمد عليه السلام . . .

سيخرية القوى بنقص الضعيف ليست من شيم الرجل الأصيل ، والتذكير
 بالعورات أو التندر بالعاهات ليس من طبع المسلم النبيل ، والمرء يفقد
 إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الأمانة بالسوء أن تستطيل بالاستهزاء
 أو الاستخفاف على رجل امتحنه الله وابتلاه لحكمة يعندها ولا نعلمها بعلة
 مزمنة أو عاهة دائمة ، وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوماً بالأجسام
 أو الأشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال ، فطهروا ألسنتكم من خنا
 القول وفحش التعبير ، وانطلقوا تحت لواء الله إلى دنيا عريضة من مكارم
 الطباع ومحاسن الشيم وفضائل الآداب : واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ،
 إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال عليه الصلاة والسلام : بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ،
 كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه : إذا أخذت كريمتى
 عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم ،

الإسلام دين النظافة

لله الحمد يريد لعباده الرفعة في كل الأمور ، ويجرضهم على التخلص من الآفات والشور ، ويدعوهم إلى التباعد عن مزالق الشرور ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . نشهد أن لا إله إلا أنت تحب الصفاء فيما ظهر وما بطن ، والطهارة فيما استعلن واستكن « إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبدك ورسولك ، كان إمام الأئمة في السمو ، ومضرب الأمثال في العلو فلا منقصة ولا اعتلال بل تمام وكمال ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المترفعين عن كل ما يعيب أو يشين ، وأتباعه المتجملين بكل ما يرفع ويزين ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا قست الشمس وارتفعت الحرارة واشتد الجو ، كثرت الهوام والذباب ، وظهرت الأمراض والأوصاب ، وتضاعف العرق وتضايقت النفوس ، وحينئذ لا بد من مضاعفة الجهود لتوفير النظافة وتحقيق الطهارة ومحاربة الجراثيم لتسلم البلاد وينجو العباد ، ولن يكون ذلك عن طريق التخويف والإرهاب ، أو الحساب والعقاب ، بل يتم ذلك عن طريق الاقتناع والإيمان ، لأن العقيدة في نفس المرء قوة خارقة تأتي بالأعاجيب ، فما رأيكم حين أقول لكم إن دينكم الإسلامي الطهور الذي تدِينون لله به وتؤمنون بتأديبه ، لا يمثله دين ولا يقاربه تشريع أو قانون في الاهتمام بالطهارة والعناية بالنظافة ، والدعوة إلى التجمل وحسن المظهر في الجسم والثياب ؟ !

نشرت بمجلة الشرق العربي في ٢٦ مايو سنة ١٩٥٠ م

إن الماء مثلاً وهو الوسيلة الأساسية الفعالة في التطهر والتنظيف قد احتل مكانته الهامة في القرآن الكريم ، فالحق تبارك وتعالى يقول : « وجعلنا في الماء كل شيء حياً » ويقول « وأنزلنا من السماء ماء طهوراً » ويقول « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » وقد تكرر ذكر الماء في القرآن الكريم أكثر من ستين مرة ، مما يدل على أنه أراد أن يلفت الأبصار والبصائر إلى قيمة الماء ونعمته في الاقتدار على النظافة والنقاء .

ولفظ الطهارة بمعناها الحسى قد ذكره القرآن الكريم بصورة كثيرة مختلفة تدل على أن الإسلام هو دين الطهارة والبراءة والعلاء . فهو يقول « فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » ويقول : « وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » ويقول « وثيابك فطهر والرجز فاهجر » ويقول « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » ويقول « وإن كنتم جنباً فاطهروا » ويقول « في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون » وغير ذلك من الآيات .

وما رأيكم في فريضة الصلاة التي يؤديها المرء المسلم كل يوم خمس مرات على أقل تقدير والتي هي مناجاة للرب ودعاء وهيام للروح في ملكوت السماء؟ . لقد اشترط الإسلام لصحتها وأداؤها أن يكون المرء طاهر آفي ثيابه طاهر آفي مكانه مجدداً الطهارة في أطرافه ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « مفتاح الصلاة الطهور » وأعز الرسول شأن هذه الطهارة فقال « الطهور شرط الإيمان » والوضوء الذي يتكرر غالباً بتكرار الصلاة كل يوم عدة مرات يتناول سائر الأطراف المعرضة للمس والاستعمال والغبار والأوساخ وهي اليدين والذراعان والوجه بما فيه من عينين وفم وأنف والأذنان والرقبة والرجلان . . . ومن لطيف ما يذكر

هنا بمناسبة نظافة الشعر أن الرسول التظيف المحرض على النظافة يقول (من كان له شعر فليسكرمه) وذلك يكون بطبيعة الحال بغسله وتنظيفه وتمشيطه ودهنه بطيب أو نحوه ولقد دخل عليه شخص نثر الشعر فقال النبي (أما كان عند هذا دهن يسكن به شعره ، يدخل أحدكم كأنه شيطان) .

ولم يكتف الإسلام في نظافة الفم بغسله وإدارة الماء فيه عند المضمضة ، بل أمر بالسواك وما شابهه من وسائل التطهير والتنظيف ، ولذلك يقول الرسول (عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم مرضاة للرب) ويقول (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) ليس السواك مقصوداً لذاته ، بل كل ما مثله من فرجون أو فرشاة أو معجون أو مطهر للأسنان يؤدي وظيفته ويقوم مقامه . . وهناك بعض الذين لا يدركون مقاصد الدين السامية على وجهها يتشددون ويضيقون الواسع ويخرجون بالشرع عن حكيمته ، فلا يرضون بعود الأراك وهو السواك بديلاً ، وتراهم يشتطون بالتمسك به والتنفير من سواه ولو أدى وظيفته أو زاد عليها ، ويحتجون بأن السواك هو المأثور ، وأنه هو الذي استعمله السلف في صدر الإسلام ، وأكد أجزم جواباً لهؤلاء وتخفيفاً لتشددهم أن المسلمين لو عرفوا في صدر الإسلام ما اهتدى إليه الإنسان المعاصر الذي علمه ربه ما لم يعلم من وسائل التنظيف والتطهير وخاصة ما يتعلق منها بنظافة الفم ، لو عرف المسلمون قديماً هذه الأصناف والمطهرات لاستعملوها ودعوا إليها واعتبروها من عاداتهم وتقاليدهم فالغرض المقصود إذن هو الطهارة والنظافة نسلك إليها أى سبيل فإذا وجد عود الإدراك وسهل استعماله فيها ونعمت ، إذن لم يوجد إلا غيره من معاجين أو سوائل أو مطهرات فلا مانع مطلقاً من استعمالها وباستعمالها يكون الإنسان قد حقق ما هدف إليه الإسلام من تحبيب في الحرص على نظافة الفم باستمرار ، حتى تسلم الأسنان من الآفات ، وحتى يتطهر الفم من

الفضلات وحتى نزول الرائحة الكريهة ، وحتى لا تتسبب وساخة الفم في أمراض المعدة وغيرها من العلل .

ولم يكتف الإسلام بهذا المقدار في تعويد أهلية على النظافة والأناقة ، بل شرع لهم غير ذلك من وسائل التطهر والتباعد عن الأنجاس والقاذورات والأوساخ ، فشرع لهم حلق الشعر وتقليم الأظافر ونتف الابط وحلق العانة والاستنجاء والاعتسال . . ومن بديع حكمة الإسلام في الغسل أنه ربطه بمواد تتكرر كثيراً كالوقاع والحيض والنفاس والجمعة والعيدين والاحرام والطواف وغير ذلك وكأنما ربط الإسلام مشروعية الغسل بهذه المواطن المتكررة لكي يدفع المسلم في مواعيد محددة ومكررة إلى الاعتسال والاستحمام فلا يكون ذلك موكولاً إلى مواعيد مبهمه قد يرها قوم ويضيعها آخرون ! .

ولو نظرنا إلى سيد الأمة ونبي الملة محمد صلوات الله عليه لوجدناه المثل الأعلى في هذه الناحية فقد كان أصنى الناس طلعة وأبهام منظرآ ، وأنظفهم جسماً وأطهرهم ثوبآ ، وأبعدهم عن الوسخ والقذر ، ولقد كان من مبالغته في حرصه على النظافة يخص يده اليمنى بالشريف من الأعمال كالطعام والشراب والسلام ، ويجعل يده اليسرى للخلاء وإزالة الأذى ونحوه ، وبذلك تظل اليد اليمنى طاهرة متباعدة عن مظنة التلوث بما يعيب أو يسوء ، وكان صلوات الله عليه من حبه للنظافة والنقاء يكثر التطيب وكانت ثيابه كأنها ثياب دهان أو عطار من كثرة استعماله لكريم العطور ، ومن قوله (من عرض عليه ريحان فلا يرده فإنه طيب الرائحة خفيف الحمل) وكان يرجل شعره ويفرقه ويدهنه ويتزين في مظهره وهندامه إذا خرج لأصحابه أو ضيفانه ، وكان يختار أنظف ثيابه لصلاته وخاصة صلاة الجمعة ، وكان يحب صحابته في أن يخصصوا ثوبين ليوم الجمعة وحده . وكان عليه صلوات ربه يستاك مفطراً (م ٣٣ - خطب ج ١)

وصائماً ويستاك عند الانتباه من النوم وعند الوضوء وعند الصلاة وعند دخول المنزل ، وكان يكثر دهن رأسه وكان لا يرد الطيب ، وكيف وهو القائل (حجب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة) وكان يكره الرائحة الكريهة وينفر من أسبابها ، ولذلك كان لا يأكل البقول أو الخضروات التي لها رائحة شديدة كالبصل والثوم والكراث ونحوه وكان يأمر من يأكلها بأن لا يقترب من المسجد أو مجمع الناس ، ومن اضطر إلى أكلها لغرض فليطبخها حتى تزول عنها رائحتها .

وكان صلوات الله عليه من نظافته وأناقته يتمتع بطيبات ربه في ثيابه فقد لبس على رأسه القلنسوة والعمامة والمغفر ولبس القميص والحبرة والفروج والقباء والأزرار والرداء والحلة والبرد البماني والقروة المكفوفة بالسندس والجة المكفوفة بالديباج ، وكان أحب الألوان إليه البياض والأبيض عنوان الصفاء والتقاء ، ولبس الخاتم والحفين والنعل وكان في استنجائه يجمع أحياناً بين استعمال الحجر والماء ليكون ذلك ادعى إلى كمال التنظيف ، وعن عبد الله بن عباس قال : لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل ! . . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . فقال رجل : يا رسول الله ، إني أحب أن يكون ثوبي نظيفاً ونعلی حسنة ، أفمن الكبر ذاك ؟ . فقال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغطت الناس ! .

ولم يقتصر الإسلام على نظافة الجسم من الظاهر ، بل أراد أيضاً أن

يعمل المرء ما استطاع على تطهير باطنه وداخله لأن الصلة وثيقة بين الباطن والظاهر ، فإذا صلح الجوف فاضت صلاحيته على الأطراف والأعضاء ، وإذا خبث ألقى ظلاً من خبيثه على الظاهر ، ولذلك نرى الإسلام يبغض المسلم في أن يأكل حراماً ، لأن الحرام يفتح الباب للنهم والطمع والجشع ، وهذه آفات تجعل جوف المرء ماعوناً يلتقي فيه ما طاب وساء فيكون ذلك سبباً للمرض والتلف وكذلك أمر الإسلام بالاعتدال في الطعام والشراب وعدم الإسراف فيهما حتى لا يؤدي ذلك إلى فضلات تضر وتعيب والقرآن الكريم يقول (كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) ويقول الرسول : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع . ويقول : المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أيس من أعجب العجب ، بل من أشد دواعي الأسى والأسف أن يكون الإسلام دين النظافة ، وأن تكون النظافة من الإيمان ، وأن يكون للطهارة كتاب طويل عريض بين كتب الفقه الإسلامى ، وأن يرد في الحديث أن الله نظيف يحب النظافة جميل يحب الجمال ، ثم يظل أكثر المسلمين بعد هذا وسخين قلدرين ، لأن المخادعين أو الجهلاء بالدين قد أوهموم أن المرء لا يكون متديناً أو صالحاً أو متصوفاً إلا إذا كان وسخاً قذراً غير نظيف الثياب وكم لهم في هذا المجال من مضحكات أو ميكرات ، وما هكذا يكون الإسلام يا أبناء الإسلام ، بل الدين جمال وكمال وطهارة وسمو وعلو ، فطهروا أجسامكم وثيابكم وقلوبكم وأمعاءكم ، وأعطوا عن الإسلام صورة صحيحة ، تشعر أعداءه قبل أصدقائه أنه شرعة الطهارة والصفاء والنقاء ، ودين الرفعة والخلود والبقاء . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون :

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

الجزائر المسلمة

الحمد لله عز وجل ، فتح القلوب بنور اليقين ، وعصم المؤمنين بحبله المتين « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحكم لامعقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نصره ربه بالرعب ويمكن له بالحب ، فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

معذرة إليكم إذا امتدت رحلتنا الإسلامية بعض الامتداد في شمال أفريقيا ، فوقفتنا اليوم أمام الجزائر العربية المسلمة ، لأن هذا الجناح من وطننا الكبير ظل مجهولاً لنا وقتاً طويلاً بحكم الاحتلال الأجنبي والاستعمار الأوربي ، واستطاع شياطين الإثم والبغى أن يحولوا بيننا وبين أشقائنا هناك زمناً طويلاً ، ولولا ثورة الجزائر التي حطمت القيود وفتحت الحدود لظلنا على جهلنا وانفصالنا ولكن وقعت - بين الجبال والوهاد ، والسهول والنجاد . من أرض الجزائر - قصة الكفاح البطولي والنضال الرائع ، فقامت ثورتها شاهداً أى شاهد على أن أبناءها هم أحفاد أولئك الأجداد الذين رباهم الإسلام فأحسن تربيتهم ، وأدبهم فأحسن تأديبهم ، وكثير من الناس ينظرون إلى الجزائر على أن أهلها شعب عربي إسلامي . ولكن الاستعمار الأوربي الناشم ما كان ينظر إلى أهل الجزائر إلا على أنهم مسلمون يجب أن يخرجوا عن

القيت في يوم الجمعة الموافق ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٧ م

إسلامهم ليضمن الاستعمار بقاءه فيهم ، ولذلك كانت المعركة في الجزائر معركة إسلامية ، دارت رحاها بين الصليبية الأوربية الاستعمارية والكيان الإسلامي العميق الجذور ، وكانت البلاغات الحربية الاستعمارية تصف المجاهدين في الجزائر بوصف « المسلمين » لا بوصف العرب ولا بوصف الجزائريين وبلغ من حقد هؤلاء المستعمرين هناك أنهم كانوا يرددون قولهم : « إذا رأيت مسلماً وأفعى فبادر بقتل المسلم قبل الأفعى » ولندكر هنا أن أول بيان صدر لثورة الجزائر سنة ١٩٥٤ جاء فيه : « إننا ننادى شعبنا ليتحرك حتى يعيد للجزائر وجهها الإسلامي الصحيح »

وكان الاستعمار يدرك بوضوح أن الإسلام في الجزائر يعتمد على ركيزتين عقيدة ولغة ، فعمل على طمس اللغة العربية القرآنية في الجزائر ، وبذل في سبيل ذلك جهوداً إبليسية جبارة ، ومع ذلك بقيت لغة القرآن في الجزائر ، وبقيت اللغة العربية الفصحى بوجه خاص في الياضية الواسعة بأرض الجزائر ، ثم عمد الاستعمار فيها إلى نشر البعثات التبشيرية لمحو الإسلام ونشر النصرانية ، وفعل من أجل ذلك الأفاعيل ، ولكن الإسلام ظل شامخاً مرتفع الهامة موفور الكرامة . واستعان الاستعمار باليهود مطية الخيانة والغدر في كل مكان ، قتالوا مع الاستعمار ، وعاثوا بالفساد في البلاد ، ولكن هذا لم يثن المسلمين عن استمساكهم بدينهم وإسلامهم ، وهدم الاستعمار المساجد في الجزائر وحولها إلى كنائس ، وألغى مكاتب تحفيظ القرآن الكريم . واستولى على الأوقاف الإسلامية وعبث بها ، وحاول بكل وسيلة أن يجعل الجزائر قطعة من فرنسا ، وأن يعطى أبنائها الجنسية الفرنسية ، ولكن المسلمين الثابتين على دينهم أبوا ذلك ، وصدرت فتوى جمعية العلماء والمسلمين الجزائريين تقول إن من يترك جنسيته وإسلاميته وعرويته ويتجنس بجنسية الاحتلال

يكون مرتداً عن دينه ، فاستعاذ الشعب من نكبة الارتداد ، واستمر على طريق الجهاد ، وحينما كان يأتي واحد من كبار المحتملين لزيارة الجزائر كان يسمع الهتاف الهادر من أهل الجزائر : « الجزائر مسلمة ، وستبقى مسلمة » .

ولقد حاول مكر الاحتلال أن يصل إلى رغبته عن طريق بذر بذور الفتنة والخلاف والتمزق بين أبناء الشعب المجاهد ، وكاد الاحتلال اللئيم الزنيم ينجح في ذلك . ولو نجح لكانت مصيبة الأبد ، ولكن الشعب تنبه فأخذ حذره وجمع أمره وعرف طريقه : طريق الوحدة والاجتماع ، وهذا يذكرنا بموقف مشهود في تاريخ شمال أفريقيا ، فقد حدث خلاف بين البطل الفاتح عقبة بن نافع وبين مناضل آخر اسمه أبو الجهاد دينار ، فأسره عقبة ليأمن طموحه أو تمرده ، ثم حدثت موقعة بين عقبة وبين أعدائه اشتد فيها الأمر جداً على المسلمين ، حتى صار عقبة في عدد قليل من الجنود على حين تكاثر عدد الأعداء ، ورأى أبو المهاجر وهو في قيوده هول الموقف ، فلم يشمت في عقبة ، بل تحلت روحه الإسلامية وترقرق الدمع في عينيه ، وجعل يردد قول القائل :

كفي حزناً أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقها

وسمعه عقبة وهو يقول ذلك في تأثر ، ففك وثاقه وأطلق سراحه وقال له : « انطلق وألحق بجماعة المسلمين لعلك تحمل الأمر بعدى ودعنا نغم الشهادة أنا ومن معي » فأبى قائلاً : لا والله ، بل أغتتم الشهادة معكم » ونسيت الأحقاد وظهرت أصالة الرجال ، وتحلت أخوة الإسلام ، وجاهد أبو المهاجر مع عقبة وجنوده حتى ذاق الاثنان الشهادة مع الآخرين ، فذكروا الدنيا بقول ربهم في سلفهم : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » .

والجزائر التي تشتهر بسلسلة جبالها : جبال الأطلس ، وجبال الأوراس ، التي توجد فيها أشجار البلوط والصنوبر والأرز ، وكلها أشجار سامقة باسقة ترفع هاماتها إلى السماء في شمم وإياء . هذه الجزائر قد علمت أهلها العزة والنخوة والثورة على الذل والهوان ، فخاض ابناؤها ثورات متعددة خلال عهود الاحتلال المظلمة التي بدأت سنة ١٨٣٠ ، واستمرت أكثر من مئة وثلاثين عاماً ، ثم قامت الثورة الكبرى التي ظلت سبع سنوات طويلة ثقيلة الأعباء جليلة التبعات ، قلمت فيها الجزائر مليوناً من الشهداء مع أن تعدادها لا يبلغ عشرة ملايين ، وبهذا المليون من الضحايا انتزعت حريتها وحصنت كرامتها وأخرجت أعداءها ، ولقد ضرب المجاهد الجزائري مثلاً رائعاً في البذل والإقدام والثبات ، لتمكن الإسلام من قلبه ، وسيطرة العقيدة الدينية على كيانه ، ولأنه لم يصب بعلل الترف والرفاهية والتمتع والنعيم ، فهو ابن الجبال ، وهو ابن الطبيعة القاسية التي تعجم الأعواد وتمحص العزائم ، وهو الذي خرج إلى المعركة وشعاره : النصر أو القهر ، والسيادة أو الشهادة ، والله لا يخيب مسعى المجاهدين المؤمنين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

السحب من حولنا كثيرة ، ولكننا لم نبلغ مرحلة اليأس ، فقد ظلت فرنسا في الجزائر أكثر من مائة وثلاثين عاماً ، ومع ذلك خرجت وظل الانجليز في مصر أكثر من سبعين عاماً ومع ذلك خرجوا ، وفلسطين لم يمض على احتلال اليهود لها عشرون سنة ، فكيف لا يخرجون ، ومن قبل ذلك احتل الصليبيون فلسطين عشرات وعشرات من السنين ومع ذلك خرجوا ، فلا تياسوا يا قومنا ولنلم شملنا ، ولنتعرف سبيلنا . ولتواصل نضالنا ، ولنكن مع الله ليكون الله معنا . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

زلازل في تركيا

الحمد لله عز وجل ، هو سامع النجوى ، وكاشف البلوى : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو وحده الملجأ إذا ضاقت السبل ونفدت الحيل : « هذا نذير من النذر الأولى ، أذفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع القلوب على وحدانيته ، وربط بينهم بدينه وعقيدته ، فكانوا زينة العالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

في غمرة الأحداث القاسية التي مرت علينا في شهر يونيه تعرضت تركيا لزلازل عنيفة هلمت الكثير من المنازل ، وشردت الآلاف من السكان وقتلت المئات من الأفراد ، والزلازل مظهر من مظاهر الطبيعة حينما تشتد على الناس وتعنف ، ولعلها لون من ألوان التخويف والتذكير برهبة جلال الله عز شأنه حين تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرز والله الواحد القهار : « يوم ترجف الأرجفة ، تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة » ، « إذا رجفت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً » . وفي تركيا شعب مسلم متدين بصفة عامة ، وهو ما زال برغم ما حدث فيه وتعرض له يشترك معنا في شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويتجه معنا إلى القبلة التي نتجه إليها ، ويقرأ القرآن الذي نقرأه ، ويحج إلى البيت الذي نحج إليه ، وإذا كنا لا ننسى أن العثمانيين قد ارتكبوا مجموعة من الأخطاء ، فإن هذا لا يلغى إسلام الشعب التركي ، وهناك فرق واضح ينبغي أن نلاحظه دائماً بين الحكام

والشعب ، فقد يخطئ السلاطين والملوك وينحرفون ويستغلون ولكن الشعوب منطوية الجوانح على الخير وعلى الاتجاه السليم والشعور القويم ، ولعل هذا يذكرنا بقول رسولنا صلى الله عليه وسلم : « يد الله مع الجماعة » وقوله : « لا تجتمع أمي على ضلالة » .

وإن بيننا وبين الشعب التركي المسلم علاقات أخوة ومودة صنعها الإسلام وظلت أكثر من ألف عام ، وإذا كانت مكائد السياسة وأحداث التاريخ قد أثرت في هذه العلاقات خلال بعض الأوقات ، فإنه من الممكن بصفاء النفوس وإخلاص النوايا أن نستعيد العلاقات الإسلامية مع الشعب التركي ، لكي يشارك معنا في مقاومة الصليبية الاستعمارية والصهيونية العالمية ، ولقد وقفت تركيا بجانبنا وأيدتنا في الاجتماع الطارئ لهيئة الأمم المتحدة ، فأدانت العدوان الإسرائيلي الاستعماري ، وطالبت مع غيرها بانسحاب المعتدين ، ثم اشتركت في محاولة طيبة مع الباكستان لحمل إيران على تأييد القضايا العربية وإدانة إسرائيل ، وقد حدث هذا من تركيا بعد فترة قاربت الخمسة عشر عاماً كانت العلاقات بيننا وبينها متوترة أو غير مستقرة ، وقد تمنيت ومازالت أتمنى لو أننا انتهزنا فرصة الموقف الطيب من تركيا ، فعملنا على تنقية العلاقات بيننا وبين الشعب التركي المسلم ، حتى يزداد الجميع قوة في باب التضامن والتعاون : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، وتمنيت أو أن شعبنا العظيم خصص جزءاً من عنايته لزلزال تركيا ، وجمع أي مقدار رمزي من التبرعات للمنكوبين ، وأسهم بنصيب في تخفيف ويلاتهم بالإسعاف والنجدة ، حتى يكون ذلك لوناً من الاهتمام بقول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في

حاجته « وقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

إن الله تبارك وتعالى قد علم كل موحد له ، أن يعد نفسه جزءاً من كل وبعضاً من مجموع ، ولبنة في بناء ، فقال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وطبعنا ربنا على حب الوحدة والتآلف والمشاركة الجماعية حتى في مقاسم الدعاء ، فشرح لنا أن نقول كل يوم مرات عديدة في صلواتنا : « إياك نعبد وإياك نستعين » لا أن تتسرب النزعة الفردية إلى الدعاء ، فيقول المصلي « إياك أعبد وإياك أستعين » . وشرح لنا أن نقول في هذه الصلوات أيضاً : « اهدنا الصراط المستقيم » لا أن يقول كل مصلي عن نفسه : « اهدني الصراط المستقيم » وأوجب بين المسلمين من التعارف والتعاطف والأخوة الإيمانية ، ما يجعلون به كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » هي الإطار الواسع الرحيب الذي يضم تحت جناحيه كل موحد بربه ، وكل عامل على خير إخوته في العقيدة والدين ، وتجعل كل فرد دخل هذا الإطار يحس بإحساس الجميع ، ويتجاوب في السراء والضراء مع الجميع ، فلو أن شخصاً في هذا الإطار عطس وهو بأقصى المشرق لهُتف به أخ له في أقصى المغرب يرحمك الله ، وقد صور الشاعر الحكيم هذا التآلف المؤمن العميق بقوله :

وإذا ما أن بالعراق جريح لمس المشرق جنبه في عمانه !

وينبغي لنا أن نفرق بين حكام أتراك يقبلون ويرحلون ، ويعتدلون أو ينحرفون ، وبين شعب تركيا المسلم الذي ما زال يدين بالاسلام وما زال صالحاً ببذل جهود موفقة لكي يجي في صدوره مودة الإيمان لإخوان له يشاركونه في الاعتقاد ، على الرغم مما حاوله بعض حكام الأتراك من قطع تركيا عن الركب الإسلامي والعربي ، ومن صبغها في رسمياتها ومظاهرها

بالصبغة العلمانية التي لا تنتقيد الإسلام ، ولقد زرت تركيا منذ سنوات فرأيت مساجدها الكبيرة الكثيرة ما زالت يرتادها الألوف المؤلفة من الأتراك ، وما زال التدين بالإسلام متمكناً في الشعب ، وبخاصة في المناطق الريفية الواسعة التي لم تتلوث بمفاسد التجديد والمدنية ، وهم يعظمون القرآن ويبالغون في احترام علماء الإسلام ، ولقد يبكي الكبار منهم يرون عمامة تنموج رأس رجل يشرف نفسه بالدعوة إلى الإسلام ، ومثل هذا الرصيد الإسلامي الضخم الذي ما زال مطويماً في الحنايا والصدور يستحق أن نعني به وأن نستفيد منه ، وإذا كنا ندعو أنفسنا إلى هذا فن واجبنا أيضاً أن ندعو الشعب التركي إلى أن يحمل نفسه وحكومته على مزيد من خطوات الالتقاء بالأمة العربية المؤمنة ، وأن يحول دون أي تعاون بين بلاده وبين الدول التي تسمى إلى الأمة العربية التي اختارها الله جل جلاله لتكون حاملة دعوته من يد رسوله صلى الله عليه وسلم إلى العالمين في مشارق الأرض ومغاربها .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إننا بحاجة ملحة إلى مراجعة كشوف الأصدقاء وكشوف الأعداء ، فقد نقل أسماء من صفوف الأعداء إلى صفوف الأصدقاء ، وما أخرجنا إلى الاستكثار من الأصدقاء والتبصر للأعداء ، حتى نرغم البهتان والطغيان على الزوال ، ونمضي في طريقنا نحو العزة والحرية والكرامة ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

المسلمون والقدس

الحمد لله عز وجل ، دعنا إلى الحق ، وأمر بالصدق
 « ومن أصدق من الله قيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق
 بكلماته ، ويزهق الباطل بآياته : « بل نقذف بالباطل فیدمغه فإذا
 هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ،
 كان الحق شعاره ، والصدق دثاره ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى
 آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون » .
 يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نشرت مجلة الوكالة الصهيونية في لندن منذ حين مقالا تزعم فيه مزاعم
 تضليلية كبرى يراد منها ومن أمثالها تزييف التاريخ ، وتحريف الحقائق ،
 والافتراء على الله وعلى الناس ، ومن أضاليل هذا المقال أنه يزعم أن عناية
 المسلمين بالقدس (وهي بيت المقدس) وبالمسجد الأقصى لم تظهر إلا أخيراً ،
 بعد التنافس بين المسلمين واليهود في فلسطين ، وهذه محاولة صهيونية وقحة
 لستر الشمس الساطعة بيد حقيرة نجسة ، فإن المسلمين يعنون بالقدس
 وبفلسطين كلها منذ بزغت شمس الإسلام ، ومنذ أكرم الله رسوله محمداً
 عليه الصلاة والسلام فخصه بمعجزة الإسراء والمعراج ، وسجل ذلك في
 تنزيل إلهي لا يبلى ولا يفسد ، فقال : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من
 المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو
 السميع البصير » ، وبذلك كان المسجد الأقصى أحد مسجدين اثنين اقتصر
 القرآن على التصريح باسمها ، وأولها هو المسجد الحرام وفيه الكعبة المشرفة ،
 وهذه العناية موجودة منذ قال سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه :
 « لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي في المدينة ،

القيت في يوم الجمعة الموافق ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٦٧ م

والمسجد الأقصى . ولقد ألتى الإسلام زداء الهيبة والكرامة والقداسة على المسجد الأقصى ، فجاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة في غيره من المساجد ، باستثناء المسجد الحرام والمسجد النبوي . ولقد جاء في الحديث النبوي : « من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء » وهو يقصد بطبيعة الحال من مات على الإسلام طائعاً ربه تبارك وتعالى ، متابعاً نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجاء في الفقه الإسلامي أنه يستحب الإهلال بالحج والعمرة من بيت المقدس ، للحديث الذي يقول : « من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غفر له ما تقدم من ذنبه » وعن أنس بن مالك أنه قال : « إن الجنة تمنح شوقاً إلى بيت المقدس » .

ومن مظاهر عناية المسلمين القديمة الموصولة بالقدس وبالمسجد الأقصى وبفلسطين كلها أنهم خلال عصور التاريخ المتوالية لم يدعوا صغيرة ولا كبيرة تتعلق بهذه الأماكن إلا تحدثوا عنها أحاديث التفصيل والتحليل والتمجيد والتخليد ، وأودعوا هذه الأحاديث مؤلفات وكتباً ضخمة ألّفها علماء الإسلام ومؤرخوه منذ قرون ، ومنها كتاب « فضائل القدس » لابن الجوزي وكتاب « الأنس في فضائل القدس » لابن هبة الله الشافعي ، وكتاب « مثير الغرام بفضائل القدس والشام » لابن سرور المقدسي ، وكتاب « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » لمجير الدين الحنبلي ، وكتاب « الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى » لابن عساكر ، وكتاب « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » لابن قاضي الصلّت ، واستمر تأليف الكتب عن فضائل القدس وفضائل المسجد الأقصى ومكانة فلسطين عند المسلمين ، حتى العصر الحاضر ، حيث نجد كتباً كثيرة في هذا المجال من بينها كتاب « تاريخ الحرم القدسي » و « المفصل في تاريخ القدس » وهما لعارف العارف

الرجل المسلم المكافح الذي ما زال حياً يقيم في القدس المحتلة إلى اليوم . ولكن أليس من الإنصاف أيها الإخوة أو من نقد الذات أن يهمس بعضنا لبعض فيقول : هل قرأنا هذه الكتب أو بعضها ؟ هل فكرنا في إصلاح خطئنا بالإقدام على قراءة بعضها ؟ هل أدركنا على الأقل أن نكبة الاحتلال الصهيوني تستدعي أن نتعرف إلى حقنا ، وأن ندرس تفاصيل تاريخنا ، وأن نقف على قيمة تراثنا ؟ يهمس بعضنا لبعض ونرجو ألا يبلغ الهمس آذان أعدائنا الآثمين وإلا اتخذوه حجة علينا ، ورددوا ضدنا قول شاعرنا :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا

ويزعم المقال الآثم أن الشعور بأن «القدس» مكان مقدس لم يقول عند المسلمين إلا في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين وهذا كذب وزور ، لأن المسلمين ظلوا خلال العصور والدهور يشدون رحالهم إلى القدس لزيارة المسجد الأقصى بنية العبادة لله ، ولإقامة شعيرة من شعائر الإسلام ، وللاهتمام بهدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو قيل : إن مزيداً من العناية الاهتمام قد بدا بين المسلمين في القرن العشرين بشأن القدس وفلسطين ، لكأن من الواجب تفسير ذلك تفسيراً حقيقياً صادقاً ، فتعلمه بأن الاغتصاب البريطاني لفلسطين ، مع تواطؤ إنجلترا والصهيونية العالمية — ومن خلفهما أمريكا — لتهود فلسطين ، هو الذي فجر ما كان مطويماً في صدور العرب والمسلمين منذ مئات السنين ، من حرص على فلسطين وخوف من مصيرها المؤلم على أيدي الصهيونية والاستعمار ، ولتذكر على سبيل المثال أن اليهود حاولوا يشق الطرق في سنة ١٩٠١ أن يحملوا السلطان عبد الحميد على أن يفتح لهم الباب أمام سكناتهم فلسطين ، وعرضوا عليه الملايين والخلعات الضخمة التي كان محتاجاً إليها ، ولكن السلطان عبد الحميد رفض ذلك وقال : «إني

لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين ، فهي ليست ملكاً لى ، بل ملك شعبي الذي ناضل في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، وإذا فرقت امبراطوريتي يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، أما وأنا حتى فإن عمل المبضع في بدني لأهون على من أن أرى فلسطين قد بترت من امبراطوريتي ، وهذا أمر لن يكون ، فإنني لا أستطيع الموافقة على تشريع أجسادنا ونحن على قيد الحياة » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الصهيونية قد كسبت أكثر ما كسبت من مغامرها الآثمة الظالمة بطول الدعاية وسعتها ، فهي تروج للباطل ثم تروج ثم تروج ، حتى يبدو في أنظار الجاهلين والغافلين كأنه الحق ، ونحن لا نعلم بتوضيح حقنا للناس هنا وهناك ، فلا يحسون به ولا يتحمسون له ، فلنقرأ تاريخنا ، ولنتعرف إلى حقوقنا ، ولنتعرف بها ، وليكن من وراء الدرس والمعرفة إيمان ومن وراء الإيمان عمل وإتقان ، ومن وراء الإتقان يقين وإحسان ، وما ضاع حق وراءه مطالب ، والله ولي الصابرين واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

في الطريق الى فلسطين

الحمد لله عز وجل ، هو مؤيد المخلصين الشرفاء وخاذل المجرمين الأخساء « فننجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو القاهر لأعدائه ، الناصر لأوليائه « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خيرة المؤمنين وإمام المجاهدين « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوى عزيز » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هكذا شاعت عناية الأقدار ، واختارت إرادة الله القوى القهار ، أن يسلك بنا طريق الجهاد والنضال ، وأن يفتح أمامنا السبيل إلى غسل العار وتحقيق الانتصار ونيل الفخار ، في أرض فلسطين ، تراث العرب والمسلمين وأولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى النبي الأمين ، ومجتمع الأنبياء والمرسلين ، ليؤمهم محمد رحمة الله للعالمين ، قبل أن يعرج مع الروح الأمين للقاء الله العزيز الحكيم . وإذا كانت هناك قضايا تعيننا وتهمنا في شرق الأرض أو غربها ، فإن أهم قضية فيها هي قضية فلسطين ، لأنها منذ حين محتلة بالسرطان الصهيوني الخبيث ، ملوثة بنكبة الاحتلال من عبدة الطاغوت وسلالة القردة والخنازير ، وفيها عدو محاور ملاصق هو ألد الأعداء في هذا الوجود ، وقد نزل على قلب الوطن العزيز فلسطين نزول الوباء المهلك ،

أذيعت بالتلفزيون في يوم الجمعة ٢٣ صفر سنة ١٣٨٧ هـ الموافق
٢ يونيو سنة ١٩٦٣ م

واتخذته طواغيت الاستعمار والبغى مطية لمكائدهم ومؤامراتهم : والله جل جلاله قد رتب لنا مراحل النضال والكفاح ، فأمرنا أن نبدأ بأقرب الأعداء منا ، لأنهم أخطرهم علينا ، فيقول سبحانه « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار (أى القرىبين منكم) وليجدوا فيكم غلظة » ويقول أيضا : « فإما نثقنهم (أى تصادفهم أمامك) فى الحرب فشرد بهم من خلفهم » أى فأجعل تأديبهم وقهرهم عظة وعبرة للأعداء الواقفين خلفهم أو البعيدين عنكم ، ويقول جل جلاله : « وقاتلوا فى سبيل الله الذى يقاتلونكم » أى يواجهونكم بالعدوان والخطر ، وهذا ينطبق تماماً على الخونة الغادرين من عصابات صهيون التى فعلت بنا الأفاعيل سنة ثمان وأربعين : « وما كان ربك نسيا » .

ومن فضل الله الكبير علينا أن شعله الجهاد المقدسة قد توقدت فى نفوسنا وتاهبت فى صدورنا ، ونحن فى قوة من سلاحنا وعتادنا وإحكام فى خططنا واستعدادنا ، وتجابو فى شعوبنا وبلادنا ، ونحن الآن أصلح ما نكون لخوض معركة الأار والكرامة والشرف ، لا نبالى تهديد المهديين ، ولا وعيد المتوعدين ، ولا باطل المعتدين ، وكأنا « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » بل كأن الله عز شأنه قد هبأ من الظروف ما لم نكن نتوقع أو نحتسب ، لكى تأتى اللحظات المناسبة لتوجيه الضربة القاضية ، فأخذ بالنواصى الشاردة إلى ملتقى القيادة الواحدة التى تعتر أول ما تعتر بتآلف القلوب من حولها واتجاه الأنظار إليها ، وهى تمضى راشدة متأبىة على الضعف والانحداع : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم لو أنمقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

وإذا كنا قد توأصينا على نخوض المعركة دفاعاً عن أوطاننا وأعراضنا وعقائدنا ومقدساتنا ، فإن واجبنا أن نتذكر دائماً أن للنصر الإلهي المؤزر أسباباً لا بد من توافرها ، وفي طبيعتها بعد عداد كل قوة مادية وكل سلاح مستطاع ، الإيمان بالله القاهر فوق عباده ، والإيمان هو اليقين الجازم الذي لا يعتوره ريب ولا شك في أن لهذا الكون خلقاً سبحانه ، وأن للحياة مسيطر أ عليها ومتصرفاً فيها حسب الحكمة الإلهة العالمة ، التي تدنو أحياناً فتراها أبصارنا المفتوحة ، وقد تعلق أحياناً فتقتصر عن سموها عيوننا الكليية ، وهذا الإيمان لا يكون إيماناً صادقاً إلا إذا دفع بصاحبه إلى العمل الحميد وانتصرف الحميد والسعي المشكور ، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى : « الذين آمنوا وعموا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ويقول : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهار » . ومن أسباب النصر الصبر ، وهو حسن الاحتمال ، ومطاوله الأحداث ، وحمل النفوس على أداء الواجب مهما كان ثقيلاً أو جليلاً ، وسواء أوافق به هوى النفس أم لم يوافق ، ولنتذكر جيداً أن الله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ذا لقيم فثابثوا » ، ويقول : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . ومن أسباب النصر التقوى ، ومتى عمرت القلوب بالتقوى الصادقة الواعية تنزل نصر الله ، وجاءت عناية الله ، لأنه القائل : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » والقائل : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدراً » . وهذا التوكل البصير المحض يبذل الجهود واستنفاد الجهود هو الذي يحقق في نفوسنا الثقة والاطمئنان ، فلا نتمادى إلا على الله ، ولا نستمد الهدى إلا من الله ، ولا نخشى شيئاً سواه : أتخشونهم فالله أحق

أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » ، « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

الثأر ثأرنا ، والدار دارنا ، والله ولينا وناصرنا ، والسلاح في أيدينا ، وهواقف البطولة كثيرة في ماضينا ، وحوافز الأمل الحاضرة وفيرة فينا ، والمعركة أمامنا تناديننا ، فليتوكل على الله ، ولنعتصم بالله ، ولنتذكر أننا نجاهد في سبيل الله ، لتحرير أرض الله ، وإزالة الهوان عن عباد الله ، فلنمض مجاهدين بكل ما نستطيع ، والله معنا من ورائنا ناصر ومعين ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . يقول رب العزة سبحانه : « والعصر إن الإنسان لئى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، فلنحصن أنفسنا بالإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بإعزاز الحق ، وبالصبر على نصره وتأييده ، حتى نكون من الفائزين في دنيانا ويوم نلقى الله رب العالمين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول ربكم جل جلاله : « إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا » . والبيعة شعار من تعاليم الإسلام ، وجزء من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وها نحن أولاء قد كتب الله لنا أن نقبل على معركة مقدسة ، لاستعيد بها فلسطين ، أولى القبلتين وثالث الحرمين وقلب العروبة والإسلام ، فلنبايع الله رب العالمين ، بيعة الحق والصدق والوفاء .

حتى نكون من أهل الإيمان واليقين والرجاء ، ولتردد هذه البيعة جميعاً ،
فقولوا معي :

اللهم يارب الأرباب ، ويا مهيب^{*} الأسباب ، ويا فاتح الأبواب ، أنت
الله الأكبر من كل شيء^{*} ، وأنت الله المسيطر على كل شيء^{*} ، وأنت الله
الذي صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .
اللهم إنا نبإيـعك على الجهاد ، ونبإيـعك على النصر أو الاستشهاد ، ونبإيـعك
على استعادة أرض فلسطين ، إلى حمى العرب والمسلمين ، وتطهيرها من
الدخلاء الملاعين ، فوفقنا يا ربنا لحسن الإعداد ، وشامل الاستعداد ،
وشرف الجهاد ، واجعلنا من أوليائك المتقين وحنودك المخلصين ، ربنا
أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

اللهم إنا بحولك نستعين ، وبجـهـايـتك نستجير ، أنت البصير وأنت القدير
فكن لنا ولا تكن عاينا ، ولا تولنا غيرك ، ولا تنسنا ذكرك : واشرح
للنضال صدورنا ، ويسر أمامنا أمورنا ، واحفظ بلادنا وثغورنا ، فأنت
العزیز القاهر ، وأنت القوى الناصر ، لا قوة إلا بك ، ولا توفيق إلا منك ،
ولا رجاء إلا فيك ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .

اللهم إنا نعوذ بك من الجبن والهلع ، ونعوذ بك من الضعف والخور ،
ونعوذ بك من الفرار والانكسار ، ونعوذ بك من قلة الرجاء وشماتة الأعداء
فلا تجعلنا نحشى غيرك ، أو نخاف سواك ، أنت حسبنا ونعم الوكيل .

اللهم اجعل أول جهادنا صلاحاً ، وأوسطه فلاحاً ، وخاتمته فوزاً ونجاحاً
فألمننا الصبر والثبات ، واحفظنا من التفرق والشتات ، واجعلنا على الدوام
أمة واحدة ، وقيادة واحدة ، ووجهة واحدة وغاية واحدة وبصرنا بواجباتنا

وألممنا النهوض بتبعاتنا ، وخذ بنواصيدنا إلى تحمل مسئوليتنا ، حتى تعزنا بعزك ، وتؤيدنا بنصرك ، فمقد قلت وقولك الحق : « والله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » . الله أكبر الله أكبر الله أكبر على من طغى وتجبر الله أكبر ولا عدوان إلا على الظالمين ، الله أكبر والله مع المجاهدين المخلصين الله أكبر والعاقبة للمتقين المؤمنين :

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إنها بيعة ونحن مطالبون بها ، ومسئولون عنها أمام الله وأمام الناس ، وقد أتانا الله قائداً حكيماً ، وبيشاً عظيماً ، ووعداً كريماً ، « فنزكنا فإتينا ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » .

نحو تحرير فلسطين

الحمد لله عز وجل ، كتب الكرامة لأوليائه ، والهوان لأعدائه : « والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »
 أشهد أن لا إله إلا الله ، شرع الجهاد فريضة محكمة ، يرفع بها أقواماً ويخفض بها آخرين : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .
 وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد في الله حق جهاده ، فكان خير المؤمنين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه
 « أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نعيش الآن أياماً مشهورة مجموعة لها الناس ، ورب ضارة نافعة ، وقد يأتي الشر بالخير كما قال القدماء ، فإن التهديد الأثيم الوقح الذي قامت به عصاة الفجار وريبة الاستعمار لإسرائيل قد أدى من جهتنا إلى نتائج طيبة محدودة ، منها إقامة الدليل الحى العملى على أن الأمة يجب أن تتضامن شعوبها عند الشدائد والأزمات ، مهما حدث بين أبنائها من خلافات ، فما كادت كنانة الله في أرضه تحس بأن هناك خطراً من قبل إسرائيل على سورية العربية المسلمة حتى تحرك جيشها وتجمع من كل مكان ورباط على الحدود ينتظر لحظة الانطلاق نحو الأرض المغتصبة والوطن السليب ، ليغسل العار ويبلغ الانتصار وويسحق الفجار ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم ، وبذلك أدرك عبدة الطاغوت وسلالة القرودة والخنازير أننا جادون ولسنا بهازلين حين قلنا ونقول إن أرض فلسطين يجب

القيت في يوم الجمعة ١٦ صفر سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٦ مايو
 سنة ١٩٦٧ م

أن يزول منها هذا السرطان اليهودى الاستعمارى الخبيث ، لأنها أرض العروبة والإسلام ، ولأنها أولى القبلةين ، وثالث الحرمين ، ومسرى سيد الخلق محمد وواسطة عقد خطواته فى رحلتى الإسراء والمعراج : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لتريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » وصدق رسول الله حين قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » .

ومن مكاسبنا العاجلة قبل دخولنا معركة الإيمان والثأر أننا تخلصنا من قوات الطوارئ الدولية التى كانت من مخلفات الظروف العصيبة التى مرت بنا فى معركة السويس وبورسعيد سنة ١٩٥٦ ، ثم أراد الاستعمار - من أجل سواذ العميون عند خليلته اللثيمة إسرائيل - أن يستغل هذه القوات فيجعلها ستاراً يحى من خلفه الاحتلال اليهودى والكييد الصهيونى ، وقد ترتب على هذا التخلص أن عدنا إلى ممارسة حقنا المشروع فى السيطرة على خليج العقبة ، ومنع السفن الصهيونية والمعونة للصهيونية من المرور بهذا الخليج ، ولقد كانت إسرائيل وما زالت تسيء استغلال مياه البحار من حولنا فى رحلاتها الإجرامية الخبيثة وتبذل جهودها الشيطانية لصهينة القارة الإفريقية عن طريق الدولار الأمريكى والمكر اليهودى ، وهى تستبيح لنفسها فى هذا الفساد كل جريمة ، حتى جريمة تحريف القرآن وتوزيعه على أبناء القارة السبراء : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » . ولا ريب فى أن تمكن جيشنا من منطقة خليج العقبة نقطة ارتكاز مهمة لمنع الوباء الصهيونى من الانتشار ، وللتأهب ليوم الفصل حين يتم تطهير الأرض التى تضم مهد عيسى وتراث محمد من الذين طعنوا عيسى فى نفسه ، وقاوموا محمداً فى دعوته حتى حق للقرآن أن يقول : « لتجدن أسند

الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون .

ومن مكاسب موقفنا الحاضر أننا استطعنا إلى مدى بعيد أن نسلط الأضواء الباهرة الكاشفة على الأخبية والحجور التي يلجأ إليها فريق من الحكام الذين يحسبون علينا وينسبون إلينا ، ومع ذلك لا يعينهم أمر أمتهم وشعوبهم وأوطانهم بقدر ما يعينهم أن يزيدوا خزائنهم امتلاء بالأصفر الرنان ويمثلوا بطونهم بالشهوات والملذات ، ويضعوا أيديهم الملوثة بدماء شعوبهم في أيدي أعداء الله وأعداء عباد الله وأعداء أرض الله ، وقد استطاعت هذه الأضواء كذلك أن تميز لنا بين أصدقائنا وأعدائنا ممن يدينون بغير ديننا ، فهناك من ناصرنا ووقف إلى جانبنا ، وهناك من تنمر لنا وانحاز إلى أعدائنا وبقدر ما يوجد عند هؤلاء من استقامة أو إنصاف يكون تعاوننا على الصعيد الدولي والمستوى العالمي بمقتضى قول الله تبارك وتعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وأخيراً كان من نتائج موقفنا أن تحركت معاني الجهاد والنضال فينا ، فقد اغتصبت فلسطين من أيدينا عام ١٩٤٨ ، وكانت نكبة دونها كل النكبات ، ولكن هذه النكبة فجرت وقود الثورة هنا وهناك ، وأخذنا منذ ذلك اليوم نتواصى بالعزم على استرداد فلسطين ، وكنا نتوق كل التوق إلى موقف تهيء فيه الأقدار لأصحاب الثأر أن يأخذوا بثأرهم ، وأن يستردوا

ما سلب منهم ، وها قد جاء الميعاد ، وتحركت معاني الجهاد ، والمركة ليست معركة ميدان فحسب ، إن الشعوب الآن تحارب حين تحارب بكل أبنائها وكل طاقاتها ، وألوان الجهاد مختلفة ، فهناك جهاد بالسلاح والعتاد ، وهناك جهاد بالكلمة المثيرة الحافزة ، وهناك جهاد بالقلم المبين الأمين ، وهناك جهاد بالفكرة الرشيدة المحيطة لخدمة الهدف النبيل ، وهناك جهاد بالروح المعنوية القوية التي تتحمل تبعات النضال في صبر وإيمان ، وإذا كان الجيش الأول من رجالنا وأبنائنا يربط هناك على الحدود ، فيجب أن نكون من ورائه « الجيش الثاني » الذي يخدم ويمون ، ويقوى ويعاون ، ويحفظ ويصون : « لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد كتب الله علينا الجهاد ، وليس هناك أشرف من جهادنا ضد عدو أجنبي محتل طالما هزئ بكرامتنا وعقيدتنا ولقد أخبرنا الرسول أن أمتسه ستقاتل اليهود حتى يقول الحجر للمسلم : يا مسلم ، إن من ورأى يهودياً فاقتله . ولعل هذا يكون جزءاً عادلاً وراشداً للذين أكثروا في الأرض الفساد ، وفعلوا ما فعلوا من جرائم وآثام ، وصدق العلي الكبير : أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . واتقوا الله الذي أتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

مع المغرب الأقصى

الحمد لله عز وجل ، « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير » .
أشهد أن لا إله إلا الله وثق الروابط بين المؤمنين ، وحثهم على رعايتهم مع الاعتصام
بجبله المتين : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم
ترحون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء من ربه بالنعمة فجمع الكلمة
ووحد الأمة ، وقال عن المؤمنين : « هم يد على من سواهم » فصلوات الله وسلامه
عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « أولئك هم الراشدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن الآن فى أشد الحاجة إلى أن نهز العالمين العربى والإسلامى هزة قوية
عنيفة ، توقظ من السبات ، وتجمع من الشتات ، ليلتقى الجميع على غسل العار
والأخذ بالتأثر وتحرير الديار من سلالة القرودة والخنازير ، وعبدة الطاغوت
والذهب ، ولذلك أحاول أن أقوم — عن طريق التعرف والتعريف من فوق
هذا المنبر — بجولة فكرية روحية فى أنحاء بلاد العروبة والإسلام ، راجياً
أن تتعرف إلى عوامل القوة والوحدة لنزداد منها ، ونتحسس مواطن الضعف
والفرقة لتجنبها ونقضى عليها ، والعالم الإسلامى نطاق فسيح مترامى الأطراف
يقع فى وسطه العالم العربى كنسر يمد جناحيه بين آسيا وأفريقيا ، وصدر
هذا النسر يتمثل فى مصر الغالية كنانة الله فى أرضه ، وجناحه الشرقى يتمثل
فى شبه جزيرة العرب ، وجناحه الغربى يتمثل فى شمال أفريقية التى ينتهى
بمراكش أو المغرب الأقصى ، ونحن نذكر أن المغرب قد أعطى صوته
لنا فى هيئة الأمم المتحدة ، ولم يكن العقل يتصور غير هذا أبداً ، لأن المغرب
قطر عربى إسلامى ، ولكننا ارتبجينا — وما زلنا نرتبجى — من المغرب مزيداً من

القيت فى يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٨٧ هـ الموافق
٢٥ أغسطس سنة ١٩٦٧ م

التعاون وأضعافاً من الجهود ، وإلا ساءت الظنون باقتدار التضامن العربي الإسلامي على مواجهة الأحداث ومغالبة الشدائد ، والمغرب الأقصى هو منبت البطل الإسلامي النائر على الاحتلال والاستعمار محمد عبد الكريم الخطابي طيب الله ثراه ، ولو أنك سألت شاباً عربياً عن نابليون مثلاً لحدثك بما فيه الكفاية من تاريخه وحروبه ، ولكنك لو سألته عن عبد الكريم الخطابي عملاق المغرب وبطل الريف ، لما عرف عنه شيئاً ذا بال ، وهكذا نعرف عن غيرنا أضعاف ما نعرفه عن أنفسنا ، وسيظل هذا داء دويماً فينا ، حتى يأخذ الله بنواصينا ، فتتعرف إلى أبطال الإسلام الذين زانوا صدر التاريخ بما قاموا به من جلائل الأعمال .

وعبد الكريم الخطابي هو باعث الثورات الحديثة في شمال أفريقيا كله ، ولقد أصيب الاستعمار الأوربي برجفة راجفة حينما نهض الخطابي بثورته في المغرب سنة ١٩٢١ ، وظل يصارع الاحتلال بصرامة وبطولة خمس سنوات وكان يعتمد في جهاده وجهوده على روح الإسلام ومبادئه وتعاليمه ، ورأينا أوربة الباغية تجعل حربها مع الخطابي حرباً صليبية استعمارية غريبة ، حتى إن الملك الفونسيو الثالث عشر خطب في أواخر سنة ١٩٢٤ أمام البابا في الفاتيكان وقال عن ثورة الخطابي : « إن أسبانيا قد جندت نفسها لحرب المسلمين في أفريقيا حرباً لا تنفك عنها حتى تفوز بغرس الصليب في ديار المسلمين ، وتجعل أتباع محمد يخنعون لها قهراً » . ومضى الخطابي يصارع دولتين كبيرتين احتلتا بلاده وهما فرنسا وأسبانيا ، وحينما عرض عليه قومه رئاسة المغرب الشمالي رفض ، فأصروا على ذلك ووصفوا رفضه بأنه نخل عن تحمل التبعة ، فقبل قائلاً : « سأتولاها قيادة في المعركة بسلاحي ، أما الحكم فبيننا كتاب الله وسنة رسوله ، وعلينا العمل بهما ففيهما السعادة في هذه الدنيا قبل الآخرة » .

وظل الخطابي مع جنوده المؤمنين بعزة الله وحرية الوطن ، يناضل

وينازل ، ويذيق أسبانيا ومن بعدها فرنسا الأهوال بعد الأهوال جزاء احتلالها لبلاده ، ولكن فرنسا استطاعت بالخدعة والخيانة أن تعتقله سنة ١٩٢٦ بعد خمس سنوات طويلة موصولة المعارك ، وحينما قيل له عند اعتقاله : ستحاكم أمام مجلس عسكري ، وسيكون الحكم قاسياً ، أجاب بقوله : « هل تعتقدون أن سجنى أو نفيى أو قتلى سبيل لكم إلى احتلال وطنى ؟ هناك غيرى سيموتون فى الميدان ، وسوف لا تحتلون بلادنا إلا على جثث طلاب حريتها ، أما أنا فسواء لدى أقتلت هنا أم هناك فى أرض المعركة ، إننا فى الميدان على كل حال . وحينما قرروا نفيه إلى جزيرة « رينو » إحدى جزر المحيط الهندى قال له أحد قواد الاحتلال : ليتك لم تعلن الحرب علينا ، فهذا أنت ذا قد رأيت النتيجة : فلم يهن البطل الثائر ولم يتضعضع ، بل قال وهو عميق الإيمان : « وهل تعتقدون أن نفيى هو خاتمة المعركة ضد الاحتلال ؟ لقد ساعدتم الشعب كثيراً بنفيى ، إنكم فتحتم على أنفسكم باباً من الخن والأهوال وبعدها ترحلون غير مأسوف عليكم . »

وكان القدر قد استجاب لعبد الكريم الخطائى ، فقد تحمل آلام النفى والغربة عشرين عاماً طويلة ثقيلة ، وفى سنة ١٩٤٧ أراد أعداؤه أن ينقلوه من منفاه إلى منفى آخر ، وحينما كانوا يمرون به على مصر بطريق قناة السويس تمكن من الفرار منهم ، ولجأ إلى كنانة الله فى أرضه مواصلاً جهاده ونضاله ، وظل عشر سنوات أخرى يوجه الثورة فى المغرب عن بعد ، من مكان إقامته بالقاهرة حتى خرج المحتلون بعد إقامتهم عشرات وعشرات من السنين ، ونالت بلاده استقلالها سنة ١٩٥٦ ، وظل البطل الشيخ يسهم فى توجيه النضالين العربى والإسلامى بالرأى والمشورة حتى لحق بربه فى أرض الكنانة ١٩٦٣ ، بعد أن رسم للمغرب الأقصى طريقاً كريماً يجب أن يسلكه دائماً ، وأن يتعاون فيه مع أشقائه فى سائر بلاد العروبة والإسلام ، حتى يكون وفيماً

لذكرى الخطاي العملاق الذي كان يقول : « نحن قوم نجب السلام ، ولكننا نأبي المذلة والضميم ، وها نحن أولاء قد عاهدنا الله والشرف العربي أن ندافع عن استقلالنا الذي يهدده الأجنبي الغاصب » . وكان يقول : « نحن لا نجب الحرب ، ونحبذ السلام ، ولكن مع استقلالنا التام وعدم الخضوع لسيادة الأجنبي » وكان يقول : « لا يوجد في هذه الدنيا حق للآثم أقدس ولا أرسخ من حقها في أن تحكم نفسها بنفسها » ، ولذلك قضى الخطابي حياته مجاهداً في سبيل هذه الغاية ، ولا عجب فهو من أمة عقبة بن نافع محرر المغرب من محتليه قديماً ، وناشر الإسلام حتى شاطئ المحيط ، والخائض بقوادم جواده في ماء المحيط ، متطوعاً إلى بقعة من اليابسة وراء الماء ليرفع فيها اسم الله العظيم فوق كل الأسماء ، وكان شعار عقبة في الجهاد قوله : « اللهم تقبل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ، ودار كرامتي عندك » . وصدق الله العلي الكبير : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن حاضرننا يتطاب تجسيم كل اقوى في بلاد العروبة والإسلام لمناصرة الحق ولإزهاق الباطل ، ومن واجبتنا أن ننسى في سبيل ذلك كل خلاف أو شقاق ، فانحطب جمل ، والطريق شاق طويل ، وقد آن للاخوة في الله والعروبة أن يمسحوا بأيدي المحبة ما خلفته أيدي التفرق والتمزيق ، ولناخذ العبرة من قول أولنا فيمن سمى بينهم الشيطان ففرقهم ثم لحظتهم عين الرحمن فجمعتهم ، قال :

شواجر أرمح تقطع بينهم شواجر أرحام ملوم قطوعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القرى ففاضت دموعها
واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم
محسنون .

موريتانيا المسلمة

الحمد لله عز وجل ، رفع بالإسلام قوماً وخفض به آخرين ،
« ومن بين الله فنا له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » أشهد أن
لا إله إلا الله ، جعل دينه مفتاحاً للرشاد وعاصماً من الفساد : « ومن يبتغ
غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » . وأشهد
أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل أخوة الدين فوق أخوة النسب ، فكان
بذلك إمام الهادين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ،
وأتباعه وأحبابه : الذين « يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا
بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما زالت رحلتنا مستمرة في أرجاء العالمين العربي والإسلامي ، يستحث
خطاها ما يجد من أحداث ، ويزكي مسيرها ما يشعر به من شدة الحاجة إلى
التعارف الوثيق والتآلف العميق بين أبناء الأمة المؤمنة كلها ، حتى تستطيع
أن تقف صفاً واحداً هائلاً أمام أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين
وشمال . وها هو ذا ركبتنا يتلبث برهة عند « جمهورية موريتانيا الإسلامية »
التي أيدتنا بقوة وشجاعة في اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ، ويحافظ من عقيدة
الإسلام ، مع أنها دولة صغيرة بعددها ومساحتها وإمكانياتها ، ولكنها كبيرة
بدينها وبقينها « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » . وأظن أن
أكثرنا لا يعرفون شيئاً ذا بال عن جمهورية موريتانيا الإسلامية ، بل لعل
هناك من لا يعرف وجود دولة إسلامية بهذا الاسم ، بل لعل هناك من إذا

سمع كلمة « موريتانيا » ظن أنها دولة في أمريكا أو أوروبا ، مع أنها دولة شرقية إفريقية إسلامية تجاور المغرب الأقصى ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » وأقل درجات الاهتمام بهم أن يعرف المسلم أقطارهم وجموعهم وأحوالهم ، إن لم يكن بالتفصيل فبوجه من وجوه التعميم والإجمال ، وإلا فكيف يتحقق فينا الإيمان وخالقنا جل جلاله يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ؟ .

وموريتانيا دولة لا يبلغ أهلها المليون ، ومعظم أرضها صحراء ، ولكنها منطقة غنية بالمعادن ، وكانت محمية فرنسية سنة ١٩٠٣ ، ثم استعمرتها فرنسا استعماراً كاملاً سنة ١٩٢٠ حين كان حكام فرنسا وبريطانيا وأسبانيا وإيطاليا يتحكمون في شمال أفريقيا العربي الإسلامي ، ويوزعون دوله فيما بينهم حسب أهوائهم الاستعمارية المنطلقة بلا عنان ، ولكن موريتانيا استقلت في ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٠ ، وهي الآن دولة جمهورية مستقلة ، وهي الدولة الوحيد التي نعرف أنها تذكر كلمة « الإسلام » في اسمها ، فهي تسمى نفسها رسمياً « جمهورية موريتانيا الإسلامية » وهذه التسمية تذكرنا بأن دولاً أخرى غيرها كانت أحق فيها بالحرص على هذه التسمية ، وبخاصة مما ضم منها مقادسات إسلامية كالبيت الحرام أو مسجد الرسول أو المسجد الأقصى ، كما تذكرنا هذه التسمية بقول الشاعر :

أبي الإسلام ، لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم !

وحينما استقلت موريتانيا الإسلامية جعلت عاصمتها مدينة « شنقيط » بعد أن كانت العاصمة « سنت لويس » في السنغال ، وشنقيط تذكرنا بالإمام الشيخ محمد محمود الشنقيطي الذي كان شديد التمسك بالسنة قولاً للحق ولو على نفسه ، والذي كان يغار على لغة القرآن غير الشريف على

مقدساته وحرماته ، والذي فاخر طويلا بإسلامه وعروبته ، وجاور زمناً بمكة والمدينة ، ورحل إلى تركيا ثم استقر به المطاف في مصر حتى توفي بها ، وقضى عمره قارئاً باحثاً وكان يقول : « أنا قتيل الكتب » كما تذكرنا شنقيط بالمؤرخ الإسلامي غالى ابن المختار الشنقيطي (المتوفى سنة ١٨٢٧ م) المتخصص في كتابة السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وعقب استقلال جمهورية موريتانيا الإسلامية تولى رياستها « مختار ولد داداه » المولود سنة ١٩٢٤ م ، وكانت فكرة الوحدة والتجمع هي الأساس في دعوته ولذلك ألف هيئة التجمع الموريتاني التي ضمت مافي البلاد من أحزاب ، وقاومت نزعات التفرق والتفرق ، واتجهت إلى توحيد الكلمة من أجل الحرية والاستقلال ، وعلى الرغم من أن هذا الرجل المسلم قد اضطرت الظروف إلى أن يتعلم « الحقوق » في فرنسا ، فإن فرنسا بمبهاجها وبهاجها لم تستطع أن تخرجه عن شقيقته أو إسلاميته ، بل لعل هذه الفترة التي قضها في فرنسا قد زادت إيمانياً بالإسلام ، إذ استطاع أن يقارن عن قرب بين مبادئ الدين العادلة الفاضلة الكاملة السمحة ، ومظاهر الانحلال والتفسخ في المدينة الأوربية المادية التي استعبدتها نداء البطن والفرج ، واستبدت بأهلها المملذات التافهة والشهوات المجنونة : « أفحكهم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ، « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

موريتانيا هذه الصغيرة في رقعتها القليلة في سكانها ، الطفلة في استقلالها إذ لم يكمل على استقلالها سبع سنوات بعد . هذه الدولة المجهولة من أكثرنا وقفت إلى جوارنا بشجاعة ، وأيدت حقنا ، وعارضت الاعتداء علينا ، وطالبت بإزالة آثاره فوراً ، وهي تعلم أن موقفها هذا يعرضها لتبعات ، ويوقعها في مصاعب ، ويحرمها مغنم فاز بها الذين تنكروا للحق والعدل

والإنسانية استجابة للطمع الأشعبي ، وتأثراً بالدولار الأمريكي ، ولكن موريتانيا دولة إسلامية ، والإسلام رحم بين أهله وأخوة بين أتباعه ونسب بين المؤمنين به ، ولذلك اندفعت موريتانيا الإسلامية مع نزعتها الدينية فأيدت الدول العربية ، لأن بينها وبين هذه الدول وشائج يأمر الإسلام برعايتها ووقايتها ، وإذا كان هناك من يبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغام كثيرة كما قال القرآن الحكيم .

أفيليق بنا بعد هذا أن نظل على جهلنا بشئون موريتانيا الإسلامية ؟ ألا يجب علينا بعد هذا أن نعرف تاريخها وأن نوثق علاقاتنا بها ؟ ألا يجب علينا أن نكثر إليها من بعثاتنا الدينية والعلمية حتى تزداد هذه العلاقات ثباتاً وتوطيداً ؟ ألا ينبغي لنا أن نفكر في نشر اللغة العربية بين جميع أبنائها حتى يتمكن أبنائنا من تفهم القرآن والحديث تفهماً كاملاً ، وحتى نزيل أثراً مخفياً من آثار الاستعمار وهو اللغة الفرنسية التي فرضت نفسها لغة رسمية هناك بحكم الاحتلال الطويل ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول سيد الخلق الناطق بالصدق محمد صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مرآة أخيه » والمرآة تنعكس على صفحتها النقية الصافية صور الأشياء التي تقابلها ، فهل انعكست على مرئى عقولنا وقلوبنا صور أشقائنا في الإسلام هنا وهناك ؟ هذا سؤال يحتاج إلى الجواب ، فليتنا نهي أنفسنا لحسن الجواب عليه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ليبيا العربية

الحمد لله عز وجل ، هدى عباده إلى كامة التوحيد وتوحيد الكلمة :
« وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » أشهد أن لا إله إلا الله ،
جعل التوحيد عزة والتفرق ذلة : « ولا تنازعوا فتفشاوا وتذهب ربحكم
وواصبروا إن الله مع الصابرين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ،
أحيا القلوب بسنته . وجمع الجموع على طريقته ، فحقق بذلك النصر المبين ،
فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن
يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نقضى الآن من تاريخنا مرحلة حاسمة فاصلة ، بعد أن اكتويتنا بنيران
الخنعة التي أوقدها علينا طواغيت الاستعمار والاستعباد ، وشياطين المكر
والإفساد ، واستبان لنا بكل وضوح عملي واقعي أننا في أشد الحاجة إلى التجمع
وإزالة التصدع ، وإلى توطيد الوحدة و الائتلاف ، ومقاومة نزعات التمزق
والاختلاف ، لأنه لا عزة لنا إلا إذا كنا كما أراد ربنا أمة ذات جسد واحد
وقلب واحد وهدف واحد : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة
أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . ولقد سبق لهذا الصوت
أن حدثكم عن صور من التعاون الكريم المشير بين شعوب هذه الأمة المؤمنة ،
وقد يكون من الأمانة والوفاء أن استعرض معكم صورة لها ضياؤها وبهاؤها ،
وهي مستمدة مما صنعه شعب ليبيا العظيم بمناسبة العدوان الأثيم على أرض
العروبة والإسلام : وليبيا قطر عربي إسلامي لا يفاخر باتساع مساحته ،

ولا بضخامة عدد سكانه ، ولكن من حقه أن يفاخر ببطولته وسيرته ، واستمساكه بعقيدته مع اعتزازه بعروبته ، ولقد تعرض الشعب الليبي خلال عصور التاريخ لغارات كثيرة من لا خلاق لهم ولا إنصاف عندهم ، وتعرض لغزو الفينيقيين واليونان والرومان والنورمانديين وفرسان القديس يوحنا وغير هؤلاء ممن يمثلون الاستعمار من جهة والصلبية الغربية من جهة أخرى ، ولكن هذا الشعب استعصم بعروة الإسلام الوثقى ، فجعلته على الدوام يقاوم فينتصر ويغتم ، وقد يسالم حيناً ولكنه لا يستسلم ، وكلما حاول أعداؤه أن يذبيوا قوميته ، أو يضعفوا عقيدته ، فزغ إلى الإسلام يجد فيه الملجأ والمعصم ولعل هذا هو الذى دفع بالمجاهد الكبير السيد محمد بن على السنوسى أن يوجد نظام « الزوايا » فى ليبيا منذ عشرات من السنين ، وأن يقيم هذا النظام على أساس دينى إسلامى . وأن يجعل حجر الأساس هو روح الجهاد ونزعة الاستشهاد ، فكانت الزاوية فى كل قبيلة معهداً ومصنعاً للرجال المتدينين الذى يحفظون القرآن ويفهمون معانى آيات القتال ، ويحيطون بغزوات الرسول ثم يأخذون فى أداء واجبهم بنشر الإسلام من ناحية ، ومقاومة الكفر والكفار المعتدين من ناحية أخرى ، ومن واحة « جغبوب » الصغيرة قامت الدعوة الدينية نشيطة ممتدة ، حتى صارت جغبوب بعد حين أعظم مدرسة فى الصحراء ، وحينما هجمت إيطاليا على ليبيا سنة ١٩١١ تريد بوهما وزعمها أن تجعلها رقعة إيطالية وجدت من شعب ليبيا المطبوع على التدين ونزعة الجهاد وروح التقشف أبطال الصحراء الذين دونخوا أحفاد الرومان ، وظل عمالقة الصحراء من أبناء ليبيا يجاهدون بغنى الطليان أكثر من ثلاثين عاماً ، قادم فى كثير منها المجاهد الإسلامى المحتسب الشريف أحمد السنوسى الذى يعده المؤرخون الاسلاميون المجاهد الأكبر فى العصر الحديث ، واحتمل هذا القائد مع جنوده المؤمنين بفريضة الجهاد ونعمة الاستشهاد احتملوا ، ما احتملوا

من لفح الصحراء وبغى الأعداء وقلة الزاد والماء ، وانتشار الملاريا بلا دواء ، وكانوا لا يجدون إلا حفنة البلح في الطعام أو يأكلون عشب « الذباح » ، ولكنهم استطابوا الجهاد في سبيل ربهم ، ولم يقصروه على معنى القومية أو الجنسية أو الإقليمية ، بل وصلوا أسبابه بالله خالق الخلق ، فكان الواحد منهم يلتقى مصرعه في حومة القتال وهو يتطلع وراء حجاب الحياة إلى نعيم الشهداء الأبرار عند من لا يضيع ثواب المجاهدين ، واشترك مع الليبيين في حربهم مع الطليان مجاهدون مسلمون ، دفعتهم إلى الحرب غيرة على الإسلام ، وأخوة في الله . وإيمان بأن المؤمنين إخوة ، وأن ديارهم وطن واحد ، هو وطن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

ومرت الأيام ، وتعاقبت الأعوام ، ونالت ليبيا استقلالها ، وأفاء الله عليها من نعمه ، وخيل إلى بعض الجهلاء أن شعب ليبيا قد شغلته شواغل الحياة عما كان عليه في تاريخه من روح الجهاد في سبيل الله ، ثم حدث العدوان الصهيوني الاستعماري الأخير ، فإذا الشعب هو الشعب ، لم ينس طبيعته أو عقيدته ، فقد أحرق الشعب الليبي عقب العدوان متاجر اليهود الذين تسربوا إلى ميدان الاقتصاد في البلاد ، واضطرت الحكومة أن تخرج هؤلاء اليهود من ليبيا أمام غضبة الشعب وثورته ، وهاجم شباب ليبيا سفارتي أمريكا وبريطانيا ، ورفعوا فوقهما العلم العربي ، وأغلقوا أبواب دور السينما والملاهي ، فليس هناك متسع لهذا اللهو والعبث ، والأمة تجاهد وتمتحن في مصيرها ، ولبس أفراد من الشعب ثياب الحداد ، وصمموا أن لا يخلعوها حتى تزول آثار العدوان ، وبدأت المقاطعة للبضائع الأوربية والمصايف الأوربية والمدارس الأوربية ، وخاصة ما تعلق منها بدول العدوان الأثيم ، وتألقت في مدن ليبيا لجان جمع التبرعات لضحايا العدوان ولصالح المجهود

الحرابي ، وتجلت مواقف محمودة لأفراد هذا الشعب المسلم ، فهناك من تبرع بكل ما يملك ، وأسهم كل منهم بما يقدر عليه ، وحينما أعفت الجبان بعض الأفراد من التبرع مراعاة لأحوالهم الاقتصادية الرفيعة ، غضب هؤلاء وشعروا أن كرامتهم الإسلامية قد مسّت ، وأبوا إلا التبرع بما يستطيعون ، حتى إن صاحب مقهى فى سوق من أسواق البادية ثار حينما تخطته اللجنة فى أخذ التبرع وحمل كل ما فى صندوقه وسارع إلى اللجنة يقدمه ويقول لرجالها فى غضب : لماذا لم تطلبوا منى تبرعى ؟ ألسنت مسلماً مثلكم ومثل الآخرين ؟ . . . وتقدم نساء ليبيا بما عندهن من حلى ، وكانت قطع الذهب والجواهر يتوالى تقديمها من الشابات والمعجئات على السواء ، وأرسل شعب ليبيا ملايين الدولارات إلى ضحايا العدوان ، كما أرسل الكثير من التبرعات العينية كالأطعمة والأدوية والثياب وغيرها إلى مصر والأردن وسورية ، وقدمت حكومة ليبيا عشرين مليوناً من الدولارات لهذه الدول ، ومنعت ضخ البترول إلى دول العدوان استجابة لرغبة الشعب الليبي القوي ، والمباحثات قائمة للتخلص من القواعد الأجنبية الباقية حتى تتطهر هذه الرقعة العزيزة الغالية من كل بقايا النفوذ الاستعماري ، وحتى نظل على الدوام لؤلؤة فى جبين العروبة والإسلام ، وهكذا قام الشعب الليبي بخطوات لها أهميتها فى مناصرة أشقائه من الشعوب العربية ، فأثبت أن نزعات الجهاد التى ثبتها فى صدره الإسلام العظيم لم تضع ولم تضعع ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لم يرد من هذا الحديث مجرد التنويه بشعب شقيق . بل أريد منه ضرب الأمثلة على ما تستطيعه الأمة المؤمنة إذا تجاوزت شعوبها وتعاونت ، وفى ليبيا شعب عربى مسلم يجب أن يتسع نطاق

تلاقيه وتآلفه مع أشقائه ، وبخاصة شعب مصر المجاور له ، وفي ليبيا جامعة إسلامية ناهضة هي جامعة السنوسي الكبير ، ومن الواجب أن يزداد توثق العلاقات بينها وبين الأزهر الشريف أبي الجامعات ، وفي كل من مصر وليبيا قادة يجب أن تتلاقى عزائمهم وتتضافر جهودهم لعزة العروبة والإسلام وإذا كانت المحن تصهر النفوس وتطهر القلوب ، فإن هذه المحن نفسها يجب أن تمحو كل ما تركه الماضي من خلاف في الرأي أو تعدد في الاتجاه ، حتى يلتقى الأشقاء الأحبة على كلمة سواء وطريق واحد ، هو طريق الإيمان والعزة والكرامة الإسلامية : وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون .

فهرس

الصفحة		الصفحة	
١٤١	بين المطلوب والطالب	١٣	خطبة الجمعة
١٤٥	بين الخالق والمخلوق	١٨	حكمة الصلاة
١٤٦	الاسلام واثدنا الأول	٢٢	الروضء سلاح المؤمن
١٥٢	الاسلام دين المقاومة	٢٧	الاسلام والتطهر
١٥٧	ما هو الاسلام	٣٥	سورة الفاتحة
١٦١	منهج الاسلام	٣٩	سيد الاستغفار
١٦٦	عبادة وقيادة	٤٣	من أسرار الاستغفار
١٧٠	منهاج الحياة الفاضلة	٤٨	هدف الدعاء
١٧٤	ملامح المجتمع الاسلامى	٥٢	من دعوات الرسول
١٧٨	نزهوا الاسلام عن صفائركم	٥٦	فأنا أول العابدين
١٨٣	من ملامح الشخصية المسلمة	٦٠	طريق السعادة
١٨٧	الدخول فى الاسلام	٦٥	استقامة السلوك
١٩٠	من آداب الاسلام	٦٩	الدعوة الى الله
١٩٦	الاسلام اصلاح لا ثورة	٧٤	الايمان طريق النصر
٢٠٠	الاسلام دين السلام	٧٨	رسالة المسجد
٢٠٨	الاسلام محرر الانسان	٨٣	فى المسجد
٢١٢	اصلاح الاسلام للبشرية	٨٨	المسجد بيت الله
٢١٧	الاسلام والصدقة	٩٣	وأن المساجد لله
٢٢١	الاسلام وروابط المجتمع	٩٧	طلاب يذاكرون فى المساجد
٢٢٥	مؤامرات ضد الاسلام	١٠١	المتدينون من منازلهم
٢٣٠	الاسلام والحركة الكشفية	١٠٥	طريق المؤمن
٢٣٩	الدين والرحلة	١١٠	بين القوة والعقيدة
٢٣٩	الدين والرحلة	١١٣	الله جل جلاله
٢٤٣	الاسلام والمجتمع التعاونى	١١٦	ايمان الفريق
٢٤٧	لا سلبية فى الاسلام	١٢١	وأن ليس للانسان الا ما سعى
٢٥١	البيعة فى الاسلام	١٢٥	عزة المؤمن
٢٥٥	العمل فى الاسلام	١٢٩	ايمان واستقامة
٢٥٩	النظام فى الاسلام	١٣٣	الطريق الى الله
٢٦٤	الاسلام ومكافحة الامية	١٣٧	الملتفت لا يصل
٢٧٢	حرب على الاسلام		

الصفحة	الصفحة
٤٢٣	٢٧٧
٤٢٧	٢٨١
٤٣١	٢٨٥
٤٣٥	٢٩٢
٤٤٠	٢٩٧
٤٤٥	٣٠٣
٤٥٠	٣٠٨
٤٥٤	٣١٢
٤٥٨	٣١٧
٤٦٢	٣٢١
٤٦٧	٣٢٦
٤٧٢	٣٣٢
٤٧٦	٣٣٧
٤٨٢	٣٤٢
٤٨٧	٣٤٧
٤٩٢	٣٥٢
٤٩٨	٣٥٦
٥٠٢	٣٦١
٥٠٦	٣٦٥
٥١٠	٣٦٩
٥١٥	٣٧٤
٥٢٠	٣٧٩
٥٢٦	٣٨٤
٥٣٢	٣٩٠
٥٣٦	٣٩٥
٥٤٠	٤٠٠
٥٤٤	٤٠٥
٥٥٠	٤١٠
٥٥٤	٤١٤
٥٥٨	٤١٩
٥٦٣	

الصفحة

الاسلام ضد الارهاب
السبق للاسلام
التفاضل بالعمل الصالح
المسلم بين الغنى والفقير
الحياة حركة
الحياة أمل وعمل
الدين والصناعة
خمسة ركائز
الدين والشيعوية
الدين وقيمة العمل
الدين والدولة
بين الرئيس والمرعوس
المال للانفاق
الاسلام والمرأة
المرأة وثقافة الدين
المرأة والمركة
تمدد الزوجات
أالدين وتنظيم الأسرة
الشباب أمل الحاضر وعدة المستقبل
تميع الشباب
واجب الآباء نحو الأبناء
صلاة في ملعب الكرة
الكلمة الطيبة
القومية والعقيدة
في طريق الوحدة
أساس الوحدة في الاسلام
عام في تاريخ الوحدة
الوحدة طريق النصر
يد الله مع الجماعة
وقاحة التفرقة

